



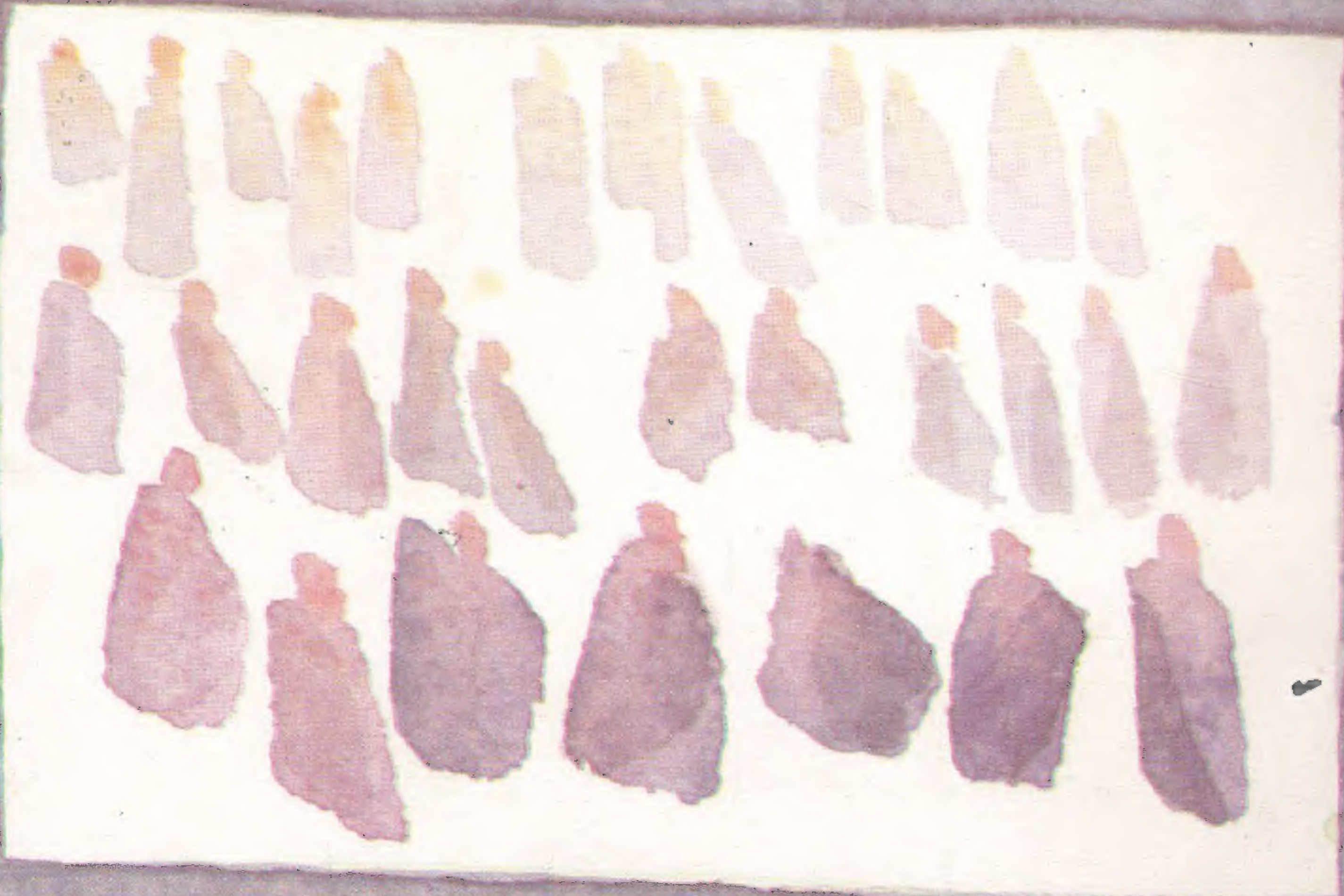
رباعية كفر عسكر

الناصري كفر عسكر

حكاية شوق

الجزء الأول والثاني

أحمد الشيخ



المجلس
الأعلى
للثقافة

الرمز الكائن
١٥٦٨



المشرف العام: د. أحمد مجاهد

سكرتير التحرير الفني: مكرم شحاته

رباعية كفر عسكر
الناس في كفر عسكر
حكاية سوق (الجزء الأول)
أحمد الشيخ

الطبعة الأولى، ٢٠٠٢

المجلس الأعلى للثقافة

١ شارع الجبلالية، دار الأوبرا، القاهرة

الرقم البريدي: ١١٢١١

تليفون: ٧٣٥٢٣٩٦

فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

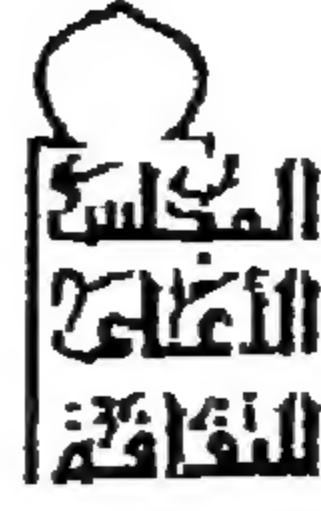
بريد إلكتروني:

egypt council @ yahoo. com

رقم الإيداع: ٢٤٩٢ / ٢٠٠٢

تصميم الغلاف للفنان

عدلى رزق الله



إبداعات التفرغ

[١٠]

رباعية كفر عسكر

الناشر في كفر عسكر

حكاية شوق

الجزء الأول والثاني

أحمد الشيخ

إهداء

لمصر المستقبل

والناس

ولروح أمى الراقدة فى مدفن ضيق وسط
مدافن قرية فى أحضان الدلتا، نمشى له
مسافة فى الأرض المزروعة، ونفكر فى
الموت، نقرأ لها الفاتحة ونشكو لروحها
همومنا والزمن الصعب، نرتاح، نتجدد،
ويزيد فى قلوبنا الإيمان، نفكر فى المستقبل،
ونصدق نيتشه وكلامه عن العود الأبدى،
ونصدق أوراق البردى.. ونصوص
الأهرامات، نتأكد أن بلدنا قديمة وخالدة،
موجودة وحاضرة وصاحبة فى عيون
الناس.

«المؤلف»

رباعية كفر عسكر

[١]

الناس في كفر عسكر

«أولاد عوف»

حسن عسوف

١٨٩٨ - ١٩٧١

ركب دماغه ولم يطاوعنى فراح
منى وخلف لى فى القلب حصره

وكان القمر بدرا... لبدنا أنا وعبد الحميد خلف الباب الكبير... كتمنا أنفاسنا ونحن نتسمع صوته المعهود... كنت خائفا والشومة فى يدي وفى بالى أنه لن يفلت هذه المرة... ضغط عبد الحميد على كتفى وكأنه ينبهنى أو يشجعنى... سمعت خطواته الجسور ترج الأرض فى عنفوان وجلبة وكأنه فحل جاموس... كتمت أنفاسى فلم أعد أسمع غير نحنحاته تشرخ صمت الليل وفراغ الدار... عند الباب الموارب تحسست بالأذنين أنفاسه المطمئنة تعبر العتبة... تلقفه عبد الحميد فى صدره وأحاطه بذراعيه... عبد الحميد كان عفيا... ارتبكت أنفاسه لوهله قبل أن يتساعل مداريا رعبه بشيء من الاستهانة والكبر.

- مين؟

«سوف ترى» قلتها لنفسى وأنا ألمحه رغم العتمة من خلال انعكاس ضوء الشعاع القمري الذى يرسم خطا مائلا عبر عتبة الباب الموارب ويغطى طرف جلبابه أيضا... لانت الشومة فى يدي وكادت أن تفلت وطرف الجلباب يقاوم... ارتبكت لحظة وأنا أواجه ما كنت أتخيله وأتمناه... عتل عبد الحميد تحت ثقل المقاومة فحركت الشومة لأحميه وهويت بها على سلسلة ظهره... صرخ فى زعر المأخوذ هذه المرة وهو يجاهد أن يبدو صوته مطمئنا واثقا.

- مين؟

«ما أهمية أن تعرف؟» ناولته الأخرى والتي تلتها... لم ينطق بكلمة وكأنه يكيدنى ويؤكد بالصمت ضعفى... طنت فى أذنى رغم سكونه أصداء كلماته التي يعايرنى بها ويذلنى «يا أصفر يا أبو عله» طوحت الشومة وأتيت بها من خلف ظهرى كما كان يفعل ونزلت بها على دماغه، أن فى استكانة وسقط الشموخ المقيت... مرة أخرى طوحت الشومة ونزلت بها على الدماغ ثم الكتف جعر فى خفوت مخز لأنه قالها:

- جاى.

«قلها يا رجل.. قلها مرة أخرى» للمرة الأولى أسمعها منه وكأنه موال
مقهور بعد ألف غنوة فوز.. فرحت ونزلت الخطبة التالية بعزم أشد.. استغاث هذه
المرة وكان الضربة مزقت عن وجهه برقع الحياء..
- روحولى يا خلق البلد.

«مازلت تغنى يا رجل؟» أيقنت من هزيمته وأحسست بالغىظ لأن صوته ظل
واعيا « ولما سقط شمروحك فوق دماغ الرجل سقط من طوله ولم يقم أبدا...
فقيم العويل؟ استجمعت قواى ونزلت بضربة مغلولة فصرخ عبد الحميد.. انزاح
شئء بقوة وارتدى فوق الأرض ودفعتنى يد ناحية الباب... كانت أنفاس عبد
الحميد تقترب منى... بدأت الرمح... كان عبد الحميد خلفى يرمح أيضا... كنت
خفيفا وكان ثقيلًا... طالنى عند الكوبرى... توقفت لاهثا من التعب فلطشنى بالكف
فوق صدغى فعرفت ما جرى... كان يمسك رأسه بيده الخالية... همس متماسكا:
- بطحتنى يا أعمى يا ابن الكلب.

وسرنا... سألت عبد الحميد عارفا جواب السؤال إن كان الرجل قد مات...
مط بوزة ولم يتكلم... تحسس رأسه ودفعنى من ذراعى وسرنا فى اتجاه البندر...
الصمت بيننا كان معجونا بالرهبة والشعاع القمري يفضح الخطوات المتسللة
«ملعون أبوك يا قمر».. أحسست بالتعب والرغبة فى القعود أو حتى الارتماغ
على الأرض راضيا بما يجرى لى حتى لو جاء الرجل وذبحنى دون أن أراه.. قلت
أزحزح الخوف والرهبة:
- أنا تعب.

شدنى عبد الحميد من كوعى وظل ساكتا يفكر.. رأيت الدم ينزف فى بطء
متلصصا تحت طاقيته ويشق لنفسه طريقا ضيقا متحاشيا برون أنفه. أخرجت
منديلى وجففت خط الدم وعبد الحميد ساكت.. ربطت رأسه بالمنديل وغطيته
بالطاقة.. سألته:

- الخطبة بتوقع يا عبد الحميد؟

لكنه لم يرد

- عمره قالها المفترى؟

لم يتكلم... كان الدم ينشع من خلال المنديل إلى الجبهة... غسلت منديله
فى بحر الساحل ومسحت الدم... لم يكن عندى ما يقال أو كان عندى الكثير
فاحتريت عن أى الأمور أتكلم فكان صمت، إلا وقع خطواتنا على أرض السكة
الزراعية.. رحت أسترجع صوت صراخه المستغيث وأحس نوعا من النشوة غير
المكتملة.. احتريت كيف أجره للكلام.. قلت:
- خلى برهومة ينفعه.

سكت أيضا فأحسست بالخيبة. قلت لنفسي يكتب الأرض لبرهومة ونطلع من
المولد بلا حمص، الخنزير، همس عبد الحميد بحلقه.. حسبته يرغب فى الكلام
سألته بسرعة:

- حرام ولا حلال؟
قال وكأنه يسد حلقى بالكلمة:
- اخرس
أنا خائف يرمح ورائنا.

قلتها دون وعى... كان مرسوما فى دماغى بعوده المفرد الفحل ونظره
الحادة المهيبة وصوته القاطع الغليظ وشمروخه الذى أخافنى كلما رأيته فى
قبضته وكأنه سوف يخبطنى به فوق أم رأسى، ورغم أنه كان ينزل فوق رعوس
أخرى فى المعركة فيسحقها وأنه قالها لى مرة وهو ينظر إلى بعينين سائتتين
وكانه يمنحنى هدية العمر فى لحظة قيلولة صافية.. «ولما أكون زعلان
والشمروخ فى إيدى ياوله أتاوى من قصاى» لكننى كنت أحس أحيانا أن
شمروخه سقط بالفعل فوق دماغى ربما أكثر من مرة.. سقط فوقى لا أدري أين
ولا متى، لكنه بالقطع طالنى مرة.. لا أشك فى أنه طالنى به مرة.. وكان حتم أن
أرتعش لما أراه.. أما كيف ومتى سقط فوق دماغى، لا أعرف بالقطع.

همهم عبد الحميد بكلمة فحسبته بإحادثنى بعد طول صمته... قلت مستفسرا
فى لهفة غريق لنسمة هواء:

- بتقول إيه؟

- اخرس.

وخرست... كنت أخشاه لما يغضب... أبى نفسه كان يعمل حسابه لما

يغضب.. خوفاً منه كان ممزوجاً بالحب والإعزاز... كان شهما وحليماً أما أبى فكان غشياً وتصعب معاشرته، لو طالنا لدفنا أحياء وعاد إلى الكفر بعد أن يغسل يديه من دمنا إذا عصيناه ويرجع لمبروكة يفرحها بخبرنا وكأنه فتح عكا... أحسست بمغص فى بطنى وأنا أتصوره يرمح فى أثرنا ويطولنا قلت فى محاولة للهرب من الفكرة التى حومت حولى وعشت فى دماغى وكأننى أستجير:

- كان بيستجير زى الحرمة... مش كده؟

- اسكت.

وسكت مرة أخرى ولم يعد غير صوت خطواتنا يتردد دويماً مرتبكا... قلت لنفسى لأطمئن: «خبطة واحدة فتحت دماغ عبد الحميد وجعلته كالدائح»... «وبدأت أحصى الضربات التى أصابته... لا شك أننى أصبحت رجلاً مادمت قد جعلته يستجير» نظرت إلى وجه عبد الحميد... كان خيط الدم قد بان هذه المرة أكثر اتساعاً... شطفت المنديل فى المصرف ومسحت الدم وسرنا... كان وجه عبد الحميد غائبا فى أمور لا أعرفها...

- انت زعلان منى؟

سألته فكف عن المشى ورفع يده وحط راحته على كتفى ونظر إلى... حاولت أن أفهم ما يرغب قوله فلم أفجح... هز دماغه الجريح وزام يأساً من إقهامى بالنظرة شيئاً.. كانت بيوت البندر قد بانّت من بعيد نقاط ضوء بعيدة شاحبة لكنها توحى بالونس وتبسط على القلب المغلوب بقية الطريق الساكت غير المطروق... قلت لنفسى أنه قد هان الأمر وأن الفرار أصبح ميسوراً ولو إلى حين، غير أننى كنت أجهل ما سوف تأتى به الأيام.

* * *

لم يبق شىء... العود الذى انحنى والوحدة... والنظر الكليل والوحدة... العرى والوحدة... وصمت الأيام المرة والمشوار الممدود بطول العمر... خالياً إلا من وهج وحيد خبا وخلف العتمة... والجرح الغويط وفراغ اليد وبقيّة اعتزاز يجعلنى أتأبى على الطلب «قال عطية: صالح ابنك فخذ منه بالمعروف أو بحكم المحكمة» قلت أبداً... صالح وقف أمامى فى المحكمة مرة... ظل يرقبنى كأنه يقيسنى وقالها: انت فتنى وهربت... والقاضى لما سألته كان يكذب: اشتريت

ودفعت فضحكى فى سرى... كنت عارفا أن العقد باطل والختم مسروق، وسيد
راح وخلف فى القلب حسرة... وحتى لو زحفت إلى عتبات الموت بمركبة الجوع
لن أفعل... والولد الصغير جاء حاملا وجه سيد فجعلنى أبكى... قلت له يستحيل
أرجع... وسيد راح فى شربة ماء... قلت له ألف مرة: كن فى حالك والتفت
لمصالحك فلم يطاوعنى... ركب دماغه وظل يذهب... وفى المرة الأخيرة كان
يضحك... ويحدثنى عن صحتى قائلا إنها أحسن. ولما قلت له حسن الختام قال:
أبدا... وعاود الضحك قائلا: ستعيش بعدى، وانقبض قلبى ساعتها ولم أضحك...
كنت فى كل مرة أعتبرها نكته لكننى هذه المرة لم أستطع وساد وجوم قطعه سيد
بابتسامة قائلا: حتى لو مت قبلك خذها ببساطة ولم أشاركه الضحك... جعلت
أمتص دخان الجوزة متفكرا كيف يحلو له ذلك الهذر العجيب... وحدثته عن
الأيام التى فاتت.. عن رغبتي فى أن أراه مرتاحا... حدثته عن أملى فى أن يختار
لنفسه بنتا ويخلف أولادا ولو عشت أفرح، ولو مت أكون مطمئنا... واستمر أياما
ثلاثة قبل أن يحمل حقيبته ويضع كفه فوق كتفى ويسألنى إن كنت محتاجا لشيء
فأهز الدماغ نفيا... ويضحك بالعينين والشفقتين وكل التقاطيع والأنفاس... يتحول
إلى ضحكة فأعرف أنه ينوى على قول شيء يعرف أنه لا يرضينى... قال:
مسافر، سألته: مصر؟ قال: الكفر... وكنت غاضبا لكنه نظر إلى فى شبه لوم
رقيق لأننى مازلت أعترض... وقلت له: مع السلامة... ومشى... كان القلب
مهموما ومحزونا وكأنه يفارقنى للمرة الأولى... وفى الليل لم أنم وحاصرني قلق
مبهم وسألت روحى عن السر فلم أعرف ولما نمت قرب الفجر رأيته فى المنام.
من دمي وكدى علمتك يا سيد وجعلتك محترما عنهم... قلت لك يا سيد كل ما كان
وجرى... عن شوق كنت أحكى لما تسأل... وكانت هى السبب فى الأول وفى
الآخر... وأنا من يومها لم أعرف الراحة ولا أنت عرفتتها... ودخت فى البلاد
قبلك وبعدهك... سواح فى بلاد الخلق سعيا وراء اللقمة ورغبة الخروج بك من
الدنيا... وكنت أخشى أن تصادف ما صادفته أنا فبعت الدنيا والدين واشتريتك
وعلمتك... قلنا تروح المدارس حتى لو استغنيانا عن الرغيف والهدمة... ولما
كبرت قلت لروحي هانت ووصلنا بر الأمان... وتروح هكذا فطيسا وتتركنى

لأمواج الأيام السود تهد ما تبقى من جهدى... تدوخنى دواماتها قبل أن أخلص من شماته العيون فيك.

وركبنا القطار أنا وعبد الحميد... كانت السكة طويلة... قال عبد الحميد الذى كان دماغه مربوطا بشاش أبيض إنه يعرف عنوان الشيخ سعد عوف فى الغورية... كنت أطل من شباك القطار فرحان وأقول لنفسى إنه هناك خلف هذه السحايات المتركمة مكان نظيف ومشرق اسمه «مصر» وأرغب فى الوصول إليها بسرعة... عبد الحميد كان مهتما بجرحه يتحسسه من آن لآخر وكأنه يذكرنى بغلطتى... والشوارع كانت نظيفة عن شوارع المركز والناس منهم أفندية يضعون الطرابيش فوق الرءوس دون مناديل كما يفعل الخواجة «بولس» الصراف لما يأتى، ومنهم أولاد يلبسون الجلابيب المقلمة ولها ياقات وشفت الإنجليز لأول مرة بوجوههم الحمراء وبناطيلهم القصيرة والبنادق على أكتافهم أو فى أيديهم... والبيوت كانت عالية... وفرحت لأننى سأعيش فيها... مصر أم الدنيا «قالوها فى الكفر واشتقت لرؤيتها واكتفيت بسماع ما يقال عنها... مصر...» ورأيت الشيخ سعد... وقال لعبد الحميد إننى أصبحت رجلا فضحك... وراح عبد الحميد مع الشيخ سعد وجاور الأزهر بعد أيام، وأنا أخذنى الشيخ سعد إلى بيت كبير له بوابة حديدية وقالوا لى: اقعد هنا على الدكة واحرس الباب ولما يدخل غريب أسأله عن السبب... وعرفت الست الكبيرة وبنتها نهاد وشافنى الرجل الكبير وكلهم لهم وجوه حمراء كأنهم إنجليز... وألبسونى قفطانا أبيض وطرבוشا وحزمونى بحزام أحمر... وعرفت الأسطى محمد الطباخ بوجهه الشديد السمرة وكأنه عبد حبشى والدكة كانت توجع مؤخرتى لما يطول القعاد فأقوم وأتمشى عند السور... وأظل أنتظر من يأتى ليدخل لكن الدار كانت لا تهم الناس فلا يرغبون فى الدخول، وقلت إنه لو حدث وتركت الدكة يوما فلن يدخلها نفر... واكتفيت بالنظر للناس وأحيانا تسألنى نهاد إن كان أحدهم سأل عنها فأقول لها: - أبدا...

وكانت بنتا ظريفة وحلوة وجهها كاللين الحليب وصوتها ناعم... وزهيرة كانت تخدمهم وتشتري الأشياء من السوق وتقف تحكى عن البك الكبير والست الكبيرة وتقول إنهم «تراكوه» وأسألها كيف فتضحك وتدخل، ولما غابت زهيرة جاء عم محمد وأخذنى وعرفنى مكان السوق وجعلنى أشتري الطلبات... اللحم

والدجاج والسّمك والخضر والفواكه... وقال خذ صينية الأكواب النظيفة ودر بالماء حول السفرة وانتظر من يطلب ففعلت «ملعون أبوك يا أبى... جعلتني أخدم على آخر الزمان» وعلى رأى المثل... أيام تيجى على ولاد الأصول تتدل... قالها واحد من أهل الكفر لا أذكره لو كنت يا ولد ظللت حافظا للقرآن مثل عبد الحميد لجاورت الأزهر مثله ووضعت على رأسك بدل الطربوش عمامة وهان الأمر...

وجاء الشيخ سعد مرة ووجدته أمامى ونادانى وكلمنى عن وصول أبى من الكفر فسقط طبق الصينى من يدى على السجادة فعاصها وصرخت الست الكبيرة وشتمتنى والشيخ سعد واقف وهو ساكت قالت لى: فلاح خسيس... وأنا احتقن دمي ورميت الطربوش ناحيتها وقلت: أنت الخسيصة وكل صنفك... وراحت تقفز كالملدوغة وتلعننى بكلام غير مفهوم... وأنا خارج كنت أشتمها بدورى والشيخ سعد يحاول تهدئتى وأنا أرد على كل كلمة تقولها... وذهبت مع الشيخ سعد إلى عبد الحميد فى الأزهر وقلنا لعبد الحميد فقام وأخذنى معه وجعلنا نمشى حتى وصل إلى بيت زميل للشيخ سعد بتنا عنده حتى سافر الرجل وجاء إلينا الشيخ سعد وتركنا الشيخ سعد وخرج.

عبد الحميد جاور فى الأزهر وأنا ظللت مدة بلا عمل والشيخ سعد اشتكى مما فعلته مع الست التى شتمتنى فى حضوره... وكنت أنتظر عبد الحميد كل يوم حتى صلاة العشاء لما يأتى... ومرة وأنا أتسكع فى شارع الأزهر طلب منى أحد الأفندية أن أحمل عنه حقيبته الكبيرة لقاء أجره فترددت أولا ثم طاوعته وحملتها على كتفى حتى بوابة الحديد وأخذت منه ما أعطانى وعدت من نفس السكة ولما قلت لعبد الحميد تنهد فى حسرة وقال لى: إياك تعملها مرة ثانية وأنا قلت لنفسى إنه يحرم نفسه من نصف الجراية ويعطينى لآكل ويضعف... وقلت أشتغل أى شغلانة وأكسب قوتى... وعرض على ولد تأجير عربة ومشاركته فى نقل الخشب من الشادر حتى دكاكين النجارين والورش وقلت له: كيف فعرفنى ومشاركته... ولما عرف عبد الحميد بعد أيام قال وكأنه يحدث نفسه: شدة وتزول... وبعد أيام وجد لى شغلانة فى محل عطارة عند الحسين وكانت مريحة... وجاء إلينا عسكري وطلبنا فى قسم الدرب الأحمر فذهبنا معه ودخلنا عند الضابط فسالنا عن اسمينا فقلنا له وقال لنا إن أبانا قدم شكوى ضدنا يطلب منا نفقة لأنه معدم فنظر

إلى عبد الحميد واستغرب وقال للضابط إن هذا الكلام باطل وأنه متيسر الحال
وأنا تركناه منذ عام واحد فظل يطاردنا لنعود إلى الكفر وهو يمتلك أرضاً، لكنه
كتبها لأخ لنا صغير وأنه طلق أمنا وتزوج امرأة عمى الميت ووضع يده على
أرضه أيضاً، وأنا قلت له (كتب كل الأرض لابنها وجعلنا نشقى مثل التملية
فهربنا... ونظر إلى الضابط مرتاباً وطلب منا العودة بعد يومين ليتحقق بنفسه من
صحة المسألة... ولما عدت إليه وحدي قال لي روحوا وشوفوا شغلكم فأبوكم
كذاب وربنا يساعدكم وأنا حفظت الشكوى... وخرجت وقلت لعبد الحميد لكنه كان
مشغولاً بشيء لا أعرفه فلم أعاد الحديث في الأمر أبداً... وسمعت أن الإنجليز
حبسوا سعد زغلول فتظاهر الناس... كل يوم أراهم يتظاهرون والبوليس يطاردهم
 ويفرقهم... وفات الناس على دكان العطاره يهتفون «يحييا سعد... يحييا سعد»
وبعد ساعة قالوا إن الإنجليز ضربوا المجاورين بالنار عند باب الأزهر فرحت
أتفرج فوجدت الإنجليز يطاردون الناس والميدان خالياً تقريبا وسرت في أول
شارع الأزهر فوجدت عبد الحميد مرمياً والدم ينزف من جنبه وأسرعت ناحيته
فمنعوني لكنني نفذت إليه وأنا أنادي عليه فضربني أحدهم بمؤخرة البندقية في
رأسي وداس بنعل حذائه فوقى... وكنت فوق صدر عبد الحميد الجريح وهو يتألم
ويكتم الدم براحة يده والدم يغطيها واستمر الإنجليز يضربني وأتالم ولا أفكر في
ترك عبد الحميد ولو مت... وتساند عبد الحميد على كوعه وأمسك بيده الخالية
كوع الإنجليزى وشده بقوة فوقع على الأرض وجاء آخر وضرب عبد الحميد
برصاصة في دماغه فارتدى على الأرض رمية الموت وعيناه تحمقان في اتجاه
السماء والدم ينزف في سرعة ويغطي الوجه ويتسلل عبر العنق إلى الأرض
ويصل إلى الصدر والناس تجرى من حولنا وأنا أصرخ وأصرخ وعبد الحميد
ساكت سكتة العجز... والإنجليزى الأول قام ونفض قميصه وظل يضربني بمؤخرة
البندقية فوق ظهري ورقبتى ورأسي وأنا مستميت فوق صدر عبد الحميد لا أود
أن أصدق وأتمنى لو كان ما أراه مجرد كابوس طويل ينتهى بطلوع النهار. وكنت
أتوجع من الألم وأحتضن أخى الذى كف عن التنفس وسكن تماماً وكان الناس
يهتفون في الشارع ولكن في خفوت وكنت أسمع أصواتهم المطرودة تصرخ «يحييا
سعد عاشت مصر» ولم أستطع النطق.. لو كنت نطقت لقلت شيئاً..

وبعد مدة تركوا الميدان وجاء بعض المجاورين وحملوه مع آخر ودخلوا

الجامع وهم يهتفون أيضا.. وخرجوا بعد الصلاة بعبد الحميد وزميله وكان الشيخ سعد ممسكا بي من ذراعى وهو يهذى بكلام كثير (ربنا على الظالم.. العدل يا عادل.. يا منتقم يا قوى يا الله) وساروا بعبد الحميد محمولا بدمه لم يجف وأنا خلفهم وهم يكبرون ويقرأون الفاتحة بصوت كدوى النحل.. وهم يجهزون له للدفن أبعادوني عنه.. ودموع الناس فى عيونهم كانت تجعلهم أشباحا بلا تقاطيع مميزة.. وثوبى الغارق فى الدم يجف ولم أكن أعرف دمي من دم عبد الحميد. كان الدم مزيجا مخلوطا.. ودفنوا عبد الحميد فى الدراسة وبنت ليلتها وحيدا فى حالى والغم راكز على قلبى.

وخبرك يا سيد نزل على هم موت لا يحتمل بعد أن نفذ السهم.. وكان صعبا على أن أصدق، صالح بعث الخبر. «احضر لوفاة سيد»... ولا أدري متى ولا كيف وصلت الكفر... أخذونى من يدي وسندونى وقالوا كلاما كثيرا لم أسمعه... كنت أسأل عنك وكأنك فى دار أيهم تطلبنى وكأننى واثق أنك سوف ترد على ما أسألك عنه... وقالوا دفناه العصر وأنا لم أصدق قلت لهم هاتوه لكنهم مصمصوا الشفاه حسرة أو سخرية أو شماتة... قلت لهم هاتوه فسكتوا ورحت أسعى بكل طاقتى ناحية المدافن... مدافن جماعة عوف حيث يرقد جدى الكبير وجد جدى وأبى وبرهومة وأعمامى... وقلت للرماد الذى حطوك فوقه أن يكون رفيقا بك... أن يحنو عليك... أن يكون لك الأب والأم والإخوة والأخوات والصحاب... أن ينير ما حولك بحق جدنا الحسين... والبعض وقف جوارى مهونا على أمرا لا يهون «البقية فى حياتك» حياتى أنا التى لها بقية؟ «شد حيلك» أنهد الحيل وانقضى الأمر... «ربنا يعوض عليك» بماذا؟ بمن؟ «حسك فى الدنيا» خافت وهزىل وغير مسموع. «فيك البركة» الخراب والوحدة وبركة اليأس والضياع والحسرة... وصالح كان واقفا قصادى... يبكى؟ «هل هزك الخبر يا صالح أم أنها الأصول تؤديها أمام الناس حتى ينفذ السامر... والتقاطيع المهمومة بفعل ماذا يا صالح؟ هل تعاركت مع أحد وجئت تشيع سيد بهذا الوجه الغاضب... «والدمعة الغريبة فى عينيه تذكرنى بدمعة أبى يوم راح عبد الحميد... «لم أفهم جماعة الحاج عوف أبدا... الرجال الفحول القساء الملامح ييكون أحيانا» قلت لصالح الذى اقترب منى: سيد مات فاستدار وابتعد «ابتعدت ضيقا منى أم لتخفى انهزامك عنى...؟»

ومجموعة الصبية الصغار يلتفون حولى ويقولون كل بدوره فى حماس حزين كلنا

أولادك يا عم حسن... سيد كان أخانا الكبير «وكان حبيبى وأخى وأبى ودنياى وولدى... وحده يا أولادى كان يساوى الدنيا فلما راح لم تعد هناك دنيا»...

«قلت لى يا سيد فى الليلة الأخيرة إنك تبحث فى الكفر عن شىء تحبه وأنا لم أفهم ولن أفهم سوى أنك ضعت من يدى ولن يعود صوتك المطمئن النبرات الواثق... ولن أرى وجهك الباسم حتى فى لحظات الضيق... بسملة الاطمئنان إلى شىء كبير فوق طاقة التصور... شىء غير مفهوم يجعلك مرتاحاً إليه فيرتاح الوجه والتقاطيع رغم غلاف الهم... شىء تحت الجلد يتوهج مهما غطته الأحزان، ليس هو الأمل فى الدنيا وحده ولا الحلم والتمنى ولا حتى انتظار الفرج... أبدا لم تكلمنى عما يجعلك هكذا... ترى كنت تعشق؟... وكيف فاتنى أن أسألك عنها... «قال صالح: نرتاح فى الدار»... «راحتى فى الموت» قلت: أسافر... سكت وهمس: أوصلك... قلت: وحدى... سرت وحدى... خرجت من الكفر بليل... لم أركب للبندر... سرت فى نفس الطريق القديم الذى عبرناه أنا وعبد الحميد فى بدايات العمر الشاب.. وأنت كنت كائنا لم يتخلق بعد.. كنت يومها أقول لنفسى لن أعود إلى الكفر أبدا.. اليوم أقول لنفسى حتما سأعود.. من أجلك يا سيد وليس من أجل صالح. أنت فعلتها يا سيد بالموت لما عجزت عن فعلها بالحياة.. حققت مرامك ونفذت رأيك.. سوف أداوم على المجيء إلى الكفر لترانى ولا أراك.. من أجل ما كنت تأتى من أجله سوف آتى، لو عرفت لماذا أو لمن على وجه التحديد كانت تتحرك نواياك وتأتى.. لصالح؟ صالح يا سيد؟ أهو صالح؟ ربما كانت شوق؟ هل هى شوق تلك التى جعلتك تعارضنى بهذه الحدة.. وتصر على المجيء بعلمى وغير علمى.. هل هم مجموعة التلاميذ الصغار المتحمسين والذين ترتسم على وجوههم أحزان الرجال الكبار» ولم يكن هناك بدر.. كانت عتمة وسكوت مقبض.. «نارك يا سيد لا تبرد.. لو مت تبرد.. ربما فى عتمة القبر ورطوبة أرضه تنطفئ النار أو تبرد.. لو امتزج بدنى بتراب بدنك يهدأ.. نارك لن تبرد.. نار عبد الحميد بردت.. ما عشت لأسمع أنك انتهيت.. نار عبد الحميد ظلت فى نفسى قطعة تتوهج من آن لآخر.. ولما عشت معى بردت من حرارة الصهد القديم وقلت لنفسى هو أخوك وعوضك عن عبد الحميد.. لكن أن تضيع.. تضيع حقاً.. كابوس ثقيل يكتم الأنفاس ويدوخ الدماغ أم هى حقيقة؟.

هكذا يا سيد ظلت تذهب إلى الكفر لتداوى جرحا قديما حتى تحولت أنت

نفسك إلى جرح فسيح يصعب لملمته.. جرح بطولك وعرضك يتمدد في قبر معتم ويلتف في رأسى ويصرخ في كفته الأخضر.. يظل ينبج ما عشت من أيام.. «يا رب.. هل تأتى به وتصوره على ما كانه.. إشراقة العينين وصدق اللسان وتسكته» ولكل أجل كتاب.. وكتابك يا سيد جاء أجله.. لماذا يا رب بعثته لتكوينى بناره؟.. لم أطلبه منك لتمنحه ثم تحجبه..؟ كان لا يرضينى لو تحكم الشيطان فى سيد.. كنت ألومه.. ألعنه، وأنا أعرف مدى ضلاله وقسوته كنت ألعنه ولا أخشاه.. أما أنت يا رب، أنا ذاهب إلى نار جهنم راضيا ما دمت لا أَرْضى.. هل هو الكفر والضلال ألا نستسلم لموت من نحب؟ أنا لن أَرْضى أو أسامح.. هل تسمعينى يا عتمة الأيام السود.. لن أسامح.. وأنا حر قلن أسامح.. النار المحمية أهون من نار القلب المجروح بنار الابن.

* * *

وانشقت عنه الأرض فانتصب قبالتى كأنه زرع شيطانى جاء بعد فوات الأوان.. شمروخه منصوب بجانبه بنفس طوله وغضب الوجه القادر لحظة الظفر.. كان الشيخ سعد فى الجامع وكنت وحدى.. حاولت الفرار لكنه ركن الشمروخ إلى الجدار وظل واقفا عند الباب يسده.. كان وجهه الغاضب ينضح غلا.. «عبد الحميد راح فى لمح البصر يا رجل فماذا تريد منى؟» أيقنت أننى انتهيت وخطواته تزحف نحوى وتنقله فأراه يتضخم «ما زلت عاجزا عن فهمك يا رجل.. وهذا الذى يلمع فى عينيك؟ هل عرفت ما جرى أم جئت تقتل؟» تأكدت من أن ما أراه فى عينيه قطرات دمع غريب على التقاطيع الصارمة التى لم تهتز مرة.. نسيت خوفى وهو يضع راحته فوق كتفى أولا قبل أن يأخذنى فى صدره «هى المرة الأولى يا رجل.. كنت تنتظر موت عبد الحميد ليحن على قلبك؟» قال بصوت متوتر غير متآلف النبرات:

- عبد الحميد راح فىن يا حسن؟

بكيت.. كان صوته مشروخا ومهموما، لم يكن يسأل.. كان ينعى.. كنت فى صدره وأحسه.. يجاهد أن يصلب طوله.. دفنت وجهى فى صدره فكان يتنهد حسرة ويضغط رأسى نحوه وكأنه يربطنى إليه بعنف الخائف.. كنت مغموما وكان عبد الحميد يموت فى هذه اللحظة.. رأيت يجفف الدمع براحتة خلصة ولكنه يفشل

فى التحدى.. قال بصوت ممزق جاهد كثيرا فى لملته:
- بطل عياط يا حسن.. هى الرجالة بتعطى؟

قالها ونهته كبت بكر مضروبة.. «ليلة سوداء.. فات شهر وأنا كدت
أنسى، الليلة ندفن عبد الحميد سويا مرة أخرى فتمالك نفسك» سألنى عما حدث
فاحترق قلبى، ربما عبد الحميد وربما جرح رأسى ربما دموعه وانهمام قلبه..
كان الجرح فى الرأس ينبج والرجل يخبو وعبد الحميد يذوى وأنا أستذكر ما جرى
وكأنه يجرى.. قعدنا نتباكى.. نستعيد عبد الحميد وكأنه غاب وسوف يأتى فى
الصبح يحكى.. «الآن عرفت أنه كان زينة الشباب بعد أن داس الغرباء فوق دمه
بالنعال النجسة؟. وأنت هناك تنصب طفل مبروكة هيكلًا معبودًا تمنحه الحنان
والرعاية وتكتب له الأرض ولا تؤخر له طلبًا؟ وكان شهما؟.. أعرف.. وأنت
كنت تعرف لكك بعته معى واشتريت مبروكة وجئت اليوم تندب؟» سألنى عن
أحوالى فلم أنطق.. سكت أيضا.. جاء الشيخ سعد فسلم وجلس وراح يحكى بدوره
عن الإنجليز والمظاهرات وحماس عبد الحميد وأبى ساكت.. «راحت نخوتك
وجبروتك يا سيد الرجال؟ ما عدت تجسر على السؤال عن قاتل ابنك؟ وأنا الذى
حسبتك مستعدًا لمعاركة ذباب وجهك وتقتل من يحك لك على منخارك؟ جئتنا
تعزى بالدموع كالحرمة؟» قال أبى وهو يلتفت ناحيتى:

- الفجر شقشق.. قوم نروح.

وقام.. أمسك شمروخه.. حيرنى اليقين فى كلماته.. «واثق أنت من نفسك
معى كأننى بين يديك لعبة؟» كان وجه الإنجليزى الذى قتل عبد الحميد حاضرا فى
دماغى وأبى يقول ما يقول وكأنه أمر لا يرد.. «دعنى أحاول على الأقل ما دمت
تعجز» فكرت فى الفرار من الرجل قلت له إننى لا أريد السفر بسبب أمر يهمنى
فعله فلم يهتم.. سأل الشيخ سعد عن أشياءى ولمها بنفسه وحطها فى سبت
وأخذنى من يدى كما كان يفعل منذ سنوات.. ولما حاولت الإفلات أسكتنى بنظرة
حازمة فحملت السبت عنه وخرجت من الحجرة.. ودعت الشيخ سعد قائلا له -
ارجع، حاسبا أنه فى الإمكان أن أرجع.. سرت صامتا بجواره.. ركبنا قطارا
مزدحما.. نظرت من النافذة وفكرت فى القفز منها فأغلقها أبى.. ولما سار القطار
فتحها وسهم لحظة يفكر.. فكرت فى أن أرمى روحى وأخلص.. نظر إلى وقام

يقفل النافذة وقال فى مرارة.. مرارة فى الحلق تحملها النبرات وترشها على سمعى:

- ما عادلىش غيرك يا حسن.. كفاية اللي كان.. برهومة لسه عيل
ماوقش على حيله يا بنى.. اللي انكسر يتصلح.

نظرت إلى خطوط الهم المحفورة فى تقاطيع الرجل فهالنى أنها غاصت
وغاصت فى اللحم ونفذت إلى داخل التقاطيع.. «غريبة عليك الهموم.. غريبة»
أحببته أو صعب على حاله.. وددت لو أننى ارتميت فى حضنه أواسيه وأبكى من
أجله تماسكت وسرعان ما عدت أكرهه بنفس الحدة القديمة ولا أعرف لذلك سببا.

* * *

وسيد لما قلت له عما جرى لعبد الحميد ظل يسألنى عن كل التفاصيل
فأحكى.. قال كلاما لم أسمعُه أبدا «فى الكفر قالوا: ربنا اختاره.. قسمته.. ولكل
أجل كتاب. وأشياء أخرى تجعل اللهيب يخبو.. أما أنت يا سيد فقد جعلته يتأجج»
قال سيد: ضحى من أجل بلده.. أحسست الزهو والرغبة فى الفخر بما كان.. قال
سيد: أخذت بثأره.. «أبدا يا سيد.. ما قال لى أحدهم هذا.. أخفيت الأمر وكأنه
عورة.. لم أفتح قلبى فى هذا الموضوع لغيرك بعد إسماعيل.. يا حسرتى على
الأيام التى عشتها مرعوبا وخائفا أتخفى.. لو كنت أعرف ما عرفته اليوم ما كنت
كففت عن الفعل والحركة» ولأول مرة أحس معنى البلد والدفاع والحماس بعد أن
شباب العمر والقلب أيضا.. «أنت جئت يا سيد تعرفنى بما كنت أجهله.. صحيح
كنت أعرف أنهم جاعوا من بلادهم وعاشوا هنا يأكلون خبزنا.. لكننى كنت
أحسبهم كجماعة شلبي.. ما كنت أعرف كل ما تقوله يا سيد. أن قتلهم رجولة
وأن دم عبد الحميد لم يضيع أبدا.. لو عاد الزمن.. هل يعود؟.. لو عاد وجعلنى
أرى قاتلك.. من قاتلك؟ عبد الحميد قتله عسكرى إنجليزى عند الأزهر.. وأنت
قتلوك فى سكة كفر عسكر.. لو كان الإنجليز هنا لقلت إنهم فعلوها لكنهم خرجوا
وأنت كنت تمشى وحيدا فى ليل أسود لا تهتف لأحد وربما لا ترى على الإطلاق
وجه قاتلك.. ربما رأيته وتعرفه ولكنك لم تبج باسمه.. أنا لا أعرفه يا سيد ولا
أحد قال إنه يعرفه.. عزيزة عليك كانت بلدنا.. عزيزة عليك كانت.. من يحبها
مثلك.. غضبتى الوحيدة عليك غفرتها.. ولما جاء صالح يطلب منى العودة إلى
الكفر لم أوافق.. راح يكلمنى ويضاحكنى بينما أمتص دخان الجوزة وأهز الرأس

متفكرا وعلامة يفهم منها عدم الموافقة.. قلبى كان معك.. لكنك جئت معه فى الشهر التالى وقلت لى ارجع، وأنا شتمتك.. خرجت غاضبا منى مع صالح.. وحتى لما عدت كنت غاضبا عليك.

وانت تقولها: صالح مظلوم كنت أمسك نفسى عن لعنك مرة أخرى.. وأعجب حاسبا أن صالح ضحك عليك.. «لا يعرف عن صالح إلا طوله وعرضه وابتسامته الساهية، وصالح قالها لى فى مرة تالية وكأنه يعايرنى مقدما: - سيد قاللى آخذك عندى.

واشتعل فى الرأس دبور مسعور.. ظل يطن ويطن «وهل يحملنى على دماغه؟ أهى الفلوس التى يدفعها كل شهر تجعله يصر على عودتى للكفر خلاصا منى؟ أهذه آخرة تربيتى فيه وتعبنى.. كل مرة كان يقول ما عنده لكن فى هذا الموضوع يكذب.. الكفر أحسن لى.. تعرف أنت الأحسن لى على آخر الزمان..؟ هل أنسى ما كان من صالح لما خرجت من الكفر بليل وهو جالس مكانه لا يتحرك.. جربت هذه اللعبة يا سيد ولما جئتنى وحاولت أن تجعلنى أنسى وأضحك مرة أخرى لم أهتز.. لم أضحك من قلبى.. كانت هناك نقطة سوداء لم تستطع تبديد السواد عنها.. الهم كان فى ركن القلب راسخا تصعب زحزحته بألف نكتة.. اليوم زالت الجفوة.. سامحتك.. ربما كنت بدأت أسامحك قبل لكننى كلما تذكرت ما حصل أعود ويتعكر دمي وأوشك أن أكرهك؟.. وجاء صالح مرة.. طويلا وعريضا وشاربه يغطى وجهه ويداه خاليتان.. ابنه الصغير كان معه.. قال للولد سلم على سيدك والولد سلم وباس يدي.. والجيران سألونى عنه وصهينت.. سألنى عن سيد وإن كان جاء هذا الشهر فقلت: لا.. جلسنا فى صمت.. لم يكن بيننا ما نتكلم عنه.. كلمت الولد وسألته إن كان فى المدرسة من باب الكلام فى أى موضوع.. قام وقعد ومد يده ناحيتى بجنيه.. «تحسبنى أستجدى يا بن صالحة؟ وفره على روحك يا غشيم». قلت له إن معى فلوسا كثيرة وإن سيد يبعث إلى بالبوستة وإننى مبسوط.. لم يكن معى ما يكفى «هل كنت أنتظر جنيهك؟ يا فرحتى بمنظرك وأنت تهز طولك وعرضك وتدفع الجنيه.. أين كنت أيام المرض والجوع.. اليوم تدفع تحسبها.. هناك من يستطيع رد الجميل «حاول إضحاكى بموضوع قديم مداريا خجله من نفسه.. نظرت إلى وجهه وجعلته يخجل أكثر.. كان ثقيلًا على

القلب كصخرة.. بات الليلة وعملت الواجب.. تصرفت.. «الجنية الذى جئت تدفعه لا يشتري فرخة يا تيس» وفى الصباح جاء سيد.. كأنه على موعد معه.. أخذنى على جانب يسألنى عن الأحوال المالية ويعطينى.. أحسست بالفارق.. الفلوس لا تهم. ما كانت تهمنى يوما ولا قيمة لها.. سيد كان يحسنى ويفهم.. رغم وجود صالح كانت الليلة حلوة.. كنت أنظر إليه بينما يتفرج على قماش الجلباب الصوف الذى أتى به سيد من أجلى.. أقرأ فى عينيه حسرة وغلا.. ربما محاولة النظر باستهانة.. «أنت لم تعرف صالح أبدا يا سيد.. نفخة كذابة وحس ميت ودم ثقيل لكنك تحتمله».

قال صالح وهو يخرج صاحبا ابنه معه:

- مش عايز حاجه من الكفر يا با؟

قلت لنفسى «يا دمك؟ عزومة مراكبية.. كلام فض مجالس؟ الخسيس خسيس.. تربية الحريم لم تفلح أبدا.. الرجل ابن الرجل يفهم ويحس والنطع يعمل فيها أعمى وأطرش وأخرس». قلت له: تشكر..

وراح سيد يوصله.. وكنت أسترجع مع كلامه وجه امه الأزرق.

* * *

ورجعت الكفر مغصوبا ومقلوبا على أمرى.. وكل ما يقابلنى أحد يسألنى عما حدث لعبد الحميد فأحس وخزة فى جنبى وأجاهد ألا أحكى.. وأمى لما رحت لها سألتنى فأمسكت لسانى حتى لا يحترق قلبها أكثر.. كانت تلبس السواد وتبكي وتلعن أبى لأنه شتتنا فى البلاد البعيدة ليرضى مبروكة.. قالت لى: لا تخرج من الكفر يا حسن. «الغربة تتوه الأصول يا بنى» ولو احتجت شيئا اطلبه منها.. وأنا قلت لروحي نار الكفر ولا جنة مصر.. «والأرض فرت من أيدينا وكما قالوا: موت وخراب ديار.. ومهما كانت الأرض مكتوبة لبرهومة فأنا أشتغل فى أرضنا والشتغل فيها لا يعد معيرة وقلة قيمة فى نظر لناس مثل الشغل عند الأغراب.. وما أدرانى ببرهومة لما يكبر يتحكم فى الغيط والدار أو يجعلنى شريكه؟ يخلق من ظهر العالم فاسد ومن ظهر الفاسد عالم..» قالت أمى: لا تحمل للدنيا هما.. ما كنت أحataجه كانت تدبره.. اللقمة الحلوة تحضرها وتبعث لى أتعشى عندها.. وأبى عاملنى

بشكل آخر، بالحسنى، فكدت أنسى بمرور الأيام ما فعله «يا قلبى الذى يصدق ويحسن فى كل مرة ولا يحمل الأسية» «إن كبر ابنك خاويه» قالها أبى مرة فقلت رجع لعقله.. وكلما تذكرت عبد الحميد ازداد كراهية لمصر وأود لو رجعت مرة واحدة وصادفت الإنجليزى وقتلته.. كلما أحسست الدم يجرى فى عروقى وعزى يشتد أروغ فى قتله وأعود بعدها فليس لى هناك عيش. مصر للأفندية وأصحاب الدكاكين والأكابر.. هناك جربت الجوع والحاجة والتسكع بحثا عن شغلانة.. وبرهومة بدأ يكبر ويتعلق بى فأحبه.. ومبروكة نفسها بدأت تتحاشى العراق معى كما كانت تفعل فى الماضى وكأنها أحست برجولتى.. والقلب ينسى..

وطلبونى الجهادية.. راح أبى ودفع البدل وجاء مبسوطا.. أعطانى مقطع قماش كشمير وقال: فصله وخلق لى وش صديرى.. فرحت به.. قال نكمل الفرحة وتنسى الحزن.. سكت.. تتزوج، قالها أبى فارتعش قلبى بالفرحة قلت: رايك.. قال: خذ صالحة.. سكت.. كانت صالحة فى القاعة.. «صالحة يا رجل لا أقبل ريحتها. لا أريدها.. أكبر منى.. أنت رجعتنى ومبروكة تحايلنى من أجلها إذن؟.. ترقبىنى بعينيك السوداوين الضيقتين وأنت تصبين الشاى وماذا يحدث لو رفضت أن آخذ بنتك يا مبروكة.. تبدئين الحرب كما كان يجرى؟ قلت: ربنا يسهل.. قال: تأخذها.. بنت عمك ولحمك تلمه.. وأنا لم أتكلم.. قال: الصبيان فى سنك خلفوا.. زيتنا فى دقيقنا.. نكتب ونجهز لما نبيع القطن «صالحة يا رجل؟.. لحمى» لحمى العجوز؟ طمعان أنت فى الأرض التى وضعت عليها يدك «قالت مبروكة: نكتب لك فدائين وصالحة لها فدائين.. تعمروا الدار.. سكت.. شدى أبى وخرج من القاعة قال: كفانا مناكفة.. تأخذها يعنى تأخذها ليس فيها عيب.. قلت: كبيرة عنى.. قال: بنت عمك ونظر إلى فى تحفز الراغب فى الضرب لو نطقت.. نفس النظرة القديمة التى كانت تخوفنى منه.. يقولون كل شىء فى الدنيا بالخنق إلا الزواج بالاتفاق.. أين الاتفاق يا رجل.. لا أريد.. تذلى باللقمة أنت ومبروكة؟ قال: هيه؟ قلت: طيب.. أمرك.. وسكتنا.

ولما باع القطن راح طنطا واشترى النحاس والكسوة والخبر شاع فى الكفر «مبروك عليك» يقولونها فأحس السخرية فى النبرات والتقاطيع وأسكت.. كانت زفة كبيرة ومندرة الحاج عوف الكبيرة مرصوفة برجال الكفر.. كنت أرتدى

جلّس أبى الجديد.. مر تختروان ونقرزان يطبل ولفوا بأكواب الشراب.. وسمعت الزغاريد.. وكانوا يحطبون فى الشارع ويرقصون عند باب المندرة وأراهم من الشباك المفتوح.. أبى فوق حصانه يلعب البرجاس.. شمروخه الطويل يحذرني بحركاته «ارقص واهتز يا شورة النسوان.. ارقص فالكل يضحك على خيبتك الثقيلة..» وجاء المأذون فنزل أبى ودخل المندرة وكأنه يكتم بطوله وعرضه على أنفاسى.. وجلسنا بعد أن قمنا لهم حتى جلسوا.. وضعت يدي فى يد أبى بعد أن أخذ الوكالة من صالحة.. غطى المأذون يدينا بمنديل أبيض جديد أخرجه أبى وسط التهليل والهيّاص «هللوا فاللّعبة جديدة ومسلية.. والذبيحة فى يد الجزار» كان عبد الحميد فى دماغى «كنت تكرهها يا عبد الحميد وتقول إنها بومة.. قال أبى زوجتك موكلتى البكر الرشيدة صالحة على عوف.. أمرنى المأذون أن أقبل: وقبلت وفرقت زغرودة ودخلت الغازية وسط التهليل والهرج وراحت تتلوى وفى بطنها ثعبان مرعوش ناعم.. قال أبى: اطلع واحملها للمندرة القبلية.. أنزلتها من التختروان المحطوط عند باب الدار.. حملتها وسط الزحام ومشيت ناحية المندرة.. كانوا يهللون حولي.. دخلت أم مشحوت «الماشطة» وكانت تتثنى وتتكلم بالعين والحاجب.. أمرتنى بعمل شىء مخجل.. نظرت إليها وإلى وجه صالحة فلم أجرو «وكنيت يا صالحة أكره سخفك حتى قبل أن تدخلوا دارنا وتخرج أمى». لفت أم مشحوت رباطا فوق أصبعها وفعلت بينما تضحك، ورأيت الدم يتدفق «وكان دمك يا عبد الحميد يتدفق بغزارة من الرأس نظيفا وصافيا غير هذا الدم الأزرق تحتها» وصرخت صالحة فانطلقت الزغاريد وكأنها تعيرنى بسقطتى معها، ودق الكفوف على باب المندرة المسكوك بعد خروج أم مشحوت بقطعة القماش الماطخة بالدم والبنات تغنى: (قالوا لأبوها إن كان جعان يتعشى.. وإن كان شبعان يحطوا..) ويا عروستنا يا لوز مقشر تعالى.. وكلام كثير تاه منى قالوه.. كانت صالحة تجلس على طرف السرير الحديد وكأنها عفريت مصور. خلعت المداىس وطلعت وتمددت جوار الحائط وهزتنى تطلب منى أن أقوم لأتعشى فقلت: لا.. لكنّها شالت صينية العشاء الكبيرة وحطتها فوق الطبلية ورصت عليها الأكل واستمرت تلح على بأن أقوم حتى قمت غضبا.. كنت جائعا ونفسى مصدودة عن زاد الدنيا.. أزاحت أمامى ذكر البط المحمر والحمام المحشى وقالت: كل.. كانت

تضحك وكنت أحسبها سوف تخجل من نفسها بعد ما عملته فيها أم مشحوت لكنها
من يومها كانت مفتوحة العينين ولا تعرف الكسوف أبدا..» كنت تكرهها يا عبد
الحميد وتقول إنها تشبه البومة» واستمرت تتكلم وتتمايل فى جلستها وكأنها
غازية.. وكبس على النوم فقامت أنام وأنا أحس عدم رضاها عن ذلك.. وفى
الفجر وجدتها مرمية بثقلها فوق صدرى فأزحتها عنى.. قالت وعيناها القارحتان
تلمعان فى نهم ولد مفجوع:

- اصحى.

وقمت أغسل وجهى من ماء الإبريق النحاس الذى أمسكته وصبته على
يدى.. وخطبت أمها مبروكة وفتحت لها صالحة وقالت مبروكة بفرح:
- صباحية مباركة يا صالحة.. عقبال البكارى.

وأنا ظللت ساكتا ولما دخل أبى قمت واقفا له فقال: اقعد يا عريس.. وقعد
هو أولا.. وتوافد الناس ودفعوا لصالحة «الصباحية» وناولت هى البنات مناديل
رأس ملونة والرجال طواقى ومناديل يد.. واحتفظت هى بالفلوس.. ودارت الأيام
كساقية تئن. ولم يكتبوا لى أرضا كما قالوا فقلت لأبى مرة وأجابنى أنه ينوى لما
أخلف له ولدا يفرح به. وقالت مبروكة فى نفس الليلة:
- شد حيلك وهات لنا خلفه.

وقلت لنفسى لاشك أنه قال لها.. وقالت صالحة بعد أن تربست الباب
بالترباس «اقلع الغيار أغسله لك» فطاوعتها.. كل ليلة لما أعود من الغيط تسك
المندرة بالترباس وتأتى ناحيتى ونطلع السرير وتقرب منى فأشم رائحة قمها
النتنة.. دائما رائحتها نتنة كالقبر.. الأيام رغم شقاء النهار أحلى من الليالى..
وهى لما تنام تخلع سروالها مدعية أنه يضايقها.. وتظل تعابثنى وبتضاحك
وأحيانا تطلب بلا لى ولا دوران.. وكلما حاولت الرضى عنها أعجز.. كلما رتبت
فى دماغى كلاما عن رائحة قمها أنساه وهى أبدا لا تحس.. ولما أغلب منها
أعرف ما تريده وأعطيه لها لتهمد.. وأنام.

وجاء أبى مرة وخطب ظهري بكفه الغليظة قائلا:

- ما تجمد يا سبع الليل.

وقالت مبروكة لأبى وهى تناوله خنصر الشاى:

- الى يختشى من بنت عمه يبقى ايه يا خويا؟

أحسست أنها تقصدنى فاغتظت من صالحة.. كل ليلة أخاف من عدم تلبية رغبتها لأنها تقول لأمها وأمها تكلم أبى وأبى ربما يضربنى بشمروخه فى لحظة غيظ فاطاوع.

وفى الكفر كان الرجال والصبيان يقولون لى: صحتك يوم فى النازل ويوم فى الطالع ثم يتغامزون.. «أعرف أنكم تتحدثون عن الفرع الخائب من جماعة الحاج مصطفى.. عبد الحميد قال لى مرة إن أبى جعلنا لبانة فى أفواه الناس..» «وحتى جدى مصطفى ظل فى أذهانهم كريما وأصيلا، محبوبا على خلاف أبى الذى يخافونه أكثر مما يحترمونه» كان عبد الحميد يفهمنى ما يعنيه الناس بالكلمات لكننى كنت أصغر من أن أفهم أيامها.

قالوا فى الكفر إن مولد السيد عمران.. قلت لأبى آخذ برهومة وافرجه على المولد وكانت مبروكة تجلس فأومأت بالموافقة «فى كل شىء تنظر إليها تستجديها الرأى؟» أعطانى أبى زبالا.. واتفقت مع جماعة من ناس الكفر وأولاد العم وركبنا ورحنا إلى طنطا نتفرج على الناس والذكر والزفة.. وأخذونى عند السارى وظللنا نتجول.. هناك نصبوا سامرا وكانوا يحطبون.. كانت معى عصا.. أولاد الكفر قالوا لعب يا حسن.. نزلت ولاعبت شابا لا أعرفه فبان لهم فى.. هالوا لى لما لاعبت الآخر.. وخرجت أتفرج على الرجال الكبار.. وشدنى رجل وقال: لاعبنى.. خفت من منظره لكنهم شجعونى وفى نبراتهم نغمة الوعيد بالسخرية منى.. يشبه أبى فقلت لا لعب فقال لى: أنا ملك السامر وإذا كسبتنى تكون ملكا.. وأغرأتى أن أكون ملكا.. نزلت إليه ولاعبته وعجزت عن لمسه وعجز هو أيضا.. كان مبسوطا منى وكأنه أب يرى ابنه عفيا.. ومرة وجدت ظهره خاليا فلمسته وهو يضحك.. هاص الناس وهاص هو معهم ووجدت الرأس خاليا فلمسته أيضا وتحمس الرجل بعد أن كان مستهينا بلمساتى لكنه ارتبك لما عجز عن لمسى.. وبدأت أتسلى عليه وسط التهليل والهرج ولقب الملك الذى أحرزته.. ووقف الرجل فوقفت.. وجاء وسلم على وسألنى عن بلدى فقلت له: كفر عسكر.. وقال مبسوطا أنا من كفر الشرفا يا ملك.. كنت فرحان بنفسى ورجال الكفر قالوا: فكرتنا بعبد الحميد لما كان يلاعب فى السامر ويكسب الملك..

وكلمونى عن عرق الصبا الذى يلبد فى داخلى ويمتد إلى ذراعى فيجعله قادرا وسريعا كسبع.. وسرنا وسط البلد نتفرج على ناس طنطا.. ورسمت على يدي سبعا يحمل سيفاً بالوشم الأخضر. كانت الإبر تكوى والدم الأزرق يتكون خطوطاً نحيلة ويتسلل فى بطء على ظهر اليد كحبات عرق تنبت فوق الجبهة فى عز بؤونة.. كنت ابتسم فرحان لصبيان البلد وبرهومة فرحان بى هو أيضاً يتكلم مع الأولاد بجسارة كأنه يستمد قوته منى «وكننت أنا يا برهومة فى مثل سنك لما أجىء مع عبد الحميد وأراه يكسب وهو يلعب ملوك الزمن الفائت أفرح كما تفرح.. لكنه لم يكن هناك ما يعكر الصفو فلا دار بيننا ولا غيط» وسرنا فى سكة الكفر والشبان يهللون حولى وكأننى توجت بالفعل ملكاً.. وعند بوابة الحاج عوف فاتنى الأغراب واستمر أولاد العم وبرهومة فى يدي يتراقص بخطواته الصبية.. وعبرت الدرب ودخلت الدار وحدى وبرهومة فى يدي فرأيت صالحة تجلس متكورة بجوار أمها ولما شافتنى قامت وتبعتنى واتجه برهومة إلى أمه.. وكان المصباح فى المندرة يرسل ضوءاً شاحباً فعالجته ليزداد الضوء.. وسألتنى صالحة بعد أن سكت الباب لماذا تأخرت هذا الوقت كله وجعلتهم يقلقون على برهومة فلم أجاب.. سألتنى عن بقية الفلوس فقلت لأتخلص منها: صرفتها: صرخت فى وجهى وكأنها ندابة: يا خرابى.. اقتربت منى تتدلل فقلت وأنا أزيحها بيدي: ابعدى عنى.. لكنها اغتاضت منى وشدتنى من طوق جلبابى فغاصت أظافرها فى لحم رقبتى فالتفت إليها وناولتها بظهر يدي المرسوم عليها سبع فوق بوزها.. سال خيط دم وراحت تصرخ فلم أهتم وجلست فوق الحصير.. ودخلت مبروكة وسألتها عما جرى فرمحت ناحيتها وقالت إننى كسرت أسنانها.. قالت مبروكة: تنكسر رقبتك على صدرك يا عرة.. شتمتها.. قالت هى لمبروكة دون حياء إنها عيشة مهيبة ولا تساوى وأضافت لتدلل بأئنى أغيب عنها مهما أغيب وأدخل بوزى شبرين ولما أنام أعطيها ظهري طوال الليل وكأننى عبيط ونضح العرق على جبينى.. أحسست برودته لما مرت عليه نسمة هواء.. خجلت أن أدافع عن نفسى فى هذا الموضوع.. ودخل المندرة ناس ووقف فى الشارع ناس من الأهالى.. وجاء أبى فشق لنفسه طريقاً بينهم وساد صمت تقطعه دمدومات التوقع.. وأنا نظرت إلى يده فلم أجد شمروخه فظلمت واقفاً فى مكانى.. ولما أصبح قبالتى تماماً قالت مبروكة متظاهرة بأنها تكلم صالحة:

- لا ضرب ولا خبط.. نفوت له الدار ونطلع.

وسأل أبى عن الحكاية فلم يسمع جوابا.. وكأنما حسب حساب الأرض التى يضع عليها يده.. ولا أدرى من أين طلع شمروخه وانتصب فى يده كمارد أسود.. من جنب الجدار أم أنه كان يحمله فى يده الأخرى ويداريه خلفه.. المهم أن الشمروخ بان وساد صمت ثقیل وكأنه عمر بطوله.. وتحركت يده ناحيتى بالضربة. ورغم سرعتى فى تحاشى الضربة طالنى طرفه.. طال ذراعى فلم أعد أحسه.. وكاد أن يخبطنى مرة أخرى فظهر عمى إبراهيم خلفه وأمسك الشمروخ ومنعه من الحركة واحتمل ما قاله أبى.. وسقط ذراعى بجانبى وعلى ظهر راحته سبع له شوارب طويلة وسيف لونه أخضر.. كان الدم ينزف.. لم يكن حتى ينزف، كان يتقاذف فى خط صاعد ويميل ناحية الجدار فيعوصه.. ولما أزاح أحدهم كم الجلباب ليرى الجرح تطايرت نقاط الدم وكادت أن تصل إلى السقف ونزلت على الأرض رذاذ مطر خفيف دافئ.. «ضربت عرق الصبا يا رجل فقطعته دون أن تعرف حتى لأى الأسباب تضرب؟ قالوا له: قتلته يا عم عبد القادر «قتلتنى يا شورة النسوان من أجل صالحة؟».

ولولا أننى كنت واقفا لصدقتهم.. كتموا الدم بحفان بن مصحون وربطوا ذراعى بقماش أسود.. وأنا ساكت.. وجاءت أمى لا أدرى من أين.. سمعت صوتها يجلجل فى الشارع.. يقترب ويدخل الدار.. وكانت تشتم أبى بجسارة وحماس جاءها لا أدرى من أين.. قالت: عملتها يا خنزير.. موت عبد الحميد فى الغربية وحسن أيضا..؟ وأنا أحسست بنفسى غير قادر حتى على سماع رده عليها.. لم أستطع حتى الاستمرار فى الوقوف مكانى.. وقعت على الأرض ولم أعد أحس بروحى أبدا.. كل ما جرى أننى كنت أسمع دويا متاخلا لأصوات لا أستطيع تمييزها أو معرفة أصحابها.. وكنت فى رقدتى أرى عبد الحميد وأتشكى وأجعله يبكى.

* * *

والحكومة لم تعرف شيئا عن القاتل.. «قال الضابط: قيدنا الحادث ضد مجهول وحفظنا القضية» وأنا كنت أحسب أن الحكومة لا تخفى عليها خافية

وبعثوا لى نقودا فى شيك فقلت يدفعون ثمننا لدمك يا سيد؟.. قلت للموظف وأنا أعيد إليه الشيك أنتى لا أطلب إلا معرفة القاتل ولا أبيع دم ابنى.. ابتسم فى اشفاق واقل مهدئا:

- مش اختصاصنا يا حاج.. دى مكافأة ابنك عن خدمته.. وأنت حر فيها..
إنما يستحيل ترجع الخزينة.

وأنا قلت لنفسى «لو كانت الوزارة لا تعرف من قتل ابنى فمن يعرف ومن المسئول لأسأله؟» والليل يومها كان ثقيلًا.. كنت مطحونا تحت قادوس الكلمات التى تنعى.. وكلمما صادفت زميلا لك ولو قديماً يسألنى عنك فأحس الناس ما نسيك أبدا.. ربما أنسك.. أبدا.. حتى لو نسيك الناس ما نسيك أبدا.. ما تبقى من العمر قليل.. فلأحتمل.. ولو طال العمر حتى ساظل أذكر.. «كان سلومة وصالح وسعيد وشعبان حولى فى الجبانة، وجعلت أدق بالكفين المجنونين جدران المدفن وكأنى أوقظك من نوم ثقيل ولا أسمع غير صدى خبطاتى ولا ترد.. والأصوات كانت تهمهم وتحاول إعادتى إلى الوعى فلا أعى، كان يحيرنى أن تروح هكذا على غير توقع وبلا مقدمات.. الإنجليز قتلوا عبد الحميد قبالتى وعرفت على الأقل وجه قاتله أما أنت فقاتلك مجهول الهوية وقضيتك محفوظة لعدم توافر الأدلة.. «إيه يا سيد.. العمر عدى والقبر فى الكفر ينتظر لكن الموت يتلأأ.. ومن يومها تبدل الحال يا سيد - السمع طاش، والنظر طاش، والعقل طاش..»

يوم الأربعين رحت وحدى إلى المدفن.. والبنت التى شقتها تلبس السواد لم أعرفها.. سألت نفسى إن كانت من ناس الكفر أم إنها غريبة.. أنا الغريب هنا ما عدت أعرف ناس الكفر حتى.. «ترى جئت من أجل سيد أو من أجل غيره؟» وقالت لى: البقية فى حياتك يا عم حسن «تعرفيننى وأنا لا أعرفك يا شابة؟» ولم أعرف كيف أسألها عن اسمها لأتأكد أنها من جماعتنا أو من الأهالى.. لم أسألها رغم أنها عزتنى فىك يا سيد.. نبراتنا كانت صادقة وحرينة.. وأنا كنت أبكى.. قالت شد حيلك.. بوفاء قالت.. وكلمما أو شك على سؤالها عن اسمها أتوقف «يمكن حورية من الجنة جاءت تونسك فى وحدتك وتسليك وأنت فى العتمة.. ما دام المدفن لا يزار.. عائلة الحاج عوف جاعت ونسيت الأصول وعائلة شلبى كبرت

على زيارة القبور مهما كانت قيمة الأموات..».

فى السكة لم تخرج البنت من دماغى.. ظلت أعصره وأقول لنفسى إتنى عرفتها ربما قبل أن يكون العمر نفسه.. وفى لحظة ومض شعاع وعى خاطف فاستعدت التقاطيع وعرفت أنها بنت شوق.. نفس الملامح وحتى النبرات «جئت إذن من أجله يا سعاد؟.. عرفت الآن اسمك.. الموت جمعنا لما عجزت عن ذلك الحياة».

* * *

وقال لى واحد من «التملية» إنه طهق من ناس الكفر وانه ذاهب إلى البرارى فى ضم الأرز.. قلت له لما يأتى المقاول يطلب أنفارا قل لى وسألنى لماذا فصهنت. وجاء المقاول قبل أن يطيب الجرح لكننى كلمته وخرجت مع الأنفار من الكفر خلصة.. فت لهم الجمل بما حمل ورحت البرارى.. كانت العيشة مرار والأجرة قرشان.. نطل منذ الفجر نحش بالمناجل أعواد الأرز وكأننا نحش معها أعمارنا.. الناموس يمتص الدم ويسمن ويتكاثر.. وننام فى قاعة معتمة ومشحونة كأنها زريبة مواشى.. ومرة رأتى الخولى أريح ذراعى فضربنى كفا وشتمنى.. قال له أحد أنفار الكفر عن أصلى فقال الرجل باستهانة: أصلك فعلك يا روح أمك.. «أيام بنشرب عسل وأيام بنشرب خل وأيام نبات على السرير وأيام نبات فى الطل.. صدقت يا عم إبراهيم لكن هل شربت الخل أو نمت فى الطل حقا» كنت أسمعها للمرة الأولى: أصلك فعلك.. وقال النفر ليبعد عن نفسه شبهة الدفاع عنى: معلوم.. من يومها لم أعول على الأصل أو أحطه فى حسابى. وقتلتها لكل من يجهلها: أصلك فعلك.. «راحت أيام اللمة فى مندرة الحاج عوف الكبيرة.. وجدى مصطفى يجلس فى صدرها بطلعته المهيبة وأبى وأعمامى يتكورون على الدكك وكأنهم تماثيل مطوية أخذ منها الجد كل الشموخ والمهابة وتركها منكمشة على روحها.. ونحن صغار وكثار نجلس على الأرض بين أقدام آبائنا نسمعه يحكى.. عن أصلنا الممتد حتى سيدنا الحسين.. وتنتفخ صدورنا الصغيرة ونكبر ونوشك أن نطول ركب آبائنا الجالسين على الدكك.. ولما نمشى فى الكفر ندب الأرض غير هيايين ولا الشياطين الرزق مثلما يفعل أعمامنا فى غيبة الجد مصطفى، نتسابق فى قطع فروع التوت والسنت والليمون نعملها عصيا رفيعة هى طول قاماتنا ونمشى فى دروب الكفر نفرق ونضرب أولاد شلبى بدون أسباب سوى

رغبنا فى الضرب.. ومادمت أشتغل مع الأنفار فأنا نفر.. وسيدنا الحسين النائم فى قبره فى مصر قريبا من المكان الذى قتلوا فيه عبد الحميد نفض يده من أمر نسله الذى لا يحصى له عددا.

«ويحكى جدى مصطفى عن جماعة شلبى بسخرياته المعهودة.. كيف جاءوا إلى الكفر وتسلبوا بمسكنة نفرا نفرا دون أن تعرف عن أصلهم أصلا.. يتاجرون فى الملح والدخان والتمر وأحيانا القماش.. وأشياء أخرى كثيرة يحملها الواحد منهم فى خرجه الذى على ظهره كالحمار.. ويحكى كيف أن جدهم لما اشترى حمارا وحط عليه خرجه راحت جماعتنا تتندر عليه شهرا وتسخر.. ويتفرجون عليه ويقولون له: ربنا فرجها عليك.. ولما تزايدوا فتح الرجل دكانا جعله مخزنا لكل الأصناف التى نشتريها من البندر.. بعدها اشتروا أول فدان من ناس الكفر غير جماعتنا.. وعملوا جنينة ويظل يحكى حتى يصل بنا إلى ختام حكاياته عنهم فيسأله عمى إبراهيم وهو أكبرهم سنا كيف أنه باع لهم أرضا من حوضنا فيطرق متفكرا أو أسفا ثم يقولها.. الكريم لا يضام ثم: الحريم.. أس البلاوى.. الحريم يا بنى.. لو تل مال ينتهى.. لو قوة ثور تهد.. لو عقل واعى يخف وكله من الحريم.. ويجلس عمى إبراهيم وكأنه تلميذ شاطر فى الكتاب.. ونحاول أن نعرف المزيد عن الحريم وكيف إنهم أس البلاوى، ما دام يعرف ذلك فكيف رضى لنفسه بمعاشرة الأربعة فى آن أحد.. ويتابع هو دون أن يسأله أحد هذه المرة بينما الضحكة تملأ شذقيه وكأنه سليمان الحكيم فى المصحف الشريف.. يا ريت سيدنا النبى خلاهم تسعة أو حتى عشرة.. الحريم يا أولاد دنيا بحالها لا لها أول آخر.. اللهم صلى على سيدنا النبى.. علقهم فى رقبتة كمسبحة وقال: اعدلوا بينهم.. النبى عليه السلام تزوج إحدى عشر والمسبحة المباركة ثلاث وثلاثين حبة.. ويا بخت من عنده من العيال سبعة كما سيدنا النبى.. ونحصى عدد من خلقهم جدنا فنجدهم عشرة فنعجب لأنه زاد على سيدنا النبى.. ولما نخرج من المنذرة نلعب نقول لبعضنا أننا لما تكبر نتزوج أربعة مثل جدنا ونبيع الأرض ندخل الدنيا الكبيرة التى يكلمنا جدنا عنها.. عبد الحميد وحده كان يعارض ويقول فى جراءة رجل عاقل ومتمزن:

- يا ولاد دا راجل عجوز وبيخرف.. دى الأرض طالعه من حبابى عنيه.

ونعارض عبد الحميد رغم أنه أكبرنا وحافظا للمصحف. فيقول مرة أخرى:

- والمصحف الشريف الراجل بيدارى حسرتة وخيبته وبيضحك عليكم.
والفرع مال يا حاج مصطفى يا عوف والبخت أيضا.. حفيدك يضم الأرز
عند الأغراب بالأجرة وسط التملية، وكانوا فى غيطك ودوارك مثل المواشى
نركبهم لو طلبنا.. والخولى قالها وصدقته: أصلك فعلك.. حتى أبى لما جاء مصر
لم يسألنى عن قاتل عبد الحميد.. أخذنى ورجع كالأرنب.. وكنت أحسبه سوف
يأتى بشمروخه ليضرب القاتل ولكنه أتى يخوفنى ويرجعنى لصالحة.. وقلت
لروحى يومها، راحت هيبتنا وقوتنا وأصبحنا كالحرير نبكى على الأموات ونندب
واغتظت منه لأنه سمع الحكاية ولم ينتفض ممسكا بشمروخه ويرمح مطالبا بدم
ابنه، وفى الكفر عاش ناعما مدة من خزيه، لكنه استعاد حماسه معى واندفع
يضربنى بغل فكسر دراعى وقطع عرق الصبا.. «كأنك كلب يا أبى لا تبين
شطارتك إلا فى كفرك».. والجرح كان يعمل على ويوجعنى بينما اشتغل فى عز
الحر فآلعه.. أقول لنفسى لما أحس التعب يتسلل إلى أطرافى.. مصر أرحم.
* * *

الآن أهبط.. أهبط فى جوف الذكريات على مهل.. استعيد سيد.. أهرب من
موته المكذوب المقدمات.. أراه حيا قبالتى.. الغذاء الأخير بيننا. حلاوة اللقمة بعد
غيبته عنى شهرا.. قال سيد:

- نفسى أدوق البامية بالفراخ.
ذبحت ديكاً ونظفته.. جاء من السوق حاملا بطيخة وخضارا.. قال:
أساعدك؟ قلت له: ارتاح أنت.. قال: أساعدك.. عصر الطماطم وخرط البصل..
وضع لنفسه فى الحلة بصلة مقشرة.. خرج مدة وعاد وكشف الغطاء.. سألنى إن
كانت البصلة قد استوت «يا ناصح.. تعملها حجة من أجل الحوائج مثل كل مرة»
كنت أعرف نواياه وقلت وأنا أضحك محاولا أن أبدو حازما وجادا: غطى الحلة يا
حرامى الفراخ. قال: أشوف البصلة، أخرجها مع الحوائج ورأس الديك وهو ينظر
إلى متصنعا الخوف. «لو كنت أعرف أنك ترضى لأخرجته لك كله تأكله وأراك
فأشبع» قال: خذ قطعة كبدة.. قلت: كلها.. أخذ الطبق فى يده وراح يدندن بأغنية
مرحة.. «تحب الكبدة وتكتفى بجزء منها وتصر فى كل مرة على وضع الباقي فى
فمى خلصة» سألنى. حلوة؟ قلت وأنا أمضغ ما وضعه بيده فى فمى.. الأكل

استوى.. قال: رائع، وراح يغرف، قعدنا نأكل.. كان اللحم حلوا.. دائما لما أكل مع هذا الولد أحس طعاما حلوا للأكل وقدرة على ابتلاعه.. من غيره لا تنزل اللقمة من الحلق براحتها.. أكلنا وانبسطنا راح يحكى بينما يجفف يده المغسولة.. قال: هات السكين.. بدأ يقطع البطيخة ببطء من عند القمة.. يسألنى: تراهن.. راهنته.. قال: أعرف أنها حلوة.. كانت حمراء وحلوة.. أكلنا ونحن نحكى.. قال: ندخل السينما؟.. أضاف: فيلم فرنسى جديد وعليه زحام فى مصر.. قلت: ندخل.. قال فى الطريق: اقرأ لك الترجمة حتى لا تتضايق.. ذهبنا.. كان الفيلم عجيبا وسيد يفسر لى بصوت خافت كل المواقف الصعبة.. لما خرجنا كان يكلمنى عن الفارق بين السينما المصرية والسينما الإفرنجى. قلت: كانت الأفلام العربى فى أول الأمر أحسن منها الآن.. قال فعلا.. سألته عن السر فقال لى: الدجل والصوصية.. سألتنى أن كنت مبسوطا فقلت: جدا.. سلم على جماعة من أصحابه فى سكة البيت.. لم أفكر فى النوم ليلتها.. كنت مرتاحا معه.. كل ما يقوله يشرح الصدر.. كان يدخن أحيانا وكل مرة يقدم إلى سيجارة فأقول له إننى أفضل تدخين المعسل.. وأحط الفحمة على النار ولما تستوى أرص الحجر وأدخن.

- ما تشوفك عروسة بنت حلال يا سيد يا بنى.

قال وهو يتعجب:

- ولزومه إيه؟.. الجواز فى الزمانده ورطة.

قلت وأنا أدارى عجبى:

- يا بنى دانا راجل كبير ولولا الملامة أعملها. قال ضاحكا بسخرية العارف مغزى ما يقال:

- اعملها ولا يهملك. «اعملها يا سيد؟ مرة أخرى؟ غايتى أفرح بك أنت..»

كان يبدو صافى الذهن مطمئنا.. كنت أحس قلقا.. لا أعرف كم عمره بالضبط.. فات الثلاثين منذ مدة.. ربما خمس سنوات فاتت.. لكنه بدأ يكبر وشعره يشيب.. «ربما يذهب إلى الكفر باحثا عن واحدة من هناك. وبنات مصر هناك بنات، لكنه لدغ من جحرهن مرة.. كيف يصبر؟ فى أيامى كنت قد خلفت وأنا فى سنه صالح وسيد وتزوجت بعد أمه..» قلت متشككا فى صدق ظنونى:

- إوعى تكون ماشى فى الخسارة.

قال ضاحكا مستهينا بأفكارى:
- أبدا..

أضاف وكأنه يبرر نفسه:

- تعرف ماهيتى كام؟ والمهر كام والشقة بكام؟ الزمان ده له طعم تانى.
«لو سمعت كلامى من أول شهر ووفرت مبلغا كما قلت لك ما قلت هذا الكلام.. ولو كان عندى شىء يباع لبعته وزوجتك.. لكن ما باليد حيلة. أحسست الهم فوق صدرى ثقيلًا بالعجز عن مساعدته.. تخفف عنى الهموم بسمته المطمئنة.. قلت له:

- مش عايز منك حاجة يا سيد.. بس دبر أمورك أنت.
قال متأففا:

- سيبك من الموضوع ده.. بعدين نتكلم فيه.
وسكتنا مدة.. بدأنا نثرثر.. أحيانا أحس أن الموضوعات التى يكلمنى عنها لم نعد تهمة.. أسعار الخشب، أنواع المسامير، نقص الخامات، ما له بهذه الأشياء؟.. أنه يفتعل الحديث معى.. كنت أحس هذه المسألة ببطء.. الآن حدث أن أصبح كل منا فى واد.. ضاعت مواضيعنا المشتركة.. مع من يتكلم بحريته هذا الولد؟» قلت دون أن أدري:

- واسمها إيه دى.. اللى.. اللى كنت يتحكى لى عنها.. زمان.. كنت يتحكى عنها زمان؟..

كنت أعرف حكايته مع البنات التى كف عن الحديث عنها رغم حماسه القديم لها «ربما ضحكت عليه.. كم سنة فاتت وهو ساكت لا يحكى؟».
قال وهو يخرج علبة السجائر ويتناول واحدة.. يشعلها مجاهدا نفسه لرسم ضحكة على شفتيه تشى بأنه لا يرضى:
- كل سنة وأنت طيب.

- يا بنى عرفنى.

قال ممعنا فى رغبة الفرار من الاستمرار فى الكلام:

- تعرف الأمريكان؟.. نزلوا القمر وخطوا علمهم فوقه.

- عرفت أنه يهرب... تركته يهرب

«وأنسا لو سعدنى زمانى لاسكنك يا مصر.. وابنى جنينه ومن جوه الجنينة قصر».. قالها عمى إبراهيم فى لحظة تجل وكان يتمدد تحت الجميزة العجوزة فى طراوة العصر.. فى لحظة تجل راح فيها يسب الكفر وناسه «وأنسا رجعت لك يا مصر.. لا أطمع فى بناء القصر ولا حتى السكن.. غريب جاء يزور قبر أخ له دفنوه يوما فى جبل الدراسة.. فافتحى للغريب صدرك» قابلت الشيخ سعد فى الجامع وقلت له أخبارى وأخبار الكفر.. سألته عن أخباره وأخبار مصر فقال ملخصا ما يراه: «سعد زغلول طلعه الإنجليز ومسك الحكومة.. والمظاهرات خفت والأحوال هدأت لا عراق ولا مشاكل..» قلت له يبحث لى عن عمل فسكت. كنت أدور طوال اليوم وأرى فى العيون سكونا وصمتا.. منهزما أى منتصرا لا أعرف.. سكون ما بعد المعركة التى يدخلها الإنسان لما ينهج ويتوقف مستعيدا أنفاسه.. ربما ساعتها لا يقيس الواحد ان كان قد فاز أو انهزم.. المهم أنه واقف يستعد مرة أخرى أو يقول لنفسه كفى.. «وأنسا كنت أحسب أن المظاهرات مازالت والناس تتعارك مع الإنجليز.. إنهم يتمشون اليوم فى الشوارع باطمئنان مستتب. ويتكلمون مع أولاد العرب وكأنهم أولاد عم.. أتفحص وجوههم بينما أصادفهم فى مشاوير البحث عن عمل.. وكأننى سوف ألتقى فى لحظة بوجه قاتل عبد الحميد وأتعرف عليه.. «ولو رأيته يا ولد.. تعملها وتتعارك معه وربما يتعارك الناس من أجلك. أم تتفرج عليه وكأنه لم يقتل؟؟ أبدا.. تتعارك وما يجرى بعد ذلك يكون» كانوا يتشابهون فعجزت عن فرزهم والتعرف على نفر منهم.. نفس العيون الملونة والوجوه الحمراء.. والرطانة غير المفهومة.

وجدت مظاهرة صغيرة يهتف على رأسها ولد أسمر نحيل لكنه متحمس.. الشيخ سعد شغلنى فى مخبز قريبا من مسكنه.. وبعد أيام رأيت الولد الأسمر.. هذه المرة كنت ممسوكا بلا سبب. كنت أحمل قفص العيش الفارغ.. وجدت البوليس المصرى يرمح فى أثر الناس.. قالوا مظاهرة يفرقوها.. كنت أرى رجال البوليس يضربون من يصادفونه.. اغتظت لأن مصر كانت تضرب مصر والإنجليزى يأمر.. ظللت واقفا مكاتى تحت البواكى. جاء عسكري مصرى وضربنى بالشوامة وشدنى.. لما حاولت المقاومة قائلا أننى لم أعمل شيئا جاء آخر وآخر وانهالوا على ضربيا.. أخذونى فى اليوكس مع الجرحى والممسوكين أمثالى.. راحوا بنا للمحافظة.. حطونا فى الحجز..

دخلت فجلست.. لما حاولت أن أقول لناس التخشبية أنني لم أشارك في المظاهرة ضحكوا أولاً.. لما أكدت كاد أحدهم يضربني.. قال «دسيسة» كدت أتعارك معه.. شفت الولد الأسمر يشق لنفسه مكانا ويقف.. نظر إلى.. سألني بسرعة:

- أنت من الغورية؟

- قلت له: نعم..

- قال: شفتك..

كنت قد نسيته.. تذكرته بعد مدة.. قال:

- هي المظاهرات عيب؟

- قلت: لا.

في الحجز جعنا.. جاءني إسماعيل.. قال بثقة غريبة:

- هات كل اللي معاك.

كان معي ريال حوشته وقرش.. مددت إليه يدي بكل ما معي.. قال:

- لما تخرج تأخذ الفلوس دي..

نادى العسكري، أعطاه فلوسا أخرى وطلب منه أن يشتري أكلا وسجائر.

أكلنا جميعا في الحجز.. أصبحت أحب هذا الولد إسماعيل.. فتحت له قلبي.. قلت

له حكاية عبد الحميد.. قال: خذ حقك.. سكت.. كان يبدو رئيسا في الحجز..

ضربونا نفرا نفرا في صالة المحافظة.. كلما يتناول إسماعيل شومة يشتم أكثر..

البوليس المصرى والإنجليزى والوزارة.. لما ضربونى ظللت ساكتا رغم قسوة

الضربات.. قال إسماعيل بعد أن ضربونا ورجعونا..:

- كلها ساعتين ونخرج..

سألته لماذا كان يشتم.. قال:

- بدل ما أقول آه ألعن سنسفيل جدودهم وأهو كله صوت طالع من الحلق.

عرفنى إسماعيل مكان شغله.. كنت فرحان بمعرفته.. لما رحت للشيخ سعد

وعرف الحكاية غضب منى قال لى: لا تحشر روحك في المظاهرات مرة أخرى..

حاولت إفهامه فلم يفهم.. أضاف: مرة أخرى ليس لى بك شأن.. عجبت.. قال

محاو لا أن يغير الموضوع: زواجك من صالحة كان غلطة لا يساويها إلا هربك من

الكفر بعد أن خلفت ولدا.. قلت هو لا يريد معيشتي معه.. لو كنت أستطيع تأجير سكن لأجبرته.. أريحه منى وأرتاح من تكرار وعظه وتخويفي من أبى.. كأنه يعيشنى على حسابه..

لما قابلت إسماعيل فى القهوة التى يشتغل بها رجب بى وطلب لى شاي.. قلت له: شف لى سكنا.. سألنى عن السبب.. قلت له كل شىء.. عن الشيخ سعد وأبى وصالحة وشغلانة الفرن.. قال: مادمت غير مرتاح معه فت له السكن، تعال اسكن معى.. قال لى: ما دمت تركت البلد طلق البنت تشوف حولها.. قلت له: معقول، أطلقها وعلى رأى المثل «إيش ياخذ الريح من البلاط؟».

كان سكنه فى بيت قديم قريبا من القلعة ناحية الجبل.. آجرة ضيقة ليس بها غير حصير قديم ويطانية وبعض الأوانى غير النظيفة.. قال:
- هى الحتة لو أمان كنا نشترى سرير شركة.. بس مليانة حرامية..
خفت.. قال مهونا الأمر.

- ولا يهمك.. اشترى لك مطوة زى دى.. لو حد اتعرض لك طلعتها.

أفهمنى أنه من الممكن أن أشتغل معه فى القهوة وأترك المخبز حتى لا يعرف الشيخ سعد عنوائى.. قلت كل شىء معقول إلا حكاية السكة.. قلت له وأنا أستعيدها:

- دى السكة مقطوعة فعلا.

قال مهونا على الأمر:

- من بعد القسم وشارع الترمای بس.. خليك جدع أمال.

كنت مترددا لكن معاملة الشيخ سعد كانت تتميز بالفتور.. قال مرة «بعثت للجماعة والأولاد» فهمت منه أنه ينوى أخذ امرأته فى مصر بعد أن تركها لسنوات طويلة واكتفى بالسفر كل مدة.. ربما ضاق بمعاشرتى وخجل منى لأنه يضطر أن يعرفنى بأصحابه على أنى قريبه متحاملا على نفسه من سوء حالى.. قلت لنفسى أسكن هنا وأفوت للشيخ سعد سكنه.. ونقلت سبت الملابس إلى حجرة إسماعيل وكانت السكة ساكتة والظلام يخيف.. اشتريت مطوة كما قال إسماعيل وشلتها فى جيبى من باب الاحتياط، وكان إسماعيل يشتغل وردية الصبح وأنا أسهر أحيانا حتى منتصف الليل ولما أرجع أجد إسماعيل جالسا على الحصيرة

يدخن الحشيش وكل مرة يقدم إلى الجوزة فأدخن ولما أتوه يضحك على ويقول «فلاح».. ولم يكن يضايقتني شيء أكثر من مشوار العودة في السكة المقطوعة وكلما أقول لإسماعيل نسكن في مكان آخر يقول إنه مناسب ولا يرضى..

كنت راجعا من الشغل وأمشى في شارع شيخون في اتجاه القلعة.. وجدت نفرا يتطوح سكران عند السبيل فأبطأت خطواتي ولما حصلني وجدته يكلمني بكلمات غير مفهومة ويشتمني بعربي مكسر.. «إنجليزى وسكران وترمى بلاك على خلق الله؟» لم أرد.. مشيت في حالى.. عاد يتطوح في خطواته ويبتعد عني ثم يقترب.. سبقتني بخطوتين.. لو كانت لى سكة غيرها لمشيت منها.. توقفت مدة «ابعد عن الشر وغنى له كما يقول المعلم».. كان واقفا في مكان معتم وكأنه يقطع سكتي.. سألني عن سر تأخيرى حتى هذه الساعة، فهمت كلامه بصعوبة قلت له:

– أشتغل في قهوة في المغربلين تشطب في منتصف الليل،

شتمنى واتضح أنه لا يفهم ما أقوله.. وعاد يمشى في اتجاه القلعة.. سبقتني بمسافة وأنا بدأت أتسكع حتى لا يرانى ويضايقتني.. تذكرت المطوة.. اطمأن قلبي.. قلت لنفسى: لو كنت تذكرتها لما كلمنى وشتمنى ما خفت منه.. كنت أمشى بجوار الجامع في العتمة.. انتصب عبد الحميد قبالتى بوجهه الذى ينضح الدم.. كانت التقاطيع واضحة رغم غطاء الدم الذى ينزف من الجبهة.. ارتعبت.. طنت فى أذنى كلماته: اقتله يا حسن وريحنى فى قبرى.. «راح بعيدا.. لو حصلته وحاولت ربما يقتلنى لأنه مسلح وسكران.. تخوفنى يا عبد الحميد وأنا جئت مصر أزور قبرك؟.. أخاف أعملها.. أبوك لم يعملها.. إسماعيل قال لى المطوة تحميك.. من اللصوص، لكنه لم يذكر الإنجليز السكارى.. عاود عبد الحميد كلامه بصخب أشد.. اقتله وفك قيدي، المطوة.. المطوة «أخرجتها من جيب الصديرى وفتحتها.. عند منحنى ضيق ومعتم تماما كنت أتحسس أنفاسى بأذنى.. كان ينددن بلغة غير مفهومة.. ربما هو قاتلك يا عبد الحميد.. لا يهم.. حتى لو كان غيره، أولاد كلاب. إسماعيل يكرههم.. حاذيت الرجل تماما.. تأخرت خطوة واحدة فأصبحت خلفه.. برق شعاع خاطف.. لم أعرف من أين أتى لكنه أضاء حولى فرأيته.. أشاح بيده وكأنه أفاق لنفسه وأمرنى بالابتعاد عنه لكنه كان ساكنا.. «ابتعد عنه

يا ولد أحسن لك.. إسماعيل بات فى التشخيبة من يومين لأنه تحرش بواحد إنجليزى مثله.. سأقتلك وليس لك دية، ركبى شيطان مخطط بألف لون ولون.. «السكة مقطوعة والمطوة فى يدك وهو سكران ولا يدري.. لو قاوم اجرحه واهرب.. لو كنت أقوى منه خلص عليه ولا من شاف ولا من درى.. من الخلف.. امسكه من الخلف.. اخنقه واضرب..» كتمت أنفاسى.. لم أعد أسمع غير صوته وحده يدندن مبسوطا، لم يراع ما يدور خلفه.. «ليلتك سودة».. بسرعة أمسكته من رقبته.. جعلتها محبوسة بين الذراع والزند.. مت عليها.. أخرج صوتا خافتا لكنه ذاب فى الفراغ المعتم.. غرزت المطوة فى جنبه.. غاص طرفها فى لحمه.. نزعته وعادت غرزها.. ونرعتها وغرزتها.. بسرعة، بسرعة وهو يخور كعجل جاموس «جرب يا حلوف طعم الموت.. الموت» فشلت محاولاته فى حماية نفسه.. بدأت تقل وتنعدم.. كف عن الحركة.. أحسسته ثقيلًا فى ذراعى.. كان صامتا تماما.. أنفاسه كفت عن الهمس أو الأثين.. تركته يتهاوى على الأرض نزعته المطوة من جنبه ومشيت.. وجدت زقاقا جانبيا فأنحرفت ناحيته.. كانت المطوة فى يدي غارقة فى لزوجة الدم حتى مقبضها وراحتي تستشعر اللزوجة والدفع.. نسمة الهواء تجعل الدم يبرد ويبرد.. لم أعد أطيعه «دمه زفر.. ونجس».. فركت راحتي بالرماد وفركت المطوة أيضا ووضعته فى جيب الصديري.. سرت متلصصا.. همس عبد الحميد فى أذنى هذه المرة مرتاحا.. قال: جدع.. ريحتنى.. لم أكن أعرف من أين أصل إلى البيت لكنى وصلت.. شىء ما كان يشدنى ويحركنى فى اتجاهه.. وجدت إسماعيل جالسا على طرف الحصيرة يدخلن الحشيش.. لم يلاحظ بقع الدم التى لاحظتها أنا فى الضوء الخافت.. خلعت الجلباب وتاويته فى السبت.. جلست أدخن.. «لو جاءوا ليأخذونى الآن أقتل نفرا غيره وأكون أخذت حقى وحق عبد الحميد أيضا ويادار ما دخلك شر..».

صحتى إسماعيل فى الصباح لأفطر.. قال: اشتريت الفول والعيش فقم، قال وهو ينظر إلى بت عريان فى البرد.. سكت.. سألنى عن سر الدم فوق جلبابى قلت محاولا خداعه:

- حرامى طلع لى.

غمز بعينه وكأنه رآنى أعملها.

- تقصد إنجليزى؟ وفيها إيه؟ دا مات.. ولا يهكم كلب وراح.. فتشته؟
قلت لإسماعيل أستفسر: يمسونى؟
قال بهدوء:

- ركز.. ماحدش عارفك هنا.. إن كنت خايف زوج يومين.
سألته:

- أروح فين؟ أصلى غريب.
قال بضيق:

- غريب إيه وبتاع إيه يا جدع أنت؟؟ كلها بلاد مسلمين.. دا اليهود
عاشين فيها.
سكت.. قال بحماس:

- ما تبقاش كمشان كده وخايب.. واتلحج.. اسمع.. روح إسكندرية، لما
تكون بطال اسأل على أكل عيشك هناك.. صاحبى يمكن يلاقى لك
شغل.. بس ارجع تانى.. اوعى تقول غريب.. دى مصر واسعة
ومساعية كل مله.. مد يده بجنيه قال:
- خذه وسافر..

قلت:

- لا..

قال:

- خذه.. وأضاف:

- إنما شاطر والله العظيم.. أغطس يومين ولما ترجع آخذ منك الجنيه.

كنت مبسوطا من كلام إسماعيل وأحس لأول مرة بأننى فى بلدى بحق..
«مصر واسعة». وفى الطريق إلى باب الحديد كنت ماشيا بجلباب إسماعيل
المخطط وكلما رأيت نفرا منهم أبتعد عنه وأمشى من الناحية الأخرى.. ركبت
القطار بلا تذكرة ودفعت الغرامة.. وكلما ابتعد عن مصر ارتاح وأهدأ.. ونزلت
إسكندرية وكان معى عنوان صاحبه.

* * *

قال لى ولد فلاح لا أعرفه:

- ازيك يا عم حسن

قلت له: أهلا وسهلا، سألته عن أحوال أبيه.. قال بحماس وفرح:

- بيسلم عليك، سيد كان حدانا من يومين.

«تذهب إلى الكفر دون علمي يا سيد.. يا نخلتي التي زرعتها وسقيتها ولما كبرت مالت وظللت على غيري».. سلمت على الولد وسرت وحدى «قلت له لا تذهب إليهم.. لكنه عاندني.. في الشهر الفائت قال لي: لا أذهب.. يضحك على بكلمتين ناعميتين وينفذ رأيه.. أعرف أخباره من الناس صدقه. كلامي ما عاد يعجبه أو يرضيه.. كلما تكلمنا في هذا الموضوع يسكت.. في دماغه كلام يحرص على إخفائه.. ينظر إلى ولا يتكلم.. يضحك على بكلمتين فارغتين ويمشي قائلا إنه مسافر مصر.. ويسافر الكفر.. هو حر.. أنا نبهته.. دماغه طاقق.. أبدا.. عقله في رأسه يعرف خلاصه.. هو حر مالي وماله.. يظل شهورا يتشكى من قلة الفلوس فامتنع عن أخذها منه.. يحسبني أستجدي.. في المرة التالية لن آخذ منه شيئا.. لو أعطاني أرفض.. تغور فلوسه.. مازلت بصحتي وأستطيع أن أعيش معتمدا على نفسي.. العرض على الله في شقائي وتعبى.. يذهب إلى شوق.. مرة جاءني مع ولد منفوخ.. قال يعرفني به:

- شاكر.. أخى..

قلت لنفسي:

- ابن شوق.. لكنه ثقيل الدم.. قلت لسيد أسأله:

- طالع فيها قوى على إيه؟

قال ضاحكا:

- غلبان

«كلهم عندك غلبه.. صالح غلبان.. شاكر غلبان.. لاتعرف عدوك من حبيبك كبرت وعقلك مازال صغيرا.. قلت له: خللي نفسك عزيزة عليك.. ضحك من كلامي.. لو قلت نكته ما ضحك بهذه الصورة.. دائما.. تضحك.. يحسب نفسه متعلما ويفهم.. ماذا علموه في الجامعة.. الهبل وعدم الدراية أو الإدراك.. ومن لا يطاوعنى لا يكون ابنى من صلبى.. ربما ابن حرام.. ابن حرام جاء وضحك على وجعلنى أربيه وأعلمه وآخرتها لا يسمع الكلام.. هو حر.. مالي به.. أولاد حرام

هو وصالح.. يأتى ليطمئن على أحوالى فى الشهر يوما ثم يمشى.. لما طردته جاء بعد شهرين.. ليته ما جاء.. كنت ارتحت منه.. قلبى حن عليه لكنه لم يفهم.. لو جاء أطرده وأضربه أيضا.. ليس كبيرا على شىء.. أنا كبرته وعملت له قيمة.. من غيرى كان يضيع فى الشوارع.. صالح يأتى ويبوس يدي فى كل مرة.. لم أعمل لصالح شيئا.. ربته أمه وجده.. أنا رببت سيد وحرقت دمي لأجله لكنه ينسى.. ابن شوق ليس من جماعتنا.. من جماعة شلبى هو.. صالح من صلب جماعتنا.. لو كان يروح لصالح لهان الأمر.. أخوه.. أما شاكر هذا.. لو يحن قلبى على صالح يوما.. أسأل نفسى لماذا أرتاح لهذا الولد ولا أطمئن لصالح.. عوضى على الله.. لو أنسى ما فات.. لو أنسى.. هو حر.. يذهب إلى الكفر ولا يعرفنى.. يكذب على لما أسأله.. يعرف كيف يضحك على عقلى بكلامه.. مرة أخرى لن أصدقهما قال.. يكون على حق أحيانا.. مسألة صالح.. صحيح.. لابد أن أنسى.. قال سيد مرة: حاول أن تنسى ما جرى.. افتح قلبك له.. لكن كيف يفتح الواحد منا قلبه المسكوك؟ بالكلام؟ لما يأتى أسأله.. كيف افتح قلبى المسكوك لصالح.. أحيانا أحن عليه.. أود لو أزيح جدارا بيننا أراه لكنه يحجبنا.. لما يأتى سيد أسأله.

* * *

ولما نزلت إسكندرية وجدتها غريبة.. إسكندرية أخرى غير التى جنتها مع عبد الحميد.. ربما أنا الذى كبرت لأننى أطل إليها بجسارة غير هياب كما كنت أنظر إليها أول مرة.. خوفا ضربه ولد أسمر خاف حتى عن رد إهانتته بالضرب واكتفى بالشتم.. اليوم أراها بشكل آخر.. ربما كلام إسماعيل.. لست غريبا.. سألت عن عنوان الرجل حتى وجدته.. كان يلبس معظفا صوفيا فوق جلباب بلدى.. له وجه ضاحك.. قال أهلا وأى خدمة.. أعطيته جواب إسماعيل فرحب بى بحماس وقال وعلى وجهه بسمة ندية كنسمة فجر تشرح الصدر.. أحيانا يرتاح الواحد منا للناس هكذا ولا يعرف لذلك سببا. هذا الرجل له شكل مريح وابتسامة تجعل الواحد مطمئنا إليه.. قال: أهلا بك.. نورت إسكندرية.. جلس يحدثنى بود وكأنه يعرفنى هو أيضا منذ سنوات طويلة.. سألنى عن أحوالى.. عن بلدى.. عن أهلى.. ذكرت له كل شىء، قلت له وأنا أستحضر ما قاله إسماعيل لى عن الشغل:

- ماتشوفلى شغلانه كده آكل منها عيش..

نظر إلى وسهم وقال ببسمته العريضة:

- أنت ضيقنا.. ترتاح يومين وبعدين تشتغل.

أحسست أن فى الجو شيئاً غريباً.. كانت الفلوس معى لا تكفى أن ارتاح يوماً.. أخذنى إلى حجرة بها سرير وقال: ارتاح من السفر.. مر يوم.. قلت له اشتغل.. قال ارتاح يومين قلت لنفسى: بنى آدم ثقيل.. خرجت أبحث عن الشغل.. لما رجعت إليه سألتى أين كنت.. قلت له: لم أجد شغلاً.. أسافر مصر.. قال:

- يومين كمان لحد المسألة ماتتوه.

«أنت تعرف إذن حكايتى يا رجل.. تفتح لى بيتك.. غيرك يبلغ البوليس.

لكن كيف عرفت الحكاية.. الجواب.. ربما جواب إسماعيل..»

فى صباح اليوم التالى عرض على فلوسا.. قال:

- من جنيه عشرة..

قلت:

- معى أجرة السفر..

قال:

- أرنى..

لم يكن معى غير قروش قليلة.. قال:

- خذ ولا تعمل فارقاً.. كلنا فى الهواء سواء.. بلدنا والكلاب نجسوها..

وأنت تستحق المساعدة..

أخذت منه.. «يتكلم عن بلدنا.. فى البدء كنت أحسب أن بلدنا هى الكفر..

خارج الكفر لم يكن يخلصنا فى شىء.. فرحت لما ضربنا رجال العزبة.. فرحت

واعتبرت أن بلدنا كسبت العركة.. بلدنا.. أحسست أنها كبيرة كما قال إسماعيل..

كبيرة وفسيحة وممطوطة ولى فيها أصحاب.. إسماعيل فى مصر وعبد الكريم فى

إسكندرية..

قال عبد الكريم:

- يكون أحسن لو اشتغلت فى مصنع القزاز شهر أو شرين.. بعدها ارجع

مصر واشتغل مع إسماعيل.

غمز بعينه وهو يذكر كلمة الشغل فعرفت ما يعنيه «شغل مع الإنجليز يريحهم من هموم الدنيا»..

أخذنى عبد الكريم لواحد أفندى.. عينونى فى مصنع الزجاج.. ولم يرض لى بالسكن بعيد عنه.. وكل مدة لما أقبض أحاول أن أعطيه أجرة السكن فيرفض وفى عينيه لوم يقولها: أنت ضيف والناس لبعضها.. قال مرة ونحن نتعشى.. إسماعيل بعث يطلبك ويطمئنك على الموضوع.. المسألة نامت، لكن من رأى تنتظر شهرا آخر.. وجاء جواب من إسماعيل قال فيه إنهم رفعوا قضية نفقة وبعثوا الإعلان على القهوة فلم يستلمه أحد.. قلت لو رجعت مصر يكون الإعلان فى انتظارى.. الشغل هنا أريح.. عبد الكريم كان لطيفا ومحببا.. كلمنى كثيرا عن الإنجليز.. عن سر وجودهم هنا.. عن ضرورة خروجهم، وحدثنى بصراحة أنه هناك عملية مقاومة لهم تتم سرا وأن إسماعيل يشارك فيها..

قال إن الحكومة تطاردهم وكان من الواجب أن تساعدهم.. غضبت من الحكومة والملك قلت له عن عبد الحميد فقال: لكنك أخذت بثاره.. باقى ثار كثير.. ثار البلد.. قلت له: أنا معكم.. قال أنت معنا من زمن.

كنت طالعا على السلم فوجدت عبد الكريم وسط البوليس.. خفت.. رفع حاجبه وكأنه يأمرنى بمتابعة الصعود دون أن أبين أننى أعرفه.. ظللت أطلع وعبد الكريم يهبط السلم مع العساكر.. «مسكوه.. ربما قتل أحد الإنجليز فجاءوا إليه ومسكوه.. ربما يجيئون ويأخذوننى أيضا.. خفت.. فأتت أيام قبل أن يأتى إلى العسكرى فى المصنع.. سألتنى إن كنت أنا حسن عوف فقلت أبدا، أنا حسن عرفه.. قال: دوخنا الملعون.. من مصر لإسكندرية.. ناولته سيجارة وهدأت خاطره.. قلت:

- عمل إيه؟

قال: مطلوب منه نفقة.. الإعلان داب.

قلت: منه لله.. «من عرفهم عنوانى.. الشيخ سعد؟ ربما هو لأنه حنبلى ويعملها..» لعب فى عبي فأر منجوس.. قلت للعسكرى انتظر لما أتادى زميلى حسن عوف.. جلس العسكرى فى الاستراحة.. هربت من الباب الخلفى من المصنع.. تركت العسكرى ينتظر.. أخذت ملابسى من الشقة «جاءك الموت يا

تارك الصلاة.. الحكومة تريدك» اهرب، غلظت لما بعثت لك يا سعد عن أحوالى..
ما كنت أحسبك تعملها..

ونزلت مصر هذه المرة مغتاضا من الشيخ سعد.. قلت لا أعرفه مكاني أبدا..
رحت أسأل عن إسماعيل فقال صاحب المقهى: بطل من هنا من مدة.. رحى إليه
فى سكنه فلم أجده.. قالوا شال عزاله ومشى.. رجعت لصاحب المقهى وقلت له
أشتغل قال: يفرجها ربنا بعد أسبوعين، ولما فت عليه مرة ثانية قال: تقوت علينا
بعد أسبوع.. نزلت من الحجرة التى دفعت إيجارها أبحث عن الشغل لأن النقود
خفت وأول الشهر قرب.. عرفت الجوع والخوف لما يتسللان إلى الواحد منا
فينكدان عليه عيشته.. قرصنى الجوع وطالبتنى صاحبة السكن بالأجرة فقلت أطلع
أبحث عن أى شغل.. أنهد حيلى من البحث.. قلت أذهب إلى المحطة وأبحث عن
شيلة أشيلها.. صادفتى أفندى فحل وأشار إلى قفه كبيرة على الأرض.. شلتها
وسرت خطوتين.. بعدها سقطت.. لفت سيقانى على بعضها وسقطت على
الأرض.. وقعت القفه فوقى وتدحرجت.. راح الأفندى يضربنى وأنا عاجز عن
القيام أو حتى الصراخ.. والناس لما التفوا حولنا يمنعونه قال لهم إننى تسببت فى
كسر قدرة سمن بلدى.. وحلف لا يتركنى أبدا إلا لما أدفع له ثمنها، وجاء رجل
طيب وعجوز.. أمسك ذقنه وقال له: من أجل شيبتى سامحه.. خجل الأفندى وفك
طوق جلبابى الذى كان يمسكه.. سألنى الرجل العجوز لماذا شلت القفه وهى
ثقيلة؟ قلت له وأنا لا أعى كيف قلتها:

- جعان.

والتفت الأفندى ناحيتى وقال لى فى إشفاق:

- بتقول إيه؟

لم أستطع قولها مرة أخرى.. ذابت فى حلقى.. فى كل حياتى لم أقلها مرة
أخرى، أبدا أبدا لم أقلها.. طعمها فى الحلق مر كالحنظل.. فيها مذلّه وانكسار
وتسليم.. طعمها مر وغير مبلوع أبدا.. لم أقلها.. قالها الرجل الطيب للأفندى..
قال الأفندى الفحل وفى عينيه شىء كالدمة يحاول أن يداريها:

- حقا على.. ما كنتش أعرف حكايتك..

مد يده ناحيتى يعطينى نقودا.. لم أرض أبدا.. ناولها للرجل العجوز، وكأنه

يهرب من غلطة وقع فيها ويصعب عليه إصلاحها.. قال وهو يحمل القفة على كتفه فوق القميص الأبيض دون أن يهتم:
- خليك معاه ياعم.

والرجل راح واشترى لى أكلا وقال: كل.. وأنا لولا الجوع ما أكلت أبدا..
«لو كان الإنسان بلا معدة.. لو كنا بلا معدة يارب، ما حسسنا بكل هذا القهر والمذلة.. لماذا كانت البطون؟ مادامت نقمة ولعنة وسببا فى الهوان يارب؟» كنت أكل فى نهم.. الرجل العجوز يجالسنى على الرصيف رغم جلبابه النظيف ويربت على كتفى فى إشفاق وحنو.. بعدما شبت وهو يتظاهر بأنه يأكل معى، أخذنى وقال: نشرب شايًا.. جلسنا فى ركن مقهى.. قال:
- باين عليك ابن ناس.

- «كلنا يا عم أولاد ناس..»

قال:

- الدنيا حجر طاحون.. يوم فى العالى ويوم فى الواطى..

قلت:

- الجوع كافر..

قال:

- الأصل فى عينيك..

قلت:

- أصلك فعلك..

سألنى عن بلدى فقلت له.. سألنى عن أهلى فقلت له.. قال

- إنه يعرف جماعتنا، يعرف جدى مصطفى بالذات.. وأنه تاجر على باب

الله يبيع القماش ويلف بلاد المسلمين.. يعرف ناسها.. وراح يحكى عن

نفسه كثيرا ليؤكد أنه يعرف جدى..

قال:

- تشتغل معايا ورزقى ورزقك على الله.

قلت لنفسى أجرب.. وسافرنا سويا.. حملت على كتفى أثواب القماش ودرنا

فى البلاد والكفور التى يعرفها.. يعرف ناسها.. ولما فات أسبوعان رجعنا،

والرجل أعطاني حسابى وقال: الشغلانة تعب عليك وصحتك ضعيفة.. قلت له فعلا، أسافر إسكندرية واشتغل فى المصنع مرة ثانية.. قال أحسن لك لأنك تخجل من الناس ولا تنفع فى التجارة أبدا.. وودعته وذهبت وجمعت ملابسى وعدت إلى باب الحديد ناويا على السفر إلى الإسكندرية.

عند باب الحديد لمحته.. خبطت ييدى على كتفه فى ود.. التفت ناحيتى لما رأتى أخذنى فى أحضانه.. لم يصدق عينيه.. تعانقنا.. وضعت السبت على الأرض ونسيته.. كأنه أخى ولدته أمى وغاب عنى عمرا قال بحماس:
- دوختنى عليك.. رحى لك إسكندرية

قلت له إننى سألت عنه فى السكن والمقهى فضحك.. قال مداعبا..
- شكلك تغير أصبحت ابن بلد بحق.. بص إلى السبت

وقال:

- إلى أين؟

قلت:

- إسكندرية، المصنع، كنت أنوى الرجوع لما عجزت عن مقابلتك.. قال كثيرا عن أحواله.. سألنى عن عبد الكريم فقلت له.. قال إنهم مسكوا نفرا آخر.. جلسنا فى مقهى قريب وذكرت له ما جرى لى..
قال:

- حظى كان أحسن.. أضاف متباهيا وكأنه لا يصدق نفسه.. فتحت محل حلوانى وبقي لى مركز.. عملت عملة وطلعت منها بقرشين تمام.. همس: ضابط إنجليزى وقع فى سكتى إياها ولما فتشته وجدت جيبه عمران، وقعت على كنز، وبعثت أطلبك لأن موضوعك نام بعد أن عمل زوبعة كبيرة..

قلت له:

- فرجه قريب..

سألنى عن وجهتى فذكرته برغبتي فى العودة إلى الإسكندرية لأرجع المصنع، قال والضحكة الساخرة تملأ عينيه فتدمعان من كثرة الضحك:

- يا ناصح، زمائهم رفسدوك يا حلو، مافيش غير الدكان، والمكسب بالنص.. حتتبسط.. قلت إيه؟

قلت فى عقلى إنه يضحك على ويجاملنى لكنه قطع تفكيرى وأخذنى إلى ميدان العتبة وأرانى الدكان.. عجبت لأحوال الدنيا.. قال تكتب عقد شركة؟ قلت: هو مجنون ليجعل لنفسه شريكا فى الملك.. قلت: أنا مطمئن وجلسنا فى ركن الدكان وأخذ يحدثنى عن نشاطه خلال فترة غيابه.. قال إنه طلبنى لأنه رتب عملية فى كامب إنجليزى قريب من القلعة، وإنه يحتاجنى معه لأن زميله فى المنطقة ممسوك مثل عبد الكريم.. لما قلت له: يمسوننا قال باستهانة إن هذا لا يهم فى شىء وحتى لو وقعنا فى أيديهم نكون أخذنا حقنا ونفذنا العملية.. أفهمنى أنه رتب كل شىء وحسب حسابه.. ولما أخذنى ليكتب عقدا لشركة الدكان قلت له أنه لازم لذلك لأننا أخوان ولو طلب رقبتي أسلمها له.. ورحنا الشقة وقال: حظ السبت وخذ راحتك.. وعشنا أياما وكنا نكسب كثيرا ويعطينى كل ليلة نصف المكسب بعد محاسبة العاملين.. شاركنى فى الحلوة والمرة وكان يعرف الكثير مما أجهله، حتى اللغة الإنجليزية كان يتكلمها وحاول أن يعلمنى.. وكان يحكى لى عن أنواع الأسلحة وأسماء الباشوات وأصحاب الأملاك والباشوات، ويعرفهم بالواحد ويتعامل مع الدنيا بجرأة ولا يهتز أبدا مهما حصل له.. حتى لما كنت أحكى له عن عبد الكريم لما مسكوه لا يهتز أبدا.. وكلما قلت له عن العملية يقول اصبر وما صبرك إلا بالله..

- قال مرة: عندى شغلانة صغيرة أعملها وأرجع لك بعد يومين.. قلت له:

- أشاركك؟

فأفهمنى أنها عملية بسيطة تحتاج لنفر واحد.. وذكرنى بضرورة بقائى فى الدكان وساب المحل أمانة وغاب أياما.. كنت أحتفظ له كل يوم بنصف المكسب كما علمنى وأحس أنه سوف يأتى ويقلت منهم، والغائب حفته معه.. وفعلا جاء فى ليلة ودخل الدكان فلم ألاحظه.. ولما طلب طلبا عرفته من صوته وهللنا سويا وراح يحكى عما حصل ففرحت به وأعطيته القلوس فقال:

- خليها معك واستعد للعملية الكبيرة بعد يوم أو يومين
وقلت له:

- اتفقنا وكنت مشتاقا بكل حماستي للعمل معه فى هذه العملية..

وسألنى إن كنت أستطيع ضرب النار فقلت أتعلم: وعلمنى كيف أستعمل
الطبنجة.. وليلة العملية أعطانى طبنجة واحتفظ لنفسه بواحدة وقال حظها فى
جيب البالطو - وانتظرنا حتى منتصف الليل.. كان الطريق مظلمًا وساكنًا ولكنه
كان يعرف السكة كأنه مشى فيها عشرات المرات.. تسللنا من ناحية الجبل وكنا
نرى الكامب مضيئًا من بعيد.. قال إسماعيل: لو أمسكونى اهرب، المهم أن تهرب
لأنك لن تستطيع أن تعمل لى شيئًا، قال إنه عملها مع زميله الممسوك وأنه هرب
فى عملية مشابهة.. وعرفت أنه سوف يحرق الكامب ويحاول الهرب.. وعرفنى
بمكان فى الجبل أتوارى فيه حتى الصباح.. كل التفاصيل قالها وقال إنه على أن
أطمئن عليه فعمر الشقى طويل.. كنا نضحك.. ومن مكان معتم قال ارفع السلك
فرفعته وتسلل فرفعته وتسلل هو.. كان على لو شفت عسكرى الخدمة الإنجليزى
أن أشغله أو أقتله بحيث لا يصل إلى إسماعيل.. وحتى عسكرى الخدمة لم يظهر
أبدا.. واختفى إسماعيل فى الظلام فمسكت قلبى بيدى وخفت ثم سمعت صوت
طلقة وانفجارات متوالية وتحركت أنوار كشافة فى كل اتجاه وكأنها تبحث عن
إسماعيل.. وكانت الأنوار تلمع وتلف فتذكرت ما قاله إسماعيل عن ضرورة
الهرب..

كان الجبل فسيحًا فاتجهت ناحيته وظللت أجرى.. وفى مكان ما وجدتنى
أرتضى دون أن أفهم إن كان هذا المكان مأمونًا.. أمسكت الطبنجة وانتظرت فلم
يأت أحد.. وعند الفجر قلت لنفسى لو صادفنى واحد منهم أقتله وأهرب.. وكانت
السيارات تعبر الطريق الجبلى ولا يلتفت إلى أحد.. ووصلت الدكان وانتظرت
إسماعيل دون أن يأتى حتى يئست من عودته يوما..

* * *

كرهت أن أقول للناس إننى خلفت.. ولدين فاسدين.. أولهما يظهر الخوف
فى عينيه ممزوجًا بالجسارة، الإحساس بقوته الغشيمة والرعب فى حدقتى العينين
ولا أعرف كيف.. والثانى قلت إنه عاش عمره معى فلا بد أن أفهم كل حركاته

وسكناته، لكننى عجزت عن فهمه.. يقولون إنه فسد هناك فى مصر وفاتنى هنا وغاب.. فى كل شهر يبعث خطابا فى البوستة به حوالة «هل خلفتك يا بن الكلب من أجل حوالات تبعثها فى كل شهر.. أنا خلفتك لتكون ذراعى ونور عينى لما يعجز الذراع والبصر..» يغيب عنى شهورا ولا يأتى.. صالح صار يأتى «يحسبوننى طفلا يضحكون على ذقنه.. لعبة هى يلعبانها معا..» لما قلت له:

- أنا بدأت أحب صالح وأكرهك،

بان فى عينية شىء كأنه الانتصار ففهمت.. يحسبنى لا أفهم.. أنا ربيته وعلمته.. لعبة مكشوفة.. يغيب هو ويظهر صالح «حتى صالح تحركه يا سيد.. ولد خبيث.. لعبتك مكشوفة يا سيد أفندى» ينسى أن الحب شىء لا يملك الإنسان صنعه أو منعه.. صحيح أشفق على صالح وأضيق بما يعمل به سيد.. يقولون إنه دار على حل شعره فى مصر.. إنه يلعب على هواه.. هو نفسه قال لى عن بنت يعرفها نسيت اسمها الآن.. لابد أنه يصرف عليها مكاسبه..» كان جدى مصطفى عليه الرحمة يقولها لنا: الحريم.. آه يا فرعنا الخائب لماذا تمتد أطرافك المائلة ناحية سيد؟» كان يحكى عنها كثيرا لكنه كف.. ربما تزوجها دون علمى. لو صدق هذا الظن أذهب إليه وأكسر رقبتة كسرا.. وهل أنا منعه من الزواج ليخفى عنى أخباره؟.. شتمته فعلا لكننى طوال عمرى أشتمه وأضربه أيضا ولا يفتح عينيه فى وجهى.. هذه المرة عمل غضبان وغاب عنى.. الآن عمل كبيرا على ولم يحتملنى.. أنا عجوز وما لم يحتملنى هو فمن يحتملنى؟ قالوا لى ارفع عليهما قضية فأنت كبير.. لكن هل من الممكن أن أعملها أنا؟.. أشتكى أولادى؟ مهما حصل منهما لا يصح أن أشتكيهما.. من أجل النفقة أقف أمامهما فى المحكمة على آخرة الزمن؟ ما تبقى لى من العمر لا يستحق الشكاية.. لو مت بعدها يلعنونى كل يوم.. ليست النفقة هى غايتى أبدا.. أريدهما معا.. أراهما وأحادثهما معا.. لا يكفى أن يأتى الواحد منهم ويختفى الآخر.. حتى سيد لما كان يأتى وحده كنت أفرح صحيح، إنما لا تكتمل الفرحة أبدا.. صالح أيضا له فى قلبى مكان لم يفتحه أحدا.. ولما يأتى صالح ويغيب سيد أحس بأن هناك شيئا غير مكتمل ولا مريحا فى قلبى.. كلاهما ابن حرام.. ولدان فاسدان، كله من هذا الولد سيد.. هو الذى أتى بصالح فحرك المشاعر النائمة والمدفونة منذ سنوات.. صحاها من

نومها الطويل.. صالح أيضا له حق عليك «قالها سيد مرة فأحسست بوخزة في ركن قلبي.. رغم معارضتي أحسست أن في كلامه شيئا من الحق.. لو أنني أخذته معي.. لو أخذته كما أخذت سيد وربيتة ربما كان يرتاح، لما جاء منذ أسبوعين كان يكلمنى محاولا أن يبدو رجلا لكننى كنت أراه طفلا.. أصغر من سيد نفسه.. طفل ضخّم له شوارب كبيرة يتخللها شعر أبيض.. الطفل الكبير كلمنى محاولا أن يبدو رجلا.. أسائل نفسى إن كنت سعيدا أو تعيسا فأعجز عن الجواب.. بعد يومين أذهب إلى الولد سيد فى مصر أشوف أحواله وبعدها أرجع.

* * *

وكانما كان الدكان الذى فاتته إسماعيل أمانة فى رقبتي وغاب سببا.. «سبحانك يا مسبب الأسباب» الشيخ سعد كان يأتى بجبته الكشمير وعمامته التى بدأ يهتم بحسن لفها ويعوجها على جنب.. يجلس متمتما - كما يفعل الفقهاء فى البلد - بالدعاء إلى ربنا يزيدك من نعيمه.. يكفيك شر أولاد الحرام.. «ولما أقول له إن الدكان ليس لى ينظر إلى مستنكرا ويقول «ومن شر حاسد إذا حسد» ناظيا عن نفسه أنه سوف يحسدنى، وأقول بينما يأكل قطع الكنافة بعد البسبوسة إن الدكان أمانة، فيعمل ما سبق أن عمله مرارا.. يخرج من جيبه شلنا ويحطه على الترابيزة ويقول: خذ الحساب، فأعيد إليه الشلن وأقول له ليس من الأصول أن تدفع وإنما أقول لك الحقيقة.. يقول هو إنه لولا اطمئنانه أنه يأكل فى دكان أخيه الصغير ما أكل دون أن يدفع.. وفى كل مرة يأخذ اللقافة التى أحضرها له ويتاويها فى جيبته ويخرج.. ما كنت أخشاه أن يدلهم على عنوانى فيصلنى إعلان طلب النفقة عليه.. ولما جائتنى رسالة خفت أستلمها وقلت ربما تكون إعلانا، فنظر إلى الرجل مستغربا وقال جواب عادى فأخذتها منه وأعطيتها لأفندى كان يجلس فى الدكان يأكل وأفهمنى لما قرأها أنها من برهومة يعرفنى أنه سوف يصل بعد أسبوع.. كنت أخشى وصول أبى لكن برهومة جاء وحده، ففرحت به ونسيت خوفى منهم لأن عينييه بان فيهما الود.. كان شابا باسماء له عود ممدود مستقيم لولا شحوب خفيف.. كان يضحك فيتمنى كل من يراه أن يكون أخاه.. قال إن أبى بعثه إلى لأوصله إلى حكيم يعالجه من مرض خفيف يحسه، وراح يحكى عن خناقة بين أبى وصالحه لما طالبتة بأرضها:

- أبوك قال لها: الأرض لبرهومة واللى يخطى فيها أكسر رقبتة بإيدى وأدقنه فيها.

ويشرع فى الضحك ويفهمنى أنه لابد من تقسيم الأرض بيننا مهما حصل.. ولما سألتته عن قضية النفقة قال إنها تنازلت تحت ضغط أبى وأنها ربما تتزوج ابن عمها أمين.. وصدقت كل ما قاله برهومة ولما رحنا للحكيم وصف له العلاج ولم أعرف بعدها عن المرض شيئاً.. وقال لى: ارجع معى فقلت له حكاية الدكان وأنه أمانة، فقال حافظ على الدكان ولما يظهر صاحبك سلمه له وارجع الكفر.. وأخذته معى وفرجته على الأماكن التى عرفتها فكان مبسوطاً وأصر على عودتى للكفر ولو ليومين وارجع.. وطول مدة إقامته معى لا يجعلنى أدفع مليماً فى شىء ويقول حافظ على فلوس صاحبك يا حسن.. وأنا أقول لنفسى: «عادت المياه لمجاريها يا برهومة لكن الخوف من أمك».

قال برهومة:

- أمك خطبت لك ووصتنى بإبلاغك.. وأضاف: تنسى ما جرى وترجع تعيش فى أرضك وتربى صالح والدنيا لا تدوم على حال.. وحتى لو عارض الرجل أتنازل لك عن نصيبك ويخبطوا دماغهم فى الحيط لأننى أحس الوحدة.

وكنيت أصدق ما يقوله: قلت: الدكان أمانة.. ومن آمنك لا تخونه.. أول ما يرجع صاحبه أسلمه دكانه وفلوسه وارجع الكفر.

ولما نزلنا الكفر فتنا على أمى أنا وبرهومة.. ورحبت وقالت لى إنها شافت لى عروسة حلوة وأنها سوف تعجبنى.. سألتها:

- من؟

قالت:

- شوق بنت عبد الستار شلبى..

قالت:

- كانت صغيرة لما خرجت من الكفر وتلعب فى الشارع.

قالت: كبرت وأصبحت عروسة ثم يا واخد الصغير يا حرامى السوق.

ورحنا لأبى فقابلنا مقابلة حسنة وسألنى عن أحوالى فقلت له كل شىء فضحك وقال:

- غلبتنا معاك.. اللي كنت خايف منه راح.. صالحة دار عليها سنين ووافقنا.

قلت:

- طيب على خيرة الله..

قال:

- تغور في ستين داهية.. ما دام الأرض في عبنا خلاص..

- ولما قلت له عن حكاية شوق

قال:

- لا مانع خذها.. عبد الستار نزيه وإن كان يبيع أرضه كل يومين فدان.
وأما راحت هي وخالي محمد وخطبوها وقالت لي إنهم فرحوا وعزموني
أتعشى عندهم.. ولما رحت شفت شوق، كانت حلوة.. وجه مدور كصحن بنور
وعود فائر وتقاطيع طفلة وابتناسمتها تخطف القلب.. كانت مكسوفة لما دخلت
وجلست ساكتة.. لكن أمي أخذتها في حضنها وراحت تلاعبها والبنت تضحك ربما
تقول إنني غريب عن الكفر لأنني تغيرت ولبست طربوشا ومعطفا صوفيا وجلبابا
له ياقة خلافا لمن تراه في الكفر.. قلت لها بشقاوة ابن بلد وكأني ألاغي بنتا
تشتري من الدكان: دمك خفيف يا شوق.. فاحمرت خدودها بسرعتها ورمحت
خارج المندرة.. قالت أمها تلومني بفرحة:
- كسفتها.

وقرات الفاتحة مع أبيها وشرطنا شرطها وقلت لأمها وأنا أخرج من دارهم
والفرحة تزغرد في قلبي: خدى بالك منها.

دس في يدي نقودا فنظرت إليه متعجبا.. كنت قد نويت على السفر وأفهمت
أبي أنني سوف أرجع قريبا.. قلت له: معي قال: خذ، فلوس صاحبك حافظ عليها
وسلمها له وارجع.. أخذت ما أعطاه لي وسار معي يوصلني ويسألني عن شوق
فقلت له فبان عليه الانبساط بصورة لم أعهد لها فيه، وبرهومة يغمز لي والدموع
توشك أن تطفئ من عينيه فأعرف أنه وراء ما حصل من تغير في لهجة أبي
«قلبك أبيض يا برهومة.. لكن قلب أمك له لون آخر.. أنت قلتها هناك في مصر:
كسروا أنفـه بحكايتي وعملوه مضغة فبعثك ليصلح الغلطة» وصالح كان يمشي

معنا فى سكة البندر ويقول لى بحماس وهو يتعلق بطرف الباطو:
- اقعد معنا على طول يابا

وانا اقول لنفسى اننى سوف أرجع لأجله ولأجل برهومة.. «وقال أبى سامحنى فعجبت لطلبه.. ولما قلت له سامحتك زفر فى ارتياح وكأنتى أزحت بالسماح صخرة محطوطة على صدره.. وحكى لى عن كابوس طارده.. ثعبان كبير التفت حوله وغرس أسنانه فى لحم صدره.. وكان يصرخ ويسمع الصوت يدوى: فوق لروحك يا عبد القادر وراضى ابنك الغريب. وكان ينادينى بعزم صوته ويسمعنى بعيدا بعيدا، كأنما يأتى الصوت من تحت الأرض، والثعبان يضغط ويضغط وأنفاسه تضيق.. وجاء برهومة معى فخف الضغط عن صدره وانزاح الثعبان وأحس بالراحة».. وقال أيضا: إن الخير الذى أصابنى كان من أثر دعواته التى طلبها لى فى صلاة الفجر.. هو إذن أصبح يصلى؟ وكنت أضحك فى سرى من كلامه.. وسأيرته.. «طول عمرك يا رجل لا تركعها، لا ترى حالى أبدا أو تسمع صوتى ولما يزورك ثعبان فى المنام تخاف؟.. تخاف وأنت مثل فحل الجاموس.. رب سلط عليه فى كل ليلة ثعبانا يقلق نومه ويخوفه مادام لا يعرف الخوف دونه.. ثعبان شراقى يلهفه فى المنام ويصبح الصبح فيحسن معاملتنا لما أرجع».

* * *

ولما قامت الحرب خفت على سيد.. قلت: مصر خطر.. لو يأتى أطمئن عليه.. بعد أيام جاء.. صوته مبجوح وعلى وجهه أمارات هم لم أرها أبدا على تقاطيعه.. حكى لى عن النكسة بمرارة.. وعن اليهود والأمريكان.. فسر لى أسبابا سبقت الحرب لم تخطر ببالى «ما لنا بالحرب يا سيد؟؟ لا نحتمل الحرب يا سيد.. هم أقوى من الإنجليز والإنجليز قتلوا عبد الحميد فى عز الظهر.. كنت تهتف ضد من ومع من؟ لو شافك الأمريكان يقتلونك.. لو عرفوك ما فاتوك.. كن فى حالك.. ترتاح وتريحنى» قال: انهزمنا فعلا لأننا استهترنا بهم ولم نعمل حسابا سليما لشيء.. تواقلنا واندفعنا بحماس نتباهى فأنكسرنا.. قلت له: ربك يحلها.. قال: لو أمكن للناس أن يذهبوا اذهب معهم وندافع.. سكت.. لو عارضته ما أفادت المعارضة.. فى حرب بور سعيد أخذ البندقية وسافر ولا أدري كيف سافر أو كيف

عاد ومن أين جاء بالسلاح.. هو أدري بمصلحته» كان يحكى بحماس الواصل من صدق ما يقوله.. كنت أصدقه. للحظة أحسست بالرغبة فى مشاركته الحماس.. الذهاب معه حيث يتمنى الذهاب.. الموت فى رأيه لا يساوى الخوف منه.. الموت الذى يصفه موت آخر.. موت محبيب «حتى الموت لما تحكى عند يا سيد يكون حيا» من أجل البلد.. لم أحك لك كل شىء.. ما كنا نعمله على أيامنا من أجل البلد.. كنا نواجه الموت مع الأفندية وأولاد مصر.. نهتف ونحمل الذين يتساقطون بيننا.. نحملهم ونظل نهتف.. وعبد الحميد لما سقط حملوه وظلوا يهتفون من قيعان الحناجر وكنت مازلت صبيا خوفا. حماسك أكبر منك يا سيد.. أيامنا كنا نعمل ما نعمله ولا نبوح.. أحيانا أقول لنفسى إنكم تتكلمون كثيرا.. ترى هل تقول للناس مث لما تقوله الآن؟.. أحسب أن لا شىء يعجبك أحيانا.. ربما تخاف.. أنا جربت الخوف.. لكنه لم يستمر معى.. اسكت يا سيد.. ربما تسكت أنت أيضا لما تخرج من هنا وتواجه الدنيا.. أستطيع أن أحارب لكن القدرة هزيلة.. لا يهم الموت.. الكلام الذى أسمعته منك يجعل الدم يفور ويغلى أنت تجعل من الموت قيمة ومن الحروب ضرورة من غيرها تفقد الحياة معناها.

ولما سافر سيد لم أكن خائفا عليه.. حتى لو حارب.. لو قالوا إنه مات ما أحسست بالحزن المر.. ربما أحزن لكنه يكون حزنا خفيفا على القلب يجعلنى أتباهى به.. وأنا الذى حسبته عريدا ويتسلى ويلعب ويشرب ويحب ويتمتع كل يوم أكثر من اليوم الفائت.. حسبته ولدا تائها بلا هدف.. قلت له فى سرى: ربنا يحميك ويهديك يا سيد ونمت.. أسترجع أيام القدرة والحماس وإسماعيل.

* * *

وعرفت طعم الفرح ليلة شوق.. أبى بجلالة قدرة كان مبهورا يزغدى والضحكة تملأ وجهه المبسوط الذى سرح فى عوالم بعيدة.. يقولها:
- والله صبرت ونلت يا وله.. دى تسحر العابد.

وعمى إبراهيم يبريش بعينيه متصنعا، كأنه يواجه الشمس ويطل إليها فأضحك مع الناس.. يقول لأبى بصوت عال:

- وشرف المصطفى يا عبد القادر يا خويا اللى حدانا ما هم حريم، دول جريد نخل منصوب هياكل.

ويسهم أبى ويقول وهو يلتفت لبرهومة فى حنو:

- عقبالك يا وله.. دى ليلتك حتبقى ليلة.

ويضحك برهومة وكأنه لا يهتم بما يقوله أبى ويكتفى بفرحة الليلة.. ويتابع أبى ما كان يقوله:

تبارك الخلاق تقولش لهطة قشطة عقبالك يا برهومة وتكمل الفرحة يا ولاد.

ويمسك عصاه القصيرة ويبدأ الرقص «هكذا أنت دائما رغم كل عنفوانك وقسوتك تبدو طفلا يتراقص فى الأفراح كأنما يبحث عن الفرحة بأى شكل» والضجيج يرتفع.. أرقب شوق بطرف عيني فى ثوبها الأبيض.. يكشفنى برهومة ويقول بضحكة: اصبر.. وأنا لم أكن مصدقا لكل ما يدور حولى. كأننى أحلم.. رجالنا ورجال شلبى يتسابقون فى إظهار الفرحة.. كأنما الكفر كله يغنى من أجلى أو من أجل شوق أو من أجلنا سويا.. مشوار الزفة كان طويلا من دارهم إلى دارنا.. حبات الملح تتساقط فوقنا والزغاريد والغناء.. وحببات الملابس أيضا تتساقط فيتخاطفها الأطفال.. وأصوات البنات البكر تلعلع بدلال:

كتبوا كتبك يا نقاوة عيني.. والطشت فضة والمعالق صيني..

ولما وصلنا المنذرة جاء عمى إبراهيم وشد امرأته فاستجابت لدعوته وهو يدفعها ويقول:

- هزى طولك يا وليه خلىنا نفرح.. دانت ندرها لحسن.

وأبى يدخل الحلقة الضيقة ويتلاعب مع عمى إبراهيم بالعصى فى ود، ولما يخرج أبى يبدأ عمى إبراهيم محتارا قبل أن يكتشف امرأته التى يبدأ فى ملاعبتها وكأنه قرداتى يلعب قردا وسط الضحكات والتهليل وزوجته لا تدرى سبب الضجيج ولما تكتشفه تكف عن الرقص فيزداد الضحك.. وشوق تضحك كأنها طفلة تلعب فى مولد أو تتفرج على أراجوز مضحك. وتتنظر إلى خلصة.. هذا هو الفرح بحق.. الفرح لما يعيش فى القلب فيجعله خفيفا يوشك أن يطير.. الفرح لما يشمل كل الناس من حول النفر فلا يحس بوجود شىء ينغص عليه اللحظة، وتسألوا من المنذرة وفاتونا معا.. الوجه بدر والقوام ملفوف والبسمة حيية مرتاحة على الملامح ومتوجسة فى سكون.. وبريق العينين ينصب على وحدى

ويحكى فرحة القلب الصغير.. والصوت نغم هادئ خجول خال من الجسارة.. «لهم حق فى صب نظرات الغيرة منك يا شوق..» وأنا آخذها بجوارى لم يكن فى الدماغ شىء غير الارتياح.. ارتياح لم أجريه أبدا.. والصباحية لها لون جديد.. لون حلو.. وأنا آخذها معى فى العربة المخصوص إلى مصر وكأنتى تؤكد لنفسى أنها صارت لى وحدى.. والحجرة كم كانت فسيحة فى نظرى.. كأنما انتقلت الجدران وأصبحت هى العالم كله.. الدنيا كلها ملكى وطوع يدى قال جدى مصطفى: «الحريم دنيا لا لها أول ولا آخر» صحيح.. كان يقصد شوق.. وأنا أهمس لها: نورت مصر.. وهى تطرف برموش عينيها فتغطيها خجلا، وانتظر حتى تفتحهما لأطل إليهما، «لن أجعلها تخرج أبدا من البيت.. حتى لو رجعت الكفر فسوف أحجبها عن العيون ولا أدعها تخرج ليراها غيرى» والأيام الحلوة.. أبدا.. حتى الساعات كانت تفوت علينا وأنا تائه.. وساعة الجيب التى اشتريتها كانت تكذبنى كلما سألتها عن الوقت الذى فات منا.. وطعم ما كانت تصنعه وتقدمه إلى مازال على طرف اللسان.. أستعيد حلاوته كلما أردت.. حلاوة مخزونة لا تنفد أبدا.. وأنا أحاول تخويفها لما شفتها تنظر من النافذة فتتكمش مدركة أننى لن أضربها مهما حصل لكنها تتصنع الخوف باطمئنان.. تقول:

- كنت أنتظرك..

والدكان نسيته.. حتى إسماعيل نسيته.. لا شىء إلا رغبتى فى البقاء معها.. أضاحكها وأسليها.. ألاعبها كما كانت تلاعبها أمى.. وفى الدماغ فكرة وحيدة ورغبة وحيدة.. شوق.. حتى لما تنام قبلى أظل سهران ساعة أنظر إليها وأتسمع أنفاسها الخافتة وأقول لنفسى إننى دخلت الجنة.. وأسأل نفسى إن كان من الممكن أن أخرج منها يوما «وحتى لو جاء إسماعيل وأخذ الدكان فسوف أرجع إلى الكفر وأعيش سلطان زمانى فى أرضنا مع شوق فقيم الخوف» وكلما أتوانى عن فتح الدكان فى الصباح الباكر تصحينى وتدفعنى فى رقة وتقول: اذهب.. ولما أتكاسل متدللا وكأنتى طفل تقول لى: إن الرزق يفوت على الدكاكين فى الصباح الباكر ويغضب من الأبواب المسكوكة.. أسالها من علمك هذا؟ تقول أبى.. وأقول لها: طيب أنزل بشرط أن يكون الغداء حلوا فتسألنى إن كانت تعمل شيئا لا يرضينى فأنفى، وأخرج.. ولما أخرج من الشقة أكون فرحان غير عامل حسابا للشغل أو شقا اليوم.. كل الأشياء أيامها كانت تتم وأنا مرتاح.. ولما يجىء

الظهر أرجع وأخطف لقمة معها وطعم الأيام على طرف اللسان.. وصوتها فى طبلتى الأذنين مازال.. وكأنه صوت لا يعرف الموت أو الغياب.. ومازالت أطراف أصابعى تستعيد نعومتها وطرواتها.. وكل شىء مازال فى الدماغ صاحيا.. حتى الدموع التى كانت تنسال على خديها دلالة أو لوما أو شكاية.. كل شىء مازال.. أستطيع استعادته متى أشاء..

ومرة رجعت البيت ملهوبا فوجدتها تنتظر.. قلت إنها كل مرة تنام ولما أرجع أصحبها لنحط العشاء وتتعشى.. قامت وغرفت الأكل وحطته ولم تجلس معى لنأكل.. نظرت إليها وقلت لها: كلى معى يا شوق.. قالت: لا.. عجبت وقمت إليها اسألها عن السبب فقالت وشىء كأنه الحجل يرف على وجهها:

- ما ليش نفس للطبيخ

وعجبت.. قلت لها:

- كلى حلاوة جبتها معى

فقالت:

- لا..

سألتها عن السبب قالت:

- عايزة فسيخ.

قالتها بسرعة والدم يوشك أن يتضح فوق الجلد الأبيض الصافى.. أخرجت الساعة ونظرت إليها فوجدتها تقترب من منتصف الليل.. «نصف الليل وتطلب للعشاء فسيخا.. ربما مجنونة، ربما عقلها خف.. أو.. أو بطتها ثقلت.. تمام.. بطنها ثقلت» نظرت إليها مدققا أستفسر منها عما دار فى رأسى فأطرقت.. رفعت ذقتها ونظرت إلى الوجه فغطت برموشها عينيها.. همست لها بود: صحيح؟ أجابت: أكثر من شهرين.. أخذتها فى حضنى وأنا فرحان بها إلى حد الهوس «تتوحمين يا شوق.. أنت تتوحمين؟ آه لو كانت المدينة صاحبة مثلنا لدرت أشتري لك طلبك وأقول لكل الناس «شوق حملت» قلت لها: الصباح رباح يا شوق، من عيني.. وبأن عليها الفرحة.. وزغردت فى القلب فرحة.. ورقصت على الشفاه أغنيات رحت أغنيها بصوت خافت جنب شوق.. وهى تضحك منى فرحانة هى الأخرى فى محاولة أن تخلص من كسوفها.. ذلك الكسوف الذى غطى الملامح ولبد على الوجه وتركز فى أغوار العينين وامتد لكل البدن.. كانت ليلة.. ودرت

فى الصبح أبحت عن طلباتها واشترى بكثرة وأتمنى أن تمضى الأيام بسرعة..
بسرعة لأراه أو أراها تلك التى تحركت فى بطن شوق..

قلت للشيخ سعد لما جاء:

- ابعت أم على لشوق

وسألنى عن السبب فقلت له وأنا فرحان فانبسط وقال أول ما أوصل البيت
أبعثها وأضاف: تعرفهم بجواب.. قلت اكتب لهم الجواب وأسجله لهم اليوم..
وكتب الجواب وسجلته ورحت أشتري خزيننا للبيت وأزود..

دخلت الشقة فوجدت أبى وبرهومة وأمها وأبيها.. سلمت عليهم وباركوا لى
ودعوا لشوق:

- ربنا يجبرها وينتعتها بالسلامة.

وكأنا نصينا الفرح من جديد.. أبوها قال لها مرة:

- ما تجيبى يا بت صيغتك دى أبيعها واشترى لك بها عجول أسمنهم لجل
العيل اللى فى بطنك ما ييقاله رسمال ينفعه.

نظر أبى إلى وعيناه تقولان: لا وأنا لم أرتح للفكرة.. الخير كثير ولا لزوم
لبيع الذهب.. شوق حلوة وربما أشتري لها أكثر.. وهى سألتنى بنظرة وفى
عينها رغبة لتنفيذ كلام أبيها

قلت لها:

- لا

قالت:

- لأليه.. دى على ما تدور السنة يبقى لنا مراح.

فتحت الدولاب وأخرجت الفلوس التى كنت أحتفظ بها لإسماعيل ووضعتها
أمامهم فبرقت عينا عبد الستار.. قال:

- حائط الفلوس فى الدولاب؟ دا القرش صياد.. الفلوس تجيب فلوس..
هاتهم يا جدع هاتهم.

قال برهومة:

- لم فلوسك يا حسن ورجعها مكانها.

والتفت إلى عبد الستار وقال:

- لما يرجعوا يبقوا يشتروا اللي هما عايزينه يابا عبد الستار.

وسكتنا لحظة.. لكن شوق قطعت الصمت وخلعت الذهب كله وقدمته لابيها وكأنها تصفني.. أخذه الرجل وقالت هي:
- أنت حر في فلوسك وأنا حرة في صيغتي.

قلت لها البسي ذهبك فلم تطاوع.. لوت بوزها.. وأنا أحسست بخبطة تقع على دماغى.. وزن دماغى كأنما سكنته خلية نحل.. «قلت لها خذى الذهب فلم تطاوع.. أبى قال إن عبد الستار يبيع أرضه كل يومين فدان.. ربما يلعب بنا وتكون مشاكل.. مالنا بالمشاكل..؟ واجب تسمع الكلام».

قال أبى وكأنه ضاق بمعارضتها:

- ما لكيش حق يا شوق.

لكنها تحمست لفكرة أبيها وردت على أبى بطريقة ساخرة.. كأنها تقول له: كن في حالك ودعنا في حالنا.. وسكت أبى.. للمرة الأولى أراه منكسر الخاطر ولم أملك إلا الخروج من الحجرة، فتبعنى برهومة وأبى وخرجنا وقعدنا في القهوة القريبة ورحت أدخن الجوزة وأبى يتأفف وإن حاول تهوين الأمر على.. قلت لنفسى «كسرت كلامى وكلام أبى فلا أمان لها» قال برهومة وكأنه يشير إلى أمر خفى علينا:

- عبد الستار دكانه فضى وعايز يمله.

تحمس أبى:

- رزق الهبل ع المجانين.

كانت اللحظة ثقيلة وغبية.. وثرثرنا حول عبد الستار شلبى الذى باع أرضا ورهن أرضا ويطمع في خلق الله.. ولما رجعنا كانت شوق غاضبة من خروجنا دون أبيها قالت لى:

- بقى تفوتوه وتطلعوا؟ مش مالى عينكم يعنى؟

وفضلت السكوت.. وقبل أن يمشى عبد الستار زن على دماغ البنت وأخذ

الفلوس أيضا ولما قلت له يتركهم، عملها نكتة وظل يلاوعنى ويقول إننى خائف على الفلوس منه وأننى أخونه وبعدها حط الفلوس أمامى وقال إنه كان يمتحننى وكان يحسب أننا أصبحنا واحداً لا فرق بيننا أبداً لكنه لم يخرج الذهب ويرجعه لشوق.. وسافروا وكانت شوق غضبانة بصورة غير مفهومه وحاولت أفهمها أن على الواحدة أن تطاوع رجلها ولا تهتم بأبيها فلم تفهم وراحت تبكى كلما كلمتها وأحيانا تصرخ ووجهها الغاضب يتهمنى.. قلت لها إننى رجل ولست شرابة خرج فخاصمتنى.. كان خصامنا طويلا وقاسيا ومرا.. قلت لها إن كان بسبب الفلوس أبعثها الكفر.. قالت إن حالة أبيها متعسرة ويحتاج لمساعدة، وأننى أحتفظ بما أحتفظ به بينما لا أرغب فى مساعدته، فقلت أبعث له ما يطلبه.. وبعثت نفرا من الكفر بمبلغ كبير لعبد الستار من أجل إرضاء شوق وأفهمته لا يعرف أبى أبداً، فسافر بالمبلغ وحسبت أن شوق سوف ترضى وتنسى الخصام.

قال عسكرى مصرى جاءنى الدكان: صاحبك إسماعيل محبوس فى القلعة وكلفنى أعرفك لتزوره قلت له: طيب وجلست أفكر.. «ما عدت أساوى شيئا يا إسماعيل.. أنت سلمتنى الأمانة فختتها.. صرفت المكاسب ووزعت الباقي.. كل ما قلته لك عن الأصل كذبة.. كيف أزورك والجيب خال من نصف حقه؟» وقلت لشوق أسافر يوم وأرجع.. ولما قابلت عبد الستار قال: فلوسك فى السوق وانتظر لما أجمعها بعد أسبوع وأبعثها لك.. ورجعت أنتظر.. لكن الأسبوع فات وأسبوع آخر فات دون أن يصلنى شيء فجعلت ألوم نفسى لأننى طاوعت شوق وأعطيته فلوس الخلق يتحكم فيها لما احتاجها.. بعد الأمان جاء الخوف، والخوف من المستقبل.. من مواجهة إسماعيل.. من عبد الستار.. من شوق نفسها، من نظرة اللوم فى عيون إسماعيل.. أنا رجعت مصر لأسلم له الدكان والإيراد وأرجع.. أصبحت لا أساوى مليماً فى نظره.. أسود وشى فى عينيه لآنى لا أقوى حتى على زيارته فى الحبس» قلت لها:

- كنت زعلاية لأجل أبوكى.. أهو ضحك علينا وسود وشى.

ولكنها سكنت أولا قبل أن تدافع عن أبيها:

- بكره يرجعهم لك.. هو خطاف ولا نصاب؟

قلت لها لو كنت حافظت على الذهب كنا بعناه وتصرفنا، فقالت إننى أبحث

عن غلطة أمسكها عليها وأننى أكرهها «أكره أن أسلمك رقبتى فتسليمها لأهلك.. أن أكون شرابة خرج فى يدك.. أن يعرف أبى تفاصيل الحكاية فيركبه عفريت» قلت:

- أراهن أنه ضيع الفلوس.. بقاله شهرين أهه ولا إحم ولا دستور.

وضاقت هى بكلامى قال: إن العيشة معى لا تحتل وأننى أضايقها كل يوم بهذه الحكاية.. ومرة رجعت فوجدتها تلم أشياءها فلم أمانع. ز قلت تغضب وربما يحس عبد الستار بالخطر فيتصرف فى الفلوس وأزور إسماعيل.

وأخذتها الكفر.. أوصلتها لدارهم وما حسبته لقيته.. أبوها لم يكن بالكفر.. أبى قال إنه طفش فلم أصدق.. قلت له أنا رجعت شوق لتلد فى الكفر.. قال باقى لها شهرين أو أكثر يا حسن.. قلت ترتاح يومين هنا عند أمها.. وسافرت.. وأخذت فى الانتظار لأخبار عبد الستار والفلوس دون أن يصلنى شىء.. ونسيت كل شىء إلا إسماعيل.. ومرة جاءنى جواب من أمى تقول لى إن شوق خلقت ولدا ففرحت فى قلبى لكننى أحمل هم إسماعيل.. ولما جاء عسكرى آخر قلت له خذنى لصاحبى.. ودخت السبع دوخات حتى وصلت لإسماعيل، قال إنه يحتاج فلوس وأنه بعث إلى أكثر من مرسال ولا أسأل فلم أعرف كيف أرد عليه.. كان ممقوتا ومغموما رغم محاولاته أن يكون مرحا.. كدت أبكى من أجله لولا الحياء.. قال: ولا يهمك شوف العسكرى وراضيه، فأعطيت العسكرى نصيبه وأخرجت كل ما كان معى ساعتها وأعطيته لإسماعيل فبان على وجهه شىء كالشك أو العجب.. قلت له:

- لم أعمل حسابى هذه المرة وبعد يومين أحضر لك..

قال:

- أجر لى محامى يا حسن، وأضاف: حبسونى لمجرد الشبهه.. لم يلاحظنى أحد.. مجرد شكوك لوجودى فى المنطقة.. أمسكوا خمسة آخرين وأنا لم أعترف.. كلها شهرين وأخرج من هنا.. إنما أكلت كذا علقه ولم أعترف أبدا..

همس محاولا السخرية لكن ملامحه فضحت ما كان يحسه من مرارة:

- هدوا عافيتى أولاد الأبالسة.. مازلت أذكر الذعر فى أغوار العينين..

محاولة السخرية تتحول إلى نبرات مريرة ومطحونة وهشه «أنت رغم السجن تتكلم برجولة.. أنا عيل.. أحس بالعفونه فى داخلى ولا أستطيع الهرب.. أحس بالندالة والخسة» وخرجت من القلعة وقطرات العرق تبللنى وتجعلنى أحس برعشة لم أحس مثلها أبدا.

رحت لأمى وقلت لها كل حكايتى مع عبد الستار وشوق.. قالت:

- أصبر على البنت يا حسن لأنها صغيرة ولا تدرك.. لا تكن مثل أبيك غشيمًا..

قلت لها:

- والعمل؟..

قالت:

- رح لها..

قلت لها:

- روحى أنت لأنها كانت غضبانة وجسى نبضهم وعرفينى..

ولما راحت رجعت وتقاطيعها هادئة.. دائما لما يحصل شىء لا يرضيها

ترسم الهدوء على تقاطيعها وكأنها لا تهتم أو تقول لمن يراها: شفت كثيرا فلن تهزنى الأشياء البسيطة.. سألتها قالت:

- منعوها عنى وقالوا: من جابها لنا يأتى وياخذها..

واغتظت منهم ولكن أمى هدأت خاطرى وقالت:

- حتى لو ضايقوك.. البنت خلفت ولدا فلا تخرب بيتك بنفسك وصالحها

ولم يعجبنى كلام أمى.. رحت لأبى.. قال والغل ينضح على رموش عينيهِ:

- ناويين على الشر.. لو كانوا يرغبون فى الصلح لرجعوها مع أمك..

قلت إن كلام أبى معقول.. كنت أرغب فى رؤية الولد.. وأسأل نفسى إن

كان حلوا مثل شوق.

قال أبى:

- بدأوا بالشر ويرغبون فى إذلانا على آخر الزمان.. نجوم السماء أقرب

لهم.

وراح يتندر على جماعة شلبي كلها وعلى أبيها الذى لازمه الفقر فطفش

من الكفر، وكلاما كثيرا عن الأصيل والخسيس وأنا أفكر فى الولد.. أكتفى بالنظر

إلى وجه أبى وأرى فى عينى برهومة عجزا عن المشاركة فى الموضوع يجعله ساكتا وغير قادر على الكلام.. قال أبى:

- نبعث لهم لأن كرامتك من كرامتى.. لن أطيق عليك كلمة تجرحك..

أرسلنا نفر فعاد وقال شتمونى وقالوا ابعث حسن.. قال أبى وهو يضغط على طرف العصا.. لو رحت لهم طلقها أو لا تكون ولدى طول العمر.. أضاف: زودوا العيار وخلوها خل.. عيونهم قارحة ولا يستحون وكأنهم ورثوا الكفر عن جدودهم.. وحلف أن يربيههم ويكسر أنوفهم التى بدأت تشمخ، كنت ألمح فى عينى أبى شيئا كأنه التهور المحبوس.. نوعا من الذعر والتوجس الغريب.. كان يشع من عينيه شعاع بريق صاخب لا يتهيب لكنه لما يتكلم عنهم ينزاح ويحل مكانه شيء كالستوجس.. شيء جعلنى أتيقن أن جماعة شلبى أصبحت شيئا آخر غير زمان.. أنهم ربما وقفوا على حيلهم، إن جماعتنا أصبحت أقل قوة، ربما بدأت تتهاك وتتهاوى.. لم يعد لنا إذن مركز الصدارة؟.. خفت أن أجر أبى إلى العراق معهم فأخذت برهومة معى وقلت له: نذهب وأمرنا الله بدل المشاكل.. وسرنا دون أن يعرف أبى وجهتنا الحقيقة.. قالت أمها أننى كسرت خاطر البنت قلت لها: أشوف الولد.. بدأت المندرة تزحم بالرجال.. كأنما انتظروا دخولنا وبدأوا يتسللون إلى المندرة.. برهومة راح ينظر إليهم باستهانة وهم يتزايدون ويمسك بالعصا باستهانة فكرتنى بنظرات عبد الحميد.. قال عمها: دخلنا بالمعروف ونخرج بالمعروف.. سكت.. قال: فلوسك بدل العفش والمؤخر.. قلت: هاتوا بئتم أسألها.. قالوا: عملنا حسابها.. «لو جاءت ربما تقول أرجع من أجل الولد.. لو قالتها أضعها فى نى العين ولا أفوتها ولو كانوا ألف رجل.. جاءت تحمل سيد على يديها، سألتها وفى نفسى يقين بأن غضبتها راحت: رأيك يا شوق؟ قالت: أخلص، سمعتها غريبة.. زام الرجال استحسناتنا، قلت أحمى نفسى من نظرات الشماتة: أنا مستعد إنما بشرط، آخذ الولد معى.. قالوا: موافقين.. اقتربت شوق منى بالولد، نفس الخطوات العفية الجسورة والتقاطيع الحلوة يغطيها غضب لا أعرف من أين كان ينبع.. غضب وتحد غريب على التقاطيع، كأنهم رسموه على وجهها فى شهور الغياب.. اقتربت منى أكثر ومدت يديها بالولد.. أخذته.. «تطلبين الخلاص باللسان والفعل أيضا يا شوق؟ هانت عليك العشرة حقا؟.. هنتى

الولد ترمينه وكأنه لعبة؟.. الكلبة فى دارنا كانت تنهش لحمنا لو اقتربنا من خلفتها.. طيب يا شوق..»

قال عمها متسائلا: خلاص؟ رميت عليها اليمين.. خرجت وقلت لامها عند باب المندرة: ورقتها تصل بالبوسته.. كان سيد فى يدى.. قطعة لحم طرية لكنها دائمة الصخب والحركة.. كأنه أحس بما جرى فاحتج عليه.. برهومة جنبى ينظر إلى الكل فى تحفز وكأنه ينوى العراك أو ربما يقوم بدور الحماية لى.. احترت فلم أعرف إلى أين أتجه.. أخذته إلى أمى فتناولته منى وهى تبسمل.. عرفت الحكاية فقالت: حرام عليك.. حاولت إفهامها أننى لم أملك إلا تخليصها فقالت: مصير المياه ترجع لمجاريها.. لم أصدق أن المياه سوف ترجع.. كنت مغموما ومقهورا.. حتى خطواتى فى دروب الكفر ناحية دارنا كانت مهمومة.. أكره حتى نظرات الخلق وأقول إنهم يعرفون ما حصل ويشمتون «عملتها يا عبد الستار؟ لكن شوق ترمى الولد وكأنه غريب عنها.. ربما ليس ابنها؟ ابن من أذن؟ ابنها، ابنى كنت أحسبه قادرا على صلحها.. حسبته تندب وتلطم ولا تفوته.. تتمرغ على التراب لو انتزعوه منها.. قدمته إلى بنفسها، ربما أهلها فرضوا عليها أن تعملها.. لكن أى أم هذه؟ مهما كانت صغيرة.» هل من الممكن أن يعيش هذا الولد ابن الشهور الثلاثة؟ قالت أمى: لا تشغل بالك وكن فى حالك.. شف مصالحك وأنا أدير أموره.. يحلها الحلال.. لو عادت المياه إلى مجاريها حقا.. لو عادت من أجل الولد.. وشوق.. شوق أيضا.. أيام الفرح قليلة وأنا حسبت أن الدنيا راقت لى.. الدنيا لا تطاوع.. من يحسب أنها طاوعته مغفل..»

* * *

هذا الولد مجنون.. يحكى لى عن البنات فى الجامعة وكأنه أهبل، يحب.. مالى أنا؟.. أيامنا لم أقدر حتى على ذكر كلمة الحب لأبى.. بنت اسمها «سالى» اسمها عجيب.. زمن عجيب.. أقول له: التفت لدروسك فيسألنى سؤاله المعتاد: هل خبيت أملك مرة واحدة؟.. أقول: لا.. «آخر سنة يا سيد فلا تجعل الأعدا يشمتون فينا.. خذ بالك من روحك يا ولد.. يضاحكنى وكأن لا يقول شيئا غريبا.. دائما لما يعرف بنتا يأتى ويحكى.. رحت معها السيما؟.. طيب.. مسكت يدها؟.. هائل.. تحبك؟.. طيب.. أنت مجنون.. تحسبنى صاحبك؟.. ربما أنا بالفعل

صاحبك.. لست أعاملك كأنما أنت ابني.. الاين يخشى أباه.. لماذا تجرؤ على قول كل شيء، أنا تركت لك الحبل على الغارب.. أحسن.. أيامنا كنا نخشى الظهور أمام أعمامنا، مجرد الظهور.. نشغل ونتعب ولا نرفع العيون بالمطالب الهزيلة.. كنا نكرههم فعلا.. أنت لا تكرهني مادمت تحكى كل شيء فلا يمكن أن تكرهني.. زمانكم تغير عن زماننا كما تقول.. فى عرفنا كانوا يقولون عن هذا الكلام: قلة أدب وعدم رباية.. أيامكم تسمونها صراحة.. من يوم أن كبرت عاملتك كأنك أخى.. أدعك تتصرف كما تريد.. أكتفى بالتحذير وأنا أحسدك على الجسارة فى القول.. حتى عن لياليك العجيبة مع أصحابك تحكى.. كنا على خطأ لأننا كنا نخشى الكلام مع من هم أكبر منا كأننا سنقع فى بئر غويط.. كنت رجلا ولى ولدان وأخاف نظرة من أبى.. حتى بعد أن مات ظل خوفي منه فى داخلى.. حتى اليوم لما أذكره أخاف.. أتوهم أنه سوف يخرج من القبر ويأتى ماسكا شمورخه ولا يعجبه حالى فيضربنى أو حتى يلومنى.. علموك فى الجامعة أم علمتك السماحة أن تكون جريئا معى؟ أنت حر.. قلتها لك ألف مرة.. مادمت تنجح فأنت حر.. أنا لن أتمكن من مراقبتك مهما حاولت.. مادمت لم تخيب أملى فأنت حر.. كل مرة أيام الامتحانات أشتري زجاجات الشراب والسكر وأنتظر وصولك.. مجرد وصولك أيام النتائج لأوزعه.. أحيانا لا أسألك، أكتفى ببل السكر ووضع الشراب وتوزيعه وأنا أقرأ فى عينيك فرحة النجاح، أبدا لا أخاف عليك.. شيء ما يجعلنى أنتظر نجاحك وكأنه شيء لا بد أن يحصل، لم أتصور مرة أنك سوف تفشل فى الدراسة، كل النصائح أداء واجب تفهمه أنت دون قول أحيانا.. قلت إنها تحبك وتحبها.. طيب.. الامتحان على الأبواب.. كأنك تذهب إلى فسحة وتعود، لما تنجح تزوج هذه البنت.. لكن عرفنى.. على الأقل عرفنى.. لما تشتغل تتزوجها.. أحضر أنا مصر وأخطبها لك.. تحبك حقاً؟.. شوق أحببتى أيضا.. حبنا كان له طعم آخر.. حبكم غريب.. مفضوح ومكشوف ولا يدعو إلى الخجل مثل حبنا أيام زمان.. «قلت له: قم ونام، وأعطيته المصاريف فى الصباح وسافر.. بعد شهر سوف تأتى إذن.. مع السلامة يا سيد».

* * *

ولما نزلت الكفر شفت أولاد معلولا ونحيلا كأنه عود حطب أصفر.. خطبت.

وتركته عند أمى.. رحت لأبى.. حاولت إفهامه حكايتى مع إسماعيل. لم يفهم، قال ارجع يا حسن.. قلت له يعطينى مبلغا أخرج به من الورطة قبل العودة.. قال: اسكت يا حسن ولا تقلب المواجع.. قلت أنا فى عرضك، فبان عليه عدم الارتياح لكلامى.. قال وكأنه يهرب من الموضوع: الدار داركم وأنا أحافظ عليها لكم، لا عرضى ولا طولى.. أخوك برهومة، اسأله.. اطلب منه.. «أطلب من برهومة.. أنا الكبير وأصغر؟.. تصغرنى إذن؟.. مادامت دارنا وغيظنا وأنت حى فماله برهومة؟» قلت: الدار مستورة وثمن بهيمة يخلصنى.. قال يداعبنى:

- يا بت يا مبروكة.. هى المواشى باسم مين؟

قالت ببراعة امرأة أب مقتدرة:

- النبى حارسة برهومة.

قلت لما يرجع برهومة.. لكنه لما رجع جلس ساكتا.. نظرات أبيه أسكتته بعد أن ظللت أشكى.. مبروكة ظلت «تتنقور» على وتتسلى وتلعب بأعصابى، قلت لها اسكتى فلم تسكت.. شتمتها بعد أن فاض بى الكيل.. اقل أبى:

- اتشطر على جماعة شلبى اللى..

قال عبارات قبيحة فجعل الدم ينتفض فى عروقى والهم يثقل على قلبى، تكلمت مبروكة.. قلت له: سكتها فضحك.. قلت دون أن أدري:

- سايبها تتنقور على وقاعد مدلدل ودانك؟.. لها حق تركب وتهز رجلها. ما تسكتها يابا.

نظر إلى بغل ورماني بقلة كانت بجواره.. لم يعجبه كلامى، خابت القلة فأنكسرت فى الجدار وطلتتى حصوة أو حصوتين.. وامتدت يده ناحية الشمروخ.. من جنبه أفلت قبل أن يمسكه.. خرجت من باب المنذرة ودخلت القاعة.. سنكرت بابها من الداخل وضربات الشمروخ المجنونة تجعلنى أسرع وأضع الدكة خلفه والباب يهتز بفعل الضربات.. والكلام الذى خرج من فمه كان لمجنون جريح يرغب فى تحطيم شىء يحول دونه باب لا تكسره الضربات رغم قوتها.. والدار ازدحمت بالناس.. قال أبى بصوته المهدود من كثرة الضرب..

- هاتى الفاس يا بت.. النبى لاحش رقبتك.. بقى حسنة وأنا سيدك ياللى

خيبتك ما حصلتش حد.. ما تشوف جماعة شلبي عملوا فيك إيه يا عرة.

استمر يلعن ويخبط.. يسب ويخبط وأنا أرتجف.. حتى سمعت صوته يبتعد..
كأنما أراحته قوة جبارة خفية وأبعدته عن الباب.. قال عمى إبراهيم من وراء
السياج: أفتح يا حسن.. خفت.. قال بود: أفتح يا ولد - أبوك خرج من الدار..
فتحت بحذر.. قال متكدرا:

- ولما بتخاف بتطول لسانك ليه؟.. أنت انهبلت يا وله؟ أخذنى من يدى..
مشى بى خارجا إلى داره.. قال هامسا:

دا راجل دماغه ناشف يا حسن.. مبروكة لحساه فى نافوخه بالكتابة.. كل
يومين تكتبه عمل..

ظللت ساكتا.. ولما وصلنا البوابة كان أبى جالسا مع بعض الرجال على
المسطبة.. لما شافنى قام فحاولوا إجلاسه فلم يجلس. ظل منصوبا والشمروخ فى
يده والدم ينضح فى عينيه.. قال:

- ماشوفش وشك هنا يا صايع يا بن الكلب.. أنى برىء منك ليوم
القيامة.. ولا حتى تمشى فى مشهدى.. فاهم؟.. ولا حتى تمشى فى
مشهدى.

وتواريت خلف عمى إبراهيم وهو يشدنى من يدى لأبعد عنه.. قال عمى:
- عوضك على الله.. ماعاش شاييف غير مبروكة ولا سامع غير
مبروكة.. وأنت غلطان.. حكاية عبد الستار عملتها من دماغك وهو
زعل..

أفهمنى أن أبى عمل شيئا غريبا بعدها.. راح عند جماعة شلبي بالشمروخ
يطالبهم بالفلوس التى أخذها عبد الستار.. قالوا: اقصر الشر فاستمر يلعنهم
ويتهمهم بالسرقة والخسة.. ولما غلبوا منه التفوا حوله بعصيتهم وشماريخهم
وانتظروا أن يضرب.. ولكنه لم يضرب، اكتفى بالسب واللعن لأنه كان وحيدا..
خاف أن يضرب.. وبعدها فتح لنفسه طريقا وسطهم وقال لهم: حدودنا البوابة لا
تخطوها ولا تعدوا من درينا أبدا.. ومن يومها وهو مهموم من جماعة شلبي.. لم
أهتم بالحكاية.. خاف يضربهم؟ إنن فقد أصبح يخاف من جماعة شلبي؟ قال:

- اللى تعوزه بخده منى.

كنت خجلان من نفسى.. حزيننا من أجله أيضا.. كائننى مسلم وقع فى حارة يهود.. كائننى لص ممسوك فى مولد.. كل النظرات التى شيعتنى أقرأ فيها حروف الاتهام: خائب ولا يساوى شيئا، جاب العار لأهله، قطعوه من أهله، مقطوع من ناسه، خائب، ضحكوا عليه جماعة شلبي.. خرجت من الكفر ورجعت مصر.. كلما أفكر فى إسماعيل يزيد الهم.. وسيد وشوق وأبى.. ظللت أحتفظ بالفلوس من أجل إسماعيل حتى جاءت الحكومة وأخرجتنى من الدكان وشمعته بالشمع الأحمر، وأنا لم أفهم أبدا لماذا.. أسألهم فيقولون فى نفس واحد:

- أمر النيابة العامة..

فى الشارع من جديد.. لا أرض ولا دكان ولا زوجة ولا ولد.. قال ربيع الذى كان يشتغل معى فى الدكان وكان الأمر لا يعنيه:

- اللى بنا مصر كان فى الأصل حلوانى.

قلت له أنت تتسلى والهم حولنا قال أبد.. قلت: الدكان ضاع.. قال ولا يهمك.. صينية كثافة أو بسبوسة نسرح بها وتبات مستورة.. ربك يقطع من هنا ويوصل من هنا..

مثل ربيع عملت صينية كثافة ودرت بها محمولة على كتفى.. حلوانى بلا دكان، ومن بنى مصر كان مثلى حلوانى.. ربما كان حافيا ومازال لدى حذاء، عاريا ولدى ثياب نظيفة أكويها وأغسلها.. أكل العيش لا يحتاج الكسوف كما قال إسماعيل مرة.. ما أكسبه يروح يوما بيوم.

قابلنى ربيع فى العتبة قال: مسافر المحلة.. تعال معى، فى الشركة طلبوا عمالا، أحسن من الف والدوخة. وقلت أسافر معك سافرنا. مصر أو المحلة كلها بلدنا، يحتاجون المئات فكنا بينهم.. عمال نسيج أو غزل لا يهم.. نتعلم.. نقف على الدولاب أو ندور المكن.. نشم الهواء المشبع بذرات القطن المتطايرة.. تدخل أنوفنا وحلقيمنا فتسدها ونبصق فى البداية لكننا نعتاد، نعتاد اللون الأبيض انمشحون بذرات القطن فى الوردية الليلية أو الصباحية فلا يهم.. آخر المدة نتبض وأبعث مبنغا لأمى من أجل مصاريق سيد.. أحيانا أشتري له قماشا من

الشركة.. وربيع يعيش معى ويبعث إلى أولاده فى مصر أيضا.. يقول أنقلهم بعد شهر أو شهرين لما تتعدل الأحوال.. أقول أجعل أمى تأتى هى الأخرى بسيد ونسكن وحدنا.. مكتوب علينا الشقاء من أجل اللقمة.. نظل نكدح هكذا لا نعرف رأسنا من أرجلنا.. كأننا جزء من ماكينة النسيج الكبيرة.. لكننا نتنفس نحلج أو نغزل، يخلصوا لنا أياما لما نتكاسل، لا يهم، حتى لما أخذونى إلى ورشة النجارة وافقت.. قلت أشتغل.. أتعلم وأشتغل.. واشتغلت.. تعلمت.. صنعة نظر كما يقولون فى الورشة، ما عاد هناك شىء اسمه العيب فى شغل البنادر.. قطعونى فى الكفر.. ما لنا حيلة غير أن نغرق ونأكل.. وجاءت أمى بالولد وعاشت معى.. من أجل الولد.. هو دائما مريض.. أمى ترعاه لكنه لما يرانى يشب ناحيتى.. يحبو.. يمشى ينطق الكلمات الأولى.. يزيح الهم الثقيل لم أرجع.. يداوى الجروح التى تتخلف عن شغل الورشة.. أفرح به لما ينطق الكلمات.. كلماته مكسورة لكنها حلوة.. يطلب المطالب الصغيرة.. حلوى، قرش، صندل، لعبة، قطعة، أهتم بالولد.. «أمك تزوجت يا سيد.. لو تعرف.. لم تصبر على روحها.. وقت العدة وتزوجت بسرعة..» لو تتصلح صحته ترتاح أمى.. أمى فانت بيتها ومعاشها وجاءت لتعيش معى فى حجرة من أجل الولد.. لولاها لمات.. غدا يكبر وأعلمه فى المدارس.. لابد أعلمه فى المدارس حتى لا يدوخ مثلى..

* * *

يموت الموت أحيانا ويحيا.. مات موت عبد الحميد وبرهومة وأبى أيضا وكل أعمامى.. موت سيد لا يهدأ.. كلما دفنته رجع يطل من ركنه.. ينفذ عن نفسه ستائر النسيان الرقيق.. يأتى فى الدماغ.. أحيانا أراه يحبى.. أحيانا أراه يضحك.. أحيانا أراه يبكى.. ويتكلم بحماس جديد.. يفكر أحيانا فى أمور أعجز عن فهمها.. لكنه يأتى.. يقلب الجرح والمواجه المدفونة تحت تراب هش يعجز عن أحكام تغطيته..

«فى الدماغ.. مثل عبد الحميد.. ضربوه فى الدماغ.. عبد الحميد راح قبل أن تأتى يا سيد.. كان مثلك حلما وطيبا ويصعب تغيير رأيه فى الأشياء وراح أيضا قلت لك ابتعد عن الكفر لكنك كنت تكسر كلامى وتأتى.. رحت فى شربة ماء.. أسأل نفسى لماذا تخيروا الدماغ؟» محاولات النسيان تعجز.. حتى الذاكرة

الضعيفة تعى ما جرى لسيد.. صادوه فى الدماغ.. فى الدماغ كانت الضربة..
الدماغ حيث العقل الصاحى والعينان البراقتان والبسمة على الشفاه تسخف بكل
شئ.. حوله.. حتى مرارة الأيام وقسوتها.. كيف صادوه؟.. ولماذا.. قال صالح إنه
سمع الطلقة فقام مفزوعا من نومه.. سمع الناس فى الكفر يقولون إن نفرا مات،
بعدها راح يجرى حتى وصل إليه قبل عسكر البندر.. قال إن الدم كان ينزف من
مقدم الدماغ ويغطي البشرة.. العينان ظللتا مفتوحتين، والشففتان منفرجتان عن
بسمة ترف مستهينة «وعبد الحميد أيضا ظلت عيناه مفتوحتين وعلى تقاطيعه
شئ.. مرتاح كأنه البسمة.. حقيقة كنت تبسم يا سيد فى تلك الليلة الساكنة؟..
علام كانت الابتسامة يا سيد..؟ من أجل اللقاء الذى كنت تسعى إليه أم أن فكرة
خطرت فى خيالك؟ ربما استهانة بالفاعل أو بالموت.. أفلحت الضربة فلم تملك أن
تعبس التقاطيع المبتسمة.. أسكتتك الضربة يا سيد؟، ما عاد يقولها: ذاهب إلى
الكفر الليلة لأراهم.. ما عاد يأتى فى بدايات كل شهر يتحسس بنظراته الأشياء..
كأنه يقيسها ويقول: يظهر أحوالك المالية مثل أحوالى.. يمد يده ناحيتى قائلا: خذ
ما تحتاجه.. ما كان لى حاجة لغيره.. كان يكفى أن أراه يأتى.. أسمع صوته..
أحادث الناس عنه.. من بعده لم يعد للكلام طعم.. عمن أتكلم..؟ كان هو الدنيا
والكلام والفرح وحتى غم اللحظة الذى يذوب كأنه سحابة صيف كاذبة.. تطوحها
النسمة وتتبدد بفعل الضحكة.. بعده لم أعد قادرا على الكلام أو النظر أو حتى
التفكير فى شئ.. فى الدماغ.. مقدم الدماغ.. هل هى صدفة؟ هل رجع الإنجليز؟
جاءوا يأخذون منى ثارا قديما لم ينسوه أبدا؟ ماذا؟ هل جنت؟ من عملها؟.. لو
عرفته ما استطعت أن أفعل له شيئا.. فقط أود لو عرفته.. أنظر إليه بالنظر الكليل
مرة.. وأظل أكرهه بكل ما فى القلب من قدرة على الكراهية تتولد عن الحسرة ما
تبقى لى من أيام، عملها جبان مقتدر، يخشى أن يواجه نظرة من عجوز مثلى
نظرة كليلية من نظر كليل لائم.. يا هذا الذى عملتها مهما كنت قلها واجعلنى
أغرس فى لحم وجهك نظرتى وأموت بعدها... ربما لو طال العمر أبصق فوق
الملاح فاحتمل لأنها بصقه مرة.. مرة مرارة العلقم.. أمر من العلقم.. واسمع إن
حدث لعنة.. من صوتى الخافت المهزوم تنصب عليك لعنة بلا رنين ولا أمل.. كم
حيرنى التفكير.. لطالما أسرح فى عوالم بعيدة راغبا فى معرفة الفاعل.. مجرد

معرفة.. لو كان لصا لسرقه.. لا لم يكن لصا.. «ماذا قالت شوق؟.. يقولون حزن.. وأى حزن يا شوق؟.. صالح أرى فى عينيه حزنه.. حسبته لن يهتم.. لكنه اهتز هو أيضا.. وأنت يا شوق ماذا كان طعم الحزن فى حلقك؟.. عندك غيره يا شوق.. ترى كان لسيد سعر عندك يا شوق؟ كان عندى يساوى الدنيا كلها.. من لى غيره؟».

كم هو مر طعم الموت عندما يبتلعه الأحياء بلا رغبة.. كم هو مر طعم القتل لما يجهل الواحد منا وجه القاتل.. مجرد تقاطيعه وشكله، وحتى الحياة لما تتزايد قسوتها بجهل الواحد منا لماذا تكون القسوة أصلا.. من يطيق؟ من يطيق موته؟

«ارقصى يا خطواتى برعشة العجز والحيرة.. ارتعشى يا عصاى القديمة فأنا أرمى عليك حملى.. ارقصى على سكة الكفر فأنا ذاهب إليه فى قبره منهزما.. معترفا بالهزيمة.. مستسلما له.. بهزيمة القلب الأخيرة التى لا تعادلها هزيمة.. بعده لا يهم حتى نصر أو هزيمة.. حتى لو انطبقت السماء على الأرض لن تكسر هزيمة أمر أو أقسى.. ارقصى يا خطواتى فى دروب الكفر فسوف نصل إلى المدفن ونقعد.. ويا عيون الناس كفى عن النظر والمتابعة فقد كرهت دنيا الأحياء ورحلت بمحض اختيارى لأتنفس مع الأموات حتى يجيء الموت نفسه».

* * *

جاءنى صالح فى المحلة.. شابا فتيا فى جلبابه الأزرق ومشروع شارب.. فرحت به.. قلت له: ابق معى ماداموا غلبوك وأتعبوك.. قلت أشغله فى الشركة ويبقى، وملعونة أرضهم التى كسروا نفسنا من أجلها.. وعاش الولد وسيد يلعب معه فيضحك.. وفانت أيام وصالح يحكى لى عن الكفر.. عن جماعة شلبى التى لا يهمها فى الكفر رجل.. عن أبى الذى يحتد مع برهومة.. وعن برهومة الذى راح للحكيم مرات ولا يعرف لماذا.. وقال إنهم سخروه فى الأرض وحده يشتغل فى الأرض وحده وبرهومة يتدلل وأبى يأمر وينهى ويكتفى بأن يشق على الأرض ويعمل عليه مهندسا.. وكيف أنه قال لهم: أنا كبرت فاكتبوا لى أرض أمى ولا يهم نصيب أبى فصهينوا عنه وأنه لما قال لهم: آخذ بنت عمى سخروا منه وقالوا: أنت عيل، فطهق منهم وقال أنا مثل التملى أشتغل بلقمتى ولن أغلب بنفسى وسأل

عنى ودلوه عن العنوان فجاء.. قلت: ترتاح هنا يا صالح مادما طلعا من مولدهم بلا حمص.. عمك ورث الأرض وكتبوها له وسيدك حى.. وهو رجل غشيم.. يضربك ضربة تروح فيها.. قال إنه لما شم نفسه جاء..

بعد أيام جاء أبى وبرهومة.. قال أبى للولد: طفشان يا ابن الكلب؟ وضربه كفا فوق صدغه فسكت الولد.. كأنه ضربنى أنا.. قلت له غاضبا ابعد يدك الثقيلة عن الولد فهو ليس حملك.. قال: أنا ربيته وأنا حر فيه.. قلت هو ابنى على كل حال فشتمنى وسكت.. أسرعت وجمعت جماعة من الرجال يسكنون معنا وعلما مجلسا.. قالوا: نسأل الولد.. قال أنا حر ولا أحد يتدخل.. قال أحدهم: البندر ليس فوضى.. هنا حرية وهو يختار.. وسألوا الولد فقال أبقى.. ولما خرجوا بقى أبى وبرهومة وصالح.. قال أبى:

- كتبنا لك الفدانين بتوع أمك يا صالح وتقول أستنى هنا.. تاكل طوب وتدوخ فى البنادر؟.. دى آخرة تربيتى فيك؟ لمعت عينا الولد وبان فيهما عدم التصديق فمد أبى إليه يده بروقة مطوية.. نظر فيها ونظر إلى.. «فى عينيك شىء جديد يا صالح فما هو؟» قال الولد: أسافر معكم مادمت أخذت أرض أمى.. قال برهومة:

- كلمنا أبوك محمد عن زكية ووافق كمان.

وبان فى عينيه فرح.. أخذته على جنب لأحذره منهم لكنه قال إنهم كتبوا له أرض أمه ولو بقى تروح منه.. قلت له: والعمل؟ قال أسافر..

كنت محسورا لأن الأرض أخذته منى.. خجلت أن أنظر إلى وجه أبى الذى بان عليه أنه انتصر وأخذ الولد منى رغما عنى..

قال برهومة وأنا أوصلهم: قلبى تعبان وأريد أن أكشف عند الحكيم هنا.. أبى سمعه والتفت إليه وشده قائلا:

- خطنى قدامى وبلاش تماحيك.. أبقى أكشف فى طنطا..

كان وجه برهومة مجهدا ومريضا بالفعل.. حاولت أن أجعله يبقى ليكشف، لكن أبى أصر على أخذه فى تلك الساعة والسفر به وبصالح.. وسافروا.. كنت أعجب لإصرار أبى على أخذه.. ربما كان فرحان لأنه أخذ صالح.. ربما يشك أن برهومة يبتغى الفسحة فى المحلة معى.. حملت صالح سبت الفواكه وأعطيت

برهومة التذاكر التى قطعتها لهم.. قلت لصالح على جنب:
- لو ضايفوك ارجع.. أديك عرفت السكة.

وقال الولد:

- آجى وأخذك يوم الكتاب بس أوعى ماترضاش.

وانشغلت فى تقديم أوراق سيد للمدرسة.. واشتريت المريلة ودفعت
المصاريف وجاء صالح.. لما شفته من بعيد فرحت.. قلت جاء يأخذنى أحضر
الفرح.. كلما اقتربت منه أحس بالفرحة تموت فى قلبى، لما سلمت عليه قال:
- أبويا برهومة متأخر وطالبك.

اهتز قلبى.. «رقد برهومه؟ وقد تأخر وطلبنى.. كل هذا بسببك يا رجل..
تقتل أولادك ولا تهتز أبدا؟» أسرع مع صالح وأنا أقول لروحي ربنا يستر..
أخذنا عربة مخصوص من المحلة حتى الكفر.. دخلت عليه المنذرة.. أصفر
ومعلول وعاجز عن الحركة.. كأنه عجوز.. صوته عاجز وعيناه زائفتان فى دنيا
غير الدنيا.. لما شافنى حاول أن يعتدل فلم يفلح قلت له:: ارتاح.. وقعدت جانبه
على طرف السرير.. قال: الحمد لله، كنت أريد أن أراك قبلما أودع.. وأبى كان
مطرقا برأسه وواقفا لم يهتم حتى ومع وصولى.. مد برهومة يده إلى يد أبى
وأخذها وقربها ناحيتى وقال لأبى: سلم على حسن.. خلص أبى يده برفق وقال
لى: برهومة طلبك يا حسن.. نظرت إلى برهومة.. ساعتها نسيت كل شىء حتى
قسوة أبى.. نسيت إلا رغبتي فى أن أراه يقف كما كنت أراه قبلا.. قال بصوت
جاهد أن يكون مسموعا لكنه كان متقطعا وعاجزا عن الإسماع:

- لو مت يا بابا الأرض لحسن.. ولو عشت نقطع الورق اللى انكتب ظلم،
ياخذ حقه وهو حر فيه.. الدنيا منقاة يا بابا.

قلت أريحه من الكلام: كن فى حالك.. شد حيلك واجمد.. أسكتنى بإشارة من
يده وتابع كلامه:

- كوم الطماع ناقص.. أمى طمعت، يمكن ذنب اخواتى وربنا بيخلصه
منى.

تقطع قلبى ولم أعد أحتمل المزيد.. حاولت أن أدارى دموعى لكنها كانت

تسيل، وكلما نظرت إليه والى أبى المهموم فى صمت ازداد حزنا عليه.. وبدأ الصرت يخفت أكثر.. والعينان تغيبان.. وكل مدة لما يفيق من غفوته يمسكنى من يدى ويضغط عليها ثم يغيب من جديد.. كأنه يتمسك بشيء فى يدى ويقول كلاما بلا رابط لما يفيق.. كأنه يخرف.. خلصت يدى منه وخرجت، قلت: ننادى الحكيم.. ورمحت خارجا من الدار.. قال صوت كأنه صوت برهومة.. أو صوت أبى جريحا وواهيا بينما أخرج من باب الدار:

- ما فيش فايده..

وقبل أن أصل إلى البوابة سمعت صوتا نسائيا يشق الصمت وينفذ ليس إلى آذانى وإنما إلى صميم قلبى.. رجعت أرمح ودخلت فنظرت إلى الشفتين فى حركتهما الأخيرة والروح تجاهد أن تخرج من خلالهما.. والفم يحاول إبقائها لحظات لكنها تفتحه بعزم أشد وتخرج.. تنفذ الروح فيهمد البدن.. يكف عن التنفس أو الأتئين أو الحركة.. دموع أبى تتسال على وجهه دون أن يتحرك من وقفته، مطرقا كما تركته كأنه صخرة جامدة تبكى، «تعرف البكاء لما تشوف الموت، لكنك لا تعرفه مع الأحياء أبدا» وحتى لما رفع عينيه لحظة كنت أقرأ فيهما شيئا كأنه الخجل.. الخجل من الموت.. «أنت خجل من الموت إذن؟ اليوم تبكى وتخجل من الموت أو من دموعك وكنت سببا فى خرابنا وضياعنا.. ظلت تزن عليك وتزن حتى خربت الدار.. وأنت تطاوع.. دائما تطاوع.. تحسب أن الدنيا كانت ملك يديك تعطى لمن تشاء وتمنع عمن تشاء.. وأنت يا برهومة؟ هل انتهيت فعلا.. يا حسرتى على شبابك الذى ضاع منا قبل الأوان». من الموت كان يخجل الرجل.. فى المندرة وأنا جالس أسمع كلام الناس.. يتهامون بأصوات قادرة على النفاذ إلى ربما بالشماتة، أو محاولة لإظهار الود أو العطف على «ربنا خلاف الظنون، مبروكة طردت الأولاد وقعدت على الكل، زرعت الشر وحصدته.. ذنب أخويه خلص.. وأنا جالس آخذ العزاء وأنظر ولا أستطيع الكلام «اتركونا لهمنا يا ناس.. ابعدوا عنا فالأعمار بيد الله..».

ولما دخلت الدار فى الليل كانت مبروكة تجلس وسط الحريم وعلى رأسها طين جف وتيبس، وعلى وجهها صبغة لونها أزرق.. كانت تندب فلما شافتنى كفت، قامت ناحيتى وكأنها كلبة مسعورة.. أمسكت طوقى وكأننى بعثت الموت

لأخى يأخذه، كانت تصرخ فى جنون حقيقى، عيناها تنضحان هما وغما وحشيا يصعب على الكافر يخيف.. يرعب.. كانت تهزنى ورذاذ من فمها يتناثر على جانبية ويصل إلى وجهى لما تتكلم:

- جاي ليه يا حسن..؟ جاي ليه يا حسن.. برهومة مات.. برهومة ما..
ت برهومة.. ما.. ت جاي تورث فيه.. عايز تورث فيه؟.. الصغير
مات.. الحلو مات.. الغالى مات..

كنت مرعوباً.. مرعوباً ارتعش من الهلع والشفقة «حتى أنت يا مبروكة
تثيرين فى النفس شفقة؟» خلصونى منها بعد جهود شاقة وأصابها مغرورة
ومستميتة فى طوقى.. خلفت فى العنق جروحاً وفاتت على طوق الجلاب طينا
وصبغة..

قال أبى وهو ينظر إلى فى حيرة:
- خليك ويانا بقى.. نشوف أحوالنا.

قلت له.. مبروكة لن تطيق وأنت شفت بنفسك، فسكت.. قال بعدها وكأنه
يفهمنى شيئاً فاتنى: حرق الموت «وأنا ألم أحترق عليه ربما بنفس القدر وإن
كنت لا أندب أو أمسكك أنت من خناقك لأنك كنت بلا شك سبياً من الأسباب؟ قلت
لك اتركه يكشف عند الحكيم فلم ترض أبداً..» قال بحسرة: عوضنا على الله..

ودخلت مبروكة هذه المرة وعادت ما سبق أن عملته فى المرة الأولى..
وقام أبى يخلصنى منها بعافيته التى عجزت إلا بعد أن خربشتنى فى وجهى.. قلت
والغيط يملؤنى ويجعلنى أخرج عن طورى: الدار لا تسعنى أنا ومبروكة قال: قلبك
أسود.. قلت له هذه المرة دون أن أهتم بما يعمل: أنت رجل خنزير.. وهى تلعب
بك طوال عمرك، من يوم أن دخلت الدار تلعب بك.. ولم يبد عليه أنه سوف
يتحرك ليضرب.. الموت هذه.. أفهمته أننى لن أرجع إلى الدار ما دامت مبروكة
فيها تجلس وتنعب مثل البومة..

هذه المرة لم أكن أخافه، ربما كانت هذه المرة الوحيدة التى لم أخقه فيها..
ربما لأن الموت أراح الخوف منى وسلب منه الجسارة والقسوة.. ربما لأنه أحس
بأنه أخطأ فى كل عمره، أحياناً يحس الواحد أن عمره كان غلطة، كان هذا هو
المرسوم على وجهه فى ذلك المساء البليد البارد.. كأنه عجز عن الرد «وأنت يا

مبروكة.. الغل فى قلبك.. حتى فى الموت تكرهين.. حتى لما مات برهومة لا
ياخذك الحزن من حزن الكراهية فتحزنين دون أن تكرهى ولو مرة؟».

* * *

على سلم الموت أرقص رقصتى الأخيرة.. فى كفر عسكر حيث المدافن
أزور الموتى كلما ساعدت القدرة.. عدت إلى الأرض بعدما انهدت القوى.. وسيد
يرقد حيث رقد أبى وبرهومة وأعمامى.. «لو كنت يا عبد الحميد معهم لغنيتهم
غنوة النهاية» أسمع أحيانا فى مدافن الحاج عوف صوت الماضى تردده أشجار
النبق العتيقة همسا مرتعشا شاكيا.. ألمح الأطياف تتسلل إلى أفرع الصفصاف
المحنية.. أجلس ساعة القيلولة حتى يأتى صالح أو أحد أولاده يأخذنى إلى الدار
أتعشى بعد صلاة المغرب.. كلما قال لى وكأنه يوصينى: لا تذهب إلى المدافن..
أخالفه وأذهب.. اليوم أعرف سر عودتى الملهوفة.. نداء الرماد ينفذ فى صلب
الواحد منا فيعجز عن المقاومة أو التأجيل، يأتى ويجلس.. وحتى لما أتمثل صوت
أبى أو ألمح طيفه لا أخاف.. الموت يجرده من جبروته ورعونته.. يجعله ودودا
وحنونا، وبرهومة بنظرته الأخيرة وصفاء قلبه ينير وجهه، قلبه الذى مات
معلولا، وسيد.. «يا شجرتى التى زرعتها وحسبتها مالت لتظل على غريمى..
الآن أعرف، مال الفرع ليرجع إلى الأرض فلكل أجل كتاب.. ما عاد فى خيالى
وجه لغريم واحد.. كأنه لما غبت عنى غابت العداوة واختفى الغريم القديم.. أيامها
كنت أحسبك نسيت ما جاهدت عمرى من أجله.. شقاء الأيام ودوختى عليك.. قلت
أيامها وأنا أجهل الحقيقة: انجرف فى تيارهم ونسى، وقلت إن الكفر عتمة
وغيطانه تغطيها الروبة.. سكه معفرة وبيوته كالحة.. ولك شىء فيه كئيب
ومعتم، حتى وجوه الخلق كئيبة ومهمومة وساكتة.. كأنها مراح غنم يمرح فى
الفجر ويعود قبل المغرب دون أن يتبدل فيه شىء إلا الزيادة أو النقصان فى
العدد، إنما القطيع هو القطيع.. قلت هذا لنفسى ناسيا نداء الموتى.. نداء أمواتنا
الذين سبقونا ورقدوا واستراحوا، اكتفوا بالإطلال علينا من مراقدهم ومتابعة
خطونا المنتشى كل فجر.. فى انتظارنا بيقين فى عودتنا.. «أينما تكونوا يدرككم
الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة» أسمعها فاهتز.. وأنت لم يكن لك بروج
لتتوارى من وجه الموت ساعة.. والموت أراه فى الأحياء فأعجب من أمر الدنيا..

وكل ما يدور حولنا، الغيطان والمصارف وناموس البرك والسكة الملوية، والبيوت العفشة المسقوفة بكتل الخشب التى اسودت مع حزم البوص المحترق، وكل شىء للموت يمضى.. جئت للموت إذن، وأنت يا سيد كنت تأتى للموت هنا.. أيامها كنت أسائل نفسى عن سر مجيئك المتكرر كل يومين.. أتخيلك تمشى فى دروب الكفر بينما جماعات من نسوة الكفر يجلسن على الأبواب ينظرن إليك وأنت تمر عليهن، ثم يشرعن فى الحديث عنك.. ابن من؟.. لماذا يأتى؟ لمن يأتى؟ وماذا يعمل؟.. وينصبوا على سيرتك قعدتهم، أبدا لم يكن هذا يهمك.. كنت تأتى لأن الموت هنا كان يناديك وليس رجال الكفر المناظر ذوى الشوارب المبرومة والأعواد الفارعة.. وحماسهم فى دعوتك لشرب خناصر الشاى الأسود.. كأنهم يتسابقون لنيل شرف دخولك دورهم.. كرمهم المعجون بالرغبة فى التفاخر وكأنهم فى سباق مع أنفسهم أولا.. لا شىء من هذا كان يشدك.. الموت هو الذى أخذك.. شدك منى.. وأحسبك يا سيد كنت تلاحظ أن الأمر كان يتحول من احتفاء متحمس فى البداية.. خطوات التباهى بابن الجماعة الذى عاد ليمشى فى دروب الكفر مع الرجال المناظر.. وتكرار الواجب بكثرة تتحول إلى عبء ثقيل ثقل المسؤولية المرمية فوق الأكتاف.. وجماعة الحاج عوف التى هزمها العناد وصلابة الدماغ.. أصبحت أعجز من الاستمرار فى دور الكرام.. وحتى لو كنت أنت وراء تربية أولاد البعض منهم فى المدارس وأنت كنت فخرهم فى مواجهة الآخرين يوما.. كل هذا لا يهم.. ليس الأهل والأولاد وإنما الموت شدك.. وأنا بدورى جئت أنتظر.. أحلم بالموت يأتينى وأنا فى المدافن..»

الشيخ شعبان يقرأ ما تيسر.. على روح الرجال يقرأ.. هسيس أشجار النبق العتيقة يتردد شيئا كالهمس البشرى.. نبرات أصواتهم تتجاوب مع صوت الشيخ شعبان.. قال سيد: أنت قطعت نفسك من شجرة الحاج عوف الكبير التى ما عادت تطرح الرجال القادرين، واكتفت بالهياكل معدومة الحيلة والغارقة فى كذبة الاسم القديم.. وسواد القلب من سواد الحال.. وأنت تترانى يا سيد كل يوم.. أنتظر وأرضى بكل رغبتى أن أبقى هنا رغم ما كان فى الزمن الفائت.. والحسرة تذوب مع اليقين الذى يتسلل إلى الرأس بأن الحزن فوق طاقة الاحتمال.. وأنه عندما يكتشف الواحد منا أن العمر كله كان كذبة وأنه خسر.. وأن ما كان يتمسك به

كان غلطة كبيرة لا يحلها إلا الموت نفسه.. ساعتها يذوب الشعور بالحسرة في لحظة الكشف.. أجيء إليك لأتمثلك مرة كما أتمثل أبى وبرهومة وجدى والآخرين.. وتعز صورتك أحيانا.. ولما أسمع ديبب خطو صالح أفقد الأمل في رؤيتك وأعود معه إلى الدار.. والحجر الدائر ولطشة الجدار.. جدار الموت لطشك.. هاهو صالح يأتى.. الخطو الثقيل.. والتقاطيع الجادة.. وبقية اعتزاز بلا معنى.. رجلا في قلبه جرح قديم لا يداويه القول أو العزاء.. يداويه الموت يا صالح.. حتى لو تظاهرت بالقوة والعنفوان والقسوة، فأنت لها مثل سيد.. للتربة.. للتربة.

* * *

ولما جاعنى الجواب سافرت.. «هذك الموت إذن يا أبى فعرف المرض طريقك أنت أيضاً..؟ أت إليك أنا والقلب لا يحمل إلا الحنو والنسيان» لما دخلت الدار وجدته جالسا في صحنها على دكة النورج.. قلت وأنا أتجه ناحيته: بعد الشر عنك، ظل ثابتا في قعدته وعلى تقاطيعه خطوط هم غويطة.. قلت لنفسى «مازال مهموما وحزينا على موت برهومة..» مددت إليه يدى فظل جامدا في قعدته دون أن ينظر ناحيتى أو يمد يده.. جلست جواره.. جاء صالح وسلم وجلس على الأرض عند قدمى الرجل، وبعده بانث مبروكة في السواد.. قالت: شفت؟ نظرت إليها بغل.. «فصل سخييف وشربته.. تبعثون جوابا تدعون فيه مرض الرجل بينما يجلس قصادى يطل ولا ينطق كأنما قطعتم لسانه أيضا؟» لم أتكلم وسكت.. قال أبى يقطع الصمت الذى حام حول الدماغ كدبور فقد قدرته على الزن واكتفى بالدوران حول رأى ليجعلها تتابعه وتدور هى الأخرى.. هيه؟ وبعدها بدأ يحرك عصاه فى صعود وهبوط متتابع فتدق الأرض بطرفها وكأنه يأمرنا بالإنصات بينما نحن صامتون؟

- انت شايف إيه يا حسن؟

كان فى صوته شرخ لا يود أن يبين.. يجاهد أن يخفيه.. قلت متوجعا من نبرته:

- شايفك حلو يا بابا.. البركة فيك.

قال بصوت متهدج، مهزوم ومستسلم أيضا وهو يهز دماغه وكأنه ينكر

قولى:

- لكن أنا بقى مانيش شايفك..

والحظة أدركت كل شيء.. استعدت الموقف من أوله وأنا أطل إلى عينيهِ
العسليتين الصافيتين واللامعتين كعيني قط برى أو ربما ذئب.. عجبت لأننى لم
ألاحظ شيئاً.. ارتعبت وأنا أدقق النظر فى الملامح المتهدلة المترامية كأنها لا
تخصه.. كأنما العينان كانتا تحرسان الملامح وتشدانها وتبعثان فيها الحياة، فلما
غابتا أصبحت التقاطيع بلا حارس فتراخت وتهملت.. أصبحت مجرد كتل لحم
عجوز محطوة بلا معنى.. إلى هذا الحد رأيت الملامح ميتة فانتفى وجودها
كله.. حتى خطوط الزمن تكذب.. تجاهد التقاطيع أن تقول شيئاً فتعجز.. لا شيء
غير اللوم أو الاستكانة يطلان على من خلال البريق الأعمى الضرير الذى لا
يميز.

«ميزت فى ماضيك كثيراً حتى أتعبك التمييز.. نظرت بالعينين فخوفت الكل
حتى نفذ من العينين الشعاع.. والآن تجلس.. لا تملك حتى أن تدخل بيت «الأدب»
بلا مساعدة.. والذى انقضى راح وولى.. الموت فى الملامح.. ربما الحزن على
برهومة وعبد الحميد والأخوة.. ترى هل كانت حياتك بأسرها غلطة متتابعة
الحلقات كأنها قيد شباك كلما حاولت الخروج لتعود وتسقط فى دوامة التعسف
الغشيم والتجبر.. ومعاركك التى حصلت بفعلها على الاسم والتى مازالوا يتحدثون
عنها وكأنها حوادث ما حصلت ولا كانت.. وماذا يقولون اليوم فى كفر عسكر؟
ربما فرحوا بالبلوى التى حطت.. ربما تحسروا وأنت تتهاوى قبالتهم من مكانك
القديم ومكانتك وتقع على دكة النورج فى صحن الدار كالحريم لا ترى عدوا من
حيب»

لم يكن هناك ما أستطيع قوله أو أجسر على البوح به.. كأنما قطعت قعدته
الساكنة لسانى.. خيم السكوت والعجز عن فتح أى موضوع.. قال وهو يهتز أماما
وخلفا وكأنه مقرئ الرواتب الكفيف الذى يتلو آياته بلا حماس ولا انفعال، بصوت
كأنه صوت العجز البائس:

- العمر عدى وفات.. ماعادش غيرك.. برهومة راح.. عبد الحميد راح..
وحتى النظر راح.. وياما سمعت معيرة بسببك أنت وعبد الحميد
وقاوت لما كان العزم شديد.. لو ترجع يا حسن يا بنى يرجع العزم
ويشتد الحيل المهدود.. أشوف بعينك أنت وصالح.

للمرة الأولى أحس أنه أبى.. فى كل عمره أحسسته خصما يستحق

الكراهية.. مرة حاولت قتله.. حتى وهو يقول لى ارجع الكفر لم أكن أهتم بالرجوع.. كنت أفكر فيه.. أشفق عليه.. كأنما قرأ هو ما يدور فى دماغى.. برقت عيناه فى لحظة فحسبته يدخله.. يتسلل إليه ويقرأ ما يدور فيه.. كأنه هزم العمى والعجز وبدأ يرانى.. من داخل الداخل يرانى.. ساعتها ارتعبت رغم الإشفاق عليه من نظرة اللوم المظلة من العينين وكل التقاطيع.. التقاطيع التى عادت تحيا بعد الموات.. هذه المرة أحسست أننى بجوار أبى.. كأنما ولد إحساسى به فى تلك اللحظة بعينها.. لم أعد أحتمل.. جعلت أنهنه.. من أجله كنت أبكى.. أسكتنى.. قال: الظفر لا يطلع من اللحم.. الدم لا يبقى ماء وسكت مدة، ثم ابتسم، كأنما استعاد نفسه.. كأنما لما اطمأن أننى ابنه وأنه استعادنى عاد يحيا.. تحيا التقاطيع وتتetch وتفتيق.. تنفض عن نفسها البلادة وتحس وتقول.. والنبرات تقاوم الارتعاشات، وراح يحكى، منبسط الملامح والنبرات.. من حيرتى كنت أقول لنفسى: ليس أعمى، فها هما العينان تبرقان ببريق الوعى والإحساس والحياة.. وكما قال شيئا يزداد فى قلبى الصخب.. أود لو أحتويه كله.. أجعله يرانى.. وأتوارى بدمعة مجاهدا ألا يحسها هو.. يقول: مازلت تبكى فأنفى بالدموع.. يقول: أخذنا أيا منا فلن نأخذ زمان غيرنا.

كان صالح ينكت الأرض بعود حطب جاف ولا يواجهنى لما يلمح فى عيني الدموع، كأنه تعلم أن من الرجولة ألا يرى دموع الرجال.. قلت لأبى: كنت زينة الرجال.. قال بأسى: راحت أيا منا «ومرة تعاركنا مع أولاد العزبة وأخذنا فى ضربها بالطوب والطين اليابس.. وطاروا هربا وجاء الرجال وعبروا الترعة وضربونا وكنا نصرخ.. ولما شافنا عبد الحميد أسرع وحده يتعارك مع كل الرجال فضربوه أيضا.. وقلنا لما شفقنا يسقط وسطهم: مات.. ولا تدرى كيف تسلل عبد الغفار من وسطنا وناداك.. وأنت ضربت بشمروخك أكبرهم سنا.. رأيتك تهوى على دماغه بالشمروخ وأنا خلف النخلة أرقب وأنتظر.. كان الرجل فحلا بشوارب مرفوعة فسقط ولم يقم أبدا.. وأسرع الآخرون يفرون من حسم ضرباتك التى جرحت من طالته فعجزته.. يخوضون فى الترعة التى كانت غويطة، لكنهم كانوا يخوضون فى الماء البنى وأنت تتابعهم بالشمروخ فيجرون.. من يومها أصبحت الترعة لنا نلعب على كلا الشاطئين ولا يظهر من العزبة ولد.. والذى

مات يا رجل راح دمه ولا أدري كيف.. وكنت دائما تجرؤ على فعل ما يعجز الرجال عن فعله.. عركتك مع برابرة السلطة.. لما جاءوا يطلبون أنفارا من الكفر وأخذوا واحدا من جماعتنا وقتل لهم هاتوه.. والكرابيج التي انهالت عليك كانت أعجز من الشمروخ.. هرب الرجال السود على الجمال وفاتوا الكفر وما شفتهم أبدا.. وحتى لما كانوا يعودون لا يهربون ناحية البوابة ويكتفون بأخذ الأنفار من الأهالي في صمت وبلا ضجيج.. ودخولك على جماعة شلبي بعد حكاية شوق دون علم جماعتنا.. وتاريخك معنا مزحوم بالضربات، وفي أطراف الواحد منا آثار الضربات والعاهات المستديمة.. واليوم تقعد؟».

كان يحكى عن أيام العزوة القديمة، ولمة الرجال حول جدى مصطفى.. يحكى عن الماضى فيبعثه من جديد ويحياه، وناسيا لحظته بكل ما فيها من أمارات العجز.. كنت أسمع وفي يدي خنصر الشاى الذى قدمته زكية.. قال أبى.. متى ترجع؟.. قلت متوددا إليه:

- كام شهر كده يابا.. ع السنة ما تخلص وأحول أوراق الولد لمدرسة البندر.. بدل السنة ما تروح عليه.

وسكت مدة.. ساد صمت طويل.. قال بعده بحماس وعروق رقبتة تنتفض وتزداد احتقاناً وغلظة:

- «علمه.. علمه.. حتى لو بيعت كل الأرض علمه.. أولاد شلبي كسرونا لما علموا عيالهم.. طلعه حكيم أو محامى المهم علمه.. إياك تنسى مهما حصل.

وعاد الصمت وصدى كلماته يترجرج فى طبلى الأذنين ويرف فى الدماغ وكأنه يتجسد حماما أبيض يستدعى الرعاية والحنو.

* * *

وجاء سيد من الكفر.. قلت له: أنت معوج فاعتدل.. قال: لست معوجا، راح يجادلنى لأول مرة فى حياته بحدة وحماس.. كأنه اكتشف شيئا جديدا.. دائما لما يرجع من الكفر يهوى النقاش والمعادنة.. سألتى إن كانت أمه قد أتت به إلى طفلا فى مصر.. قلت له: جاءت.. حصل بالفعل أن جاءت تحملك.. أخذتك من أمى وجاءت تحملك إلى فى الدكان.. قالت أرجع لأربى سيد.. «فتأتين بعد ما كتبوا

كتابك على ابن عمك؟ تدعين أن سيد يحتاجك؟ اليوم يحتاجك وبالأمس لم يكن يحتاجك؟ انتظرتكم اكتمال العدة وكتبتم فقطعتم على خط الرجعة» قلت لها: عودي يا شوق.. ارجعي الكفر وكفانا ما جرى.. ولما بكت لم أصدق دموعها «تذهب إذن إليها وتسألها وتصدق كلماتها؟.. تدعى أنني رفضت إعادتها رغم أنها جاءت بنفسها من أجلك؟ طيب.. سوف أعرفك» قلت لروحي ساعتها: لكم هي جريئة لتأتى إلى وهى على ذمة رجل آخر.. لم أصدق ما كانت تدعيه من رغبتها فى العيش معي.. قلت لها: روحي لرجلك يا شوق وكفانى ما حصل منكم، وأنا خلصت من ذنبك، أبوك ضحك علينا ولما قلت لك لم أخلص منك.. لم تسمعى الكلام وامتد بوزك شبرا.. وأمك طولت لساتها على فى مندرتكم.. وأهلك جاعوا وكأنهم يرغبون فى العراق.. وأنا لم أنطق إلا بعد أن طلبت أنت الخلاص.. والولد قدمته إلى امامهم، وأبى عملتوه لبانة على آخر الزمان.. قالت: لا أرغب فى العودة إليك من أجلك أنت وإنما من أجل الولد.. أحسست بالعار.. ها هى تكيدنى بك.. كأنما أحسست بالغيرة منك يومها.. لأننى لم أكن أساويك عندها.. تعود من أجل طفل فى لفته قدمته إلى بنفسها وتخلصت منه.. تعود بعد أن انكشف ذيلها لرجل آخر.. ورغم كل المساعى التى عملناها قبل أن أصل إلى الكفر وبعد أن خلصت، قطعوا علينا خط الرجعة وكتبوا كتابها على ابن عمها المحترم كأنما حسبوا الأيام لتوفى العدة بينما كنت أنتظر..

قلت لها ارجعى يا شوق فما فكرت فى استعادة بصقة لفظتها حتى لو كانت فيها حياتى.. قالت وكأنها قطعة شرسة مسعورة: وأنا رميتك وبصقت عليك ألف مرة ولولا سيد ما رجعت لخسيس مثلك «أنا الخسيس يا سليلة تجار الملح ورسمال الحمام والثمر المعفن؟» غلى الدم فى عروقى.. كدت أضربها فى الشارع ولكنها كانت تحملك.. تحتذى بك منى «قالت: خذ ابنك وحطتك فوق الدكة.. نفس المشهد القديم.. فى المرة الأولى قلت: أهلها.. هذه المرة كان أهلها لا يعرفون حتى أين راحت.. ما كان بيننا غيرك.. أنا ما كنت لأدعك تتربى على حساب ابن عمها يا سيد.. وما كنت قلت لأمى أن توافق على أن تأخذك منها لترميك من جديد.. تسألنى أن كانت جاءت.. حسنا.. رح واسألها متى جاءت.. اجعلها تحكى بصديق متى جاءت واحكم أنت بنفسك.. تلومنى لأننى لم أقبلها من أجلك.. وهل

قبلت أنت البنت التى عرفتها وفاتتك وصاحبت قريبها لتكيدك؟. هل قبلتها لما رجعت تقول لك إنها تحبك أنت وتريدك؟.. أنت تحاسبنى وتتسى نفسك يا سيد.. كنت أرضى بها لو لم يكن ذيلها انكشف لرجل غيرى.. وحتى لو رضيت يومها.. هل كنت أضمن أنها سوف تخلص من ابن عمها هل كنت أصدق أنها باعته من أجلك فعلا؟.. ولماذا باعتك منذ البداية؟ اسكت يا سيد.. اسكت.. أنت لا تعرف ما جرى منها.. أبدا لا تعرف ما جرى منها.. أنت ترى دموعها تنسال فتصدق.. ودموع الواحدة منهن قريبة.. أقرب من الهم على القلب.. كان انكسر شيء ما بيننا فى قاعتهم.. انشرخ جدار كان يسترها فبانت على حقيقتها.. كان من الصعب على أن أصدق أن الأمر سوف يعود كما كان.. ما جرى كان شائها ومشينا ويصعب احتماله.. اسكت يا جدع ولا تقلب علينا المواجه القديمة.. اسكت.. ارقد أحسن...».

* * *

سقط الرجل وهو يعافر فوق السطح دون أن يطلب منهم مساعدة.. سقط فوق حجر الطاحونة القديمة فانخلعت مفاصلة ورقد عاجزا عن الحركة.. جاءنى الخبر وأنا مشغول فى تحويل أوراق سيد لمدرسة البندر.. فرمحت وسافرت إلى الكفر بليل.. وجدته راقدا وعلى وجهه غطاء.. رفعته من لهفتى ورحت أناديه ولا يرد.. أخذوا سيد بعيدا ثم شدونى وأنا ذاهل حتى عن كلماتهم.. «السر الإلهى طلع.. طلبك ولما غبت قال اطلبوا منه السماح.. البقية فى حياتك» كنت أطل إليهم ولا أميز الوجوه.. لا أعرف إلا أنها مجموعة من الأفواه والعيون المطلة.. ولما طلع النهار وبانت الشمس كنت قاعدا وحدى فى ركن الدار.. ولا أعرف كيف سرت معهم فى الجنازة.. حملت الخشبة فأزاحونى وسندونى وساروا بى فى اتجاه المدافن.. كانت مقابلتنا الأخيرة ماثلة فى خاطرى.. كنت قد أحببته، بعد أن أحببته جاء الموت وخطفه.. كائننى كنت مشتاقا إلى الأب فلما وجدته أعطيته كل الحب الذى حجبته عواصف الأيام السود.. ليتنى كنت أكرهه.. جلست فى المندرة أخذ العزاء من الناس.. طلعا عليه الخميس الصغير.. انتبهت لنفسى وأنا ألمح سيد يلعب مع أولاد الدار.. تذكرت الإجازة والمدرسة التى حولت إليها أوراقه أخذته معى للمدرسة وسألت عن الأوراق فقالوا وصلت.. تركته وأوصيت زميله أن يعرفه سكة الكفر.. سألنى صالح عن سيد قلت راح المدرسة.. بان عليه شيء

كأنه الاستياء.. سألته: مالك؟ قال: أبدا.. فى الليل بدأت أرقب الوجوه، صالح بجانب زكية التى خلف منها ولدا يرضع.. ومبروكة التى تقعد متكدة فى ركن القاعة لا يبين منها غير عينيّن ضيقتين تلمعان.. وسيد الجالس ينظر إلى الكل فى توجس، يلعب بنت برهومة أحيانا ويكف وكأنه يخشى الاستمرار فى اللعب.. قال صالح:

- لزومها إيه المدارس ياأبا؟ دى الأرض عايّزة رجالة.

سكت وكأننى لم أسمع ما قاله.. تحمست مبروكة وقالت وكأنها تداعبنى أو تضاحكنى بينما يتوارى فى نبراتهما معنى يمكن اكتشافه:

- طب أنت نسيت الفلاحة يا حسن.. هيه.. عمر طويل بقى.. يكون فى عونته صالح.

قلت:

- والعمل؟

قالت:

- بقول سيد يقعد فى الدار مع أخوه يساعده.. يشيل على الحمار.. وأهو الخير كثير..

سكت.. قال صالح بحماس من وجد من يسنده هذه المرة:

- قلنا كده قالوا اطلعوا من البلد.

قلت لصالح محاولا إنهاء المسألة كلها:

- لا تطلع ولا تنزل.. أنا وياك دراعى بدراعىك لحد ما يكمل تعليمه.. أبويا قال كده..

قالت مبروكة:

- يبقى زى الشحط وياكل من كدكم؟

«ليلتك مهبية يا بوز القرد»

قلت لها:

- أهم ولادى واللاتين اخوات..

قال صالح وكأنه تعلم شيئا أو سمع شيئا:

- يعنى هو يروح المدرسة ويبقى أفندى وأنا أنزرع فى الطين؟

قالت زكية وكأنها تلتفّ الجو ولكن لغير صالحى:

- يعنى اللى راحوا المدارس عملوا ايه يا با حسن..؟

قالت مبروكة والغيط يلمع فى عينيها الضيقتين:

- إحنا كمان مش حمل مصاريف مدارس..

قلت:

- تتدبر.

قالت مبروكة:

- هى شوق ولا صالحة اللى بنت أصول يا حسن يا بنى..؟ ابن شوق

يبقى أفندى وابن صالحة يطفح الكوتة فى الغيط؟

قلت لنفسى: «شوق أحسن من صالحة ألف مرة.. أحسن منها يا كركوبة»

وساد صمت.. واستمر لحظات.. فى اليوم التالى جاعنى سيد فى الغيط خلف نقلة

السباح.. كانت فى عينية دموع وعلى خده آثار كف.. سألته فقال إنه صالح..

«ضربتنى أنا يا صالح».

سألت صالح عن سبب ضربه للولد فعرض صدغه ناحيتى وقال بغطرسة:

- وإيه لما أضربه يعنى؟ يا ما الواحد شاف وانضرب.. حاكم أنت كنت فى

مصر ويا شوق يا با.. دانت بتخاف عليه قوى.

قلت له:

- دى العيشة كده ما تنفعش أبدا.. طب ضربته ليه؟.. اتكلم.. ولم يتكلم..

ظل معرضا صدغه ناحيتى وكأنه يدفعنى لضربه.. تماسكت، قال صالح:

- اللى تشوفه مشيه.. إنما حكاية المدارس دى ما منهاش فائدة..

فى العشاء قالت مبروكة وكأنها بكل شىء عليم:

- صالح إيده طويلة يا حسن.. لو كنت خايف على ابنك وديه لامه تربيته.

وتكلم صالح كلاما عجيبا.. قال إنهم يعايرونه فى الكفر ويقولون له: أبوك

جاء يأخذ الأرض.. ويقولون له: طلع لك أب على آخر الزمان من تحت الأرض

بعد ما كنت بلا أب..

قالت مبروكة:

- قصر الكلام كده.. لو فضل ابنك فى المدارس وابن بنتى يجرى عليه

أطلع من الدار وأقوتها لكم..

قلت لها: .

- فى ستين كسحة.. والمركب اللى تودى..

قالت:

- حيلك حيلك.. لهُو انت فاهم إن الدار بقت دارك؟ يا كيدى؟

قلت لنفسى إن مبروكة مازالت فى الدار تأمر وتتهى كما كانت فى الماضى.. حتى صالح علمته أن يكون باردا ونطعا.. علمته وسيرته على هواها.. لو عاركت صالح يلومنى الناس.. مصير الحق يصل أصحابه.. تذكرت ما قاله جدى عن الحريم. قلت أحسم المسألة كلها:

- دارى أو دار صالح ما يهمش.. أنا راجع المحلة.

ولم يمانع أحد ولو بكلمة.. كأنما كانوا ينتظرون منى أن أقولها بنفسى.. طرد لكنه مختلف.. طرد بالمعاملة.. وخرجت بليل.. أخذت أمى وسيد وركبنا.. كنت أتحاشى مقابلة الناس وأتخفى وكأنى سرقت شيئا.. ولم يطلع صالح ليوصلنى بل ظل جالسا مكانه يشفط الشاى بصوت وكأنه يعاندنى هو الآخر.. ركبنا ووصلنا البندر.. وطول السكة أقول لنفسى «الدار دار أبونا والأغراب يطردونا» وأمى كانت تعجب وتضرب كفا بكف وتقول عن مبروكة إنها قارحة ولا تخجل أبدا..

* * *

فى الشركة قالوا: وفرناك.. قلت: كملت.. «صنعة فى اليد أمان من الفقر».. رجعت إلى مدرسة سيد القديمة وتحايلت على الناظر وسقت عليه الناس ليقبل عودة الولد والرجل راكب دماغه.. والكبار يحتاجون كلمة من الكبار فيهبون كل أمر كبير ويصبح سهلا ويسير التحقيق.. قلت أبحث عن رجل كبير ووجدته.. أعطيته مبلغا وقال ابعث ابنك مدرسة فى صباح الغد. والولد دخل المدرسة والناظر قابلى ببشاشة وكأننى صاحبه.. قلت: إنه على كل شىء قدير، القرش عمال عمال.

كنت أشتغل فى ورشة النجارة والحالة أفضل من أيام الشركة.. قالت أمى

مرة: خذ روحية بنت عمك رجب.. من دمك وتصون عرضك وتكون حنونة على الولد.. قلت آخذها.. سافرت الكفر.. لم أر صالح.. أخذتها بعد ليلة ساكنة بلا فرح ولا زفة.. رجعت المحلة بها.. قالت أمى بعد أيام أسافر البلد.. قلت: لا.. كان الولد يتعلق بها.. رغم محاولات روحية أن تبدو حنونة على الولد كان ينفر منها.. تعللت أمى بضيق المكان لكننى لم أوافق..

قالت أمى: روحية ضربت سيد على دماغه.. أخذت روحية فى ركن وسألتها عن السبب.. قالت: كسر القلة.. ضربتها وقلت لها: لو كسر أغلى شىء هنا لا أسمح أنك تضريبه.. قالت والدموع ترحمها من يدي: حرمت ولن أعملها أبدا.. «حتى أنت يا روحية تضربين؟.. ظلت تتمسكين حتى حسبت أنك تمكنت.. نسيت أنك فى القدم مداس أخلعه لو ضايقتى وأشترى غيره؟» بعد أيام قال سيد نفسه: شتمتنى بكلام قبيح عن أمى.. ضربتها مرة أخرى.. قلت لها: كله إلا الكلام القبيح وقلة الأدب.

وقالت أمى: لا تضربها كثيرا.. خوفها فقط فربما تسم الولد وأنت لا تعرف «بدع» الحريم يا حسن.. الولد يروح فى لعبة.. وخفت على الولد من روحية وأخذت فى تحذيره منها فيقول لى إن أمى أفهمته نفس ما أحاول أن أفهمه.

وجاءنى إعلام الوراثة على البيت.. سافرت وذهبت إلى المحكمة فى اليوم المحدد.. وجدت صالح يقف بعيدا ويرقبنى دون أن يتقدم ناحيتى خطوة.. القاضى لما سألته قال إنه اشترى ودفع الثمن.. «أنت تدعى أنك اشتريت الأرض ودفعت ثمنها.. من أين جئت بالثمن يا ضلالى؟» عرفت أنه يكذب.. وأن الأوراق التى قدمها مزورة.. سألتنى القاضى إن كنت مستعدا للطعن فى أقوال صالح؟.. قلت لنفسى أنه يمكن أن أكسب قضية الأرض وأخسر الولد.. ربما يقع فى قضية تزوير ويروح فيها ويقولون فى الكفر أنتى كنت سببا، إذا كسب يقولون أنتى حاولت الإيقاع به عند الحكومة ولم أفجح.. وفى كلا الحالين أكون معيرة الناس ولبانة يتشدقون بها.. ظلت ساكتا.. قال القاضى: أجر لك محامى ما دمت عاجزا عن الكلام ولا تعرف شيئا.. وأجل القضية شهرين.

قالت أمى: سفرنى الكفر أموت هناك بدل الموت فى الغربة.. وأخذتها

وأوصيت عليها الأهالي وعدت إلى المحلة.. كنت مهدود القوى وخائفا على الولد من روحية.. كانت أمي تراعيه وتحرسه واليوم تتفرد به البنت وربما تتعبه كنت لاحظ اتساخ ملابس الولد وصفرته.. كأنه معلول.. أصبح كأولاد الشوارع.. قالت الساكنة إن روحية تجوع الولد وأنت في الورشة.. قلت لروحية: فوقى لنفسك وكفى عن مضايقة الولد، صلحى أفعالك أحسن لك.. وكل ليلة أرجع من الشغل فأسال الولد إن كان أكل فتد روحية بسرعة وتقول إنه تعشى.. ولما يسكت سيد ويمد يده للأكل ويأكل أعرف أنه كان جائعا.. ولما أسهر فى القهوة مع أصحابي أصحيه واكتشف أنه بات بلا عشاء.. كنت أخاف أن تعمل شيئا للولد ما دامت أمي فى الكفر والولد طول النهار معها.

ولما نجح فى الابتدائية كثر زنها على دماغى تطلب أن أشغله فى الشركة وقلت: تعلم وأصبح يحمل شهادة على كل حال وأنا خلصت من ذنبه.. دفعت لواحد من الأفندية رشوة فأخذها ووعدنى بتعيين الولد.. لكنه أخذ الأوراق ولم يعينه والمدارس كانت بدأت الدراسة وأوراق الولد مازالت عند الأفندى.. وصاع الولد فى الشارع، وكل يوم أذهب للرجل الذى أخذ الفلوس فلا أجده وإذا وجدته يتهرب منى ويعد وعودا تجعلنى أتشكك فى أنه نصاب.. واشتكت روحية من شقاوة الولد وقالت شغله فى صنعة بدل الرمح فى الشارع.

ولما صهينت عنها أخذته هى بنفسها وراحت به ورشة حدادة واشترت له ملابس قديمة للورشة.. واستقام الولد أياما ثم بدأ يهرب.. يقول إنهم ضربوه، وأخذته بنفسى لورشة ميكانيكى سيارات لكنه كان دائبا على الهرب منها كلما وجد الفرصة.. قلت لنفسى: الولد أخلاقه فسدت، بدأت أسمع كلام روحية وأضربه لأريبه وأعلمه.. قال زميلى محمود: ابنك صحته تعبت.. قلت له كلنا تعبائين فى عيشتنا وهو ليس صغيرا ليهرب من الورشة.. قال لى: أنت التفت لابن روحية ونسيت سيد.. قلت لنفسى إن محمود يدس أنفه فى أمورنا ولا يعرف ما يجرى من الولد لو بقى فى الشارع يتعارك مع الأولاد ويسبب المشاكل ولو راح الورشة يهرب ولا يستقيم، والأفندى أخذ الرشوة ليعينه وضحك علينا.. وروحية خلفت والدا صغيرا وليس هذا شيئا غريبا لو اهتممت به هو أيضا.. كنت فرحان بالولد الصغير أكثر من فرحتى بسيد يوم مولده لأنه جاء فى أيام أحلى وظروف أحلى.

* * *

قال المحامى الذى وكلته بعد أن أخذ مقدم الأتعاب والرسوم: الولد ابنك لعب فى الأوراق واستعمل ختم جده وزور عقد بيع وأنا اطلعت على الملف بنفسى فى المحكمة وشفت التزوير.. سألته: والعمل؟ قال: وإذا كنت تريده يروح اللومان يروح، وإذا كنت تخاف عليه اتركنى أتصرف فى الموضوع.. تتنازل عن القضية.. وتسكت بعد ما نهدهه ونأخذ منه قرشين ينفعوك، واتفق معى على نسبة ما يأخذه مما يدفعه صالح.

بعد مدة ذهبت للمحامى أسأله فتغيرت لهجته وقال إن الأوراق سليمة فلعب فى عبي فأر الشك وبدأت أتوجس شرا، «ربما يكون المحامى اتفق مع صالح على إفساد القضية وأخذ شيئا.. كلهم مثل المناشير طالعين نازلين حش فى تعب الخلق» قال: ما يعرضه عليك ابنك خذه ولا تعارض فما تحصل عليه يكون من حنك سبع، الأرض تحولت لصالح بموجب عقد بيع رسمى غير مشكوك فى صحته.. ويوم القضية كان المحامى الذى وكلته مع صالح فى انتظارى، قال لما شافنى موجهها كلامه لصالح: أبوك مستعد للتنازل عن القضية لكن تشوف خاطره.. وسكت صالح مدة ثم قال: كتر خيرك.. كنت أراهما يتكلمان بالعيون وأحس اتفقا على أنا.. «أستمر فى القضية لآخر الشوط ولا أتحوّل إلى مسخّة يضحكون عليها؟» قطع على تفكيرى صالح بأن شدنى من كوعى ومشى بى إلى ركن وقال وكأنه يخلص نفسه من ورطة وقع فيها: بدل المصاريف والفضائح خذ ما تريده من دون علم المحامى لأنه أخذ منى ثمن الصلح.. «تساومنى بعد أن زورت العقد؟ وتتفق مع المحامى أيضا وتأتى لتعرض على الصلح؟ أأجر محامى آخر أم أصالحك يا صالح؟» قال: لن أهون عليك مهما كان الحال فأنا ابنك» وهنت أنا عليك لما خرجت بليل من الكفر وكأنتى عملت عملة؟ «جاء المحامى: قال فى حماس من يريد أن يخلص نفسه ويأخذ: نتفق قبل الجلسة.. تتنازل ونخلص.. قلت لصالح: طيب يا صالح.. أخرج من حافظته نقودا ومدّها ناحيتى وهو يقول: ثمن المواشى، بعثها كلها وجبت ثمنها من أجلك.. صعب على حاله.. قلت له وأنا أنظر إلى المحامى وكأنتى أطرده: ربنا يغنيها بالحلال يا صالح.. حظ فلوسك معك واشترى مواشى فأنا مسامح ولا أريد شيئا..» وجه المحامى كان منهوئا وأنا أفسد عليه رغبته فى الأخذ منى» قال المحامى يستفسرًا كان بقية الأتعاب؟ قلت له: بعد التنازل.. ودخلنا عند الموظف وكتبنا التنازل وشى المحامى ينتظر

فقلت له: ربنا يسهل لك من غيرنا يا عم» كفاك ما أخذته وعملته.. وجذبت صالح وخرجنا من المحكمة وكأنما اكتفى المحامى بما أخذه أو خاف من الفضيحة فتأخر عنا ونحن نمشي خارجين من المحكمة: قلت لصالح: أنا لا أطمع فى شيء أكثر من أن يتصل حبل الوداد الذى انقطع.. قال: عرفت أنك سوف تتنازل.. وعرفت منه أنه كان يرغب فى التسجيل فأوقفوه وأرسلوا إلى إعلام الوراثة، لكنى لم أهتم بما حصل.. وتركت صالح وسافرت رافضا أن آخذ منه مليما واحدا قائلا إن الأحوال رضا..

قلت لروحىة عما جرى فقالت وكأنها هى التى خسرت الأرض والقضية:
- يا دى الخراب.. اتنازلت دا آيه؟.. دانت كنت تأخذ منه حبابى عنيه.. لجل عيالك يا راجل.

قلت لها اخرسى فلوت بوزها.. قلت إنها لا تهتم إلا بابنها هى ولا تعرف أن صالح ابنى أيضا ولا يهون على.. وسيد.. سألتها عن سر غياب سيد فقالت لا أعرف عنه شيئا منذ الصباح.. سألتها: جاء يتغدى؟ فنفت أنه جاء.. ولما رحت الورشة أسأل عنه وجدتها مسكوكة.. قلت: ربما الولد حصل له شيء أو طفش من البلد.. وقلبى بدأ يدق والخوف عليه يسيطر أكثر وأكثر..

فى منتصف الليل سمعت أصوات خطوات على السلم.. فتحت عيناى وانتظرت، كان خبط على الباب وهمس.. لما فتحت وجدت سيد محمولا على أكتاف ولدين من أولاد الورشة.. قال أكبرهم سنا: داست على رجله عجلة فلوتها وأخذناه للمجبراتى.. ونزل الولدان وفاتوا سيد جالسا على الكنبه يتألم، فلما أغلقت الباب واقتربت منه بدا خائفا يتزحزح ناسيا ألمه.. كان يحسبنى سوف أضربه لإهماله فى نفسه.. كلما أبتعد عنه وأنظر إليه خلصة أراه يتحسس قدمه المربوطة ويتألم.. أحيانا يئن فى خفوت مذعور.. لما اقترب منه يكش فى نفسه وينظر إلى نظرة مذعورة متوجسة.. قلت أبتعد عنه وأجعله يرقد.. نظرت إلى روحية فوجدتها صماء وكان الأمر لا يعنىها.. تلاعب الولد ابن الأسبوعين وتنظر إلى وكأن سيد لا يهم فى شيء.. تذكرت خوفى من أبى.. قلت لنفسى: دماغك دارت مع روحية يا ولد.. الولد يخافك مثلما كنت تخاف أباك.. تمام.. أصبحت أنت عبد القادر، وسيد حسن، وروحية مبروكة.. نفس الحكاية القديمة تتكرر وأنت غارق حتى أذنيك فى حواديت روحية.. ليلتها لم أنم.. روحية نامت وحتى لما

كانت تقوم من أجل الولد لا تهتم بحالتي ولم تسأل حتى عن سيد..

كل يوم يأتي المجبراتي بذلك رجله المكسورة الملوية.. والولد لا يتحسن حاله أبدا.. كل يوم تزداد الرجل ورما وزرقة.. شافة زميلي محمود فبص إلى بصة لوم وقال خذه للمستشفى.. أخذته إلى المستشفى الأميرى.. قال الدكتور حالته سيئة جدا.. لو تأخرت يومين آخرين كنا قطعناها له غصبا.. بدأت أحس بالخطر حولي.. تخيلته برجل واحدة فأمسكت يد الدكتور الشاب وحاولت أن أقبلها راجيا إياه ألا يقطعها أبدا.. قال: لا تخف فسوف نحاول، وشد يده منى.. سألني عما أصابه، وسر الإهمال في علاجه، وكيف رضيت أمه بمثل هذه البلادة؟ رحت أقول لذلك الشاب الغريب عنى كل ما حصل لى.. حكاية سيد من أولها.. كل ما أحضر لزيارة سيد يعرف عنه الدكتور مزيدا من التفاصيل.. وكل مرة ينظر إلى مستتكرا وكأنه يلومنى ويضيق بى.. لوما لا أستطيع دفعه.. نظرتة يمتزج فيها الإشمئزاز والضيق والكراهية وربما الاحتقار أو الإشفاق.. لكنه كلما ينظر إلى هذه النظرة لا أكف أبدا عن السرد وكأنى لا أهتم بغير كشف كل الحقيقة.. وهو فى كل مرة ينظر إلى تلك النظرة وكأنه يرى شيئا غريبا وليس إنسانا..

قدمت أوراق الولد إلى المدرسة كما أوصانى الدكتور.. لما خرج من المستشفى كان يمشى على ساقيه ويتوكأ على عصا أحضرتها له.. لكنه دخل المدرسة من جديد.. وارتاحت تقاطيعه نوعا.. واستقام فى المدرسة.. كل يوم يزداد تحسنا لأننى أراعيه فى كل شىء وأكف عن تخويفه أو ضربه.. والولد الصغير لما جاءتة الحصبة حاولت علاجه، فى ليلة ازدادت حرارته وقلت إنها الحمى.. ولما مات حزنت عليه أياما.. لكن سيد أنسانى موت الولد الصغير.. الذى حيرنى أن روحية بعد أن كانت تتخفى فى مضايقة سيد بدأت تضايقه حتى وأنا موجود وكأنها لا تهتم حتى بى.. ولولا حزنها على الولد لضربتها مثل أيام زمان، لكنها كلما أسكت لها تزيد فى أفعالها ضد سيد.. قلت لها مرة تعرفين أننى تربية امرأة أب يا روحية، وأفهم شغل الحريم.. غضبت منى.. ليلة امتحان سيد كانت تبعثه يشتري لها جاز وسكر وكبريت وملح وسبرتو وعيش.. كل شىء مشوار كأنها تعطله عن عمد.. لما قال لها أنا تعبت ضربته فى وسط الشارع بالمداس فوق رأسه.. قالوا إنها دست بوزة فى فم الولد وحاشوها عنه وهو يبكى.. لما رجعت قالت لى واحدة من الشارع عما جرى فرمحت.. قالت الساكنة نفس

الشيء.. كان سيد نائما فلم أشأ أن أصحيه..

من سكات أخذت روحية إلى الكفر.. جمعت ملابسها وحملتها لها وأوصلتها إلى دار أهلها.. عملوا لي مجلسا فقلت للرجال: عيشها انقطع.. قال عمى فهمنا ما جرى.. قلت: ضربت سيد.. قالوا نضربها أو تضربها أنت بنفسك.. قلت: غلبت معها.. كل واحد يأخذ نصيبه.. كانوا يريدون صلحا لكننى ركبت دماغى وقلت أبدا.. قالوا ادفع مؤخرها قلت أدفعه.. قال أبوها: الآن وأنت جالس بيننا ولا تتحرك من مكانك.. «عملت حسابى وأكملته وأحضرتة لأقطع كل الألسنة لما تطول».. قلت طيب.. قال عمى إبراهيم وكأنه يعجزنى بنكتة: خمس ورقات فى عشرة.. لا نقبل جنبها مفكوكا.. قلت: موافق.. أخرجت لهم مؤخرها وجاء المأذون وخلصتها وتركت المجلس ورجعت للولد.

بعد يومين جاءوا إلينا فى السكن وشالوا العفش كله.. المكتوب فى القائمة وغير المكتوب.. وكلما أعترض على أخذ شيء يقولون رجعها ولا تركب دماغك فى الشر مثل أبيك فأقول: أبدا.. وتركوا لنا السكن على البلاط وفرشنا قش الأرض على الأرض وبتنا وكان الجو صيفا فحمدت الله.. قلت تتدبر الأمور بإذن الله وأسدد ديونى وأشتري فرشاً جديداً ويكفينى أن يستريح سيد.

كنت أخاف عليه من عيون الناس.. لسانه طويل ودائب على الثثرة.. لا يكف عن الكلام أبدا.. بعضهم ينظر إليه بحسد والبعض الآخر يضيق به.. من يومه لسانه طويل.. يحكى كل ما يسمعه أو يدور فى دماغه لأى الناس.. لما كان ولدا صغيرا يتعلم كيف ينطق الكلام راح الكفر وجاء يقلد كل من رآه هناك.. أضحكنى على عبد الستار شلبى.. راح يمشى مثل أبى فمت على روحى من الضحك.. كل ما كان يسمعه يدور حوله يتذكره.. أفرح به وأخاف عليه من عيون الناس.. الناس لا تترك الناس فى أحوالها.. «الكعكة فى يد اليتيم عجبه».. من صغره يثرثر، هذه الأيام تتزايد ثرثرته.. يعجب الناس فى الورشة لأنه أخذ الابتدائية.. ينظرون عليه كأنه فتح عكا.. يقول لهم دون حياء: وركنت سنة فى ورشة الاسطى كمال وعلى سرير المستشفى.. أغتاظ منه.. يجعلهم يعرفون أمواتنا.. ابن صاحب الورشة أكبر منه، سيد فى الثانوية وهو فى الابتدائية.. يجالس الحاج ويتكلم معه.. ألمح فى عينيه جسدا للولد.. أبص للولد لأمنعه من

الاسترسال فى الحكى والثرثرة فلا يكف.. أحسه يكيدنى ويحكى مع صاحب الورشة.. كلما كبر يزيد كلامه.. أكره طولة اللسان.. أكره أن يتباهى النفر بروحه وبما يعرفه.. أريده ناصحا لروحه لا يأمن لأحد..

لما كنت أشتري له ملابس جديدة ويلبسها يكون شكله مثل أولاد الملوك.. من يومه تليق عليه الملابس وأفرح به وإن كنت أخاف عليه.. خفت عليه من نزول الكفر.. عيونهم هناك لا ترحم.. قالها واحد: العين كسرت الحجر نصفين.. أخاف عليه أن تكسره العين.

* * *

بت مقهورا لما جاعنى الخبر.. إحساسى باليتم يكتمل.. لم أهدأ ليلتها فى انتظار الصبح.. فى الصبح لم أتمكن من الحركة المعتادة.. قلت أرتاح ساعة أو ساعتين وأسافر وألحق الدفنة.. طالت راحتى كل اليوم.. كل ما أحاول المشى أتعب بعد خطوتين فأقعد.. ازداد الهم فوق صدرى.. كلما أجدنى عاجزا عن المشى والسفر لحضور الميتم يزداد الهم والأسى «هكذا تموتين بينما أنا عاجز حتى عن الحركة لحضور دفنتك.. وحتى المشى فى جنازتك وأنت كل ما تبقى لى يا أمى؟

دخل المرض قاسيا ورهيبا.. أشد من كل المرات السابقة.. قلت إنه الروماتيزم يعود فيعض المفاصل ويدغدغها دغدغة.. وطال رقادى فقلت إنه شىء أخطر من الروماتيزم.. وصاحب الورشة زارنى مرة وانقطع «بحث لنفسه عن عامل غيرى فما يهمله غير مصلحته ولولا أننى كنت أفيده ما شغلنى عنده، طالت الأيام فلن يكلف نفسه زيارة أخرى..» انقطع الرزق وغاب الأمل زاد الضغط على القلب والخوف حاصرني.. سيد فى التوجيهى.. والهم يتسرب إلى نفسه هو أيضا.. يبدو مهموما وإن كست ملامحه محاولات للظهور بمظهره المعتاد.. أعطيته كل ما كان معى.. راح يتصرف وحده فى كل شىء.. كنت أحس أن سيقانى أكياس رمل ثقيلة يصعب على جرّها على الأرض.. أتلوى من الألم وأكتم الآهات حتى لا أسبب لسيد مزيدا من الأسى والحسرة وأجعله يلتفت لى ولا يهتم بامتحانه.. كلما أراد أن يسهر معى أجعله يتركنى لكنه يعود ليرى طلباتى ويجهد نفسه معى ويذهب إلى الامتحان كل صباح. ولما يأتى يفوتنى أن أسأله عن الامتحان.. ولما انتهى أخذنى وركبنا حنطور وذهبنا إلى دكتور قريب فكشف على

وأخذ سيد على جنب وقال له كلاما بصوت خافت فاحتقن وجه الولد واحتبس الدم فيه.. لما خرجنا سألته فلم يفصح أبدا.. قلت له: يظهر أننى أودع.. فرت من عينيه دمعة وقال: اصبر واحتمل.. كان يلازمى ويداوم على تقديم العلاج الذى اشتراه.. لكن العلاج لم يثمر.. قلت له: ضاقت أحوالنا فابعث لصالح خبرا ربما يأتى وينفعنا.. قال أسافر إليه.. «صالح نسينا يا سيد ولو كان يهتم بنا لجاء مرة بعد حكاية القضية» وسافر سيد.. ولما عاد عرفت من نظرتة أن أمله خاب فى صالح فلم أشأ أن أسأله.. قال سيد: قابلت عمك إبراهيم وطلب العنوان وقال إنه سوف يأتى.

فى مساء اليوم التالى جاء عمى إبراهيم.. عجوزا يحمل فى يمينه سبتا صغيرا وخلفه رجل يحمل قفة كبيرة.. حطها عنه وناوله الأجرة وأشرق وجهه بضحكة.. تاهت التجاعيد وهو يقول لى:
- فر قوم يا بن الكلب.. راقد كده ليه؟

قلت وأنا أتماسك إننى عجزت عن القيام والحركة.. ارتسم على وجهه غم كثير.. جلس على طرف السرير وراح يربت على كتفى مهونا «شدة وتزول.. يومين وتقوم مثل الحصان..» بان فى كلامه أنه يدارى أمرا.. قال: صالح غرقان فى دودة القطن.. «دودة القطن.. وأنت جئت وفاتتك دودة القطن» قال: وحدانى.. يكون فى عون.. «وأنت تعرف أن المرض يبين العدو من الحبيب..» تفكر عمى لحظة قبل أن يقول: صالح سوف يأتى.. يقول إنه ينتظر حتى يستعد، همهم يائسا ثم جرت على خده دمعة.. فى حياتى لم أر غير ابتسامته. لم أر لون دموعه، كنت أحسبه لا يبكى طوال عمره.. يضحك، حتى لما مات ابنه الكبير فى عز صباه قال لامراته أمام المشهد:

- بطلى ندب يا وليه.. الله جاب.. الله خد.. الله عليه العوض.

قالوا يومها قلبه صخر لا يحس بالهم، وقالوا بحبوح لا يحمل للدنيا هما، ولما بكى قبالتى رأيت فى عينيه إنسانا يبكى دموعه المحبوسة.. كأنه ركزها فى دمعات تنسال خلصة بعد أن ظلت محبوسة عمرها الممدود بطول عمره.. دموع حزن قديم ينفجر فى لحظة كذب لأنه كان يكذب فى كل ما قاله عن صالح.. اضطر تحت وطأة اللحظة أن يكذب.. أحيانا تجرنا الكذبة المقصودة إلى الدمعة..» ربما

هـى دمعـة حزنه القديم تتفجر فى لحظة ضعف لم يكن يعمل لها حسابا.. «ترى هزمك الزمن الدوار يا عمى مثلما هزمنى المرض؟»

رفع رأسه وكأنه ينفذه.. نظر إلى سيد وأخرج حافظة نقوده ثم قال:
- خذ يا وله.. اشترى لى ثلث دخان وتعالى..

«ما كنت تدخن يا رجل» وعندما خرج سيد رفع الوسادة تحتى وحط شيئاً ولما نظرت إليه همهم يسكتنى فلم أتكلم.. استعاد ملامحه القديمة وكأنه بعدما حط ما حطه تحت الوسادة نفث أحزانه وهمه.. كأنه لم يعمل شيئاً يستحق مجرد التعليق.. قال وكأنه يسخر من شىء فات لكنه بقى أثراً:

- تعرف يا حسن يا بنى أبوك الله يرحمه بقى، كان غشيم زى الزمن، بيقولوا لقوا مطرح دماغه يوم الغسل قالب طوب أحمر. كنت أعرف أنه راغب فى إضحاكى لكننى لم أضحك.. كان قادراً على إضحاكى فى الماضى.. قالوا أنه يقدر على إضحاك طوب الأرض.. لو أراد يضحك طوب الأرض وأنا عجزت عن الضحك.. حتى ولو على سبيل المجاملة.. كان الهم فوق صدرى وربما صدره أثقل من أن ترحزحه نكتة قديمة عن دماغ أبى.. يقولها بينما قلبه يبكى فى خفوت مع قلبى.. «وأنت السبب فى كل هذا يا صالح.. ترى ماذا قلت لسيد.. وهل عرف عمى ما دار بينكما فجاء ليعوض ما حصل منك؟».

قام وبدأ يفك تحبيشة السبت ويخرج طعاماً ساخناً.. يرصه بجانبى على السرير.. ولما دخل سيد راح يداعبه ليزيل عن وجهه الكدر والولد حزين.. حلف يمينا ما لم ننس الهم ونكون رجالاً لا يبيت عندنا الليلة.. حاولت أن أبتسم وحاول سيد.. كأنما المحاولة أثمرت.. اندمجنا فى الضحك.. كأنما نسينا المرض والعوز وموقف صالح الذى هرب منا فى الشدة.. قلت لعمى: نسينا الهم يا عجوز.. ضحك وقال بطلوا هبل وكلوا.. كان يطعمنا بيديه.. ولا يأكل ويكتفى بسرد الحكايات عن أبى وأعمامى وجدى.. يتخير ما يثير الضحك.. قلت له وأنا أضحك: طول عمرك صاحب واجب.. قال: أنتم أولادى.. ليس لى غيركم اليوم فاسكت وبطل كلام فارغ.

قام فى الفجر وصلى.. صحنانا وعمل شايًا بنفسه «شاي البندر خفيف مثل عقول أهله» قالها فضحكت.. قال: هناك مثل يقول عن الضيف: أول يوم بدر منور.. ثانى يوم رغيّف مقور ثالث يوم عفريت مصور.. وأضاف: وأنا لا أريد لنفسى أن أكون عفريتًا وكفانى أن أكون رغيّفًا.. عرفت أنه ينوى السفر.. قلت: لا.. قال: لا بد أسافر اليوم.. سلم علينا.. هم سيد أن يخرج معه فحلف عليه ألا يخرج ادعى أنه ينوى المشى وحده ليتفرج على حريم المدن دون رقابة من سيد أو غيره.. ومشى.. وساد صمت بيننا بعد أن خرج الرجل، أشرت إلى سيد فجاء.. أشرت إلى الوسادة فرفعها سيد من تحت دماغى وأخرج من تحتها حزمة جنيّات كان الواحد منها يساوى ألفا فى تلك الأيام السود.

قال الدكتور:

- سافر مصر.. أدخل القصر العينى.. لن يفيدك علاجى.

سافرنا مصر.. أتعبونا كثيرا حتى سمحوا لى بالدخول.. بدأت أشم أنفاسى وارتاح.. جاء سيد يزورنى بعد أسبوع قال: قدمت أوراقى فى كلية الحقوق.. فرحت «ستكون كما كنت أتمنى.. محاميا يختلف عن النصاب الذى أفسد القضية وبلغ نصف الاتعاب وضيعنا يا سيد؟».

كان نجاح سيد هو الذى جعلنى أمشى وأدب على أرضية المستشفى.. لم يكن العلاج وحده يكفى.. ولا العملية التى أجراها أستاذ كما يقولون.. كان على أن أقوم مادام سيد قد نجح.. ها هو يدخل الجامعة كما كنت أحلم ويحلم.. لا بد من الشغل لأوفر له المصاريف.. لا بد أخرج من هنا لأواجه الناس وأكلّمهم عن سيد ونجاحه.. ها هو المشوار يبدأ من جديد.. لكنه يهون كل شىء ما دام سيد يتعلم ويتقدم.. سوف تفوت الأيام السود ويصبح الولد محاميا له اسم كبير.. يومها أنزل معه الكفر وأفخر به وأتباهى فى خطواتى.. أجعلهم يقولونها: ابنه أفلح.. أنظر إلى وجه صالح وألومه.. أهرّ الدماغ له.. ولا أتكلم.. أجعله يفهم أنه لا يساوى شيئا.. والجرح يومها ما كان يؤلمنى رغم عمقه وقسوته.. كان فى سلسلة الظهر جرح طويل مفتوح.. بمشرط أستاذ طبيب لكنه ملموم.. كل ساعة أرغب فى هرشه وأمنع نفسى وأتماسك ليطيب.. لكن الجرح الذى فى القلب كان يجعلنى عاجزا عن التوقف عن الإحساس بالأسى رغم كل شىء.. حتى نجاح سيد ما كان

قادرًا على جعلى أنسى صالح.. «حتى وأنا مربوط فى سرير مستشفى لا تأتى لـترانى يا صالح.. كأنك ابن حرام.. كيف يطيب جرح القلب منك وأنت تعرف كل شىء ولا تهتم..؟ ما لم تكن أنت مع سيد معى وحولى وفى خيالى فمن غيركما يكون معى..؟» ولما جاء سيد يوم الخروج نسيت نوعا لكنتى سألته: كيف يطيب جرح القلب يا سيد وصالح لم يكلف نفسه مشقة المجيء ليرانى؟

ولما رجعت المحلة اشتغلت فى ورشة أخرى.. لكن المكاسب كانت أقل.. قلت: مطالب الجامعة كثيرة ولا تكفى اليومية.. فى البيت وضعت العدة وكنت أشغل للناس أيضا.. وسيد عمل اشتراكا فى القطار وكان يسافر كل يوم ويعود فى المساء.. لكنه كلما أراه أفرح.. أقول يهون الشغل ما دام الولد فى الجامعة.. أنتظر نجاحه بفروغ صبر.. أحس أنه لابد أن ينجح.. لو تنقضى الأيام بسرعة.. لو تفوت الأيام وينجح.. ونخلص.. ولما نجح فى المرة الأولى اطمأن قلبى كل ما كنت أخشاه أن أعجز عن الشغل قبل أن يكمل تعليمه ويصبح كما يرجو وأرجو.

* * *

شمروخ أبى فى يدى وأنا استند إليه.. مشوارى إلى المدافن اليوم فى طراوة الصبح.. مربعات الأرض المزروعة بالخضرة.. والنسيم يهف فيفريق الدماغ ويحس.. كلما يموت فى الكفر نفر يأتون ويندبون «فيم الندب والبكاء ما دمت تعرفون أنه لكل أجل كتاب».

صباح العيد.. والأحياء يأتون يطلبون الرحمة للأموات.. أشعر بالونس.. أجلس بعيدا وإن كنت أحس بالونس.. يتسامرون أم يعزون ويطلبون الرحمة؟ فى الصبح لطم الحريم وندبهن.. وفى الليل الشماتة والسمر.. الأولاد يأتون وفى عيونهم أشياء: البنات.. «وكنا مثلكم نأتى إلى المدافن فى صباح العيد ننظر إلى البنات ونتمنى أن نلعب.. أن نلعب مع البنات لعبة الكبار التى نسمعهم يجيء بها.. ولما يحس الواحد منا بأنه أصبح قادرا وراغبا يأتى مع الأولاد الكبار.. تشغل البنات بنا.. نتصنع أننا حفظنا القرآن ونتاجوا ما يجيء على خاطر.. على روح الأموات نقرأ الآيات التى نذكرها.. لما ننسى نكمل من أى جزء آخر.. كله قرآن.. تضحك البنات وكأنهن يعرفن أننا نتلاعب وندعى.. ومن طرف العين

نرقب الوجوه المحجوبة.. نرفض أخذ الرحمة فنحن أولاد ناس جئنا نقرأ من أجل الرحمة للأموات وليس بئمن.. طلعة العيد أيامنا كانت تختلف.. البنات.. الوجوه النسائية التي حجبوها عنا.. نسال من يعرفون عن الأسماء.. نعشق من بعيد.. لا نجسر على القول.. لا شيء غير القرآن لغة.. غاية ما كنا نقدر عليه النظر إلى وجوه وصدور البنات الفائرة.. تأتون أنتم وتتصنعون الحزن على أمواتكم.. أسأل أن كانوا يعرفون الحزن كما عرفته؟.. يتسامرون أكثر الوقت.. الرجال والحريم في أحواش المدافن وعلى مداخل التراب.. الأولاد والبنات يبدأون الرمح وأحياناً الضحك بصوت عال مكشوف.. في الأركان يكون النظر واللمس.. أشياء كثيرة تتم خلف الحيطان بعيداً عن الأعين.. أعرف.. أعرف ولولا كبر السن لمارست لعبة المدافن الجديدة في فجر العيد.

كلما قابلت ولداً شقياً يبخلق في ولا يخاف.. صادفت بنتاً شفتها وكانت تحسبني لم أرها تعبت مع الولد.. في المدفن كان العبث وتابعت هي المسير قائلة في غير اهتمام:

- ما تروح دراكم يابا حسن..

تتثنى في مشيتها.. الولد في أثرها.. «الحريم.. بدع الحريم والولد لما كان يتسأل خلقك ويليد معك خلف تربة على شلبي.. ولا أراه حقاً - وإنما أسمع صوته مخلوطاً في همسات رفضك الأولى قبل أن تكون الاستجابة.. وبعدها تعودين ولما تسألك أمك تقولين بصوت مطمئن واثق:

- كنت باعمل زى الناس.

أى ناس يا فاجرة؟.. أنت حرة.. والولد يلف مثل النحلة.. يحوم حول الكل ولا يسأله أحد.. ومن يسأل الولد..؟»

يقولون إننى بكثرة زيارتى للمدافن أدفن نفسى حياً.. أنتم الموتى.. هنا الدنيا كلها.. الرجال الكبار الراقدون فى سكون.. يرقبون كل شيء ولا يتكلمون.. لو كانوا بينكم ما رضى نفر منهم بما يراه ويسكت اليوم.. فيم الغضب والخجل؟.. كانوا يفعلونها ولو بشكل آخر.. والحريم كن يعملنها علناً أو فى الخفاء.. حلالاً أو حراماً.. ليكون أولاد وبنات.. لتكون الدنيا.. رجالاً وحريماً.. ليظل الكفر يعطى

نسله المبروك.. هاهو أراه قبالتى من جديد.. بوجهه الأسمر وعوده الممدود..
«طالت غيبتك هذه المرة يا سيد.. عطاك أبى أم برهومة؟» أستعيد نبرات صوته..
فى الجنة أنت يا ولدى.. حولك حور الجنة.. أسمعهن يغنين لك.. يتزاحمن حولك
الآن.. أبى.. برهومة.. أعمامى.. جدى.. أمى.. يتوه صوتك يا سيد.. تتوه
ملامحك أراهم يزحفون حولك.. الأولاد والبنات والأطفال والرجال يتحركون..
يفسدون على رؤية الموكب الحقيقى.. موكب الرجال الذى أهواه.. لا يتكرر كثيرا
يا أهل الكفر فاتزحوا لأراهم.. يدبون الأرض فيضيع هسيس الموتى وصوت
الأغنيات المألوف.. تتوه الرؤيا..

وأنا أسعى هذه اللحظة بشمروخ أبى أتوكأ عليه.. أدب الأرض مثله.. من
أين تأتىنى كل هذه القوة على كبر..؟ كأتنى أبى.. أناديهم بالاسم ولا أسمع غير
صوتى.. يكتفون بالالتفات ناحيتى.. أصابهم صمم.. ربما صوتى محبوس.. لكننى
أسمعه.. أصرخ: سيد.. برهومة.. أبى.. لا رد..

يأتى الأولاد.. أولادنا الصغار.. يرشون ماء القلة البارد.. افتح العينين
وأكتشف الخدعة.. كأنهم تخفوا فى وجوه القدامى ولما رشوا الماء بانت
الحقيقة.. امشوا يا أولاد الأبالسة.. الأسماء نفس الأسماء.. برهومة.. سيد.. عبد
الحميد.. سيد آخر.. سلومة.. شعبان.. عبد الغفار.. عبد القادر.. إبراهيم..
الأسماء القديمة محطوبة فى أبدان صغيرة.. أسماء الموتى على الأحياء.. دورى
يا ساقية الأيام ولا تكفى أبدا عن إعطاء النسل الجديد.. اجعليه يأتى.. اجعلى الكل
يأتى من جديد.. يذوب فى الفراغ لكن الاسم حى فى آخرين.. التراب الناعم
تسفحه الريح وأنا أتكئ على أكتاف الأولاد الصغار.. أسألهم إن كنت قد نمت؟
يقول البعض إننى كنت نائما والبعض يقول أننى غبت عن نفسى مدة.. التراب
الناعم من أثر خطوات من سبقونا تسفحه الريح.. يدخل المنحار.. أشمه أولا..
أجده يتسلل إلى البلعوم.. أبتلعه.. أنوقه.. تراب مدافن الرجال الناعم فى الحلق..
نبتلع التراب قبل أن يبتلعنا.. غدا يبتلعنا التراب يا أولاد الأبالسة.. تحيطوننى
كأننى عريس ليلة الزفة.. أضربكم بالشمروخ لو كنتم تعبتون.. يقول الرجال لما
يلمحون خطوى: كأنه عبد القادر يعود من المدافن بعد طول غياب.. عبد القادر
يعود يدب بالقدمين ويلوح بشمروخه فى وجه الريح..

«لما أموت يأخذ صالح الشمورخ.. يمشى فى دروب الكفر يخوف الأولاد.. لكنه جيل لا يخاف.. يتجاسر علينا ويطل ويتكلم.. زمان جديد، أنت يا ولد.. أنت يا ولد يا ابن الكلب خذ يدى فالظلام حل وما عدت أميز الطريق إلى الدار».

أدخل الدار.. الليلة أجلس فوق دكة النورج.. اليوم عيد عند الأموات كما هو عيد عند الأحياء.. تأتى البنت بالأكل.. هذا طبيخ ولحم.. «لحمكم وقيع يا بنت الكلب.. كأنه لحم جمل عجوز.. أنتم مساكين.. على أيامنا كنا نشرب السمن شربا ولا نشبع.. أولادك مساكين يا صالح.. البصل ومش الجبن هرى جوفهم.. اللحم فى المواسم والأعياد.. البيض للبندر.. السمن للبندر.. الطيور للبندر.. ويتبقى الجبن إن تبقى.. أيامكم فقر فى فقر.. يا فرحتى بزيادة العدد.. تأكلون لحم الوقية.. تفرحون.. وأنت يا صالح أراك ساكتا.. كأنك انحنيت أنت أيضا.. مصاريق الأولاد فى المدارس.. الجمعية والكسب.. والكيماوى ودودة القطن والرش.. أيامنا لم يكن هناك رش.. نقلة السباخ كانت تكفى.. عبد الوارث أفندى صاحب الجمعية حرامى قارح.. وجماعة شلبى ركبت أنفاسنا بعد أن علمت أولادها فى المدارس والجامعة.. لو ظل سيد.. استمر يا ولد فى تعليم الولدين والبنت.. محمد حكيم.. أحمد محامى.. علمهم يا ولد ولا تتراجع مهما كان الأمر.. لو بيعت ما تبقى من الأرض علمهم..

البنت تأتى بخنصر الشاى وتمد إلى الجوزة.. تحط النار جنبى وتغسطس فى المندرة.. صالح يأتى ويجلس بجانبى.. أناوله الجوزة.. دخن يا صالح لتنسى المشاكل.. تأتى البنت بخنصر شاى لصالح وخنصر آخر لى.. شاى مر وأسود.. «منذ أيام اختفى الشاى.. داخ صالح.. التموين لا يكفى.. من غير الشاى ترجع اللقمة..» صالح يناولنى ورقة المعسل يقول إنه ذاهب لصلاة العشاء.. تعلمت الصلاة يا صالح؟ يأتى الولد الصغير ويحوم حولى.. أخذه وأقعه على حجرى.. أخرج من جيبي كوز الذرة المشوى.. أناوله للولد.. يفرح به.. يغرس أسنانه فى حبات الذرة.. كأنه لم يشبع.. ومن يشبع هذه الأيام؟ الجوع فى أسنان الولد الصغير.. لسانك أخرس فلا تطلب مزيدا من الأكل أم أنك تفهم الحكاية من أوها لآخرها رغم صغرك؟ كل يا شاطر كل..

* * *

قابلت سعاد فى سكة البندر.. جاءت ناحيتى وسلمت.. مشيت تحكى عن

الجامعة (كان سيد مثلك فى الجامعة دعوت لها بالنجاح.. «ها أنت يا شوق تجدين عوضا عن سيد.. وأنا أيضا..» فى عينيها حب وصدق.. كأنتى خلفتها.. لماذا لا تكون هذه البنت بنتى أيضا. أحس بالحب لها.. أفتح لها قلبى.. أقول لها إننى أذهب إليه كلما ساعد الجهد.. تقول إنها تعرف.. تحبنى.. أحبها.. بنت طيبة.. كأنها شوق أيام أخذتها معى.. يرتاح الواحد لها.. تحكى - المواصلات صعبة قوى هنا.. الواحد يمشى ولا يفضلش ملطوع يستنى.

قالت لها لتفتح موضوعا جديدا، قلت لها إننا كنا نمشى هذه المسافة دون أن نحس أننا مشينا.. من أيام الكيماوى ما دخل الزراعة قل الخير.. الناس أصبحت أضعف.. تضحك تظهر بنايات كفر عسكر الطينية.. نصل إلى الكوبرى.. تقول لى.. تفضل عندنا.. أود لو.. أقولها دون وعى، ليته من الممكن أن أحضر معك.. لكن مستحيل. من جعل المستحيل مستحيلا يا سعاد؟ الناس الناس جعلوا المستحيل مستحيلا.. أشوف شاكر.. لا أرتاح له أبدا.. أرتاح لك.. سيد كان يرتاح لك أكثر.

- شاكر طينة لوحده.

أعرف أنه دائم المشاكسة.. ليس مثلك يا سعاد.. تطول الوقفة أود لو أقولها.. ساقولها:

- أسمعنى يا سعاد.. سلمى لى على شوق.

أسير وحدى.. لم يعد هناك خصوم لى.. صالحت الكل.. بعدك يا سيد ما عاد عندى من أخاصمه.. قلتها مرة أخرى:

- صحيح يا سعاد.. سلمى لى على شوق.

* * *

صالح عـوف

١٩٢٥ - ١٩٧١

فى كفر عسكر لا يكون الحلم سيد
الأخلاق، تنقلب الآية ليصبح العنف
سيد الأخلاق، هكذا عرفتهم ربما لأننى
كنت بينهم مثل عيسى بن مريم بلا
أب يمنحنى الحماية.

وجاء الزمن العويل بأيامه الخسيسة، فانزاحت الأصول القديمة تداوى جراحها التي أسفرت عنها المعارك، تلعن الزمان الغادر وتلعق الجراح، وما تبقى لأولاد الأصول إلا الفرار إلى حضن الأيام الخوالى بنصف الوعي الباقى أثر الامتصاص الدعوب لدخان الحشيش. حتى الصنف غشوه وأصبحت الغيبوبة فى أغلب الأحيان زائفة، يتطوح الدماغ بفعل الهم الراسخ على الصدور المنهوكة من كثرة الشد المسعور لسحابات الدخان، تعز لحظة التجلى المأمولة فنرتضى بالتوهان، نجاهد فى عسر أن نستعيد ما كان، هروبا من خسة الأيام، نحكى عن العز القديم ونرتعب من لحظة الإفاقة التى تحطنا وجهها لوجه مع ما صرنا إليه. عمدة بلدنا من جماعة شلبى.. وكان الله بالسر عليما..، شيخ غفر بلدنا من جماعة شلبى.. والله على كل شىء قدير..، صراف بلدنا من جماعة شلبى.. وهو الغفور الرحيم..، لنا مشيخة البلد ولهم دوار، والجدار الواطى تخطيه الكلاب.

كنا فى نومة فعبروا فوق أبداننا وداسوا اسمنا لما حطوا النعال على أرضنا المسلووية.. الرجال السمر القدامى راحت أيامهم وما عاد لأى اسم منهم نفس الرنين، عبد القادر عوف، الحاج مصطفى عوف، سعد عوف، عبد الحميد عوف وأخيرا وهو الأدهى سيد عوف.. كلهم راحوا وخلفوا مساخيط تجعجع من باب التباهى بما تبقى.. يتحايلون على الحياة بما تحت أيديهم من قرارات لا تجود بالخبز إلا بعد الضنى وهذ الحيل.. أصوات تتقاطع وتتزاحم فى محاولات صبيانية لتأكيد وجودها شبه المعدوم.. يحكى مهرجان العجوز الذى تبقى من جيل الرجال عما كان فنسكر بالحديث يسخر مما فعلوه وما قالوه فيضحكون، أتمثل وجه جدى عبد القادر فيستعصى على الدماغ نصف المدرك، أتذكر زنده الملفوف القابض على الشمروخ فأستعيد الملامح، وجهه الصارم الذكر وعوده الممدود وكأنه مارد من عالم بعيد، أحس الحسرة وأقول لنفسى بينما أطالع الوجوه أمامى أنه سيكون عسيرا بحق أن تاتى من ظهور جماعة عوف خلفه قدرة على إعادة الزمن

الأصيل، أقول إن حقل الرجال الشداد أجذب، إن بذورنا خابت لأن من غرسوها - مطمئنين إلى قدرتها على الإثمار - نسوا أن يحسنوا رعايتها، هاهم أولاد جماعة شلبي بوجوههم المخطوفة يسودون ونكتفى بالثرثرة، وهاهم أولادنا ساكتون على كل المهانات. راضون بكل ما يجرى.. يتصارعون فيما بينهم حول القراريط، يسارعون في الوشاية.. أولادهم حفاة، لا يخلون من تأجيرهم للفرقة لقاء نصف الريال اليومي، يرددون فيما بينهم ما سبق أن سمعوه.. جماعة عوف أصل البلد، تشرفنا.. جماعة عوف نطفة طاهرة، أهلا وسهلا بنسل الحسين.. جماعة عوف كانوا وكانوا، يا هناتا ويا سعدنا.. يخطفنى اسم جدى عبد القادر على لسان الجد إبراهيم: كان سيد الرجال.. «ينسى أن نعل مداسه كان يساوى عشرات من أعناق الرجال الهياكل فى كفر عسكر».. ألف رحمة تنور قبرك يا زين الرجال، يا آخر طرح مبروك فى شجرة أولاد عوف الكبار، بعد أن رحلت يا رجل عجزنا عن لم الشمل، واجهنا ليل الزمان العويل غير الراغب فى الانتهاء. وحتى ما تبقى لم نحسن حراسته، الأغراب يتسللون إلى دربنا ويسرقون، ونجتمع لنعرف من أخذ مواشى العم مصطفى فيتحول المجلس إلى سهراية لا نفع منها ولا جدوى».

وسيد عوف قتلوه فى مدخل الكفر وكأنه غريب، والفاعل مجهول.. هكذا بعد الأربعين لا يستحق النفر منكم إلا مصمصاة الشفاه وإلقاء العظمت: الأعمار بيد الله، كلنا أموات، أعطنى عمرا وارمينى البحر.. والرجل هناك فى الدار فاقد لنصف عقله بعد ما مات سيد، فى الدار وليس فيها، يرانى ولا يفهمنى» جئت تنعى ابنك الآخر وترمى على هموما لا تطاق، جئت عاجزا وهزيلا لتؤكد لأولاد الكفر أنك أبى الضائع على مدى السنوات ورفضت أن تبقى لما كان العزم والعقل عندك؟ ولا حيلة لى فى إعادتك واعيا بما يدور حولك. قمت من مجلسهم رافضا عروض البقاء.. وحدى أقطع الدروب إلى الدار وتتبع الكلاب.. وحدى أنعى كفرنا الخسران وتتبع الكلاب.. وحدى كما عشت عمرى ونباح الكلاب المسعورة لا يكف.. وعتمة الكفر لا تبعث إلا على الخوف مما تأتى به الأيام.. الكلاب الغريبة دائبة على النباح كأنها تغيظنى بنباحها المتواصل وتقول إنها جاءت لتحرس من أصبح الكفر كفرهم ونحن لهم تابعون، تحرسهم كلاب ونتكل على من لا يغفل ولا ينام، لكن كيف سرقوا مواشىنا ومن سرقها؟ «الفاعل مجهول» جواب مريح على

كل الأسئلة حتى ولو كانت تخص من قتلوه عند مدخل الكفر وكأنه غريب «لماذا جئت يا سيد في زمن أصبحنا فيه غرباء في كفرنا الملعون؟ لماذا لم تأت في زمن القدرة؟ ولماذا كان على أن أعيش لأرى انطفاء شعاعنا القديم، محبوسا في خدعة اسمها الدار والأولاد؟» في السوق يسألونني لما أقول لهم إثنى من كفر عسكر الحاج مصطفى شلبي؟ تعرف الدكتور صلاح شلبي؟ ولا المهندس ممدوح شلبي؟ ولما أدعى عدم المعرفة يقولون: أنت تخدعنا.. من في كفر عسكر لا يعرف جماعة شلبي؟ الناس تنسى، نسوا جماعة عوف، نسوا الحاج بدر عوف والحاج مصطفى عوف والشيخ سليمان عوف وصالح عوف الكبير وعبد القادر عوف، كأنما ورثتنا جماعة شلبي على الحياة، ربما لأنهم يلعبون بالجنيهات ببجاجة، عيونهم مفتوحة وتجارتهن رابحة، يزودون في ثمن البهيمة بالخمسة جنيهات ويضحكون، والأرض التي أخذوها من نسلنا الطاهر وزرعوها فواكه وحوطوها بالأسوار تن طلبا لمن يرفع عنها الأقدام ولا من يسمع.. جماعتنا في توهة، يتكاثرون إنما بلا قيمة، فالقراريط هي القراريط لكن في وضع الاستعداد لمعاودة التقسيم ووضع الحدود، قال جدى عبد القادر: علموا الأولاد في المدارس، قال سيد عوف: عيبكم أنكم تجاهلتم وجود المدارس والجامعة ومراكز التدريب.

- مين هناك؟

وسكت الصوت، ابن بهية يقولها وينام أو يتحسس بالكشاف طريقه ويبرش بعينه ليتعرف بعسر على العابرين قلت:

- أنا صالح عوف، وأنت مين؟

لم يرد، كان الكشاف عند آخر الشارع يتعثر ويحاول أن يجد لنفسه طريقا مستقيما، قلت لأعرفه مكانى قربما لم يسمع، ربما فقد أذنيه أيضا:

- انطق يالطخ

كان الكشاف يقترب.. ينير الشارع وتتبعه الخطوات.. أصبح الكشاف موجها إلى وجهى.

قلت بضيق:

- ما ترقد يا بن بهية وبلاش زغلة ف وش الريح والجاي

- والدرك؟
- لا قالح ياولة، وبهايم أبوك مصطفى لما راحت م الدار كنت فين؟
- ف الدرك
- الله يرحم خالك، ماتقولى ياولة، ابن مين اللى سحب جوز البهايم؟
- حديك خمسين قرش.
- وأنا إش عرفنى بقى.
- طب روح لأمك تعشيك.

لطشته على كتفه حامل البندقية وأزحته عن طريقى.. زمن أعوج، ابن بهية يحرس الكفر، أعمش ومسلول ويحرس الكفر من لصوص الليل؟ ألم أقل إنه زمن عويل؟ الناس فى توهة والكفر فى نومة.. ما عاد الحلم سيد الأخلاق، قلبوا الآية أولاد الأبالسة، أصبح العنف سيد الأخلاق.. العنف سيد الأخلاق يا كفر عسكر، من سماها كفر عسكر؟ من عيّن ابن بهية لحراسة الكفر؟ من سحب المواشى من دار مصطفى عوف؟ دارك واطية يا عم مصطفى.. قلنا إن الجدار الواطى تخطيه الكلاب، ليل شتاء الكفر طويل والرطوبة تنفذ فى العظم، والسهرة كانت كعدمها.. حتى الصنف غشوه؟

قال سيد عوف قبل مقتله بشهر: بالعقل تنحل المشاكل وليس بالعنف وحده يا صالح.. قلت لنفسى يومها: هو أفندى ناعم تربى مع تلاميذ المدارس وتوظف مع أفنديه يخاف الواحد منهم أن يتعفر كم قيمصه، هنا دنيا أخرى.. بالعقل لا تنحل مشكلة، لو كنا كما كنا هل كان سيد عوف يرتقى رمية الكلاب عند مدخل كفر عسكر، وكنا نعجز عن معرفة الفاعل كما حدث، لو كنا أقوياء هل كانوا يسحبون مواشىنا من دورنا؟ العمدة قال إنه لا يعرف وأضاف أنه غير مكلف بحراسة مواشىنا، لدول وناصح مثل بقية أولاد شلبى.. شبت بطونهم فتحركت ألسنتهم إنما لا يفكرون فى أخذ المواشى، فلصوص العالم درجات كما قال سيد، ربما أولاد الزفتاوى، لكنهم تابوا بعدما مات أحسنهم فى المعتقل، العمارية، السلامية، تيوس جماعة سعد الله، ربما مرزوق ابن سليمان، لا أعرف لماذا يلح على دماغى طوال هذا اليوم، كلما أبعدته يعود، «بالعقل تنحل المشاكل» دارهم قريبة من دار العم مصطفى، لهم باب على السكة الزراعية، الولد كان محبوسا

وله فى الكفر سوابق، مرزوق ابن سليمان يعملها، ربما غمز ابن بهية بجنيه أو جنيهين، ابن بهية لدول، يفرط فى شرف أمه لو شم رائحة الفلوس، يبيع الكفر كله بأنبوبة مرهم بنسلين تبرد التهاب جفونه الدائم، ملعون سنسفيل جدود من كان سببا فى تعيينه.. مرزوق يعملها، كان يحوم فى طرقات الكفر ويتبصص على شىء يلهفه، رمى بلاه على شاكرك وأخذ علبة السجائر وطالبه ببقية الجنيه، شاكرك حلف بشرف أمه أنه لم يأخذ من مرزوق مليما، أبعدته عن البوابة وقلت له كلمتين وزغدته مرتين.. ربما قرأت فى عيون ابن بهية اسم الولد مرزوق لما سألته عن سحب البهائم، لكن كيف تعكس عينا دامتان موجوعتان اسما لشخص غائب؟ عينا الولد ابن بهية كانتا تزوغان منى، لو كنت عاودت السؤال ربما كان قالها: مرزوق، زمن أغبر، القوالب نامت وقامت الأنصاف، أنصاف الرجال قاموا يعيئون، رقد الرجال فاستباح العيال مالهم، استغلبونا على آخر الزمان، استغلبوا جماعة عوف.. كأنهم سرقونى أنا، من يكون مرزوق وسط أولاد الليل الذين قطعنا دابرهم من الكفر؟ ابن ليل جديد يطل علينا ويرعبنا فى الزمن الخسيس؟ ترى هل باعهم فى سوق البندر أم أنه خاف، ربما سربهم فى الليل بمعرفة ابن بهية، ربما يبيعهم غدا فى سوق الخميس، يسحبهم ويرميهم لأى جزار ويأخذ أى ثمن.

دخلت باب الدار المفتوح.. كان الرجل قد نام والأولاد ناموا.. باب الدار مفتوح.. لو دخل أى نفر وسحب مواشينا ما أحس به أحد، المال السائب يعلم السرقة.. دورنا مفتوحة فى زمن غير الزمن الأول.. الباب المسكوك يمنع القضاء المستعجل، لكن من يعودنا قفل الأبواب وقد عودونا أن الدار أمان والدنيا بخير، دعيت حتى وجدت الحرام، تلفعت به وخرجت ولم يشعر بدخولى أو خروجى أحد، ربما انتصف الليل.. عدت متجها إلى دار سليمان، قلت لنفسى أجرب مادام النوم طار من العينين، كان الدرك الذى يحرسه ابن بهية يغط فى نومه بعدما نام حارسه، حومت حول الدار وتسمعت الأصوات فكان السكوت جوابها، لو كان عملها لكان هناك على الأقل صوت أو حركة، قلت هى ليلة يعلم بها ربنا، وخبطت على الشباك، لم يرد أحد، بعد معاودة الخبط فتحت أمه الشباك.. سألت بفزع وهى تتبصص على من خبط:

- مين؟ مين اللي بيخبط؟

قلت وأنا أغير صوتى وأتخفى بالحرام:

- واحد زميله

- زميل مين يا خويا؟

- زميل مرزوق.. مش دى برضه دار مرزوق؟

- أيوه.. بس هو نايم.. عاوزه ضرورى؟

- لا.. أبدا.. ابقى أفوت عليه الليلة الجاية

- طب أنت مين اسم النبى حارسك أقوله

وتركتها دون أن أرد.. لابد أننى جننت.. ترى اليس فى هذا الكفر لص إلا مرزوق، لو كان سرق المواشى لباعهم ساعتها، ولو كانوا فى داره لخاف.. ولو تجاسر وأبقاهم لطلع بهم الليلة إلى سوق الخميس.. لابد أننى مسطول «ليلة كحل وقطران» مالى حتى بمواشى العم مصطفى «المال السائب يعلم السرقة» هو حر فى ماله.. أكون فى حالى.. لما تعاركت مع أنفار الوسية كان يرانى ولا يفكر حتى فى المجيء ليرى ما يجرى فى المعركة.. كل واحد غرقان فى أحواله، من منهم تحمس من أجلى فى شىء؟

ودخلت الدار.. كان الباب الموارب يسمح بخروج خط الضوء الرفيع علامة تميزه عن كل الدور المغلقة، سمعت الرجل يكلم نفسه فلم أشغل نفسى بالرد عليه.. التفتت فى اللحاف ورقدت.. سمعت صوت الشيخ سليم عوف يجلس فى وسط السكون بأذان الفجر.. وبدأت فى أعقاب كل تكبيرة أصوات الديكة تؤذن والكلاب تنبح.. بعدها تداخلت الأصوات ولم أعد بقادر على تمييزها وسط النحنحات المتحركة فى اتجاه الزاوية فى مشوارها المتكرر لأداء الصلاة.

* * *

لما كان الأولاد يسألونى عن أبى أقول كما سمعت: مسافر مصر، وأضيف من عندى: وراجع، فى أول الأمر كنت أحس نوعا من التفوق لكون أبى فى مصر، إنما بعدها بدأت ولا أدرى متى أحس بالخيبة كلما سألونى عنه، ربما بسبب الولد محمد ابن شلبى الذى قال للأولاد مرة إن أبى «طفشان» من الكفر،

وكلما كنت أواجه عيون هذا الولد فى «الكتاب» أجد السؤال المطروح وأقرأ الجواب أيضاً، كنت أنسى ما كنت قد حفظته من آيات، أتلعثم عندما يحل على الدور «لأسمع»، وكان الشيخ مرعى يربطنى فى الفلقة ويرفعها ولدان إلى أعلى بالقدمين ويظل هو يضرب بالعصا حتى أحس الوجع يسرى من بطن القدمين ليصل إلى وجهى ورأسى، بعدها يأمرنى بالرمح فى شارع «الكتاب» ويطاردنى بعصاه وسط شماتة الأولاد، مرة سألت أمى عن أبى فقالت والغيظ باد على وجهها.. مات، راح فى نصيبة.. لم أفهم فعاودت السؤال ربما لأننى أنكرت أنه مات فقالت بغل أكثر:

- ما تجبش سيرته.. فاهم، ربنا لا يرجعه.

ساعة العصر كنت أسحب لجدى الركوبة.. «ويشق» هو على الأرض، لما ينزل من فوق الركوبة أخذها وأربطها فى «الخارجة» ويظل يدب بقدميه فوق الأرض فتهتز تحتى وأوشك أن أسير له بمخاوفى من أن يخرقها وأسقط فى داخلها، يده الضخمة تهتز عند مستوى رأسى وبريق فص خاتمه الكبير يشد بصرى إليه، كان يشير إلى حدود أرض جماعة عوف:

- ومن أول الحديد دى لغاية الزراعية الكبيرة طوالى كان أرض سيدك مصطفى الله يرحمه، ومن الزراعية لغاية عزبة الكوم كان كله بتاعنا، ولحد النهاردة وبكره اسمه حوض جماعة عوف، حاكم أسياذك كانوا رجاله الناحية كلها، وأرض جناين ولاد شلبى دى كلها فى الأصل بتاعتنا، الله يرحمه سيدك مصطفى وسيدك على، رموها بتراب الفلوس، حاكم الأرض تكره اللى يفرط فيها، تكرهه موت، تفضل تلغنه لحد يوم القيامة، الأرض تحب اللى يصونها، إنما جماعتنا كانوا طيبين وفاتوها زى ما تقول زكا عن عيالهم، الغرض.. أهى الأرض دى من أرضنا إحنا فى الأصل.. حاكم زمام البلدين كان بتاعنا».

وكنت أقول لنفسى إتنى سوف أكبر وأخذ أرضنا من جماعة شلبى وأجعلها كما كانت ملكا لنا يقول جدى:

- ولولا أبوك وعمك فاتوا البلد كنا بقينا عيلة، ما كناش فتننا الخمس فدادين اللى عند الجميزة ولا كنا فتننا الفدانين اللى جار أبوك عبدالغفار.. حاكم الأرض تحب الرجالة، تحب اللى إيده فيها، سيبك م

الأنفار، عمر النفر منهم ما يراعيها زى صاحبها، ما هى الأرض زى العيل الصغير، من غير أمه وأبوه يغلب ف الدنيا، أهى الأرض تبور لو ما تلاقيش رجالة قلبهم عليها كده.

وأوشك أن أسأل الرجل عن أبى، عن سر غيابه لكننى أتخوف من نظراته الحادة ساعة أن يذكره، أبتلع السؤال وأمضى جواره، ولما أركب فوق حمل البرسيم فى طريق العودة وأراه ماشيا والأرض تحته تهتز وعيون الخلق ترقبه باحترام وخشية أحس بالزهو وأفرح بوجود الرجل المهاب ذى القدرة، أحس بالاطمئنان لأنه جدى، أتصور أبى فى مثل صورته، أتباهى بنفسى وأحلم بعودة أبى وأن نجتمع معا، جدى وأبى وخالى برهومة وأنا، أن أصبح رجلا مهابا مثل جدى، أن نسوق أولاد شلبى بطول الكفر وعرضه، أن نجعلهم يتركوا أرضنا لنعاود زرعها بأيدينا، لكننى أحس بالخزى كلما اكتشفت أن الأيام تمضى وأبى لا يعود أبدا، كان الرجل الذى لم أره أبدا هو عارى الدائم وحلم انتصارى أيضا، يطاردنى ويطردنى، كلما حاولت أن أدفعه عنى أو أن أجذبه نحوى لا يتزحزح وكأنه حجر الطاحونة الكبير المحطوط تحت سلم الدار.

فى «الكتاب» سألنى الولد محمد شلبى عن أبى، لطشته بكل عزم كفى فوق صرصور أذنه، صرخ الولد ثم سقط على الأرض جاء «سيدنا» لما سمع الأولاد يقولون أنه مات، رش كوز ماء بارد فوق وجه الولد فأفاق إنما على صدغه علامة الكف ظاهرة، ولما سأل الأولاد أشاروا إلى، هز دماغه ومدنى كعادتى، إنما الولد محمد شلبى كف عن معاودة السؤال عن أبى خوفا على صرصور أذنه الأخرى.. قلت لنفسى وأنا أقرأ سورة مريم.. ربما ولدت بلا أب مثل عيسى بن مريم، كدت أن أقولها للأولاد لكنهم لم يكونوا يسألون، ولما سمعت سورة مريم قبل كل الأولاد تعجب الشيخ مرعى للأمر وضرب كل الأولاد الكبار الذين لم يحفظوا وجعلت يومها أقرأ ولا أخطئ والشيخ مرعى مبسوط، وكنت أتمهل عند بعض الآيات ولا أدري لماذا «قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا * قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغيا * قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا * فحملته فانتبذت به مكانا قصيا» لم أكن فاهما لمعانى الكلمات، إنما كنت أقرأها بحماس لا أعرف مصدره، حماس كأنه يقين فى حق

يكتشفه الإنسان لنفسه وكان غائبا عن ذهنه.

وتعارك جدى مع منصور شلبى وأولاده.. كنت مع جدى وكان منصور يقف فى عرض الطريق مع أولاده، تكلموا معا بانفعال لم أعرف أسبابه ثم وجدت النبوت فى يد جدى يتحرك.. تفاداه منصور بالجري ثم عاد النبوت يطارده فى سرعة غريبة كانت ضرباته وسط العصي الثلاث تفوز.. تخيب كل ضرباتهم وضرباته تصيب.. يده القابضة على النبوت كأنها يد جن منصور تعرف متى وأين تضرب.. بطح منصور وابنه الأكبر.. رمح منصور وترك أولاده.. تركهم جدى أو ربما تركوه، إنما طاله، لم يهدأ إلا عندما طاله عند التوتة، ناوله خبطة فوق وسطه، كنت قريبا منهما وسمعت منصور يعتل وكأنه تحت وطأة حمل ثقيل، كان سالم ابنه قد اقترب من جدى محاولا ضربه من غير أن يراه، صرخت محذرا فالتفت إليه وناولته واحدة جعلته يرتدى على الأرض قريبا من أبيه، ابن منصور الأكبر كان هناك حيث بدأت المشاجرة، جالسا على الأرض، كان منصور يتحدث إلى الناس الملمومين فى عسر شديد من خلال فم يتدفق منه خيط الدم، لم ينطق ابنه سالم.. اكتفى بالنظر المفزوع إلى أبيه، كان الناس يتكاثرون وجدى واقف مكانه ينظر باستهانة إلى وجه منصور ولا يتكلم.. عندما ساعد الناس منصور على ركوب الحمار وسندوه قال جدى موجه حديثه إلى منصور:

- النوبة الجاية بحش أجلك يا ابن المفضوحة.

وقال الرجال من جماعة عوف لجدى:

- عفارم عليك سبع

فى الدار عرفت أنه تعارك بسبب أبى وعمى أو بسبب كلام قاله منصور عنهما، لم أفهم إنما أحسست بنوع من الخوف.

فى الكتاب عرفت من الأولاد أن جماعة شلبى خافت من جدى فلم يفكروا فى معاودة العراك معه، وأن منصور شلبى راقد فى داره، حتى لما مات اكتفوا بأخذ العزاء فى المندرة وأشاعوا أنه كان مريضا بالقلب ونفوا ما كان يتردد من خبطة جدى عبد القادر حشت حزامه وعدمت صحته، وأنه عاش أسبوعا بعد المعركة عاجزا فيه عن الكلام أو الحركة، أما ابنه سالم فكان يمشى فى دروب الكفر معصوب الدماغ أصفر الوجه فاقد لجسارته القديمة.. كأنه بنت فقدت

شرفها كما كانوا يرددون، من يومها عرفت أن العصا هي الشيء الفعال والحاسم في كفر عسكر، أن كل الأصوات تخفت عندما يلوح الإنسان بالعصا، كنت أتدرب على حمل العصا في دروب الكفر، الصبية الصغار من أولاد العيلة يطلعون الأشجار ويقطعون فروعا يهذبونها ويعملون منها عصيًا صغيرة، وكنا نعمل معارك وهمية قاصر على أن أقوم بدور جدى عبد القادر، ليس فقط لأنه جدى أنا، بل أيضا لأننى أعرف حركاته وأستطيع تقليد صوته ومشيته. عندما كنت أبدأ فى تقليده يهزل الأولاد قائلين:

- اهرب ياوله، أبوك عبد القادر أهه وفى إيده الشمروخ.

ويفرون، أحس وأنا أمسك فرع شجرة التوت أننى هو عبد القادر مصطفى عوف، كبير بحق وحقيق، قادر على إرعاب الكفر كله، لا يعترض طريقى رجل.. ألعب مع الأولاد لعبة أبيهم عبد القادر مع أنفار السلطة كما سمعتها، ألعب لهم دوره فى عركة المصرف الكبير، ومع منصور شلبى وأولاده، وعركته مع برايرة الهجاء كما سمعتها.. أدب على الأرض كما يدب، يهللون لى فأحس بالنشوة وبالقدرة على الانتصار لكن يوما ما سلط الولد محمد شلبى ولدا من العمارية ليقول وسط تهليل الأولاد:

- لو كنت شاطر بصحيح أعملنا أبويا عبد القادر مع ولاده حسن وعبد الحميد.

ساعتها أحسست بخرج شديد وعجزت عن الاستمرار فى اللعب قلت للولد وأنا أنظر إلى وجه محمد شلبى:

- بكره، أنا عارف اللى مسلطك.

ودخلت الدار، كان الأمر فوق قدرتى على السكوت، قلت لخالى برهومة أسأله:

- هو سيدى عمل إيه مع ولاده يا خال؟

فنظر إلى مدهوشا من السؤال ثم ضربنى بقبضته فوق صدرى وقال: غور امشى. ولما بكيت وسأله جدى عما جرى هز دماغه ونفى أن هناك شيئا يستحق القول.. كانت الحكاية فى الدار سرا مفضوحا حتى بالكتمان، كنت أعرف أن هناك معركة خسرها جدى طوال عمره وأن هذه المعركة كانت مع أبى الغائب وعمى

الذى مات فى مصر، أما التفاصيل فكانت صعبة المنال، وتصديق الأمر كان أصعب، وكنت أكتفى بالتخيل، ربما ضربوه وهو نائم أو وهو غافل، تخيلتهما مرده من الجن استطاعوا مرة أن يواجهوا الرجل المهاب فحلت عليهما اللعنة «وبالوالدين إحسانا» خرجوا عن طوع الأب فلعنهم وغضب عليهم قلبه، تقول جدتى مبروكة إنهم «تاهوا فى الغربية وتشتتوا فى البلاد بسبب دعوات أبيهم عبد القادر، وأن عمى عبد الحميد مات بسبب هذه الدعوات وغضبه عليهما» كنت أقول لنفسى أحيانا إنه من الممكن أن يموت أبى أيضا قبل أن أراه.. ربما يقتله الإنجليز كما قتلوا عمى فى الأزهر كما يقولون، أسألهم عن أبى فيسكتون، كأنهم أخرجوه من حسابهم تماما.. حتى خالى برهومة كان عندما أسأله لا يجيب وأمى لما أسأله عنها تطلب من الله إلا يرجعه إلينا أبدا، وكنت أعجب من شدة كراهيتها له وأقول لنفسى إنه من الممكن أن يجىء وأراه مرة قبل أن يموت، لكنه أبدا لا يجىء.. لا يفكر فى أن يأتى ليكىد أمى ومبروكة ويصالح جدى عبد القادر ويساعد خالى برهومة وربما يحكى لى عما جرى بينه وبين جدى عبد القادر قبل موت عمى عبد الحميد.. ظلت الأيام تتوالى واشتياقى إليه يكثر، واللعبة التى كنت أجيدها ظلت ناقصة وظل وجه الولد محمد شلبى الشامت يسلط الأولاد وكأنه يعايرنى بأبيه ويذكرنى بفقدان أبى الغائب ويشوه سمعة جدى عبد القادر الذى أحبه لدرجة لا تسمح بأى شك فى قدرته على كل الناس.. وكنت كلما ازداد شوقى لرؤية أبى ازداد كراهية له وحقدا عليه.

* * *

يوم الأربعاء رحنا المدافن، صحانا الرجل قبل الأذان وظللنا نستف الرحمة فى السبتين، شالت البنات رحمة «سيد» وذهب الرجل، قلت ربما يخف الحزن القديم لكنه زاد، قرأت الفاتحة على روحه لكن الرجل كان كالغائب عن الدنيا، يسألنى ربما للمرة الألف من قتله يا صالح؟ والسؤال ينفذ من طبلتى الانين مسمارين محميين يعرفان الطريق إلى القلب، وعجزى عن الرد يجعلنى أحس بالعار، كل العار، هانت جماعة عوف إلى حد أن قتلوا حفيد عبد القادر عند مدخل الكفر، هان صالح عوف إلى حد أن قتلوك يا سيد، كأنهم لما قتلوك قتلوا كل ما تبقى من كرامة لنا وقيمة، ذبحوا أصلنا القديم عند مدخل الكفر وسال الدم وغطوه

ببعض الحشيش الجاف، والأيام التى فاتت منذ ذلك المساء اللعين لم تخفف حمية نارك يا سيد فى الصدر، ومهما تحايلت لأظهر قويا أمام أبى فأنا مجروح بجرح لا تدأويه كل الدموع، شيطان يترصد فرعنا وحده من جماعة عوف، أبى بوجهه الشاحب يعاود السؤال وكأنه خرج هو الآخر من أحد المدافن هاربا، الموت فى العينين والشفقين وفى النبرات الغريبة على الأذنين:

- بقى ماكانلوش ف الكفر عدوين يا صالح؟

الرجل انهدت قواه، مثلما انهدت قوى جدى عبد القادر منذ سنوات، ها هو يرتدى على الأرض فى وضع متهاك منهار، يخرف يسأل الجدران الصماء ويتحسس فتحة المدفن وكأنه يربت بكل حنان الأب على رأس طفله، حتى ولا أى أم شفتها طوال عمرى تتحسس جسد طفل لها مهما كان عزيزا بمثل هذا الحنو، أوشك أن أكرهك يا سيد رغم موتك لكننى أيضا أحبك، فقط لو كنت ترجع للحظة وتحكى عما جرى، تصف لى وجه من قتلك، ربما لا اكتفى بتقطيعه مهما كان وجعله عبرة وما يكون بعدها لا يهم، لأعود إلى طرق الكفر مرفوع الرأس، تعز على حتى فى الأحلام، لو تستجيب المقبرة لكف الرجل المعروقة المستجدية والمستجيرة بكل ذرة فيها وترجع، تطل وتحكى، الرجل يهذى، فقد عقله، عار آخر.. فى الماضى كان عاره أهون «طفشان» إنما اليوم وهو بيننا وعلى مرأى من كل ناس الكفر مجنون أو حتى نصف مجنون يتحدث إلى أشباح خفية، معيرة كان أهون منها غيابه الطويل، لو فتناه ينام فى المدافن ويفضحنا، فضحنا فعلا، سيرتنا لبانة فى كل الأقواه. فكف يا رجل عن كل هذا التهاك الذى لا يليق، هاهم يتبصصون علينا من بعيد، لا يودون حتى أن يقتربوا، كأنهم يعلنون أنهم يرون ويسمعون فقط من بعيد، تماسك يا رجل فى هذه اللحظة حتى يفوت الناس، اصبر، لكن ما معنى الصبر فى مواجهة الموت، القتل، الليلة نعاود دفن سيد، الأربعين ولسيلة الأربعين، برهومة أيضا لما مات عملنا ليلة الأربعين وبدا لى ساعتها أن أحزان الرجل الكبير تضاعفت، سوف تتأجج النار أكثر فى صدر الرجل، ربما يزداد جنونا على جنونه، تزد النار فيزيد العار، هاهو صالح عوف ينكسر عوده ويقف عاجزا بعد كل ما كانه حيال أب فاقد لوعيه وأخ قتيل يا كفر عسكر، إنما لكل عقدة حلال، مهما كانت الجراح غويطة فلا بد من دواء.. أولاد عوف عاشوا عمرهم قادرين على رد الصاع صاعين يا كفر عسكر..

البنات يوزعن الرحمة وكل مقرئ يأخذ نصيبه ويتلو ما تيسر، لصوص الجبانات يحوطوننا ويأخذون الرحمة ثمننا لكلام الله، يخطئون في الآيات ويلغوشون كل منهم على الآخر.. في الضحى سندات الرجل فقام، لو تركته لظل جالسا هكذا عند مدفئك يا سيد، بعد الخميس الكبير عملها وظل جالسا دون أن نعرف إلى منتصف الليل، لولا الصدفة ما عرفنا طريقه بعد أن دخنا في كل الدور عليه وسألنا وكأننا نسأل على طفل تاه والخزي يشل اللسان عن تكرار السؤال.

دخلنا الدار، جلس هو على دكة النورج القديم، تماما مثلما كان جدي عبدالقادر يجلس، كأنه هو بعث من جديد إنما العود أكثر نحولا وأقل قدرة، أشرت لزكية أن تولع له نار لزوم الجوزة، أن تعمل له شايًا، الشاي اللعين سحبوه من السوق أيضا، لا يوجد في الكفر شاي، أدوخ في المركز بحثا عن باكوا الشاي فلا أجده.. التموين لا يكفي، شاكر شلبي يغمزني كل مدة بباكوا الشاي وكأنه يعطيني «قرش حشيش» أو حتى أفيون.. ترى هل يستمر الأمر هكذا.. يا أولاد الكلاب، أخذتم مال البلد وستفتنم دكاكينكم بكل الأصناف، الممنوعات لها رفوف سحرية والأسعار كما تطلبون، إنما المهم أن يتواجد الصنف، غشوا الشاي مثلما غشوا في الزمن القديم كيماوى الأرض وخلطوه بالملح، يأخذ ثمن الشاي مضاعفا ولا يستحي وكما يقولون «اللى عاجبه الكحل يتكحل» ولو درت في كل المركز ما وجدت غير شايك المخلوط يا شاكر، هذا الشاي يشربه الرجل مع الجوزة، هو زاده الوحيد، لولاه لخف البرج الباقي في عقله، سيد عوف يا شاكر أخوك من الأم فهل نسيت، هل أصدق أنك غيرت سلوكك معي بعد موت سيد بسبب حزنك عليه أم أنها مجرد مظاهر تحرص عليها أمام الناس، وأن كل ما تقوله مجرد غلاف تدارى به فرحتك فيه أو فينا كلنا يا شاكر؟

قال أبى وهو يوسع مكانا على دكة النورج ويربت عليه براحتة المفرودة:

- ما تقعد يا صالح يا بنى.

- أيوه يا با أشوف العيال عملوا إيه وأرجع.

دخلت أسأل عما جهزوه فلم أجد غير بقايا الرحمة وطلبت من الولد محمد أن يذهب إلى الشيخ راضى وينبه عليه هو والشيخ سليم بضرورة الحضور الليلة من أجل سهرة ليلة الأربعاء في المندرة.. وكانوا في الصباح قد كنسوها ورشوها

وفرشوا الحصر على الدكك والمصاطب كما أمرتهم عدت إلى مدخل الدار، قال أبى:

- هي الجميزة الكبيرة خابت ليه؟
- ما هي عتقت يابا، باقول نقطعها ونستتفع بحق خشبها، بس يقولوا حرام.
- أيوه.. أيوه.. كان على صحوى حدانا مطرح الطمبوشة كرم نخل، جه سيدى مصطفى قطعه، من يومها قل الخير وقلت البركة، حاكم نخل البلح مبروك، سنة والتانية وسيدى مصطفى مات.
- يقولوا قطع البلح حرام، أصل البلح ملك، والنبي وصى على التمر.
- وعمك برهومة سنة ما قطع العنية اللي كانت فى الجنينة ربنا أتولاه.
- ما هو العنب راخر نعمة من ربنا.
- الغرض يا صالح، قطع النخلة بقطع الأجل، هو الولد محروس راح فين؟
- تلاقيه يلعب.
- يلعب دا ايه، قصر له شوية خليه يلتفت لدروسة، الله يرحمه سيد خد الابتدائية وهو زيه كده.
- وسى عطية اللي كان حيلة أبوه فدان واحد اتربى وبقي عال العال.
- الله يرحمه سيد كان شاطر أوى، مرة وهو صغير بص فى كراسة الحساب لقيته واخذ ستة على عشرة، ضربته، قلت له لازم تاخذ عشرة على عشرة، وعنهما، فضل شاطر طول عمره.
- ها هو يعاود الحديث عن سيد، كلما حاولت أن أجره بعيدا عنه يرجع.. سيد يا حلم الرجل وأمله الضائع متى ينسأك؟ سيد يا ماضيه وحاضره ومستقبله رغم موتك متى تنزاح ليعيش ما تبقى له فى سلام؟ ولماذا تلح بكل هذا الإصرار على عقله نصف الواعى رافضا أن تمنحه نعمة السكون فى الأيام الأخيرة؟ ألا تخجل من روحك وأنت تحوم حوله كل ليلة تسلبه لذة الحياة وتحرمه المنام؟»
- جاءت زكية بخنصرى الشاى، أخذ خنصره بيد مرعوشة وبدأ يشرب «يا خيبة وحطت علينا، خنصر شاى، أعرف أنك كييف والشاى ماسخ كما أرى، لو تطول اليد، إنما الشاى ممنوع وأنت كييف، الشاى غشوه، والصنف غشوه، لعبوا فى كل شىء».

- الشاى دا طعمه غلس يا وله.

أخذت منه خنصر الشاى، تذوقته، ماسخ وخفيف مالك أنت بكيفية الحصول على باكو شاى من شاكر شلبى، كفاك همك، ناديت زكية وناولتها خنصرى الشاى، قلت لها: اضبطيه، أخذته ودخلت أعرف أنها سوف تفرغه فى البراد وتغليه ثم تعيد صبه، ربما تضع فيه ملعقة سكر وتعيده، إنما ما حيلتى، أخذت الجوزة وجلست بجواره، ناولتها له وجعل يأخذ أنفاسا متلاحقة ويكح بين النفس والنفس.. دخلت أنا أيضا، لا أحب المعسل بلا حشيش، إنما لابد أرحم صدره المنهوك وأحتمل طعم المعسل لأحميه من الموت بفعل الدخان، عادت زكية بالشاى أخذه منها:

- الله يباركك يا زكية يا بنتى، معلش، بنى آدم ثقيل، استحملونى يومين لحد الأجل ما ينتهى، أرقد وارتاح جنب الرجالة اللي راحوا، جنب سيد ربنا يدبك طولة العمر يا سيدى.

قالتها زكية وهى تدخل. أعرف أنها تضيق بك يا رجل إنما لا تجرؤ على التلميح، قال:

- ولما أموت يا صالح تحطنى بايدك جنب سيد، مش عايز حاجة ثانية، تحطنى جنبه وبس ويبقى كتر ألف خيرك يا صالح.

كدت أبكى، تماسكت، قمت من جلستى واتجهت إلى الباب «الوسطانى».. غلبتنى الدموع عند باب «الزربية» جعلت أنهنه مجاهدا ألا يحس بى أحد، أنهنه بحرقة، كان الركن خاليا وكنت وحدى جالسا على طرف «الطوالة» أبكى.. سمعت صوته ينادى:

- يا صالح.. يا صالح.. هو راح فين يا ولاد.

قمت مسحت عيني بكمى وأفرغت أنفى قبل أن أرد:

- أيوه.. جاى أهه.. العجل كان حل وبربطه.

سمعتة يقول محدثا نفسه:

- ولا حل ولا حاجة.. يا صالح.

ذهبت إليه محاولا ألا يكون قد بدا على أى تغير سألنى.

- هو أبو الخير لف ع الكفر.
- ايوه، من بدرى.. لف نوبتين.
- ما تبقاش تخليه يلف لما أموت، سيد كان شباب ويستاهل إنما أنا عضمه كبيرة بقى ولا له لزوم العزا ولا الميتم حتى.
- كنت أسمع صوت أبو الخير ينادى منبها الناس إلى ذكرى أربعين سيد، لابد أنه سمعه. فانت البنت زينب.. فى عيونها حزن.. لولا ما حصل لدخلت فى القطن، مهرها مدفوع وجهازها أوشك أن يتم، زواج البنات سترة.. ترى إلى أى أجل سوف تتعطل دخلتها؟ حظها سيئ، قال أبى:
- إلا القطن إزى حاله السنة؟
- اللي ف الساقيات على ما هو إنما الشوية اللي تحت الجنيئة حلوين شوية، الدودة خربت الدنيا والرش ولا هو نافع.
- على أيامنا ماكانش رش، عمك عبد الحميد الله يرحمه بعد ما ختم القرآن كان واخد باله م الأرض.
- تعيش أنت، دا لولاش الواحد إيده فى الزرعة كانت الأرض تعدم.
- وفى شارع الأزهر، ما هو كان مجاور ف الأزهر، ضربوه بالعيار فى راسه طب ساكت زى أخوك.
- الله يرحمه.
- أنا ماكانليش فى الزراعة من يومى، دخت فى الغربية.
- ولولاه عليا كنت مت، حاكم كان شهم، كان شبه سيد الله يرحمه كده بس اندفن فى مصر.. سيدك ما جاش إلا بعد الدفنة..
- قلت لنفسى الاستمرار مع هذا الرجل سوف يودى بعقلي أنا الآخر.. ما عادت للحياة لذة، هذا الرجل قادر على نسج الأحزان فى كل جنبات الدار، عند البوابة وجدت شاكر واقفا قال:
- كنت ناوى أحصلك.. هو عم حسن لسه ف الترب؟
- لأ.. رجع من بدرى.
- حاكم أمى عملت رحمة وناويه توصل لغاية الجبانة.
- طيب. تعيش وترحم.

- ما تأخذنيش يعنى، ما انت عارف.

تركته، قلت لنفسى إنه سخييف وفاجر، ماذا يريد، الرحمة، ياشوق ما زلت تتمحكين، «كانت خالتي وخالتيك وتفرقت الخالات» لا تريده أن يوزع رحمة، يريد أن تنفرد أمه بالجبانة. تماحيك حريم، وماذا لو ذهبت وكان الرجل هناك؟ بعد كل هذه السنوات ماذا لو شافته أو شافها.. أمور غريبة، ما كان بينهم راح، ومن كان بينهم مات، حتى وأنت ميت يا سيد تطارد روحك المشاكل؟.. ميت وكل منهما يحاول أن يؤكد امتلاكه لك وحده دون الآخر، تستحق رحمة الطرفين إنما لا تحصل إلا على نصف الرحمة، ماذا أفعل مع الرجل يا شوق؟ أربطه؟ أمنعه لما تفكرى فى تشريف الجبانة؟ أقول لسه حضرتها ترغب فى زيارة ابنك وحدها؟ جماعة شلبي توشك أن تحتكر حق زيارة الجبانة. تكاد أن تطلب تحديد حركتنا فى زيارة أمواتنا، فى الخميس الكبير عملوها وبلغناها، أخرجنا الرجل حتى بعثوا لنا مرسالا يعرفنا أنها زارته ورجعت، كأننا سوف نظل هكذا رهنا لإرادتهم، فى العيد طلبوا منا أن نزوره قبلهم وأن ننهى الزيارة بسرعة، صبحا الرجل قبل الفجر، زار ورجع قبل طلوع الشمس، أخذناه غصبا قبل أن ينهى الزيارة من أجل شوق.. ترى هل كان يعرف، هل طاوعنا لأنه أحس بما كان يدور دون علمه؟ كلاب أنجاس لا يحسون بما نحن فيه، اذهب يا شاكر واجعلها تذهب لتوزيع الرحمة على روح قتلنا الذى توشك أن تأخذ منا ذكراه أيضا بعد ما أخذته منا فى أحلى أيام شبابه.

عدت إلى الدار وأنا أغلى من الغيظ، جاهدت أن أبدو طبيعيا، كان الرجل قد دخل المندرة مع محروس وكان صوته يبدو طبيعيا وهو يجادل الولد فى مسألة حساب. قلت لنفسى: مازال لديه شيء من القدرة على التمييز والأمل رغم كل شيء..

فى الليل كان الشيخ راضى ينافس الشيخ سليم فى قراءة ما تيسر وجاء خلق كثيرون للعزاء.. كان أبى يجلس عند طرف الدكة ويتوه أحيانا فلا يرد على من يجيئون لأخذ الخاطر، طلبت من محمد أن يأخذه إلى الدار وبقيت حتى تمت الليلة، وكان شاكر قد أصر على ملازمتى طوال الليلة فى أخذ العزاء كأنه يعلن لكل الكفر أنه شريكى فى سيد.

* * *

وأمسى أيضا طلعت من الدار، زفوها لأمين شلبي بعد عركة حول الأرض،

ميراثها من أبيها شقيق جدى عبد القادر الذى مات وترك أرضه وابنته وزوجته
ليأخذ الكل جدى عبد القادر.. يتزوج جدتى مبروكة ويزوج ابنتها لأبى ولما
يتركها تظل فى الدار، ومرت السنوات وهى فى الدار، ولما طلبها أمين شلبى
فكرت فى أخذ حقها من الأرض فظل خالى برهومة - وهو عمى أيضا - يغريها
حتى وافقت أن تتنازل عن حقها قال جدى:

- بقى عايزة الأرض تديها لابن شلبى، ليه؟ وابنك الغلبان ده يتربى إزاي؟
إياك حسك عينك تفكرى ف قيراط بصابعك.

ارتحت لما عرفت لأول مرة أنتى المستحق لميراثها وأنتى بذلك أصبح لى
من الغيظ نصيب، وكنت أستعيد ما كان يقوله جدى عن حوض جماعة عوف الذى
باعوا أكثره برخص التراب وغالبا لجماعة شلبى، وهامم يأخذون أمى أيضا،
كرهتها فى ذلك المساء وأنا أراها تتزين من أجل ابن شلبى، تبدو كنيبة الوجه
خائفة، فى أحلامى كنت أتوقع عودة أبى إلى الدار ليجدها فى انتظاره، إنما ضيعت
أحلامى بقبولها الزواج من آخر، ربما من يومها ازدادت كراهيتى لأولاد شلبى،
وكلما تعاركت مع أحدهم ينهرنى جدى ويحاول إفهامى أنهم ناسبونا وأصبحوا
منا، وكنت أشعر أنه يخدعنى وأن ما فى قلبه يستحيل أن يخرج إلا بخروج
الروح، شىء ما كنت أجهله أجبره على تزويج أمى لأمين شلبى، ولما سمعت أن
أبى تكلم عن بنت عبد الستار شلبى ازدادت حيرة وكراهية لكل صنف شلبى، لا
أدرى لماذا تزايدت كراهيتى لهم، هل بسبب أنهم أخذوا أمى ربما يأخذون أبى
أيضا أم بسبب ما كان يقوله جدى منذ سنوات عن الأرض التى سلبوها سلبا من
عائلتى، وكلما تعاركت مع صبى فى مثل عمرى من جماعة شلبى يلومنى جدى
وأحيانا يحاول ضربى فأهرب، إنما كنت أحيانا أحس رغم كلمات اللوم والزجر
الخفيف بأنه سعيد لنفس السبب، قال مرة لخالى برهومة:

- الولد ده من جماعة عوف بحق وحقيق، دماغه ناشفة وعندى.

قال برهومة مرة وهو ينظر إلى بنوع من الحب:

- عايز تشوف أبوك يا صالح؟

أجبتة بلهفة:

- الله يخليك يا خال، خدنى وياك مصر

- كده مرة واحدة، طب أنا راح اكشف حدا الحكيم وأنت تروح ليه؟

قلت متخابثا:

- ماني عيان برضه وعازي كشف حدا الحكيم.

ضحك هو وجدى حتى رأيت عيني جدى تدمعان فعجبت كيف تدفع العينان بينما الوجه يضحك. كان وجه برهومة يزداد شحوبا، وكانت مشاويره إلى الحكيم في طنطا تتزايد، أحيانا كنت أوصله بالركوبة إلى البندر، إنما هذه المرة عرفت أنه ذاهب إلى «مصر» وأنه سيرى أبى أيضا، كان برهومة يبدو أكثر ضعفا من أى يوم آخر وكانت في عينيه لمعة قلقة وحيرة خفية المصدر، وكانت سلطاته في الدار تتناقص، ربما بسبب المرض أو كثرة خلافاته مع جدى، وسافر خالى برهومة وغاب، قال جدى وهو يلحظنى خفية:

- مسيره خالك يرجع وتشوف أبوك يا صالح. ما هو اتكلم على بنت عبدالستار.

كنت في الغيط، بالتحديد فوق شجرة التوت، عندما سمعت الولد جلال ينادى بعلو حسه من عند سكة المصرف القديم:

- يا صالح.. يا صالح.. خالك برهومة جه من مصر.

قفزت فرأى وظل يرمح ناحيتى وهو يتكلم:

- وأبوك حسن وياه يا وله وعازي يشوفك.

رمحت ناحيته، تقابلنا عند المنحنى، أخذت ذيل جلبابى في أسناني مثلما فعل جلال وطرنا في اتجاه الكفر، قال جلال:

- دا طول سيدك عبد القادر ولايس طربوش زى بتاع الصراف.

سبقت جلال بمسافة فجاهد أن يطولنى.. قال بعسر من خلال أنفاس متلاحقة:

- ومعاها سلال كبير جايبه من مصر.

كنت أسمع به صعوبة بينما الريح تصفر في أذنى.

- على مهلك يا صالح.. ما هو قاعد، في المنذرة الكبيرة.. مع خالك وسيدك. وأبويا وياهم كمان.

. كنت قد ابتعدت عنه تماما، لم أكن أفكر فى جلال، كنت أفكر فى أبى، أن أراه، أن أسمع صوته، ألومه على كل هذه السنوات التى غابها عني، أن أحكى له عن المصحف الذى «ختمته» عن عدم رضاي عن جماعة شلبي وأملى أن أرى جدى معه، يتصالحان، أن أطلب منه البقاء معى فى دارنا.. تعثرت فى حجر، وقعت على الأرض كانت الوقعة شديدة فزحفت مسافة، تسلخت ركبتى وكوعى وراحتى اليمنى، لحقتى جلال، أفقت لنفسى بسرعة وقمت، شذنى جلال لما فكرت فى معاودة الرمح.. طلب منى أن أغسل الدم عن ركبتى فلم أطاوعه كنا عند مدخل الكفر، نفذ جلال جلبابى وسرت أعرج، سبقتى جلال، وصلت إلى باب المنذرة الكبيرة، تأملت الوجوه، بحثت عن الطربوش فوق الرءوس فلم أجده، وجدت جدى وخالى برهومة وعمى عبد الغفار يحوطونه، كان الطربوش بجانبه وكان يبتسم فى حيوية كان شبيها بجدى إلى حد كبير، ربما هو أكثر قربا إلى جدى من برهومة بمراحل، كان يرتدى بالطو كشمير فوق جلباب وفى قدميه حذاء أسود لامع وجنبه الطربوش والرأس عار، اقتربت بحذر لأتأمله أكثر، كانوا يتحاورون بحماس شغلهم عني، ازددت اقترابا، قال جدى وهو يلمحني قبلهم:

- واد يا صالح.. مالك وشك أصفر كده وبتنهج، أنت جاي رمح م الغيظ؟

التفت هو إلى، تفحصنى مستطلعا، قال برهومة:

- طب قرب كده وسلم على أبوك.

كانت عيناي مركبتين عليه وكانت عيناه مربوكتين بينى وبينهم اقتربت أكثر فتح ذراعيه فوجدت صدره مفتوحا لأخذى.. ارتميت فى حضنه وظللت أبكى، أحاطنى بذراعيه وكانت يداه تجوسان عبر الظهر والكتفين وصوته المشروخ يردد اسمى دون أى كلام آخر:

- صالح.. صالح.. صالح.

كنت أبكى بصوت، نسيت كل ما سبق أن علموه لى، السلام باليد وبخشونة تحول إلى ارتماء فى الأحضان فى استسلام ضعيف، لا كلام، ولا كلمة كانت على طرف اللسان تقدر أن توضح ما كنت أرغب فى قوله.. أحسست بقطرات ساخنة من دموعه تتساقط فوق رأسى وفوق عنقى.

قال جدى:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. حسن..

وظللت فى أحضانه غير راغب فى الابتعاد ويداه تتشابكان فوق ظهري..
قال عمى عبد الغفار:

- دا الفراق صعب يا رجالة، ربنا ما يحرم حد من ضناه.. قال جدى:

- أهو بقى راجل أهه ربنا يخلى

قالها عمى عبد الغفار

قال خالى برهومة وهو يربت على كتفى

- دا أبوك جايبك جوز جلايب جوخ معتبر يا وله، محدش لبسهم ف
الكفر لسه.

شال جدى الطربوش ووضع على دماغى، ضحكوا فضحكت، قال جدى
وهو ينظر إلى:

- طب على الحرام الخالق الناطق حسن ابنى بس من غير شنب.

وضحكوا.. عملونى فرجتهم وموضوعهم فى ذلك النهار الدافئ، ولأول مرة
أفهم قيمة أن يكون للإنسان أب، رغم كل شيء كنت أشعر أننى أخصه أولاً قبل
جدى وخالى برهومة، أجلسنى أبى بجانبه ورحت أتطلع فى وجهه شارب أسود
منسق وذقن حليق وسمرة أقل وجبهة أعرض من جبهة جدى، ولولا نحول خالى
برهومة وشحوب وجهه لكان أكثر منه شبهاً، كانوا قد شرعوا فى الحديث عن
مصر وناس مصر، عن دكان حلوانى فى مصر وعن شريك لأبى فيه، حدثنا عن
الإنجليز بكراهية فكرتهم أكثر، قال برهومة:

- طب قوم يا صالح اغسل وشك وتعالى.

لما هممت بالوقوف وضع أبى يده فى جيب البالطو وأخرج منه نصف ريال
فضة، نظرت إلى جدى محتاراً، قال جدى وهو يضحك:

- إيه، بتبص لى ليه؟ دا أبوك يعنى تأخذ منه ولا إحم ولا دستور،
وياداخل بين البصلة وقشرتها.

قال أبى:

- روح اصرفه كله، ما تخليش ولا مليم، ولما يخلص قولى أديك غيره.

أخذت منه نصف الريال بينما يحادثنى وخرجت من باب المندرة، دخلت

الدار، فكرت أن أداري نصف الريال في مكان أمين، احترت، طلعت إلى السطح، دخلت قاعة اللين، وضعت تحت الصندرة ثم أخذته، وضعت في الطاقة ثم أخذته، فتحت له بالمنقرة في الأرضية، لففته في قطعة قماش قديمة وردمت عليه، نظرت إلى الأرض فوجدت الأثر ظاهراً، داريته بتراب ناعم حتى تأكدت من عدم ظهوره، نزلت وغسلت وجهي بسرعة ومسحت دم ركبتي براحتي المبلولة، قالت جدتي مبروكة وهي تلحظ لهفتي في الغسيل:

- على مهلك يا ضنايا، أهو أبوك افكر وجه بعد ما بقيت راجل، لا ربي ولا شال ولا حظ.

نظرت إليها غير عارف بماذا أرد عليها، كان واضحاً أنها غير مرتاحة لوجود أبي، في هذه الساعة كرهتها، تمنيت أن تموت كانت تحادث نفسها بأن أبي لم يأت من أجلى وإنما من أجل شوق بنت عبد الستار شلبي، وأنه لم يفكر في طوال السنوات، قلت لها محاولاً تقليد خالي برهومة في جسارته عندما يحدثها:

- ما بلاش دوشه يا وليه.

سمعتها وأنا أتجه ناحية الباب الكبير تقول لي «يخيبيك» لم أهتم. عند باب المندرة وجدت جلال قلت له بسرعة:

- أبويا اداني نص ريال.

- آيه، بقى نص ريال بحالة، طب قول قرش.

- والمصحف الشريف نص ريال.

- طب هو فين؟

- شلته

- شلته فين؟

- وانت مالك

تركت جلال غير المصدق وجلست بجانب أبي، كان جدي مبسوطاً من أبي وعلى خلاف ما كنت أتصور وأسمع في الدار، لم يكن هناك عداً ولا حرب ولا كراهية، وكان خالي برهومة منهمكا مع عمي عبد الغفار في حديث عن الزرع والمحصول.. وأنا سعيد وسط الكل إلى حد لا يطاق.

لما جلسنا معا حول الطبلية وجاء العشاء حرص أبي على إجلاسي بجانبه،

كان أبى يعطينى قطع اللحم بيده، آخذ منه وأكل شاعرا بحلاوتها فى فمى، لم يكن مهتما بنفسه بل كان يطعمنى بيده، وكأننى كنت أكل من طعام الجنة الذى يصفه الله فى المصحف، قال جدى:

- كل بقى يا حسن، الولد حيهيفك، حياكل منابك

أضاف متضحكا:

- دا مفجوع وابن كلب

قال أبى:

- دا الخير كثير قوى، خليه ياكل من إيدى يابا.

قال جدى:

- عرفت بقى إن الضنا غالى؟ أهو أنت والمرحوم كنتوا غاليين قوى، بس النصيب غلاب.

قال أبى وهو يحاول إضحاكهم:

- كل يا صالح، تلاقهم بيجو عوك يا وله.

قلت وأنا أمد إليه يدى بنصيبى:

- طب كل أنت بقى منابى

برفق أعاد نصيبى أمامى وقال لجدى وهو يضحك:

- ماتسبوننا ف حالنا بقى، خلىنى أشبعه من إيدى يابا.

قال جدى:

- دانت أهيل، والنسبى يا حسن يا بنى لو تأكل صالح بايدك على طول تشبع، والخير كثير والحمد لله.

- ربنا يسترها، بس حكاية الدكان، لولاه كنت فضلت، دى دار عبد القادر عوف اللى يدخلها يشبع.

- دارك يا وله، أنا فاضلى مين غيرك أنت وبرهومة؟

فى الليل كانوا يتكلمون عن شوق بنت عبد الستار شلبى، فهمت أن أبى خطبها، قلت لنفسى مادام ينوى الزواج من الكفر فسوف يعود وأراه، قال لبرهومة:

- وريت صالح الهدوم؟

قام خالى برهومة وجاء بقطعتين قماش صوف ثقيل ناولهم لى قائلا:
- حاجة معتبرة يا صالح، تعرف يا حسن إن صالح ختم القرآن وبقي راجل أهه.

كان يضحك وأنا أقلب فى القماش مبسوطا، واحدة لونها أخضر غامق والثانية رمادى فاتح، قال لبرهومة:

- تفصلهم له عند عبد الرحيم ف البندر، اللي يعوزه ياخده، بقطان مجوز، وعائزك تفصل له جزمة كمان وتهينه أوعى يغشك ف الجلد، أجلسيه وزى ما يقولك أدفع يا برهومة، إنشا الله جنيه.

فرحت، تخيلت نفسى فى الجلباب الرصاصى والحذاء قلت بسرعة:

- بزارير

قال جدى:

- هو إيه اللي بزارير؟

قلت:

- عايزها جزمة برقبة وزراير زى بتاعة عطية ابن أبويا السيد.

نظر أبى إلى برهومة باسمما وقال:

- شفت بقى، برقبة وزراير بتبرق وأحسن كمان من بتاعة عطية.

كنت مسنودا إليه، أشعر بأن كل مطالبى يمكن أن تتحقق، شاعرا بأن وجوده يجعلنى أكثر قدرة على المطالبة بما أريد، أن يكون الواحد منا مسنودا إلى أب، شعور جديد كنت أعيشه للمرة الأولى فى كل عمرى، وكان وجهه الباسم المريح يجعلنى أطمئن وأرتاح.

فى السكة يوم كنا نوصله أنا وخالى برهومة قلت له إننى أريده أن يعود ليعيش معنا فى الدار ووافقتى، كنت فرحان والدنيا لا تسعنى، كدت أطير من الفرح، قلت وأنا ابتسم له:

- والنبي ما تتأخر بابا.

- حاضر.

أخرج من جيب البالطو الداخلى ورقة مطوية ودسها فى يدى، لم أفهم إن كان يداريها من برهومة أم أنه أعطاها لى هكذا غمزا ليكون بينى وبينه سر يجهله الكل حتى برهوم، وضعتها فى جيبى كلص يدارى غنيمة وأنا أرقب خالى برهومة بطرف عينى خائفا أن ينكشف السر، نظرت إليه بامتنان وحب ولم أتكلم، جاء القطار وحملنا له الزوادة وضعناها على الرف، قبل أن يصفر القطار أخذنى فى أحضانه وطبع على خدى قبلة ووصى برهومة على العناية بى وأن يسرع بتفصيل الحذاء والجلبايين، نزلنا بعدما صفر القطار ولوحنا له بأيدينا.. كنت أمرح بينما القطار يتحرك فمنعنى برهومة خوفا على وظللت أنظر إليه حتى غاب القطار نفسه وتاه فى فراغ الأرض المزروعة ناحية شبين.

لما دخلنا الدار أسرعت إلى بيت «الأدب»، كنت متعجلا أن أعرف ما أعطاه لى وأعبث بالورقة طوال السكة، عندما أخرجتها وجدتها نصف جنيه جديد، طلعت بسرعة راغبا فى إعلان الخبر، وجدت جدى فى مواجهةى قلت بفرحة:

- شفت يا سيد أبويا ادانى إيه؟

أخذه وراح يتأمله مبتسما وقال:

- ياه نصف جنيه بحاله، طب خليه معايا وابقى خده ف العيد.

كنت لا أهتم ساعتها بالمبلغ، كنت أريد أن أخذه وأفرج عليه جلال وعطية الصبيان أمثالى فى كل الكفر، إنما خفت أن أقول لجدى ذلك، كرهت نفسى ساعتها، إنما تذكرت نصف الريال فانزاح نصف الغم، وقلت لنفسى إن العيد آت وأن أبى سوف يعود هو أيضا، وأنه سوف يعطينى ما أريد فسرت غير مهتم حالما بالعيد وبأبى.

كانت الأيام تتوالى وأسأل عن موعد عودته فيقول برهوم: الغائب حجته معه، وأنه سوف يأتى فى الأيام التالية، إنما الأيام كانت تتوالى بطيئة، والأسابيع تتكاثر دون أن يبعث حتى رسالة ولما جاء ونظرت إليه لاأما وجدته لم يفهم نظرتى وظل يحدثنى وهو ذاهل عنى، نسى حتى أن يبارك لى على الجلباب الجديد أو الحذاء ذى الرقبة الذى حرصت على إبقائه ليوم عودته. حتى لما طلب منه جدى أن ينتظر لتناول الغداء رفض ونظر فى ساعة جيبه وخرج قبل أن نتبادل إلا

حديثاً قصيراً، قالت جدتي مبروكة:

- لهو كان جاى لنا ولا إيه؟ دا جاى لجل بنت عبد الستار يا ضنايا.

قال جدى:

- عقبال برهوم، يا وليه اتهدى واسكتى.

- طب حتى كان يراضى العيل الصغير، هى حاتطير يا عبد القادر، قال على رأى المثل، من لقي احبابه نسي أصحابه، معلشى يا بن بنتى ربنا يتولاك.

فى الفرح كنت تائها، كنت مغلولاً من كل الناس، من شوق وأمها وأبى وجدى عبد القادر الذى بدا فرحان أكثر مما كنت أتصور، لم يلتفت هو إلى بل كان ينظر إلى شوق، فى الزفة من دارهم حتى دارنا كنت عاجزاً حتى عن رؤيته، وبعد الداخلة أغلقوا عليهما باب المنذرة ولم أراه إلا فى اليوم السادس عندما خرج معها إلى باب العربية المخصوص التى جاءت عند الباب لتوصلهم إلى مصر.

وكانت شوق حلوة بشكل لا يدعو إلى الاطمئنان إلى فكرة عودته، لو كنت مكانه لظلمت فى مصر دون أن أفكر فى العودة إلى الكفر، ساعتها فقدت ما تبقى لى من أمل فى عودته إلى الدار أو حتى مجرد زيارته لنا أو الاهتمام بأمورى ولا أدري لماذا خطر فى خيالى أن أفتح المصحف وأقرأ سورة مريم من أولها لآخرها فى ذلك المساء.

* * *

الناس لها الحاضر، ها هم أولاد شلبى يترصصون على المصاطب بجلايبهم الكشمير ورعوسهم العارية، عمد وأولاد عمد، أخذوا منا العمودية وخلعوا رعوسهم وداروا فى الكفر على هواهم، وشاكر شلبى عمل مصطبة جنب دكانه ولم حوله الشبان من أهله، ورثوا الجسارة بالقرش ونسوا الأصول، دكانهم مفتوح فى وش البوابة وكأنه شوكة مدفوسة فى نين عيون أولاد عوف، نسوا حكاياتهم القديمة نسوا جدهم الكبير الذى دخل الكفر حاملاً خرجه على ظهره متمسكاً فى الكفر من يشتري منه ربع تمر أو بقرش خروب، هاهو شاكر يجلس بجلايبه المغسول المزهر والمكوى ورأسه العارى يلمع بدهان شعر كالبنت

القارحة.. يتبصصون علينا وينهشون بالعيون لحنا وبالألسن، لو كان حيا لطردهم ولعن سنسقىل جدودهم وسألهم عمن ورثهم الجسارة ليجلسوا عند بوابة جماعة عوف، لو كان الرجال الكبار ظلوا لخرجوا عليهم بالشماريخ وشتتوهم فى دروب الكفر كما كانوا يفعلون، إنما من يسندنى لأعملها معهم، والعمدة منهم ولديه فى الدوار طابور خفر تحت الأمر ورهن الإشارة، ولهم حق.. فمن تبقى من جماعة عوف؟ شعبان الذى يشارك الدكتور بطرس ويعيش على الهامش، أم محمود الأهبل الذى تعلم فى المدارس ووظفوه لكنه أهبل جعله التلاميذ مسخه يضحكون عليها كلما مر أمامهم «بالبيجاما» الباهتة، وغانم المرابى الذى تبرأنا منه، والجالس على باب داره ينتظر من تأتى إليه بحلة نحاس أو بطشت ليساومها على الفائدة، والذى لا يخجل من نفسه ويظل طوال النهار يعين خلق الله بكل معائبهم ويسرد عليهم كل مخازيهم غير شاعر بأن وجوده نفسه عار وخزى لا يدانيه عار ولا خزى، ولطفى الأعرج الذى برع فى السمسة وخراب البيوت، يعرف البائع ويعرف الراغبين فى الشراء، يخدع الكل ويتوسط مقابل عمولة مزدوجة ويزن على دماغ أصحاب الأرض ليبيعوها فى سبيل العمولة، كل هؤلاء ينتمون إلى جماعة عوف، والرجال الذين يعتمد النفر عليهم قلة وسط كثرة تائهة فى مشكلاتها الخاصة، هل هو الزمن الخسيس أم أنه غيم سوف ينزاح كما انزاحت من قبله غيوم.

وعندما قال سلومة ما قاله لم أسكت، دفست بوزه فى طين المروة، كان يحاول أن يعمل فصيحاً بلا لزوم، ساق الهبالة على الشيطنة وعلق جاموسته فى الطمبوشة وهو يعرف أننى أت لأسقى، جاء بالولدين يحتمى فيهما حاسباً أننى سوف أسكت، قلت له فى البدء: حل الجاموسة يا سلومة فلم يعجبه الكلام قال كلاماً لم أبلعه قال أننى غشيم وأنه سوف يسقى قبلى، قلت له عيب فلم يعجبه الكلام، قال: كل واحد يشوف روحه، قلت لنفسى أننى لو سكت له فسوف يستمر، ربما يذكرنى بما جرى لسيد وبحالة أبى لإذلالى، هذا الصنف يخاف ولا يستحى، تذكرت ما كان قد قاله عند البوابة عن جدى عبد القادر: كان غشيم، صحيح أننى لما سألت أنه أنكر إنما لم أصدقه، قلت لنفسى أيضاً، أنت مجروح الآن يا صالح ولو سكت للكفر يركبوك ويهزوا سيقاتهم، مسكته من خنأقه ودفست بوزه فى طين

المروءة، كان هزيلة في يدي وكأنه فرخ «بربر» نظرت إلى الولدين الآخرين فدللوا آذانهما ولم يتكلم أحد، تركته يمسح «الروبة» عن وجهه وشخطت في الولدين طالبا منهما الابتعاد. استدارا في صمت الخائف وحيد الجبان، كأنهم كلبين أجريين غريبين، لما وجد نفسه وحيدا جلس كحرمة منكسرة، شكله أضحكني فضحكت، لما شاف ضحكتي ترف على شفتي تجرأ وقال:

- ربنا يهدك يا صالح، أنا كنت بهزر معاك.

قلت وأنا أحل جاموسته وأعلق الثور مكانها:

- السنوبة الجاية حتقسط في أيدي، وإن كنت جدع أبقي هات رجالة يحموك.

- عيب يا صالح داخنا ولاد عم.

- ما بقيش إلا أنت يا بن المراكيب تتنقور على؟

- داخنا قرايب.

- قرابة مهبية وجيرة زى عدمها. أشوف روحى دا إيه؟

- كنت بضحك وياك.

- تضحك ولا عايز تضحك على ولا شلبي يا نتن؟

تركته قائلا لنفسى إنه لن يفوتها بسلام، أعرف أنه سوف يدبر أمره، هذا النوع يتمسكن عندما يحس بالهزيمة، ربما يفكر في الاستعانة بأحد ويترصدنى، فكرت في ضرورة الاحتفاظ بسلاح في «الخارجة» احتياط وسرت في اتجاه «الحوال» لأحول مجرى المياه إلى أرضى» العنف سيد الأخلاق في كفر عسكر، لو أعرف من قتل سيد لمسحت عاره هذه الساعة ولتقطع كل الألسنة من عند اللغوغ وليسكت ولد مثل سلومة، ينخرس لسانه ولا يجرو أن يقول ما قاله» كل واحد يشوف روجه» أه يا ابن الخنازير، هكذا مرة واحدة: كل واحد يشوف روجه، كأننى أصبحت معيرة ينصبون القعدة على حسى، تعملونى لبانة في الأفواه التى تساوى والتى لا تساوى، كأنكم ظللتم تبحثون عن جرح تعايرونا به حتى راح سيد، لم يهكم كم كان الجرح غويطا وقاسيا، كأنما كنتم تنتظرون لحظة الشماتة فينا، أصبحنا سيرة في كفر عسكر، فرعك يا عبد القادر يا عوف لا يواجه الكفر وإنما يواجه أيضا كل فروع جماعة عوف. كانت الطمبوشة تدور وصوتها يزغرد

ويغيب سلومة «العنف سيد الأخلاق يا كفر عسكر، لن يكون هناك حلم بعد ما جرى لنا»، لمحت محمد آتياً من بعيد، قلت لسلومة:

- فز طس وشك بشوية ميه أحسن محمد لو شافك يعرف يا بن تفيده، وابقى لم لسانك اللى عامل زى الفرقة.

قام سلومة وغسل وجهه من التركيب وجلس، كان محمد قد وصل، قال وهو يخلع الجلباب:

- أنا نازل الأرض أسقيها يابا.
قلت:

- متخليك أنت وأنزل أنا.

لكنه كان قد نزل، تأملته وفرحت بصباه وجرأته، يتنقل فى خفة عصفور ويفتح السدود الصغيرة ليسمح لمياه الريّة بالوصول، إلى كل الأرض، قلت لروحي إن هذا الولد من صلبى. شاطر بحق ولا يهاب، من نسلنا بحق، قلت لسلومة:

- وكنت صاحب ولاد عثمان شلبى حماية؟

- بلا كلام فاضى، يعنى مش لاقى إلا ولاد شلبى أتحامى فيهم، أنت اللى مستقل بى، عاملنى مسخنة وناسى القرابة، داحنا ولاد عم يا صالح، كنت أحسبك تبقى معايا مش على.

- يعنى انت اللى فاكرها، أشوف روى دا إيه؟ وقصاد ولاد شلبى كمان.

- لك حق يا صالح، أنت الكبير برضة وعيب الواحد يتيم عينه فيك.

- طب يا سلومة، خلاص، صافى يا لبن، قوم بقى ساعد محمد، واللى فات مات.

قام وقد انزاح عن وجهه الكدر وذعر لحظة العراك وبدأ يتحدث مع محمد فقلت لنفسى إننى أتسرع أحياناً فى تصرفاتى إنما ربما كان ذلك بسبب ما أعانيه من مشاكل بعد موت سيد لدرجة أننى بدأت أشك فى كل الناس ولا أميز العدو من الحبيب. ولما ركنت دماغى على فرع التوتة غفلت مدة حتى صحنى صوت سلومة:

- صالح.. أصحى.

وقمت، كان بيتسم كأن شيئاً لم يحدث ومحمد جاء يغسل نفسه ويلبس الجلباب، قلت لسلومة:

- بعد ما تسقى ابقى تعالى حدا أيوك إبراهيم، أهو نسهر هناك الليلة.

ابتسم سلومة وقال:

- أى والله من زمان وحشائى حواديته.

تركته وركبت الحمار وسحب محمد الثور والجاموسة والعجلين وعدنا إلى الدار.. بعد العشاء خرج محمد، سحب نفسه كعادته وخرج. فكرت فى أخذ أبى معى إلى دار الجد إبراهيم إنما وجدته تائها فى ملكوت الله، قلت لنفسى أذهب وحدى حتى لا تتحول السهراية إلى مندبة، الجد إبراهيم لا يكف عن الثثرة فى الأمور الفارغة لكن الليلة تقوت، لو أخذت أبى معى لحول الجلسة إلى كلام مسنون وجارح، خرجت فى اتجاه دار الجد إبراهيم، عند البوابة كان الولد محمد واقفا وسط جماعة من الشبان، عوده الممتلئ عنهم وصته الأمر وسطهم وثبات حركاته ذكرنى ببرهومة أيام صباه، خفت عليه من العيون، قلت له عارفا أنه لن يسمع الكلام وإن كان يهاودنى:

- روح يا وله بدل اللطعة دى.

- طيب.

قالها وهو ينظر إلى غير مرتاح للأمر، يعرف أننى غير جاد فى مثل هذا الطلب وأنه يستجيب، عادة يسهر مع أصحابه إلى ما بعد السهرة بمدة، أحيانا يأتى فى وش الفجر ويخبط على شباك المندرة وكأنه يود أن يجعلنى أراه بنفسى وأفتح له بنفسى، على أيامى كنت أهوى السهر مثله إنما كنت لا أجروء على إظهار ذلك، كان خوفى من جدى عبد القادر يجعلنى أتسلل خفية، أطلع إلى «المقعد» وأتظاهر بالنوم ثم أتسلل إلى سطح الحاجة مسعدة ومنه إلى جدارها المهودوم إلى «العليوه» إلى شارع ضيق أنفذ منه إلى البوابة وفى طريق العودة كنت أتخوف أن يرانى أو يسمع صوتى، كنت أتعلق على الكتلة البارزة أو ألف من ناحية «العليوه» إنما لم يخطر ببالى أن أخبط على شباك المندرة مثلما يفعل محمد معى، له حق محمد لأننى مهما فعلت معه فلن أكون قاسيا مثلما كان جدى، على العموم وأنا كنت ابن ابنه الذى لم يرض عليه.

قال الجد إبراهيم وهو يصب شايه الأسود فى الأكواب:

- وكان سيدكم الحاج مصطفى عوف عمدة بحق وحقيق، دواره مفتوح للغريب قبل القريب، طول شهر رمضان الدبايح تندبح على بابه واحنا نلف على الخلق أنا وإخواتي، عبد القادر وعلى ومحمد وعبد القادر الغفار ندى كل حى كوم، كنت لما أطهق م الشيطة أرمى اللحمة ف الترعة أو أحطها عند نفر من الأنفار وأرجع قبل الكل، أقول لروحي إن الرجل ده أهبل لما يدوخ عياله لجل شوية تملية ومقاطيع.

يضحكون، يقولون إنه لم يغلبه غلاب، قادر على تخلص نفسه من أى إشكال أو مسئولية بنكتة أو بعمل غير محسوب، قال ابنه عبد العزيز مرة إنه طلب «عباية» لزوم العيد ولما اعتبروها نكتة ولم يهتموا باعتبار أنه رجل كبير ولا يجوز أنه يهتم بالعيد، وجدوه يأتى إليهم لابسا العباة ويدخل الدار مختالا بنفسه فضحكوا لكنه داوم فى أيام العيد على إحكام عمامته وليس العباة وأنهم لما سألوه عن مصدرها أفهمهم أنه رهن فدانا فى أرض «المعرج» يقول عبد العزيز عنه: باستسلام سكتنا أنا وأخى والأولاد ثم تجاسرت وسألته:

- إزاي بس يابا تعمل كده؟

وأنه رد بحماس مدافعا عن نفسه:

- ما قلت لكم يا خنازير محدش جاوبنى، كنتوا عايزينى أعيد بهدوم قديمة؟

وأنه من بعد ذلك اليوم داوم عبد العزيز على الاهتمام بمطالب الرجل، يقول تعقيبا على هذه الرواية عندما تثار:

- طب وإيه يعنى، على النعمة أبويا باع خمس فدادين على راس غيط «المدار» برطل حلاوة طحينية.

ننظاھر بعدم التصديق فيخرج المصحف الذى يحتفظ به فى جيب صدره ويحلف ثم يضحك منتشيا بإسكاتنا حتى تدمع عيناه ويعقب:

- أصل زمان الأرض كانت كتير والناس قليلة، كان الكفر زمامه كبير على اللى فيه، كان خير كتير ولا كانش حد يعرف الطمع زى أيامكم الغبره..

أقول لنفسى إن هذا العجوز الذى تعدى سنواته المئة بأكثر من عشرين سنة

أخرى، عاش في خير وإلا لما احتفظ بكل هذا النشاط والصحة والوعى وأن أبى الذى يعتبر أصغر من عبد العزيز ابنه فقد قدرته على التمييز، ربما لأن الجد إبراهيم ظل يرتع في خير الكفر ولم يترك الأرض، ظل سيدا لأرضه وعبدا لها في آن واحد، ربما لسبب إحساسه بالأمان لم يفقد نشاطه، وأنه بالحتم لابد بسبب وجوده في الأرض ما زال يعيش، يضحكون على عبارة قالها ثم أجده يحلف مرة أخرى بالمصحف فأقهم أنهم جرجروه للحديث وأنه انفتح وسوف يسترسل، ما دام يحس أنه محط رغبة فيما يقول لا يكف عن سرد الحكايات القديمة محاولا أن يدلل بكل حكاية على صدق ما سبق أن قاله وسوف يستمر هكذا حتى يجد لدى الأولاد والأحفاد همهمات استحسان وتصديق.

- طب على الحرام من ديني، أبويا الله يرحمه قال لى أنه اشترى عشرين فدان بور من واحد تركى بزعبوط قل وبردعة نص عمر، وبعينى دى اللي ح ياكلها الدود شايفه بيبيع غيط بحاله بشوال تمر، ومرة كنت وياه فى السوق شفته بياخد حق جوز تيران تقولوا كام؟ قمع سكر وشرف البنى.

يشعر أنهم ما زالوا في مرحلة عدم التصديق، والضحكات على الأفواه مبسوبة لإمكانية استرسال الرجل، يسترسل:

- حا نروح بعيد ليه، أنا واخد المصحف ده من راجل مغربى تقولوا بياه؟ بزرعة برتقان بلدى، كانت الجنينة تيجى تسع فدادين، وده جه فات على وقاللى اقرأ لك الكتاب بحجر برتقان، قلت طيب، قعد يقرأ، ببص للمصحف وعاييز أشوف جواه إيه؟ قفله وبص لى وقاللى: أنت عاييز تطفش العفريت؟ ببص على العفريت حاشنى، قاللى إنه مصحف مخصوص للمغاربة اللي بيقروا الكتاب، ولو خدته منه يبقى بتاعى واقدر أقرأ لأيها واحد، يعنى أقرأ الأول آية الكرسي وافتحه يطلع لى ملاك أبيض يشاور ع الكلام المكتوب وأقراه وبس وقاللى أنه تعب م اللف وعاييز يرتاح، الغرض مرضيش يدينى المصحف أبدا إلا لما حمل زرعة البرتقان على جمال مغربى وحلفنى ما فتش المصحف إلا بعد العشاء عشان الملاك يصلى المغرب أحسن حرام، وبعد العشا بفتح المصحف لا

لقيت ملاك ولا جن ولا كلام بيضوى زى الرجل ما قال، أبويا سألنى ع
اللى حصل وريته المصحف وقلت الحكاية ضحك لما فطس على روحه
وقاللى دا مش بنى آدم، دا يمكن جبريل عليه السلام وجالك ووصانى
أحافظ على المصحف لأنه جاى من عند ربنا وشويه فيه كنوز الدنيا
كلها.

ضحكوا عليه فاغتاظ أو تظاهر بأنه اغتاظ منهم وأوشك أن يحلف على
مصحفه لولا أنهم منعوه وسأله عبد العزيز عن سر اهتمام جبريل به دون خلق
الله فيقول:

- حاكم احنا نسل طاهر، فينا شىء لله، قلبنا تلاقيه أبيض زى الحليب
وضميرنا خالص ونصدق كل حاجة، ما هو احنا من نسل الحسين بن
على عليه السلام.

أنظر إلى عينيهِ الواعيتين فأحسده وأكره شعرة الهبل فيه، أتذكر جدى عبد
القادر الذى كان يحكى عما كان يجرى فى أيامه مؤكداً أن الجد إبراهيم كان عبيطاً
رغم أنه كان أكبرهم، ويؤكد أيضاً أن الجد مصطفى أبوهم كان مزواجا مطلقاً
وأنه أنفق نصف أملاكه على الحريم، حتى لما باع أرضه برطل الحلاوة أو قمع
السكر كان فى سبيل امرأة نالها ودفع من أرضه الثمن، كان جدى عبد القادر
أنصحهم وأقواهم ولو كان أكبرهم ما تبددت أرضنا، كلامه صادق ومضمون
كالجنيهِ الذهب، أما الجد إبراهيم فهو مهزار وهلاس وله مع الحريم فضائح
ونوادر لا تحصى، يحكى وهو يلتفت ناحية سلومة الساكت:

- كنت فاتح قهوة مطرح الدكان اللى على البوابة وجايب واحد بربابة
يقول للخلق سيرة أبو زيد وكان وياه ثلاثة رقاصين من سنباط الواحدة
تقول للبدر قوم وأنا أقعد مطرحك.

يقاطعه عبد العزيز متعابثاً:

- كانوا بيرقدوا فين يابا.

يرتبك ويزوم ثم يقول محتداً.

- ياك لسه مصدق المرحومة أمك؟ كانوا بيرقدوا ف القهوة بعد ما أسكها
عليهم.

يتجاسر عبد الونيس ويقول وفي صوته نبرات الراغب فى الإغظة:
- سمعت يابا إبراهيم من كام سنة لكن مش مصدق.

يحس الرجل أنه سيصبح محطاً للهجوم فيكشر ويلوى بوزة ويدفع عن نفسه قائلاً بثقة الكبار:

- سمعت إيه يا بن المراكيب أنت راخر.
- قال بيقولوا أنهم ظبطوك مع هاتم بنت مقلدية فى قاعة التبن من سنتين.

يقول وهو منفعل بحق:
- بقى من سنتين يا بن ستين كلب، دى الحكاية دى من سن عبد العزيز ابنى.

يضحكون فأضحك لأن هاتم نفسها فى دور أولاد أولاد عبد العزيز، ربما كانت مقلدية من دور عبد العزيز، هاتم مفضوحة وسيرتها فى الكفر معروفة وليس من البعيد أن تكون ضحكت على الرجل من أجل غرض، إنما يقولون أنهم ضبطوها معه فعلاً وكانت عارية كما ولدتها أمها، يحس الجالسون أن الجو سوف يتوتر وأن الجد إبراهيم سوف يستاء من مجلسنا فيحاول عبد الونيس إصلاح الحال.

- وهو حد يصدق الكلام ده يابا إبراهيم برضه.
- ربنا ينكد عليك يا عبد الونيس يابن أبو العنين.

يسود الصمت إلا من كركرة الجوزة فى صمت المنذرة وتزايد سحب الدخان الأزرق، تعميرة هذا المساء أفضل من سواها، جابها عبد الونيس من درويش الأعور، أشعر أنها أحسن، أجدنى أبدأ فى الضحك، تنزاح كل المتاعب وضحك، يقول سلومة وهو يصفق بيديه فرحاً:

- صلوا على حضرة النبی المختار، السهرة احلوت.

ينظر إليه الجد إبراهيم شاعراً أنه لفت الأنظار إليه وترك الرجل الكبير ساكتاً، يشرع فى الحديث:

- على صحوى بقى كان سيدى يبنى الدوار اللى ع البوابة، كان واقف

والرجالة بتفحست الأساس، قام واحد عبد كان اسمه بشير لقي زلعة سليمة، بيقول لسيدي قاله:

- كسر ها يا وله وارميها ماحناش ناقصين زلع، العبد طلعا سليمة وجه يشيلها لقاها ثقيلة، بيفتحها لقي فيها كنز، جنيهات ذهب بندقي من بتاع زمان، يمصصون الشفاه وفي خيال الواحد منهم جنيه بندقي واحد، يقول سلومة:

- يا خويا هديت وبنيت لا لقيت ذهب ولا فضة، ولا قرش أبيض يوحد الله.

قال الجد إبراهيم:

- هو اللي زيك با ارشل يلاقى حاجة، الكنوز دي لناس ناس، طب أبويا ما ضحك عليه راجل مغربي ست سنين، بيقوله فيه كنز ف دار العيلة، فضل يعزم ويقرأ ويكتب ويقول هدوا الجدار ده نهده هدوا الجدار ده نهده لما خرب الدنيا والآخر قال إن حارس الكنز زعلان ومش ناوي يفك عنه إلا بعد خمسين سنة، اللي يحسب يلاقيهم فاتوا، يعنى أكيد ف دار العيلة كنز بس ينفتح لواحد وشه سمح مش زيك ياسلومة كده.

نضحك على وجه سلومة المستطيل والذي غاصت فيه حفر الزمن الصعب وجعلته يبدو أكبر من عمره، الهم تحت الضحكة العصبية المصنوعة والتي يشدها اغتصابا من داخله ويرسمها بينما العينان تقسمان أنه مهموم بعبء أيامه وإن كان لا يبوح بما عنده عنادا أو ضعفا أو قدرة، لكننا برغم كل شيء نضحك، نغتصب الضحكات ونفرشها على الوجوه لتحلو السهرة وكأننا نحرص على أن يكون ثمن قطعة الحشيش لم يضع منا في الهواء بلا مقابل.

يسود الصمت بيننا، يعود كل واحد إلى نفسه، يتفكر أحواله، يمصص الجد إبراهيم شفتيه ربما سخرية من أحوالنا، يحكى للمرة الألف حكاية العبد المسحور الذي اشتراه جدنا الكبير، يعرف أننا حفظنا الحكاية لكنه لا يود أن يكف عن تكرارها، هذا هو طبعه، كل حكاياته محفوظة إنما يشعر الواحد في كل مرة أنه يسمع حكاية جديدة، يصوغ الحكايات بطرق عديدة، عن العبد المسحور يحوم بالكلمات:

- وكان سوق الثلاث مشهور بالخیل، أحسنها مهرة بعشرين جنيه، كان سيدى الله ينور قبره غاوى، ولما شاف الحصان لبد جنبه، تقولش مسمروه، أنا كنت عيل وفرحان اللى رايح معاه السوق، الغرض، كان حصان أبيض وزى القشطة، ما فيهش شعره سوده، تقولش البراق النبوى، اشتراه ورجع فرحان زى اللى لاقى لقية، وثانى يوم بعت بشير يسرجه ويسحبه لقى مطرح الحصان عبد أسود غطيس مربوط ف المربط من رجله وواقف يتلفت حواليه، يومها جه سيدى وبص له لقاء بيرطن بربرى، مفهمش حاجة منه، قالنا يا ولاد دا تلاقية عبد مسحور من بلاد بعيدة، فضل ف الدوار يومين ولقيناه بينطق بالعربى، سيدى قال سييوه على راحته، سبناه غطس ما بنش، خرج م البلد ولا شفتاش وشه بعدها، قالنا سيدى إنه ملك من ملوك الجان، وصلى على النبى.

ونشعر بقشعريرة رغم أن الخوف لا يناسب أعمارنا أوشك أن أصدق أنه حدث ما قاله الجد إبراهيم وأن دارنا فيها جن مسحور ما زال يلحظ حركاتنا ويترصدها، يطلو للعجوز أن يسترسل فى حكاياته عن الجن والمردة وعروس البحر التى طلعت له وكادت أن تخطفه، عن جمالها الفتان الذى سحره، عن لحظة الاختيار الحائر التى واجهها بين مملكة البحر كلها وحياة الأرض، أكذبه بينى وبين نفسى إنما لا أفكر فى معارضته راغبا فى أن يكف عن ذكر هذه الحكايات، يسترسل فى حكاياته عن شياطين الليل:

- مرة وأنا ماشى ف الليل قرب الفجر جنب جدار زاوية عوف لقيت أراب صغيرة بترمح، لونها أبيض على أسود كده، كانوا صغيرين وحلوين والقمرة ضهر، قلت آخذهم وأبقى أديهم لأصحابهم بعد الصلا، خدتهم فى حجرى ومشيت، وقبل ما احصل باب الزاوية لقيت جحش ماشى من غير بردعة، عمال يعلى ويوطى، يعلى ويوطى، قلت ده عفريت بيستعبط، قتلته: اتشطر ع اللى قتلك بصيت مالقيتوش وعلى باب الزاوية لقيت جدع واقف باحقيق منه وأنا فرحان وبقوله قال يا خويا الجحش طالع يخوفنى، رد على وقال: جحش ايه يا جحش وفص ملح وداب، من يومها طلعا على قولة إبراهيم الجحش.

يسأله عبد العزيز وكأنه يساعده فى إكمال الحدوته:

- والأرانب ياأبا.

- مانا جاي لك أهه، أنا ربك والحق خفت، لسه داخل من باب الزاوية
وببص ف حجرى لقيت اتصاص قوالب طوب أخضر، قلت يا بركة
سيدنا النبى ورميت الطوب وسمعت صوت الشيخ سليمان بيقول الله
وأكبر.

يكف عن الحديث، أحس بالضيق من المجلس، أقوم قائلاً لنفسى إن النوم
أفضل، أبحث عن مداسى التائه وسط زحمة المندرة بينما يضحكون فأشك فى أننى
أقوم بحركات مضحكة فلا أملك إلا أن أنفتح فى الضحك بلا توقف وعندما ينتهى
الضحك يمد الجد إبراهيم يده بفردة المداس ويقدم إلى عبد العزيز الفردة الأخرى
مؤكدين أننى مسطول.

* * *

قال الولد من جماعة شلبى لما عاركته:

- متفرعن على إيه، دا نت بتشتغل «تملى» بلقمتك.

عندما نظرت إلى حالى يومها تأكدت من صدق الولد، عرفت أنهم عملونى
عيرة وأننى لا أختلف عن أى «تملى» فى الكفر، صحيح أننى اشتغل فى غيطنا
كما قلت للولد ابن شلبى، وصحيح أنها أرض جدى وخالى، إنما هل هذا يكفى، أن
أصبح فى الدار آخر من يعملون حسابه، كنت فى البداية صبيا لا أدرك إنما حتى
لما أصبحت رجلا فى مثل طول جدى وأعرض من برهومة لم يصبح لى أى رأى
فى أى شىء، برهومة الجالس دائما على مصطبة من مصاطب البوابة، ووجهه
الشاحب يعلن لكل من يراه ضعفه يأتى إلى الدار، يأمر وينهى فى غيبة جدى،
وجدى كلماته أوامر هو الآخر، قلت لروحى: أنت غريب يا ولد ومهما اشتغلت
فلن يلتفتوا إليك لن تلتفت أنظارهم إلى وجودك، فكرت أن أطالبهم بتزويجى من
باب إشعارهم بأننى موجود لكن الفكرة لم تعجبنى لأننى أصلا لا أفكر بجدية فى
الزواج، ممكن طبعا أن يزوجونى ولن يكلفهم الأمر الشىء الكثير، وتبطل حجتى،
إنما كانت عينى على الأرض، على الأقل جزء الأرض الذى يخصنى، ما تركته

أمى ونصيب أبى فيها، فكرت كثيرا وبحثت عن سبب لعمل معركة أغضب بعدها وأترك لهم الدار فى انتظار حل، كان برهومة فى وسط الدار وأنا راجع بالجمل والحمار، قلت له دون أن أنظر إليه:

- حمل النقلة دى يا خال.

كانه لم يسمع لأنه لم يرد، كررت طلبى فقال وهو يتفحصنى مليا.

- حملها واتكل على الله بعيد عنى يا وله، أنا فايقلك؟

قلت وأنا أتعمد إثارته أكثر:

- يعنى انت على إيدك الحنة، قاعد تبص لى يا خال ولا حتى بتساعد فى الغيظ ولا فى الدار؟

- طب على الحرام ما نا عامل حاجة ف نهارى يا صالح، أنت ح تشغلنى يا وله؟

- حرام دا إيه، شاطر بس تحلف لى بالحرام والحلال، طب والمصحف ما أنا سارح بعد النهارده إلا رجلى على رجلك لهى الدار دى دارك لوحدك واحنا مالناش فيها؟

كان برهومة مهدودا بفعل المرض، كان وجهه الأصفر يزداد شحوبا وجسده يزداد نحولا، فى هذه اللحظة نظر إلى وكأنه فوجئ بى هكذا فى مثل طوله وأكثر منه قوة، مده يده وأخذ عصاه المعوجة من جنبه وناولنى فوق كتفى فأمسكته من طوق جلبابه وصوتت النسوة، وجاء رجال ليفصلوا بيننا، كان هو ينهج منفعلا ومحموما بالمفاجأة وكنت أجلس فى مواجهته فى وضع استفزازى جعله لا يكف عن السباب المتلاحق لى ولأمى ولأبى مستكثرا على نفسه أن أمسكه وكأنه صعب بما جرى، لما جاء جدى وسأل برهومة عما جرى لم يتكلم، أشار بيده ثم قام تارك الدار، قلت إنه سوف يسألنى فأدافع عن نفسى لكنه سأل مبروكة عرفت ساعتها أن حبها لبرهومة يمكن أن يجعلها تكذب وتكذب وتضيف ما لم يحدث لتؤكد له خطئى، لو كنت مكان جدى لصدقت كذبتها المحبوك الذى كانت بارعة فى اختلاقه وكل لحظة تقرر أننى هجمت عليه وخنقته بيدي وهو يخلص نفسه قائلا: عيب يا صالح روحى طلعت.

- الواد يا عبد القادر زى الشحط ولا حدش كاسره، دا كان حيصور لنا قتل النهارده.

والتفت إلى الرجل، لم يبد عليه أنه صدق أكاذيب مبروكة، وقف قبالتى ورفت على ثغره نصف ابتسامة لم يسأل ولم يتح لى فرصة للكلام، كانت يده خاليتين ونصف الابتسامة تشرع فى أن تكون أكثر اتساعا، لكننى لم أر غير نصف ابتسامة لأننى سقطت من طولى، لم أدر ما يدور حولى، دارت الدنيا بى ودارت، حاولت أن أتشبث بالأرض فمادت بى وكان رأسى يخطبها رغما عنى، لم أكن فى صحوى تماما ولم أكن غائبا عن كل الوعى، كنت بين بين، سمعت أصواتا ولمحت برهومة وعمى عبد الغفار وآخرين يمنعون جدى من الوصول إلى، جاءنى جلال والشيخ عطية وساعدانى على الوقوف، رأيت رغبته رغم الحصار يفتح لنفسه طريقا وسط الأجساد المرصوفة بينى وبينه، فى هذه المرة كانت فى يمينه العصا، سمعته يجعر بصوته ويغضى على صوت مبروكة:

- بقى يا خايب يا بن الخايب عايز تخنق خالك، عايز تقتله وأنا لسه على وش الدنيا، طب على الحرام ما أنت بايت ف الدار.

كنت أود فقط أن أنفذ من الموقف بالخروج حيا، خفت أن يضربنى بعصاه فينتهى كل شىء، ساعدنى الشيخ عطية على الانفلات من باب الدار وأخذونى عندهم.

قال الجد إبراهيم:

- يخيبك، بقى عايز تخنق برهومة وياخدوك قصاده؟

قال الشيخ عطية إنه من الأفضل أن يتركونى وحدى لأهدأ. حامدا لله لأن كف جدى لم يطل أذننى وإلا لقتلنى، بعد ذلك قلت له كل شىء، عن أرض أمى التى كتبوها باسم برهوم، عن أرض جدى التى آلت إلى برهومة حارمين أبى من حقه فيها، عن شغلى فى الدار كواحد من الأنفار وبرهومة مرتاح وجدى يأمر فقط ولا يمد يده فى شىء فسكت الشيخ عطية وسألنى عن مطالبى فقلت بسرعة:

- يكتبوا لى الفدانين بتوع أمى ويجوزونى وأنا أشيلهم على رأسى من فوق.

وسكت الشيخ عطية لكن الجد إبراهيم قال ساخرا.

- يجوزوك دا إيه؟ برهومة أكبر منك بكام سنة ولسه.

قلت لنفسى إن برهومة معلول وخائب ولا يصح زواجه إلا بعد أن يسترد عافيته، لو كان برهومة فى صحته لضربنى، ولو كنت ضربته ما تحمل الضرب، فى دارنا يكون العنف سيد الأخلاق، بالعنف سيطر جدى على الدار ودرّب عوف بأسره، وبالعنف خوف جماعة شلبى، لو ظلت ساكتا على حقوقى لأكلونى لحما ورمونى عظما، برهومة يخافنى الآن، والرجل الكبير سوف يعمل لى حسابا من الآن، أن يكون الواحد منا قويا فى داره بحيث لا يتوه كاي شىء تافه فهذا هو المطلوب، فى اليوم التالى لما دخلت الدار لم أهتم بنظرتهم، واجهتهم بكل ما استطعت من جسارة، دخلت الدار وفى تقديرى أننى إما قاتل أو مقتول، لما لاحظ جدى أننى لم أعد مهتما بشىء نظر إلى وضحك قائلا:

- عشنا وشفنا، ابن حسن عايز يجوز هو كمان، جاتك لهو، على أبوك اللى خيبته محصلتش حد.

قلت:

- ما هو اللى يعيش ف الدار دى لازم يخيب.

- امشى انجر وجع ف رقبتك.

مشيت، من يومها بدأت أدس أنفى فى كل أمور الدار، أفتى بما أراه دون أن يسألونى، أحاول إشعار الكل أننى موجود بها، أن لى حقا فى هذه الدار وعليهم أن يسلموا به، فى وجبات العشاء أدعى الغضب رافضا أكل أصناف لا تروق لى تماما، أفضل الجوع على التسليم هكذا لهم بكل شىء، أجعلهم يعملون حسابى، وإذا جاءنى الغذاء على غير هواى أعيده كما هو قائلا لجدتى مبروكة إننى أطفح الدم فى الشغل ولا يمكن أن يسعبنى أو يسندنى غداء بسيط.

قال برهومة مرة وكان قد جاء يشق على القطن:

- يا صالح اعقل بقى وسيبك م اللى فى دماغك.

- عايز إيه يعنى، أفضل كده شغال من غير أجرة؟ دا ابن شلبى بيقول

على تمللى باشتغل بلقمتى، طب ادونى أجرة زى الغريب.

- يا وله اختشى على دمك، الأرض ما هى قصادك أهه، هو أنا شايلها

على دماغى؟

- أيوه صحيح الأرض قصادي، إنما مكتوبة عليك.

- دا نت دماغك ناشفة طب روح حملها وشيلها.

قالها وكح بحيث أصبح عسيرا على أن اتابع الحديث معه، ولما غاب عن نظري قلت لروحي إنهم لن يحسنوا معاملتي إلا إذا ابتعدت عنهم وأحسوا بالحاجة إليّ.

قلت لجدى مرة وأنا أضاحكه:

- هو أنا مش بقيت راجل قدامك، مستقل بى ليه؟

نظر إلى باستهانة وقال: هم، تابعت كلامى:

- جلال وسلومة من دورى واتجوزوا، ما تكتبوا لى على زكية بنت الشيخ فضل.

قال وعلى ثغره ابتسامة ساخرة:

- همك ع النسوان من دلوقت زى أبوك؟ طب استنى لما نجوز ببرهومة. قلت:

- أنا مالى ببرهومة، هو اللى مش عايز، يعنى لو طلب حتقول لأ؟ الواحد يطفش منكم.

زام الرجل مستاء من كلامى فابتعدت عنه بخطوات حذرة متوجسة، أن يكون الإنسان فى متناول يد هذا الرجل فهو الموت بعينه، الأولاد فى مثل سننى لا يضربهم أحد، كان على أن أحمى نفسى بالحذر، صارت بينى وبين الرجل عداوة غير معلنة، إنما فى كل مرة كنت أزوغ منه قبل أن يفكر فى ضربى، كنت أقرأ فى عينييه وعيدا بأنه لن يترك لى فرصة تتاح له لإذلالى، مرة كنت راجعا من الغيط راكبا الجمل، قابلنى عند المصرف القديم وقال متعجبا وأمرأ فى آن واحد:

- صلاة النبى أحسن، راجع بالجمل فاضى؟ مش هالين عليك تحمله؟

لم أرد عليه فتوقف قبالة الجمل وقال متابعاً ما قاله:

- طب نخخ الجمل وانزل يا خايب يا بن الخايب.

ظللت فى طريقى إلى الدار متجاهلاً ما كان يقوله، عندما عاد كنت قد عملت حسابى، وقفت فى صحن الدار أنتظر وصوله، الجمل بارك بحمله وفى يدي

«شعبة» أظاهر بأننى أسند بها الغبيط، كان الفأس ناحيتى وفى متناول يدى أيضا، والشيطان يلعب فى دماغى لعبة المخاطرة، قلت لنفسى ساعة أن رأيته: لو بدأ بما يوحى أنه يريد ضربى أخبطه قبل أن يخبطنى، يقولون إن أبى وعمى اشتركا فى ضربه، هو عظمة عجوزة ولن أخافه، كان يمشى ناحيتى على مهل، نظر إلى فوجدنى أتخفز، يدى الممسكة بطرف «الشعبة» تسلتها من حلقة الغبيط وطرف عينى يتأكد من وجود الفأس مكانها ناحيتى، نظر إلى متفحفا وكأنه يقيسنى ويعرف مدى استعدادى للتمادى فى مشوار الشر، ظل منتصبا مكانه دون حركة، فى يمينه الشمروخ وفى عينيه مزيج من الرغبة فى الضرب والامتناع عنه، وشيء من الحسد أو الكراهية لى يشع ويتوهج فوق الملامح، لوح بيده الخالية وهز رأسه، كدت أن أنهزم فى مواجهته، لم يكن الخوف وإنما التذكر أن هذا الرجل هو بنفسه عبد القادر عوف الذى لم ينهزم من أى رجل من رجال الكفر، عبد القادر عوف الذى أحبه أيضا وأكره أفعاله، تماسكت وظلت عيناه تتفحصان وتجوسان بحرية فى كل ما بان منى خلف الجمل المبارك بيننا، طالت النظرة المتبادلة بيننا والصمت يمتد لزمن لا أحسبه كان قصيرا، بعدها قال الرجل وهو يسند شمورخه إلى جانب من جوانب الدار ويلتفت إلى قائلا باستهانة من يعرض نفسه للمواجهة بلا شيء يحميه، عارفا أنه بوجوده المجرى يقدر أن يدفع عن نفسه أشد الأخطار وأقواها:

- اسمع يا وله، أنت ما لكش عيش فى الدار دى، شوف لك داهية اتلقح فيها من دلوقت اهه، أنت سامع؟ مش عايز أشوف وشك هنا.

قال ذلك ثم استدار يعبث ببعض الأشياء وكأنه يتكبر على الدخول معى فى صراع وجهها لوجه مستهينا بى إلى حد جعلنى أشعر بالضالة والصغر، لحظات ثم خروج من الدار دون أن يلتفت إلى أو يعاود الحديث معى، قلت لنفسى أنه من الأجدى أن أخرج قبل عودته، إنه لو عاد ووجدنى ما تركنى لحالى، رجعت أجمع ملابسى فى سبت دون أن أرد على «مبروكة» التى كانت تسأل عن وجهتى دون أن تظفر بشيء، لما حاولت هى منعى دفعتها عنى وخرجت وعندما ما شافنى برهومة وحاول إعادتى خلصت ذراعى من قبضته وسرت وحدى إلى سكة البندر، سألت الغباش عن عنوان أبى مدعيا أننى ذاهب لزيارته فى المحلة الكبيرة، ركبت

القطار ووصلت، أوصلني حنطور ولم يكن أبى هناك، كان فى الشركة لكن جدتى لأبى عرفتني ورحبت بى، سألتني عن الأحوال وعن ظروف الكفر، قلت لها إننى جئت لأشتغل فى المحلة لأنهم طردوني، قالت إن مبروكة هى سبب كل هذا الضياع، كان على حجرها طفل صغير، أشارت إليه قائلة: سيد ابن شوق، حكى لى عما حدث من انفصال أبى عن شوق، عن حيرته وارتبائه بالولد والذى ترعاه هى، عن زواج شوق بعد إتمام العدة من ابن عمها، قالت إن أبى تسرع بطلاقها وأنه كان من الواجب أن يصبر من أجل الولد، قالت إنه من العسير أن يظل حيا بسبب أنه لم يرضع لبن أمه بما فيه الكفاية، عن فلوس أبى التى راحت عليه وسفها عبد الستار، كانت حجرة وحيدة فيها سرير وكنبة وعلى أرضها حصير مفروش، عملت لى شايًا، قلت لنفسى إن جدتى «مبروكة» حذرتني منها قائلة أنه من الممكن أن تسمنى لو أخذت منها شيئًا يؤكل، كانت هى تنظر إلى وأنا متردد فى شرب الشاي، كأنها فهمت، فأخذته وتذوقته أولاً ثم أعادت وضعه فى الكوز وصبت كوبين وأخذت واحداً منهما وراحت تشرب قبلى واكتفت بأن وضعت الثانى أمامى بأن أنها فهمت فأسقت لأننى نسيت أنها جدتى هى الأخرى وربما تحبنى أكثر من مبروكة، قالت إن أعز الولد ولد الولد يا صالح يا بنى.

لما جاء أبى قابلتى بوجه بشوش خلافا لما كنت أتوقع ما كان يشاع عنه فى الدار أنه لو رحت له لرماتى فى الشارع خلاصا من مشكلاتي، قلت لنفسى إنهم ظلمونى طوال هذا العمر وكرهونى فى أبى حتى أظل عبداً لهم، وأنهم لما وجدونى واعيا لنفسى طردونى، قلت لأبى كل شيء من بداية الخلاف بينى وبين برهومة حتى لحظة الرغبة فى معاركة الرجل وضربه، قال أبى متخوفاً:

- لا يا صالح، سيدك غشيم ويمكن كان خبطك خبطة تروح فيها، دا ربنا ستر، فإكر إنه خاف منك، دا ما يخافش م الجن، دا قاتل يا صالح.

اغتظت لأنه أنكر على خوف جدى منى، قلت إنه مازال يحسب جدى فى نفس قوته الأولى وأن الرجل لم يعد كما كان، قال أبى إنه سوف يسعى لتشغيلى فى الشركة، قال: كتبوا الأرض لبرهومة عندا فى أنا، سكت وأنا أقول لنفسى: لو كنت مكانه ما تركتها أبداً وما هربت. لعن الأرض ومن يبكى عليها، قائلاً:

- يا وارث من يورثك، رزق هنا رزق هناك، وأهى لقمة بناكلها.

قال إنه استغنى عن الأرض ولم يمت، أنه عاش مستورا وعوض عليه الله، لكنه عندما نظر إلى سيد الراقد على حجر جدته كشر وبدأ غير مرتاح ربما بسبب مرضه، قال إنه لولا عركته مع جدى لجاؤ إلى الكفر ليرانى ويطمئن على أحوالى، قال إنه كان يرسل إلى برهومة رسائل ويتلقى منه رسائل يطمئن فيها على راحتى، وأنه يكره الكفر وناسه ولا ينوى الذهاب إليه أبدا بسبب ما حصل له هناك يوم طرده جدى من داره ولعنه وأوشك أن يضربه.

بعد أسبوعين أو ثلاثة جاء أبى ووجهه مخطوف كأنه هارب من عند الأموات قال لجدتى ولى:

- أبويا جه المحلة هو وبرهومة.
- قلت وأنا استكثر عليه خوفه الزائد:
- وإيه يعنى، ما ييجوا يعملوا إيه:
- قال:

- دا راجل شرس وطبعه غلس يا صالح.
- قلت متذكرا وقفى قبالتة غير مهتم به:
- غلس على روحه، يعنى حيقطع الرقابى.
- أنا كلمت نفرين م البلد يحضروا وياه.

كان واضحا أنه خائف بشكل زائد، لم يعجبنى خوفه عرفت أنه عاجز عن حماية نفسه من رجل عجوز وأنه عاجز بالقطع عن حمايتى، إن حياته فى المدن جعلته يعمل حسابا لأى شىء أكثر مما يستحق، إن ناس المدن يخافون من خيالهم ولا يقدرّون على مواجهة أحد، إن أبى القديم واجه هذا الرجل وهو فى عز أيامه لكنه اليوم يخشاه وكان من الواجب ألا يعمل له حسابا. قال هو:

- أنا حبقى أسألك قصادهم: عايز تعيش هنا ولا تسافر البلد، لجل يروحوا من غير مشاكل.

قلت إنه يخاف على روحه ويصدرنى أنا لمواجهتهم.. وأننى ما عدت أخشاهم حتى لو أخذوا روحى، وعرفت فى هذه الساعة أن جدى رغم كبر سنه أكثر رجولة من أبى وأنه علمنى الجسارة وعدم الخشية بينما يعلمنى أبى الخوف والرعب من أول تجربة، فى أول موقف جاء يرتعد وكأنه داخل على جهنم.

عندما جاء جدى وبرهومة والضيفان كان أبى مخطوف الوجه مرعوش الكلمات، مخنوقا بحبل خفى جعله يتهته فى حيرة وينظر إلى الضيفين وكأنه يستمد منهما الحماية، سألنى أحدهما إن كنت أرغب فى السفر إلى الكفر فقلت: لا قام برهومة وضربنى كفا هزيلا على صدغى وأنا ساكت أنظر إلى أبى وأنتظر رده لكنه قال فى حذر:

- مالکش حق يا برهومة، هو عمل إيه بس.

جعجع جدى كثيرا لكننى لم أهتم به، ظلت ساكتا بلا جواب خرج الضيوف وبقينا وحدنا، أنا وأبى وجدى وبرهومة، أخرج برهومة عقد بيع أطيان وناولته لى، قرأت فيه أن ميراث أمى أصبح لى بيعا وشراء قلت لنفسى: فرجت، الآن اعترفتم بوجودى، قال جدى وكأنه يصلحنى بالكلمات الجافة:

- وشرطنا لك يا هبل يا بن الكلب على زكية، وإن مامشيتش أقل من ذلك تقطم رقبتك.

أخذت أبى خارج الحجرة، أفهمته أننى أفضل العودة لأنهم سلموا بما طلبت وأنهم سوف يغيرون معاملتهم معى، خاف أبى من أن يكون فى الأمر خدعة فطمأنته قائلا أننى لو ظلت أشتغل هنا طوال عمرى ما ادخرت ثمن فدان واحد وأن ما أطوله أحسن من حبات عيونهم.

كان أبى غير راض عن ذلك الرأى، بان فى عينيه شىء من الكراهية لى والذعر منهم، قال لجدى وهو مستسلم تماما:

- مادام يرتاح هو حر.

قلت لنفسى إنه أسلمنى لهم دون أن يجعلنى عزيزا، وكان من الواجب أن يتظاهر بأنه سوف يصر على بقائى ليعرفوا أن لى أبا يدافع عنى ويفتح لى بيته فى أى وقت، صحيح أن عودتى إليه ربما لا تحدث إنما كان الواجب أن يجعلنى عزيزا عليهم قدر الإمكان ولو بالكلام.

لما قمنا للسفر لبس بنطلونه الأصفر وسترته الصفراء فبدا لى كحاجب المحكمة أو فراش المآتم، يحمل سبتا وضع فيه بعض الفواكه وقمع السكر وقطع الصابون ويمشى خلف جدى وكأنه تابع راض عن تبعيته، رفض جدى أخذ السلال منه إنما برهومة أشار إلى بأخذه ولا أعرف إن كان من باب عدم إحراج أبى

أو أنه جعلنى آخذه لنستفيد به، وفى القطار قال جدى عنه أنه أهبل وإنهم ضحكوا عليه وأخذوا ماله وصرفوه ثم أخذوا منه شوق أيضا وأنه سيظل طوال عمره سواحا فى بلاد الغربية، وأنه سيظل تائها إلى أن يموت فى الغربية لأنه اختار ذلك ورضى به جاهلا كيف يطالب بحق من حقوقه فى هذه الأيام التى لا يعيش فيها إلا الأقوياء القادرون على أخذ حقوقهم وحمايتهم.

وأصبح لى فى الدار حس بعدما كنت موجودا كعدمى، شعرت بأن لى سعرا بعدما كنت بلا سعر، عندما باعوا القطن جهزوا المندرة الصغيرة ودخلت على زكية، عرفت يومها أن جدى أحسن لى من أبى سايرت الرجل الكبير ففتح لى قلبه وعاملنى بالحسنى، لم يعد ينظر إلى تلك النظرة القديمة على أننى مجرد صبى بلا أهمية، صرت فى عينيه رجلا له رأى فى الزرع والحصاد ونظام الدار، بدأت أحتل عنده مكان برهوم، كان برهومة يزداد ضعفا وإصرارا على الفساد، الحشيش والحريم والسهر دون حد معقول، كان الصراع قد بدأ بينه وبين الرجل الكبير بسبب علاقات برهومة المشينة مع مقاطيع الكفر وسهراته غير المناسبة فى دور مشبوهة، كان إسرافه يزداد وتكثر حوله الأقاويل وكلما نصحه جدى بالاستقامة هز دماغه وسكت استهانة بالرجل أو أطال لسانه وشتمه والرجل صابر عليه ومتحامل على نفسه مراعىا ضعفه البين، لما كان ينفرد بى كان يبدى غضبه عليه وكثيرا ما كان يطلب من الله أن يكون أجله قصيرا، كان برهومة عندما يحتاج إلى الأموال يبيع ما يطوله، البهائم والمحاصيل ويرهن الأرض، واستمر حالة على هذا النحو حتى جاء اليوم الذى رقد فيه عاجزا عن الحركة متهاكاً منهارا على نفسه، ظل قرابة الشهر وجدى رافض حتى أن يوجه إليه أى كلام أو يدخل عليه حيث يرقد بعلته التى حولته إلى عود حطب أصفر وهش إلى حد مؤسف، عندما دخل عليه للمرة الأولى لم يتبادل معه كلمة، نظر إليه مليا وظل مصلوبا فى وقفته ينظر إليه ويتسمع صوت أنفاسه المتلاحقة المنهارة، فى المرة التالية جلس جوار فراشة وزاغت عيناه وهو يهمس فى لوم:

- بقى كده يا برهومة، تعمل ف روحك كده؟

طالت رقدته وفقدنا الأمل فى أن يعود كما كان، كل ما طلبه كنا نجيبه إليه وكان معروفا لكل من بالدار أنه ضيف راحل عنا فى غد قريب وعلينا إكرامه، لما

طلب أن يرى أبى سافرت إليه المحلة وعرفته بأن خالى صحته متأخرة ويطلبه، قلت له إن الحكيم قرر أن أيامه فى الدنيا قليلة، عندما دخل عليه أبى كان وجهه أكثر احتقاناً وزرقة، شاف أبى بالعينين وربما لم يدرك بالعقل أنه أبى، لما أفاق مد يده إلى أبى وأمسك يده وكلمه عن الأرض، عن ضرورة عودته إليها مهما كانت الظروف، قال لجدى إنه لن يرتاح إلا إذا عاش أبى فى داره وأن الدنيا لم تدم لأحد والأرض خابت لأنهم ظلموه، لعن أمه الواقعة وقال إنها السبب فى كل شىء بعدها لم يتكلم كلاماً موزوناً، كان يخرف وسطنا وروحه تأبى أن تخرج بهدوء، ومرت الأيام الثلاثة التى غاب فيها عن وعيه وجاءت اللحظة التى خرج فيها السر الإلهى، كانت مبروكة تصوت وأبى واقف والدموع تتساقط من عينيه متلاحقة وكأنه «حرمة» عاجزة عن السيطرة على عينيها، وجدى جامد الوجه والبدن كصخرة لا تهزها الأحداث وعيناه لا تطرفان، نظرته ساهمة مفجوعة إنما صلبة وحتى عندما انسالت الدموع من عينيه غصبا لم ترف عيناه وكأنه يأبى الاعتراف بالدموع ويرفضها أما أبى فكان يندب ويهز البدن الراقد ولعابه يسيل على شذقيه كأنه مجنون، قلت لنفسى: أنه من الممكن أن يكون كل هذا مجرد افتعال مصنوع أثر ما قاله برهومة عن الأرض وضرورة أن تعود المياه لمجاريها، أى أن يعود أبى إلى الدار والأرض التى لعنها، أن يرث الأرض التى تركها كل هذه السنوات ويشاركنى ابنه من شوق فى الميراث، سألت روحى إن كان يستحق وكنت أحسب أنه لا يستحق فى أرضنا شبرا لأنه فاتها وكأنها لا تستحق اهتمامه واستماتته من أجل شبر منها ربما يبيعها ويصرف ثمنها على الحریم، «روحية» الثالثة بعد أمى وشوق تبدو حويطة وغويطة، تضيع الأرض لقاء بعض الدموع والكلمات المحبوبة، ووصية رجل فاقد لوعيه وغارق فى حمى المرض حتى شعر رأسه، لما كان فى وعيه لم يفكر إلا فى نفسه.

قالت مبروكة وعلى رأسها طين تيبس وعلى وجهها حسرة:

- شمتوا الحبايب والعدا فيك يا جدع، مين يسقى غيظك يا جدع، قولوا لابوه مالوش ولد، قولوا ماعادلوش سند، راح الولد، راح السند والدار خراب بعد الولد.

كانت تندب وكان أبى مدهوشاً من الكلام الذى يعنى بالنسبة له الكثير،

إنكاره والتشكيك في وجوده، وجدى ساهم وكأن ما يدور حوله لا يخصه، في الخميس الأول وزعنا الرحمة بكثرة على المقرئين والطلابين حتى فاضت، قالت النسوة لجدتي مبروكة التي شالت سبتا فيه بقايا الرحمة في اتجاه الدار إن دخولها الدار ببقايا الرحمة لا يبشر بخير فربما يعنى موت واحد من رجالها، زوجها أو ابن بنتها لكنها بدت كما لو كانت قد تعمدت أن تدخل الدار بشيء منها، عندما فقدت ابنها لم تعد تهتم بشيء، لو مات رجال الكفر ما هزها أو حرك فيها شعره، أعطت أبى حفنة تمر من سبت الرحمة، لم يكن قد فكر إنها تمنحها أياه ليأكلها فوضعها جانباً، أمسكته من خناقه وراحت تصرخ:

- خايف على عمرك يا حسن، خايف م الموت يا ضنايا، عايز تورث يا خويا ف الغالى، عايز تضيع الأرض على النسوان.

كان أبى محتاراً وعاجزاً عن الجواب، لم يكن يتوقع منها عراكاً في مثل هذا اليوم، في صباح اليوم التالي سافر أبى بعد أن عارك جدى ومبروكة، خرج من الدار غاضباً، قالت مبروكة إنه كان ينوى بيع الأرض وصرف ثمنها على الحريم، قالت إن خراب الدار سيحل لو بقى في الدار وأنه لو ورث زمام الكفر لضيعه، استشهدت بزواجه الثالث من روحية وإمكانية أن يخلف منها هي الأخرى في أجل قريب، أشارت على جدى بأن يكتب الأرض باسمى لكنه كان تائها وغارقاً في همومه لدرجة جعلته عاجزاً عن الموافقة أو المعارضة.

* * *

آخر مرة شفت فيها سيد مصادفة، كان عند الكوبرى مع سعاد بنت شلبى، أخته من شوق، قال وهو يدارى خجله إنه فات على الدار ولما لم يجدنى ترك سلاماً وخرج، عرفت أنه ينتظر عربة يركبها في طريقه إلى مصر، هكذا دائماً نراه صدفة أو يأتى ليطل علينا ويسرع بالسفر ولما تكون الإجازة طويلة لا نراه، نسمع أخباره من الناس، أحس بالعار من بقاءه عند أمه وعدم التفكير في المجيء في كل مرة يقول إنه ينوى المجيء إلينا مخصوص، هو حر، وهل مجيئه يفيدنا في شيء، وهل طالبناه بشيء ليتهرب منا على هذه الصورة، لا يربكنى في الأمر إلا كلام الناس، الناس لا تترك الواحد في حاله، أن يزور أمه شيء لا عيب فيه، إنما العيب أن يجعل دار جماعة شلبى مرساة فيها يبيت ويبقى وإن زارنا فمن باب المجاملة وأداء الواجب، في الكفر.

أحس بالخرج من كلام الناس، يسألوننى عنه وكأنهم يعايروننى بوضعه، كأننى مسئول عن تصرفاته، هو حر، دارنا مفتوحة إنما لا يمكن أن أجبره على شيء، علموه فى المدارس أن ينسى الأصول، أن ينزل كفر عسكر دون أن يدخل دار جده عبد القادر إلا من باب أداء الواجب، كأنه من جماعة شلبي، يجهل ما يقال عنه، أبى نفسه لا يرتاح لدخوله دارهم، شاكراً دائماً معه، ما إن ينزل الكفر حتى أسمع أخباره مع شاكراً، كان مع شاكراً فى السوق كان مع شاكراً فى الدار، كان مع شاكراً فى مندره شلبي.

أخذنى سيد من يدي وابتعد عن أخت شاكراً، همس فى أذنى سائلاً:
- شفت أبوك يا صالح؟

قلت وأنا أشعر بخرج لأننى وعدته بزيارته ولم أذهب إليه:
- والله يا سى سيد انشغلت فى الأرض ومملكتش أروح.
- طب يا صالح، بس ابقى روح شوفه، لما أكون غايب تكون أنت مكانى، عايز أعرف أخباره منك.

قلت لنفسى إننى أذهب إليه فأجده ملوياً بدون أسباب، وأنه يجعلنى أشعر أنه غريب عنى، يقوم بواجبات الضيافة وكأننى غريب عنه، لا أشعر أننى فى دار أبى، أخرج بعارى ولا أجد مبرراً لمعاودة زيارته، بعد كل محاولتى معه أن يأتى ليعيش فى الكفر لم أجد لديه إلا الرفض، الرفض ليس من أجل شيء إلا إشعارى بأنه يرفضنى أنا، يرفض الاعتراف بأننى ابنه، كلما حاولت الاقتراب عنه ابتعد وكلما حاولت الابتعاد عن سيد اقترب، قال سيد:

- إيه سرحان ف إيه يا صالح؟
- ولا حاجة، ما أنا كنت مستنى نروحله سوا.

ضحك وسلم ولما طلبت منه أن أوصله شكرنى وقال إنه لا لزوم للتعب وأشار إلى البنت، فى الدار وجدت زكية وسط البنات لما شافتنى قامت وتبعتنى إلى المندرة، قالت:

- أخوك سيد كان هنا، بص وهو واقف ومشى مع أخته الصغيرة، بيقول مسافر بيها مصر.

قلت:

- شفته.

قالت:

- هو عامل كده ليه، وأنا بقيت ف نص هدومي م الخلق. دا مرضيش حتى يقعد يشرب كباية الشاي.

أضافت:

- الواحد بقى ف نص هدومه من عمايله، دا الغريب يراعى كلام الناس، ومحمد ابنك مسك فيه ما فيش فايده.

قلت لنفسي إنه عرانا من كل ما سترنا أمام الناس، إنه لو كف عن المجيء إلى الكفر يكون أحسن، قلت لنفسي إنه حر وأنتى لن أطلبه بلساتى، لن أحاسبه على أفعاله ويكفى أن يحاسب هو نفسه فليس جاهلا، كل مرة يعد فيها ولا ينفذ وعده، ربما لا يجدنى من مقامه، مقامه ابن شلبى الذى خاب من المدارس أما أنا فمهما كنت فى نظره فلاح، مرة قال وهو يضحك:

- والاجازة الجاية أقعد عندكم لحد ما ترهقوا منى.

من علمه أن الأخ يزهرق من أخيه، صحيح لسنا من أم واحدة إنما الأم ماعون، المهم العصب، سيد قلب الآية، اهتم بإخوته من الأم وأهمل أخيه من العصب، ربما كان أبى هو الذى أوصه بذلك، إنما الرجل لا يرتاح لدخوله دار شلبى، لو عاش أيام أجازته معنا يقطع السنة الناس، هو يدخل الدار كالخيال ثم يخرج حتى فى المرات القليلة التى يبقى فيها ليلة أو ليلتين يجعلنا نتعلق به ثم يهرب، كلما حاولت الإمساك به يهرب، كأنه خيال أو وهم أشعر بالراحة لما يأتى، أمشى معه مرتاحا ورافعا رأسى أمام الناس «هاهو سيد حسن عوف يا كفر عسكر، ابن من تاه فى بلاد الغربية، ابن حسن الذى عايرتوني به طوال عمرى، هو أخى، أفندى مصروف عليه ثقله، دخل المدارس والجامعة وأصبح أستاذا بحق، له وزن وهيئة وقيمة ومقام، سيد أخى يا كفر عسكر فهل فيكم من يقدر على إنكار أن جماعة عوف فيها أساتذة يفوقون أولاد شلبى، حتى سيد الذى خرج أبوه من الكفر بلا شىء رباه وعلمه وأصبح كما ترون».

لو لم يكن الماضى منصوبا بينى وبين أبى، لو لم يكن الرجل صلب الرأس

عنيذا لأصبحنا أحسن دار في درب الحاج عوف، سنوات ويتم عبد القادر تعليمه ويلحقه محروس، سنوات وتصبح دارنا مزحومة بالأفندية، أحسن من دار العمدة، إنما أبي لا يسمع الكلام، سيد قال له مرة: اتسوا الماضي وابدأوا من جديد، كان يرغب في تصفية الجو، قلت لنفسى ساعتها اننى مستعد لذلك بل إننى كنت لا أحلم بغير ذلك، إنما أبى كان يلوح لى بما جرى، يذكرنى بغطتى الوحيدة ويلوح لى بالأيام التى كنت فيها فى نصف وعيى، وأعود مرة أخرى، راجعا من أمنيات نسجتها إلى حقيقة ما يدور حولى، هاهو أبى يرفضنى بإصرار، يرفض أن يصدقنى، وأخى يحاول جهده أن يردم على الماضى، لو كان أبى وحده لما عاملته، فى كل مرة يسترجعنى إلى الأيام القديمة، يجرنى لأتكلّم بمنطقها، يفسد كل شىء يفتح جرحنا القديم المشترك، الأرض ميراث كان له وأخذته فماذا يهمه، جدى عبد القادر أعطاه لى، حتى ولو كنت أخذته بالزور فهل أنا غريب، أرض عبد القادر عوف وأنا ابن ابنه.

لما كنت أحاول توضيح الأمر لسيد يطلب منى السكوت، لم يكن يرغب فى سماع حكاية الأرض، كنت أعرف أنه سمعها منى أكثر من مرة لكننى كنت أشعر بأنه من اللازم أن أؤكد له ما جرى، أن أوضح له أن أبى لم يفهم وأنه يحكى على هواه، يدعى أننى أخذتها بالزور بوضع اليد، أحيانا كنت أقول لنفسى إنه لا يصدقنى، إنه يتظاهر بتصديقى ليرتاح، إنه لو كان يصدقنى لجعلنى سره ولجعل دارى مقره، ربما يرتاب فى أمرى، الناس فى كفر عسكر لا يكفون عن الثثرة، ربما أفهموه أن له فى الأرض نصيبا، لو كان له حق ما منعتة، أى حق وهو الآن موظف له مرتب شهري وهو مازال بطوله، الناس فى الكفر بارعون فى إفساد الجو، المظهر لا يهم، مظهره لا عيب فيه، إنما هل أعرف ما فى قلبه؟ الأمور الخفية خفية ولا يعلمها إلا الله، كلام الناس عنه كثير، مرة قال لى نفر:

- دا أخوك سيد ده ناب أزرق.

خفت ساعتها وسألته عما يقصد لكنه لم يوضح أكثر من هذا، جعلنى أشك فيه، أخاف منه، ربما يأتى ليعرف أسرارى، ربما يدبر لى مكيدة، إنما كيف أصدق كلام الخلق عنه، لو كان يسر إلى بما يسمع عنى، يوهموه أننى أخذت نصيبه بأخذى الأرض وحدى، وهل كنت أرفض أخذها وهى جزء من حياتى، بها أعيش

وعلى خيرها أربى الأولاد، بامتلاكها يكون لى فى الكفر سعر، من غيرها أصبح بلا قيمة، هكذا وجدتنى مقطوعا لها ومربوطا إليها، لملتتها قيراطا على قيراط، فككت رهونها وسددت ديونها التى خلفها برهومة، هى بالنسبة لأمثال سيد تعنى مبالغ قابلة للضياع والصرف، من يعرف إن كان مستقيما فى معيشتة فى مصر أم أنه فاسد جاء يبحث عن حق قديم أصبح لا يخصه، ماله بى ولماذا أخشاه ولا أرتاح له تمام الارتياح، ربما بسبب الأرض، خوفا على الأرض وعلى مستقبل الأولاد يزرع الشك فى قلبى، لما طلبت منه أن يعود أبى إلى الكفر وافقتى بسرعة، كأنها فكرته ونيته المبيتة، أخذنى إليه بعد أن انقطع حبل الوداد بيننا لسنوات طويلة والرجل لم يوافق، عندما زرته فى المولد قال إن سيد فاسد وأن سيره لا يعجبه، قالت امرأته الجديدة إنه لا يهتم بهم كما كان يفعل، أنه لم يعد يدفع لهم شيئا، ومرة قال فى نفر من الكفر:

- دا سى سيد أخوك داير على حل شعره ف مصر، ابن خالى راح شقته لقى فيها واحدة ست وحلف إنه شافه سكران، دا كافر.

أمسكته من زنده وقلت ساعتها:

- وراس سيدى عبد القادر لو كلمة طلعت من حنكك ليكون بحش أجلك، حسك عينك تتكلم عليه قصاى.

يومها كنت أشعر أنه من الواجب على أن أحميه من كلام الناس، لم يكن أول من يكلمنى عن سيد بمثل هذه الأشياء، يشرب الخمر، يعاشر النسوة، لا يصلى، صحيح أننى لا أصلى إلا فى المناسبات وأنا حامل كتاب الله، إنما هو لا يصلى حتى أيام الجمع رغم أنه لما ينزل الكفر يكون محطا للأنتظار. يحسبون عليه خطواته، ربما تؤكد شكوكهم فيه أحاديث الناس عنه، يكونوا فى حالهم، يصلى أو لا يصلى فهو أمر لا يخصهم، يحاسبون الناس ولا يحاسبون أنفسهم، يأمررون الناس بالمعروف وينسون أنفسهم، كفرنا غارق فى الذنوب، الخير فيه قليل والشر زائد، حريم الكفر يتظاهرن بالعفة وفى الدور تسترهن الجدران وفى الحقول تسترهن أعواد الذرة وعتمة الأمسيات، أكثر من دار معروفة يلعب فيها رجال الكفر القمار ويتباهون بالسهرات، مقاطيع الكفر يتكاثرون ولصوصه يتزايدون، دار شفيقة ودار زبيدة وعدلات أوكار للفساد، القمار والحشيش وأحيانا راحة الرجال فى أحضان النسوة، ما لهم بنا، جدى عبد القادر كان يصلى فى

الأعياد وقلمما كان يصلى فى أيام الجمع فهل كفر هو الآخر «إني لن تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء» وكما يقال إن الله أدرى بما تخفى الصدور، وأنا هل يقال عني بالمثل إنني كفرت، هل يكفر الواحد لو كف عن أداء فرض الله؟ الصلاة عماد الدين وأنا حامل لكتاب الله ومن نسل الحسين فهل سقطت عني الصلاة؟ أليس الله غني عني وعن صلاتي وصيامي، ربما كنت عاصيا وربما كنا نسل شياطين وحكاية نسل الحسين خدعة اخترعها جدنا الكبير ليداري بها خفاياه، بنى الجامع والزاوية واتشغل في أمور الدنيا، والحشيش هل هو حرام مثل الخمر، ولو كان حراما فكيف يسمح الشيخ مرعى لنفسه بتدخينه؟ كلها أمور خفية، أعرف أن الله غفور رحيم، كلما فكرت في هذه الأمور يخف عقلي، أوشك أن أتوه عن الدنيا، أن أسبترسل في هذا التفكير حتى أشرف على الضياع التام في منطقة بين الكفر والإيمان فأهرب بنفسى مستعيذا بالله من الشيطان الرجيم قارئا «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ {١} مَلِكِ النَّاسِ {٢} إِلَهِ النَّاسِ {٣} مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ {٤} الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ {٥} مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ {٦}».

* * *

بعد موت برهومة زادت هموم الدار، حامت حولها الغربان وعشش الغم في الجدران، تحولت الدار إلى مندرة نتلقى فيها العزاء طوال النهار وجزء طويل من الليل، داستها نعال الخلق العدو والحبيب انكشف ما كان مستورا، حتى أولاد شلبي جاعوا لم يتخلف منهم نفر، توافد الناس على مدار الأيام وانهدت قوانا من تلقى العزاء، أحيانا يسألون عن أبى ويستنكرون غيابه عن الدار في مثل هذه الظروف وجدى ذاهل عما يدور حوله، كلما جاءه وافد يعزیه تنحدر من عينيه الدموع، تتزايد عندما يذكرونه بأبى، وشاعت في الكفر حكايتنا «عبد القادر عوف بكى يا رجال، راحت الجسارة وخفت الصوت العنيف وحل السكون المهموم على ملامح الرجل الكبير» في أول الأمر لم يكن من السهل أن أكلمه في شيء، كنت محطوطا في جو الغم ومغموما بفعله، تهت في زحمة الأنفار وذابت كلماتي وسط الهمهمات، ولما لاحظت حمرة العينين في اليوم العاشر قلت له:

- ارحم نفسك

فنظر إلى وبكى بحرقة، قلت:

- الأعمار بيد الله

فانسالت الدموع، لم يكف أبداً، ظل يبكي بلا صوت، أنصاف الكلمات التي تخرج من بين شفتيه جعلته يبدو مختلفاً تمام الاختلاف، وكأنما أصبح الرجل فرجة لكل من يراه، قلت لنفسى إن من يأتون لا يأتون من أجل العزاء وإنما لرؤية الرجل فى وضعه الجديد، إن الدموع التي عزت عليه طوال العمر جعلتهم يأتون، خزين عمر الرجل من الدموع ينسال ويزيح عن وجهه كل أمارات القوة والقدرة القديمة، يشيخ هكذا ويبين عليه الكبر الذى دارته القوة أعواماً بطولها. لو يكف الرجال والنساء عن المجيء ربما تخف الأحزان، لو كفوا عن ذكر برهومة ربما تروق عينا الرجل وينتبه لنفسه مرة أخرى، لكنهم داوموا على المجيء وشاركوا فى الأحزان بالمظهر بينما يرقبون الرجل بالعينين كل معز بدوره، وعندما تغلبنى الأحزان أتوارى بعيداً عن الخلق حتى لا تتم المهزلة ويلمحوا دموع الحسرة على ما صرنا إليه، جدتى مبروكة تتصدر مجلس الحريم، تنصب المندبة وتسبق الندابة فى النواح والتعديد على برهومة، تلطم الخدين.

قال الجد إبراهيم لأخيه:

- فوق لروحك يا عبد القادر، شوف أحوالك الأربعين فات ولا لزوم للاستمرار فى الأحزان.

كان جدى يتسمع والدموع تتساقط على لحيته التي تركها تطول فبانت الشعور البيضاء أكثر من السوداء مؤكدة أنه شاب، كان صوته المنهوك مصحوباً ببحة غريبة تخرج مع الكلمات المتقطعة فتجعلها غير مفهومة وغريبة على الأذان، وعوده ربما كان هو إنما انحنى واستسلم لانحناءة لم يكن معتاداً عليها، وأسأل إن كان قد انحنى بسبب برهومة الذى لم يتوقع موته بمثل هذه السرعة أم أنه انحنى ليزيد فينا شماتة الأحياء.

أصبحت دارنا خراباً وجفت الأشواق، حتى المواشى جفت وما عادت تدر الحليب، وكرم البلح لم يطرح وكأنه عاندنا هو الآخر وكلما نزلت إلى الأرض حسبتها أكثر سواداً وغلظة، كأنها اسودت بالحزن هي الأخرى على ما صار، جفت ليس فقط لانشغالنا عنها بل أيضاً لأنها شاركتنا حزن الدار. والطين المتيبس فوق غطاء رأس جدتى المشدود على جبهتها بالطرحة السوداء أصبح علامة لها

تتوج به نفسها وكأنها تقول لكل الناس إن النهاية المحتومة لأمثالها لا يمكن أن تنتهى إلا بتاج الطين، رفضت أن تزيله لما طلبت منها زكية أن تفعل، رفضت أن تستحم، قالت بتصميم لا يقبل النقاش: فى الميعاد. حسمت أمرها على أن يستمر الحزن عاما بطوله.

وكان علينا أن نحتمل، حتى لما ولدت زكية لم نشعر بغير العار فالطفلة التى كانت تجعل للدار حسا أصبحت هى الأخرى غريبة فى مجالس الهم المتكررة، والولد الصغير كان يحس بما يجرى فى الدار فيخرج إلى الغيطان، يسرح بالمواشى أو يلعب بعيدا ونسأل عنه فلا نجده، كانت مبروكة هى صائغة الحزن وهى التى فرضته على الدار فرضا، كأنها باركت حزن جدى ودموعه وجرفته جرا لأن يستمر كل هذا الزمن وانقاد الرجل لها وسبقها، والشهور تمر ونيدة متأنية والعام لا يود أن يكتمل لينزاح عن الدار كابوس الهم المعشش، كانت عيناه تزدادان احمرارا رغم أنه أصبح عاجزا حتى عن إفراز الدموع، نصب خزين عمره فى الشهور القليلة وما عاد له إلا الصوت المغموم المقهور علامة تميزه عن كل الأصوات. وكلما ذكروا له اسم برهومة انسالت دمعة أو دمعان بعسر شديد وتحولت حدقتا العينين إلى جمرتين ملتهمتين.

كان الولد مصطفى يرمح فى صحن الدار وشافه الرجل، قال وهو يمسك عينه اليمنى بيده:

- بعد عنى يا وله: طرفت عيني.

جاءت زكية لإبعاد الولد، قال هو:

- سيبيه يا بت، دا مش هو، دى حاجة كده دخلت عيني وبتلهب.

نظرت هى إلى عينه وبحثت عن شىء فلم تجد، إنما فى نفس الليلة، بعد آذان المغرب قال:

- ما تولعوا يا ولاد.

كانت اللبة تنير صحن الدار، عيناه تلمعان وتعكسان بريقها وسط الحمرة التى شملت بياض العينين فباتتا عيني نئب جريح، قلت له إن اللبة مشتعلة قال جادا.

- ويتكذب على يا بن الكلب؟

قامت جدتى مبروكة من مقعدها واتجهت إليه، نظرت إلى حبات عينيه وخبطت صدرها بيمينها قائلة:

- مالك يا عبد القادر يا خويا؟ أوعى تكون انعميت.

كانت أول مرة أسمع فيها أو أفكر فى عماه، لم يخطر ببالي إنما الكلمة رجتنى فاهتزت يدى القابضة على كوب الشاي وسقط على الجلباب، اقتربت منه فوجدته يطل إلينا من خلال عيين مفتوحتين عن آخرهما إنما لا تطرفان لم أصدق أنه أصيب بالعمى هكذا مرة واحدة، رفضت ما سمعته قلت وكأننى أدفع عنه العمى بالإلكار:

- يا وليه اخرسى كده بلا تلطيش.

لم يحرك جفنيه، ظلت العينان تلمعان فى ضوء اللمبة ولا تتحركان، ظلت واقفا قبالة حاملا فى يدى اللمبة وفكرت فى شراء مرهم أو قطرة نداويه بها، بعثت إلى صبحى الحلاق فجاء، ترك لنا زجاجة قطرة حمراء فى الصباح كانت العينان كما هما، صوتت مبروكة فى وجهى:

- سيدك انعمى يا صالح، سيدك انعمى.

كان الصوت كئيبا ومخيفا وحاسما فى آن واحد، صوت واثق لا يقبل النقاش، كأنما تراهن على صدق ما تقول على حساب نور عينيه، أبعدتها عنى قائلا:

- انكتمى يا ولية.

لكنها ظلت تؤكد وتؤكد وتسرد الحكايات عن فقدان النظر فى ظروف مشابهة أثر ضياع الولد أو الأخ، وحتى لما كان صبحى الحلاق يضع له المرهم كانت تصوت:

- خلاص يا عبد القادر، خلاص يا خويا، انعميت، انعميت وقعدت زى البسيونى وأم إبراهيم؟

وهو جالس فى مقعده لا يتحرك ولا ينطق بحرف، كأنه أسلم نفسه لها أو عاش فى عالم غير عالما: بهدوء رهيب وتقاطيع صارمة لا تلقى أدنى اهتمام بما يدور، كأنما اللسان توقف هو الآخر أو تأكد من لا جدوى الكلام، وكأنما الأذنان

كفتا عن السماع، البدن كله قاعد فى اعتدال لا يكتمل بفعل الانحناءة التى أصابته مؤخرًا. فجعلت منظره كله يبعث على الإشفاق، للمرة الأولى منذ فتحت عيونى لأراه أشعر ناحيته بالإشفاق، طوال عمرى لا أشعر بغير الخوف منه ومن قوته، وحتى يوم واجهته كنت أتخوف منه وأتوقع حذرا أن ينالنى بأذى، كان الإشفاق أمرا جديدا لم أعمل حسابه، جديدا على الوجه الصارم والبدن الواثق الذى عرفته كل عمرى، ولم أكن راضيا بتصديق شىء، كل ما وصفوه عملناه ولم يثمر، ولما جاء الحكيم من البندر لم يفلح علاجه، قلت نذهب به إلى حكيم مشهور فى مصر. يومها قال لى:

- ابقى مشى جنبى يا صالح ومتخليش حد يلاحظ.

ومشيت جنبه حتى ركبنا وأنا أحس أن كل العيون تنصب علينا مؤكدة أنها تعرف الحكاية، والحكيم فى مصر همس فى أذنى بأن الأمل ضعيف فهزرت الرأس وعدت به إلى الكفر وسط عيون مستطلعة عارفة وهمسات شامتة أو مدهوشة أو محزونة على الرجل على عبد القادر عوف سيد رجال كفر عسكر، «لم تتفكك الدموع الذى مات ارتاح فى مرقده، وأنت مازلت تدب الأرض بالقدمين العفيتين إنما لا ترى عدوا أو حبيبا، قتلت فيك القدرة أحزان كانت بلا معنى ولم تكن تليق بك يا سيد الرجال، ربما استرسلت فى البكاء حزنا على دموعك فبكيت، استرسلت فى إفراز الدموع بعدما سقطت غصبا عنك دموع، بكيت انهزامك أمام الموت لما عجزت معك الحياة، ربما لأنك تذكرت وحدتك فى نهاية الأمر بعد موت برهومة وموت عبد الحميد قبله وابتعاد حسن، تذكرت وحدتك وسط أخوة تتزايد خلفتهم وأنت وحدك تتناقص أنفاس الخلفة فى دارك».

فى التاريخ الذى حدده الحكيم أخذته وذهبنا، بلسانه قال إن الأمل ضعيف ورغم ذلك دفعنا له ما طلبه ثمنا لإجراء العملية على أمل أن يعود إليه البصر الضائع، ولم تثمر الأحلام، عاد كما كان كفيف البصر مجروح المشاعر، جلس على دكة النورج وسط الدار، كف عن الكلام إلا الضرورى منه، ولما شكوت له الحال وعدم أمانة الأنفار قال بانفعال:

- روح لأبوك يا صالح، هاته يسندك ف الغيط والدار.

قالت مبروكة:

- خلى أبوه فى حاله، هو فاضى إلا للنسوان.

ولأول مرة يحتد الرجل بعد عماه، طوح عصاه ناحية الصوت وتعث فى خطواته ناحيتها، كان يلغنها بتصميم وكراهية:

- اخرسى يا بنت المراكيب، يا صنف واطى، حد سالك يا مسحوبة من لسانك.

أجلسناه غضبا وحاولنا تهدئته لكنه لم يهدأ، ظل يرمى عليها مسئولية خراب الدار وتشتيت أولاده وحتى أبى الذى لم يكن راضيا عليه فى أغلب الأحوال بدا راضيا عنه كل الرضى ناسيا أخطاءه وتركه للدار، لئلا جدتى مبروكة وجاعلا منها السبب الأوحى متمسكا له أعذارا جديدة، قلت لنفسى إنه لما فقد برهومة راجع نفسه فقرر أن يتشبث بوجود أبى ردا على ما كانت تقوله مبروكة من أنه فقد الولد وأصبح بلا سند، قال وهو محتقن الوجه:

- تبع لأبوك مرسال ييجى وأنا لى كلام معاه، فاهم ياولم؟

كان مغلولا بصورة لم أشهد لها قبلا، عيناه الكفيفتان تلمعان ببريق عنيد ملء بالإصرار والحماس.. قلت:

- حاضر، أبعت له.

جدتى مبروكة لم تكن مرتاحة لكننى كنت مجبرا على تنفيذ رغبة الرجل، لما جاء أبى واكتشف ما جرى لجدى جعل ينهه ويبكى، لكن جدى استعاد قدرته الأولى وصلابته وراح يربت كتفه مهونا الأمر قائلا إنه لم يعد له من الدنيا مطالب وأنه شبع منها، الأمنية الوحيدة هو أن يراه فى الدار، أن يحس بأنفاسه مرة أخرى، أن ينصلح ما كان فاسدا وتعود المياه لمجاريها كما قال برهومة، أن تظل الدار مفتوحة بحسه.

قال أبى فى يوم سفره:

- يومين بس على ما أحول أوراق الولد لمدرسة البندر.

قلت لنفسى يحول أوراق ابن شوق ويعلمه فى المدارس بينما لم يسأل عنى ولو برسالة، تركنى لهم أطفح الدم ولما رحت له خاف منهم وسلمنى لهم، يأتى وتعود المياه لمجاريها، تصبح الأرض له ويورثها لابنه الأفندى تربية المدارس

ولأولاد روحية الذين يخلفهم على مدى السنوات التالية، يصرف على ابن شوق من كدى وعرقى وهو جاهل فى أمور الفلاحة وسوف يجلس فى الدار عمدة مثل برهومة، لم أكن بقادر على قول شيء إنما أبى لاحظ عدم ارتياحى لفكرة جدى فسألنى:

- رأيك إيه يا صالح؟
- وأنا لى رأى فى الكلام ده برضه.

وتركتهم وخرجت. ولما عدت عرفت أنه سافر لتحويل أوراق سيد وشحن الفرش لكنه غاب، وكان الرجل يبدو قلقا ومنطويا على نفسه، خالصنا ولم يعد يكلمنا لإحساسه بعدم رضانا عن تصرفاته الأخيرة، كان لا يود أن يتبادل معنا أى كلام، ظل ينتظر ولما يلقى يتوكأ على عصاه ويطلع إلى السطح دون أن يفكر فى الاستعانة بأحد منا، لو كان ابنى مصطفى موجودا يطلب منه أن يقوده، لكننى فى صباح يوم من الأيام قمت مفزوعا على صوت هبدة رجت الأرض، تلتها صرخة أو أنه خافتة فتحت عيونى فتسمعت الأنين، بعد لحظات سمعت صوت جدتى مبروكة تنادى:

- يا وله يا صالح.. إلحقنى بكوز ميه.. سيدك وقع ع الحجر وبيلقف.

أسرعت ناحيتها فوجدته مرميا على حجر الطاحونة القديمة والمركون تحت السلم، كان الدم ينزف من كوعه الأيسر وركبته اليمنى وكان يجاهد باستماتة أن يقوم فترتعش أطرافه وتخرج من حنجرتة أنصاف آهات متلاحقة مستجيرة، سنده فلم أجد عزمه قادرا على مساعدتى للانتصاب به، كان علينا أن نحمله، وضعناه على مرتبة مفروشة فى أرضية القاعة، بعسر شديد كان يأخذ أنفاسه ويتحسس سلسلة ظهره، كان يئن أنينا موجعا ويتحسس ظهره، اقتربت منه مبروكة وراحت تلطم خديها وتسال:

- عبد القادر، إيه يا خويا اللى مطلعك فوق الساعادى، دى وقعة موت يانصرى، دى وقعة موت.

لم يكن بقادر على إسكاتها أو أخذ أنفاسه، ولما قربت من فمه كوز الماء أزاحه بيده وألقى برأسه على الوسادة وعلى الوجه آلام مكتومة، ربما كتمها بنفسه وكز على أسنانه فى استماتة وإصرار على عدم الشكاية بالآهة أو بالكلمة.

ولما راح فى إغفاعة تركناه قالت جدتى مبروكة إنه سقط على سلسلة ظهره على سن الحجر وأنها لما شافته وجدته يجاهد أن يستدير وأنها سمعت عظمة الظهر وهى تنتقل من مكانها مؤكدة أنه سوف يموت خلال أيام قصيرة، سمعناه فى الليل ينادى بصوت جريح متقطع ونصف مدرك:

- يا ولاد.. اسقونى يا ولاد.. اسقونى.

ناولته زكية كوز الماء فكان يعب منه عبا بينما ينحدر من كوز الماء خطان نحيلان عبر الأشداق فى اتجاه اللحية التى طالت وازدادت شيئا. عندما ارتوى رفع رأسه عن الكوز وتجشأ ثم جاهد أن يعتدل فى رقدته فعجز، ساعدته ليرتاح فسمعت صوته السائل:

- أبوك ما جاش يا صالح.

قلت:

- لا.

سكت، كأنما أغلقت بنفى مجيء أبى كل الأبواب إليه، مص شفته السفلى ثم أغمض عينيه وكأنه يطردهنى ويطلب منى أن أتركه وحيدا، وفى صباح اليوم التالى بدأ يئن فى خفوت منهار كأنه انهزم إلى الحد الذى جعله يرتضى بالآئين، تماما مثلما بكى فى موت برهومة واسترسل فى البكاء بدأ الآئين واسترسل فيه حتى لما زاره الرجال الكبار أمثاله لم يشعر بالعار لأنه يئن ويتوجع على مسمع منهم، كأنه خلع عن نفسه ما تبقى له من برق الحياء وتوقعت منه لما زاره الجد إبراهيم أن يطلب خروجى ليسر إليه بكلام لكنه لم يفعل، بل إنه لم يسأل عن أبى، حتى لما جاءت سيرته دعى له بحسن التساهيل والستر، ولما خرج زوار الصبح سألتنى:

- بقى ما تحصلش أبوك.. كده برضه؟ كان نفسى أسمع صوته قبل ما ودع.

قلت متحمسا دون أسباب:

- أبعت له تلغراف م البندر.

كانت نبرات صوته تجعلنى أحس بالحزن عليه، وكنت أرغب فى تنفيذ مطلبه الوحيد إنما جدتى مبروكة حذرتنى من سرعة إرسال الخبر ومن وصول أبى:

- سيدك ميت ميت، يعنى هو ح يحوش رجل النعش، ندبر أمورنا وبعدين نبعث له.
 - إزاي؟
 - دلوقت الجو خليك، يعنى نقدر نكتب ورقة الأرض بيع وشراء، الراجل لسه صاحى وأنتم ويايا أهه.
 - يبقى حرام.
 - حرمت عليك عيشتك، عايز تطلع م المولد بلا حمص؟ على كيفك.
 - آمال أعمل إيه؟
 - يا ضنايا فوق لروحك، ما هو لو جه أبوك ومراته وابنه ترجع تمللى زى الأول، تشتغل بلقمتك، هو حيفضل من غير خلف؟
 - دى حستى فداتين أمك متسجلين باسم سيدك وأنت لا سجلت ولا لك لو مات قصبه.
- أحسست بالخوف، بالكراهية لكل من بالدار، لجدتى مبروكة التى فكرت ودبرت ليس من أجل سواد عيوني وإنما ل تمنع أبى من أخذ شىء، ولما كان برهومة حيا ظلت كل الأرض باسمه وكرهت أبى الذى استمر فى العمل فى بلاد الغربية فى انتظار لحظة الميراث الجاهز، وكرهت جدى لأنه لم يعمل حسابى واكتفى بطلب عودة أبى ليرث الأرض ويصرف منها على ابن شوق وعلى زوجته التى كانت حامل وسوف تلد له خلفه يعلم الله عددها، وكرهت نفسى أيضا لأن الشيطان غلبنى وجعلنى أوافق على رأى مبروكة كحل وحيد يضمن لى حقا فى الدار التى استعبدونى فيها سنوات العمر كله، والأرض التى سقيتها بعرقى وجهدى وعزقت طينها بعزم صباى وحملت إليها السباخ لتسميدها بشقاء طفولتى وكل هذا من أجل برهومة الذى ظل يلهو ويعبث حتى مات من كثرة الفساد، ومن أجل الرجل الذى ظل قادرا وقويا حتى بعدما أصابه العمى، وبعدها أعود عبدا مصبوغا لأبى الذى أعرفه ولأخ منه أو إخوة يعلمهم فى المدارس بينما أشقى، كرهت الكل كرهت أمى التى فانت الدار وتزوجت فى وقت كنت أحتاجها إليه، خلفت هى الأخرى وعاشت، وجدى مارس قدرته وقوته فى ضرب الجميع ولم يتركنى لحالى إلا لما شعر بالحاجة إلى. حسبته فى دماغى فوجدت كلام مبروكة فى صالحى.

من سكات كتبنا عقد بيع وشراء باسمى وكان الختم مع مبروكة فختمنا العقد واحتفظت به، مع نصف الريال الفضى القديم الذى ظل، احتفظت بالعقد ثم أرسلت تلغرافا للرجل، لم تمض ساعة حتى تزايدت آهات الرجل، كنت أود أن أخلص ضميرى وأقول له ما جرى، أسرد على مسمع منه دفاعى عن نفسى والسبب الذى جعلنى أطاوع مبروكة فى كتابة عقد كاذب مستغلا رقدته، لكننى كنت أخشاه، حتى فى هذه اللحظة كنت أخشاه غير مصدق أن الآهات والأناث تحصسه أو تقلل من قوته، شهودى على العقد أخذوا نصيبهم وخرجوا، كانت مبروكة قادرة على تدبير كل شىء، دبرت الأمور كلها ولم تترك شيئا للصدفة.

فى الليل تزايدت آهات الرجل وجاء الجد إبراهيم بالكفن فى منتصف الليل أسلم الروح لخالقها فارتاح وفى الصباح جاء أبى وبكى، بكى إلى حد جعلنى أفكر فى مصارحته بكل ما جرى أحسست بالعار من نفسى إنما مبروكة كانت تلحظنى وتفسد على كل محاولة لإكمال التفكير فى هذا الأمر دون أن تتدخل، تقتحم دماغى وتعشش فيه بكلماتها المسنونة الأطراف، ولم أكن أعرف أن كانت هى الشيطان الرجيم أم أنها ملاك بعثه الله لينقذنى من ضياع العمر الآتى..

* * *

ينطفئ شعاعنا الأصيل وتزداد من حولنا العتمة، نصبح غير ما كنا، يجرى الزمن الخسيس فينشر على دربنا عباءة الأحزان حتى الفانوس الذى كنا نضئ به مدخل الدرب وفرناه وتركنا الدرب بلا علامة تميزه عن كل الدروب المحكومة بالعتمة، نجاهد للنفاد إلى البراح، للشعب فى حيز أكثر اتساعا فلا نملك، فى الزمن الفائت كان الزمام براحا يرتعون فيه لكنهم لم يورثونا إلا القليل وحتى ما جاهدت لامتلاكه أصبح بلا قيمة، الأرض التى فتحت عيونى وحسبتها قادرة بطرحها على ستر الدار ناعت بحملها البشرى فى صباى حسبتها تكفى وأنهم لم تفرض عليهم حدود وإنما اختاروها عند المدى الممكن لنا أن نرعاه، واكتشفت الحماقة عندما وجدتها أضيق من جهدنا، وأعجز من أن تفى بالمطالب. كبر الأولاد وأن لنا أن نفكر فى نصيب الولد ونصيب البنت، أن نسال أنفسنا إن كان يكفى لفتح بيت الولد منهم فدان يتيم، مصطفى علمناه صحيح ووظفناه صحيح إنما بعشرة جنيهات، دبلوم التجارة الذى يحمله آخر ما كنا نتمناه فى مشوار

الصراف عليه ومحمد ظل في الدار، أصبح في مثل طولى وأعرض منى وجرو
لسانه على المعارضة والعناد، عينه على الأرض وحساباته تدور حولها.
ومحروس أصغر الصبيان علمناه أو كدنا أن نعلمه إعدادية عامة ومدارس الجيش
كانت ملجأ المختار. أما البنات فما كن يطلبن إلا الستر والجهاز. وهل يجوز أن
يرثن في الأرض ويتركن الإخوة في عسر وضيق؟

فجأة يفيق الواحد من نومه الطويل رغم أنه كان يحسب روحه صاحبيا
وواعيا لكل شيء، يفيق لنفسه فيجد روحه محشورا في زمرة المساكين بحق،
يكتشف أن مستقبل الأولاد هزيل، فقدان الوحيد الذي سوف ينوب الواحد منهم
ربما يساعد واحدا مثل مصطفى لكنه يعجز بالطبع عن فتح دار لولد مثل محمد،
محمد يطلب منا بعناد أن نزوجه تماما مثلما كنت أفعل أيام برهومة وجدى عبد
القادر، عينه على الأرض، على أنصبه البنات يقول بثقة إن أرض البنات له
بالرضى أو بالعراك، أقول لروحي إن فرعنا خاب وأن دربنا كله لم يفلح في
شيء، وسوف تتكرر الحدودة القديمة، يطمع الولد في نصيب الولد والولد في
نصيب البنت وكل واحد يجاهد أن يزرع الحد بعيدا عن حده الشرعى ليعيش.
يكتشف الواحد منهم ضيق الحيز الموروث يسخط، ربما يجحمنى في تربته. ولا
يطلب أيهم لنا الرحمة.

نحكي عن الستر وعدم الفضيحة، سترنا أكذوبة تكلفنا شراء ثوب لدمعير
لزوم حسن الهندام، نتمسح في سعر المتر وأجرة التفصيل. ليقل عنا نحن الله
أننا مازلنا مستورين، أما الفضائح فهي آخر ما يمكن أن تحلق بنا، على الآخر لن
تصل إلى أسماعنا فنحن أولاد الأصول، فما زال لنسل الحسين حق في حسن
السيرة وسلامة الأصل يا كفر عسكر فمن فيكم يا رجال الكفر من نسل الحسين
ليدخل معنا مباراة الأصول؟ أصلنا بشهادة الكل ثابت وفرعنا في السماء، أن يقال
عنا ما يقال دون أن يصل إلى آذاننا فهو مباح، أن يقتل على مشارف كفرنا واحد
منا بيد مجهول فليس في الأمر عار أو مهانة، ألم يستشهد جدنا الحسين ويصبح
سيد شباب أهل الجنة؟ أن يتوه ثأرنا! ويخفى على جهد وكيل نيابة المركز ويفسر
إلى بأنه حفظ التحقيق في مقتل سيد حسن عوف لأن القاتل مجهول شيء بسيط
وليس فريدا في نوعه أن يتعلق أبى حتى هذه الساعة على وهم قدرتى على الثأر
له أو حتى معرفة الفاعل وأعجز عن الفعل شيء لا يعيب، المهم أننا مازلنا ندب

على أرض ورثناها ولم نفرط في شبر منها، امتزجنا بها وراعيناها قدر المستطاع، عشنا على ثمارها وطرحها المبروك، لم نعرف الغش ولا سرقتنا ولا قتلنا الضعفاء ولا حتى دخلنا المركز في تهمة، ومهما ثرثرتم يا هياكل كفر عسكر حول ما أصابنا به الزمان من بلوى فلن تتألوا منا، مهما تراجعنا أو انزحنا غصبا عن مركز الصدارة في الكفر فنحن أيضا أولاد عوف.

قال جدع أفندي ممن يتسكعون على البوابة:

- هو ده صالح عوف؟

لما سمعت الاسم وقفت فسكتوا، ظللت واقفا في انتظار أن ينطق لكنهم ظلوا صامتين، كنت أنظر إليه متوقعا أن يبدأ بالحديث مرة أخرى، همس أحدهم في أذنه فضحك وقال:

- واحنا مالنا، اللي على راسه بطح يحسس عليه.

كانت المسافة بيني وبينهم خطوات، وكانت العصا في يدي عندما لوححت بها رمحوا ماعدا هذا الأفندي، قلت لنفسى: أبطحه هو ليتحسس بطح راسه بدلا من أن يعرض بنا على البوابة، كان طرف العصا قد فتح جبهته وسال الدم وتجمع الخلق وسألوني عن السبب فلم أرد، سألوه فكان صادقا لما قرر ما قاله بالحرف، قلت له:

- حسس على راسك بقى.

وضحك البعض بينما اهتم الآخرون بربط الجرح بشاش من دكان شاكر الذى خرج وجاء إلى وجاهد أن يفهمنى أن الأفندي لم يخطئ في حقى وأنه لم يكن يعينى في شىء وأنى تسرعت وربما كنت أصبته إصابة خطيرة وهو ابن عمه ولولا القرابة ما كان يسكت، أشحت له بيدي قائلا:

- خير ايه يا شاكر، انتوا حتعلقوا المشانق ع البوابة؟ لامم شوية صياح حواليك وفاضيين للتريقة ع الرايح والجاي.

ابتعد شاكر، قلت إنه من غير العنف ماعشنا في كفر عسكر، لولا قدرتنا على الدفاع لداسونا وضحكوا علينا، فى الطريق إلى الدار كنت أسأل نفسى عن البطح الذى قال عنه الأفندي، ربما حالة أبى، ربما موت سيد، لكن سيد ليس

غريبا على شاكر، هو أخوه من شوق فكيف يعايرنى به قريبه، أليس له فى العار نصيب إن كان موته يستحق المعايرة؟

أيام الصبوة كنا نسوق أولاد شلبى أمامنا، هذه أيام خسيصة يتصدرون لنا فى وسط البوابة، العنف أيامها كان عنوانا للجسارة والقدرة واليوم وسيلة للدفاع وإسكات الألسنة المحطوبة، فليات أولاد شلبى كلهم، فليات رجال كفر عسكر بما فيهم أولاد عوف أيضا، فلاكن وحيدا فى مواجهة الكل، الناس لا تتركنا فى حالنا، أما كفاهم ما صرنا إليه أى بطح على رأس لابن الزانية، أى بطح هذا الذى يتكلم عنه، صالح عوف يلعب معهم؟ مالهم بصالح عوف، الزمن دوخ الخلق وهم يتسكعون، زمن أغبر حير الناس، والأفندية ذوو الرعوس العارية يتمسحرون على أسياذ أسياذهم، يتنطعون متجاهلين عارهم المبين، كل رجال الكفر يعرفون حكايات جماعة شلبى وفضائح نسوان جماعة شلبى، ربما كان لكل رجل من رجال جماعة عوف فضيحة تخصه، قد يقولون عن غانم المرابى الكثير تماما مثلما نقول نحن عنه، نحاس دارنا فى حوزته رهن لسلفة، هو أعرف على كل حار بسقطاتهم، فى دماغه سجل كامل عن كل العورات التى انكشفت لحريم جماعة شلبى، ربما كانت حميدة من أقاربك يا شاكر، إنما هى من نفس السلالة، اسمها حميدة مصطفى شلبى، وحكايتى معها معروفة، لولا سيد ما كنت توقفت عن معاشرتها، كنت أعاشرها عيني عينك وعلى رعوس الأشهاد، فى أرضها كنت أمارس معها اللعبة ولم يجرو رجل من أولا عموميتها على فتح فمه بكلمة، عتيقة مجانية من نسلكم يا أسياذ الكفر ركبها صالح عوف، أى بطح فوق رأسى، سلاحى غير المرخص كان يزغرد فى الأفراح وفى ليالى الرى والحصاد، أسكتكم يا من تحملون البنادق المرخصة ولكنكم فى الداخل من أنفسكم جبناء، تعرفون أن أيامكم فى الدرب لن تطول، أنه سوف يجيء الزمن الآخر ونستعيد بالغضب ما ضاع، ولو حتى ظللتم على حالكم فلن يطولنا موكب الأندال والمتنطعين، ربما أجرتم على سيد من يقتله ربما لم يضع دمه هدرا وتتكشف الأسرار يومها ينسى الواحد كل شىء ويحمل سلاحه فى وضح النهار وينتهى كل شىء.

كنت قد أمرتهم بعمل رابية نار وتدنثرت باللحاف، وكانت الرطوبة تنفذ فى العظم، غفلت عيناى بعدما أحسست بالدفء يطرد الرطوبة من المنذرة، فى النوم

رأيت جدى عبد القادر، كان يعاركنى فى المنام، لكنى حاولت الفرار منه يلاحقنى، ينظر إلى بغل ويطاردنى فأرمح، فى يده طفل وليس للطفل ملامح مميزة لكننى كنت أرغب فى أخذه وأعجز، كلما أقرب منه استخدمه فى ضربى بدل العصا، يتحول الطفل فى يده إلى عصا، أسرع الخطو فيلاحقنى بها، أتعثر وأقع وأوشك أن أستسلم فأجد الطفل يهوى فوقى وكأنه حجر طاحون كبير فافز من رقدتى، أهرب، أرغب فى أخذه فأراه معلقا فى الفراغ لا يسقط ولا يختفى، فى متناول اليد وبعيد عنها، أحس الخوف من احتمال سقوطه وتفتته وكأنه ولد من أنثى، أجد جدى يعود، يلتقط الحجر الطفل ويغيب بينما أناديه بعزم صوتى ولا يجيب، يغيب عن الأبصار وأناديه وأحس اختناقا فى صدرى وأئن صارخا بلا صوت، أجدنى مقيدا وعاجزا عن الحركة الطليقة، عن إخراج صوتى المحبوس، أجمع كل قواى فى صرخة: أوعى، أوعى يقع. وعيتها وسمعتها واضحة، صوتى الخارج من داخل سمعته ففزعت، كان اللحاف ملفوفا على ساقى اليمنى بحيث يشل حركتها، نظرت حولى فوجدت الدخان المتجمع فى أركان المندرة جعلها تعوم فى سحباته المتكاثفة، نظرت فوجدت الراكية مازالت تدخن، قمت وأخرجتها من المندرة لأعنا الأولاد الذين سكتوا ولم أسمع لهم صوتا، تناوموا جميعا بعد أن أوشكوا على خنقى بالدخان، خفت من المنام، قلت اللهم أجعله خيرا، تذكرت كابوسا شبيها ليلة مقتل سيد، أحلامى تفسرها الأحداث التالية، خفت على مصطفى، واستعدت بالله من الشيطان الرجيم، لم يكن النوم راغبا فى معاودة المجيء فجلست وحدى، سمعت صوت الكلب يعوى، نفس العواء الجريح ونفس الكلب الغريب، خفت وتجسد فى دخان المندرة وجه سيد وغصبا عنى بدأت أسترجع ما جرى ليلته وحلم الليلة يشغلنى على مصطفى ابنى.

كان الكلب يعوى وكلاب الكفر تنبح وتتجاوب النباح والكلب يعوى، ليلتها نظرت من شباك المندرة فوجدته يقعى تحتها ويرسل عواءه، قلت للكلب: امشى لكنه ظل يعوى، كررتها فكرر هو العواء، أخذت العصا وفتحت الباب واتجهت ناحيته فابتعد خطوتين وراح يزوم ويعوى، اقتربت فابتعد محتفظا بالمسافة بينى وبينه بحيث يصعب أن تطوله العصا. تكررت خطواتى ناحيته وخطواته بعيدا عنى، تناولت حجرا فابتعد أكثر، كان كلبا أسود الشعر فحلا، تبرق عيناه فى

الظلمة وعواؤه الجريح المهان يتردد على مسمع منى ولا يود أن يكف، كدت أطارده إنما قلت لنفسى: أنت مجنون يا صالح لتطارده كلبا فى منتصف الليل، كل كلاب الدنيا تنبح ويستحيل إسكات الكلاب. سمعت عيارا ناريا ينطلق ورجعت متخوفا أن أصاب بمنزلة برد ظالت أثقلت فى السرير والنوم سلطان عزيز لا يجيء، ليلتها تذكرت سيد، هف على دماغى هكذا بلا مقدمات وجعلنى أفكر فيه.

فى الصباح فات محمد عطا بالمواشى، كان براد الشاى يغلى والفظور على الطبلية، ألقى تحية الصباح وعزمت عليه بالفظور، قال وهو يعبر باب الدار تتبعه المواشى:

- يقولوا فيه نفر مضروب عند أول البلد.

سألته من باب العلم بالشىء:

- مضروب بأيه؟

قال مكلا ما قاله دون أن يبدو عليه أنه سمع السؤال:

- دا الدنيا مقلوبة هناك والعمدة بلغ المركز.

لم أهتم، كفر ملعون، كل يوم عركة ووجع دماغ، بدأت فى الفطور، بينما كنت أشرب الشاى وجدت الولد محروس يدخل الباب رمحا، وقف مكانه ينهج، كان الوجه مخطوفا وكأنه هارب من أحد قمت بسرعة أنظر من الباب فلم أجد أحدا، سألته:

- مالك يا وله، جد كان بيرمح وراك؟

سكت الولد فعدت أسأله:

- جرى إيه، كنت بترمح ليه؟

- رحت عند الكوبرى أتفرج، الناس بتقول عمك سيد.. سألته:

- ماله عمك سيد، اتكلم.

- يقولوا هو اللى مضروب عند الكوبرى..

لم أسمع ما تبقى، تناولت العصا ورمحت حافيا فى اتجاه الكوبرى، حسبته يتعارك مع أحد ويمكن أجده ما زال يتعارك وربما أصل قبل أن يفلت من عاركة، سمعت النسوة يتهايمن:

- أخوة إيه يا ختى؟ - دا صالح ابن عوف، أخوه.

عندما وصلت لم أر سيد، وجدت العمدة واقفا وجنبه ابن بهية وضابط المركز وبعض الرجال وجمعا من النسوة فى ركن من أركان الطريق الزراعى. أحسست أننى جريت مشوارا بلا فائدة، احترت فلم أعرف كيف، أرجع، شعرت بشيء من الجرح من نفسى، وقفت مكانى فاقترب منى نفر لا أعرفه وهمس:

- دا مضروب ظرف ف قورته من ليلة امبارح.
- ابن مين؟

نظر إلى واستنكر عدم معرفتى قال:

أنكرت أننى أعرف، جاء آخر وآخر قال أحدهم.
- أنت ما تعرفش؟
- دا سيد أفندى.

ذهلت، كان يشير إلى كومة من الحشيش الأخضر، واقتربت ناحيتها لأرى، منعونى لم أمتنع، قال العمدة:
- دا أخوه يا حضرة الضابط.. اللى بعنا له يتعرف عليه.

خلصت نفسى من قبضة العسكرى وامتدت يدى إلى أعواد الحشيش الأخضر، لما رفعتها ورأيت الحذاء والبنطلون الأسود، أسرعت إلى الناحية الأخرى ورفعت الحشيش وفوجئت بوجه سيد، كان الدم يغطى الوجه ويدارى الملامح وعلى الجبهة وفى الجانب الأيسر ثقب غويط يمتزج فيه الدم بسائل أبيض لعله المخ، العينان مفتوحتان فى ذعر مستسلم والفم ملوى ربما عن آهة أو صرخة أو نداء، تمنيت لو كان ما أراه كابوسا يمكن أن ينزاح لو أفيق وأصحو، إنما كان ما أراه حقيقة، الضابط يجرنى بمساعدة العسكرى والخبراء وكنت أناديه بينما يقوم أحد العساكر بمعاودة تغطيته، كانوا فى انتظار النيابة وعندما جاء وكيل النيابة سألنى وأنا ذاهل إن كنت أعرف له أعداء فلم أعرف بماذا أجيب، لم يكن له فى الكفر أعداء، إن كنت أتهم أحدا بعينه فلم أستطع، قلت لهم لا أعرف، ربما يعرف شاكر لأنه كان أكثر معاشرة له منى إنما لم أقل أى

شئىء، كنت مذهولاً. فى طريق العودة جاعنى أحدهم بالعصا التى نسيتهـا جنب الجثة نظرت إليها ولم أمد إليها يـدى، ما قيمة العصا، كنت قد أتيت لأحميه بها لكن الموت غلبنى وأنهى كل شئىء.

وجاء الطبيب الشرعى وقيدوا الحادث ضد مجهول وقالوا سوف يعرفون الفاعل فالحكومة لا تخفى عليها خافية، ولما صرحوا بالدفن واشترى فتحى كفته غسلناه وظللنا ننتظر الرجل حتى عصر اليوم التالى فلم يجىء، ولما دفناه جاء، وصل إلينا ونحن فى المدافن، كان باب المقبرة مازال طرياً لم يجف طينه، كاد أن يفتحه ويدخل لكنهم منعوه، كان يتحسس بأصابعه باب المقبرة ويسألنى عن قتله، كنت عاجزاً عن الجواب لأن السؤال كان مطروحاً فى دماغى ويحتاج إلى جواب: كنت أتماسك خوفاً من مشاركته البكاء أمام الخلق فى المدافن، هم علمونى أنه من العيب أن يبكى الرجال، من علمهم أنه على الرجل أن ينضح غلا وقهراً ويمتنع على البكاء، من فرض عليهم التماسك فى لحظات المهانة والتهالك، ولماذا انهـار عبد القادر عوف بنفسه وبكى وهو معلمى وكان سيد رجال الكفر كله، وهل من الواجب على أن أصمد فى مواجهة الدموع أكثر مما صمد؟ لكننى كنت أرغب فى البكاء، فى أن أنفرد بنفسى وأبكى على كل حالنا، وربما كانت دموعى يومها فى طريق العودة هى البطح فوق رأسى، هى العار الذى أستحق عليه المعايـرة، إنما من فى الكفر يحتمل كل هذه الأحزان ولا تدمع عيناه؟

كان حياتى كلها مجرد استرجاع يتلوه استرجاع شبيه لذكريات الموتى، أجترها وأمتص لحظاتها المرة، كأنما الموت هو لحن عمرى الحزين غطى على كل الأفراح التى صادفتها فى خلال عنف ضرباته الرتيبة الصاخبة والتى لا تكف، مشدود للموت والأموات بحبال قوية تمنعنى من لحظة أعايش فيها الفرح اليسير وأذكره، الذكريات السود انسدت ستارا إثر ستار يحجب عنى أشواق العمر بأسره، فتحت عيونى فلم أر الشعاع وإنما وجدت العتمة، كأنما الموت هو قدرى وعالمى. لربما كان صدفة أننى جئت فى وقت لأشهد سقوط فرعنا من شجرة جماعة عوف، شاهد مطعون فى جده وخاله وعمه وأبيه وحتى الأخ الوحيد، وربما تدور العجلة وتطوى فى حياتى واحداً من الأولاد، أشهد الفرق بين أمسيات الزمن الفائت والتهوى المهان لكل الرجال، وأبقى وحدى هكذا لأروى على من

يجيئون من خلفتي سيرة الرجال وربما تنتهي المناحة وتشرق شمس الأيام البيض، ينزاح الغم وتولد الأشواق، تأتي خلفه جديدة قادرة على زرع الأحلام وطرح الأمنيات، على شد الزمن الأصيل من حيث غاب والاحتفاء به من مطاردات الموت أو استرجاع لحظاته.

أيام نعيشها مستورين أو واهمين في الستر، تجبرنا قلة الخير على السعي بحثاً عن شريك يدفع لنا ثمن البهيمة ونسرح بها نمنها ثم يجي الوقت الذي يفرض علينا فيه أن نبيع ونقتسم المكسب، باخذ الثمن المدفوع ويققسم الفارق من أجل مجرد الاستمرار نرضى يا رجال كفر عسكر بكل شيء، نرضى بتسليم خير الدار لتاجرة البيض والسمن، نرضى بأن يديننا شاكر بثمر السكر والشاي والدخان، لتظل الدار مفتوحة، ليبقى من رائحة عبد القادر عوف نفس أو أنفاس تتردد تحت سقف داره، ليقال إنه لم يعجز عن مواجهة الأيام العسيرة، ولعل الخير يأتي، لعل ضروع البهائم الجافة تمتلئ بالحليب والدسم، ولعل الأرض تزود غلتها وتمتلئ الأجران في مواسم الحصاد التالية، لعل الخلفة تفلح وتغوضنا عن راحوا، كلما رأيت مصطفى تذكرت سيد، وكلما برطم محمد تذكرت صبوتي وعنادي، ولعل من راحوا خلفوا لنا بركتهم، لعلهم يحومون حولنا يطلبون أن نبقي، لنذكرهم بالخير ونترحم عليهم كلما جاءت سيرتهم وإلا فمن لهم في هذا الكفر يطلب الرحمة ويعيش حاملاً من بعدهم أمانة الاسم الأصيل في هذا الزمن العويل؟.

رباعية كفر عسكر

[٢]

حكاية شوق

كانها صرخات الأطفال الأولى ساعة الميلاد تستعيدنى وتشد عزمى بعد هدّة الرقاد؛ لأقوم وقد تخلصت من كل وجع، تغازلنى وأنا مكوية بلسعة الفقد منكمشة على نفسى أو منحنية لعاصفة الفراق، فارانى واقفة أطل فى البعيد قبل أن أدخل فى زحمة الأحياء، أقول لنفسى وأنا راجعة وسطهم إن النار الحارقة تبردها دورة الأيام، تختلط فى قلبى وأنا أسرح بفكرى مشاعر الفرح الشحيح والأحزان فلا أميزها، ويتبدّى لى أنه زمان واحد ذلك الذى فات وما هو حاصل وما سوف يجىء، تتشكل الخيالات شخوصاً أناجيتها وتجاوبنى دون صوت مسموع. وحيدة وأنا راجعة من سكة المدافن وإن كانت محاطة بالأحياء، أحاور الأموات وأسكت نفسى بنفسى، يتبدل ناس الكفر وتتبدل البنايات ولا تكف الشمس على الطلوع فى كل صباح أو الغياب فى كل مغرب، ويموت الأب ويختفى الولد فى اليوم المحسوب، وترحل العمّة وقد خلّفت فى القلب مرارة من نوع جديد، ربما هى خدعة العمر فيمن وثقنا به وأسلمنا له قيادنا باطمئنان لا يجوز، وماذا أخذت منها غير الوعود ثم الوعود وقد فرت الآن منى وما عادت تعود لأعاتبها على فعلتها، وكيف ألمّ حكاياتى معها فى جعبة وأسك عليها لا أرويه إلا لنفسى، تكوينى وأتوجع وحدى وأتحاسنى نظرة الشامتين؟

هل كنا فى القاعة بالأمس ليلاً وعلاّم يخطب كفا بكف منكراً ومحرضاً لى وأمى تجلس مشدودة الرأس بطرحتها ومسنودة به على كفها، غفلة وعلاّم يسأل:

- تبقى اتلحست فى نافوخها بصحيح... زعتر المواوى يا حاج؟
- والحاج مرسى حائر متردد قبل أن يرد.
- الولد ده ح يشفط الحليية والرايبة، خايف تطلعى من مولد عمك بلا حمص يا شوق يابنتى.
- كان وجه علام الغاضب يتابعنى بقلق، وكانت رأس أمى تميل علامة

الاستغراق فى النوم أو التظاهر به، وكنت أحسب أن مفتاح الحل معى، وأننى أقدر على إعادتها بوضع عبارات إلى مركزها فى عقول الناس، ربما أفلح فى إقناعها بالخلص من زعتر وانهصمة فى يدها مثل كل المرات فلا مستحيل، وضعت على الرأس غطاءه، فارتاحوا، ربما اطمأنوا بعض الشيء لأننى قررت الذهاب بعد السرفض مرارا، كنت أرتب الكلام فى عقلى وأنا أتحسس بأطراف أصابع القدمين فتحتى المداس المحطوط فى «بحراية» القاعة:

- إلى زى دى يتحجر عليها ياسى الحاج، مش كده؟ دى عدت الثمانين.

سمعت صوت علام يقولها وأنا أخرج من باب الدار وأتوجه إلى دار العمة لأرى العجب، امرأة سمينة قاعدة طولها أقصر من عرضها وقد غاب عنها عقلها الموزون الذى كان قادرا على تسيير عائلة بحسب إرادتها رغم الشوارب والشهادات والأملاك، دكاكين وجارات وطواحين وعربات نقل وركوب، وكان زعتر ابن العبد المواوى يجلس إلى جوارها وقد خلع ثياب الأنفار ولبس الكشمير؛ فبدأ مثل عود القصب الممصوص، ابن العبد الهارب من خدمة الجيش أيام الحرب الذى تسئرت هى عليه أيامها باعتباره خادمها الذى يقضى لها الحاجات، كانت تبربش بعينيها لتتحقق منى والولد يضاحكها وتمتد يداها المتشققتان إلى لحم أطرافها دون حياء فى وجودى وكأنه ينكرنى:

- بنت أخوكى وصلت ياست الكل.

- بالسلامة.. بقى ماتحضريش كتب كتابى يا غالية يا بنت الغالى؟

قالت هى بسخرية مستفزة قبل أن تنطلق بعدها فى ضحكة ممطوطة أخلتني وجعلتني أندم لأننى جئت بوهم أننى سألتقى بنفس العمة التى عرفتها عمري والتى كانت فى كل شيء تختلف عن تلك الكتلة من الشحم واللحم التى تتضاحك بشكل منقر وكأنها جنية طالعة من تحت سابع أرض لبست ثوبها وجلست مكانها، للمرة الثانية فى حياتى خفت منها؛ فاستدرت خارجه ولم أجرو على الأطلال إليها أكثر أو سماع ما كانت تقولنه وهى تشيعنى بالكلام وتضحك مع الولد زعتر المواوى.

فى الليل فاتحنى علام فى ضرورة الحجر عليها وكيف أن المحامى أوصاهم بأن تكون قضية الحجر باسمى، أعاد على مسامعى أن كل ما تملكه العمة من

حقى، وهو ليس بالقليل لأسكت كل هذا الوقت، وافقته على الذهاب فى الصباح لعمل ما يلزم، وبدأ لى أننى لم أنعس كثيرا قبل أن أسمع صوت زاهية يندبها قبل الضحى، وعندما ذهبت إلى دارها أفسحوا لى الطريق لأزاها على «مرآبة» الغسل راقدة، وبدأ لى أنها انكمشت كثيرا وتخلصت من كتل الشحم واللحم الزائدة، وأن تجاعيد وجهها اختفت وبدأت لى كما كانت فى السابق وأحببتها عمرى، كفتوها ورشوا على بدنهما الساكن زجاجات العطر «وبعبعوا» بكل ما يمكن أن يقال عن زعتر الذى كنس كل ما كانت تملكه وتحوطه وتحميه لصاحب النصيب الذى حرمنى فى آخر أيامها من حقى وأنا وريثتها الوحيدة الباقية، وفى عصر نفس اليوم دفنوها فى قبرها الذى ابتنته لنفسها وأوصت فى حياتها ألا يشاركها فيه قريب أو غريب ولا يفتح بابه أبدا ليوم الدين.

كانت سيرته تتفتح فى أمسيات المواسم والأعياد فينقلب ميزان الدار، تتوارى الضحكات وتتخفى ويعشش الصمت الحزين، كنا نميل لتصديق أنه جاء إلى الدنيا قبلنا ورحل عنها دون أن نراه رغم الوسوس التى كان يزرعها فى عقولنا شيطان كافر بأنه ما كان ولا صار أبدا، لعنا كنا نحتاجه مثلها وأكثر، ننسى شكوكنا ونحدث عنه للبنات فى مثل أعمارنا وكأنه حقيقة فنعرض للتكذيبات والسخریات، كنا نتخيله شابا فى مثل عمر البكرى وإن كان أكثر منه جمالا وأخف ظلا، كنا نتحسر معهما على ما كان ونتخوف مما سوف نلقاه فى مستقبل الأيام.

اعتدنا أن يدخل أبى فى تلك الأمسيات متأخرا على غير عادته، وقد تغيرت ملامحه، لا ينظر إلى أى واحد منا أو يلاغينا، غاضب على الدار والدكان وناس الكفر، القريب منهم قبل الغريب، يجلس فى ركن القاعة ويصب اللعنت، يسود الحذر والقلق وتكتفى هى بالنظر إليه حتى يستغفر ويزفر ثم يتنهد، تدور بنظراتها فى الأركان، وتنحط على وجوهنا وكأنها تستشيرهم فىهز رأسه بالإيجاب، تقوم وتدحرج الطبلية، تحطها فى منتصف القاعة وتسبق البنات إلى صحن الدار، أسمع أصوات الملاعق والأطباق وخبطات المغرفة فى قيعان الحل، تمتلئ صينية العشاء النحاسية ونتلف حولها، تدعوه للبدء بنظرة وهمسة:

- لأجل خاطر البنات.

يظل رأسه مائلا حتى تلامس حلمة أذنه اليسرى ثوبه من فوق الكتف، يبقى

فترة على تلك الحال، غارقا في التفكير ودخان العشاء يتصاعد، لا تمتد يد أى واحدة منا ونقاوم الرغبات، ويكرر عبارته التى سمعناها بنفس الإيقاع فى مساء الموسم الفائت:

كان الحزن يشملها والعجز يحوطها وإن جرؤت تقول بحسرة:
- يا كبدى.

تقولها وهى تبتعد مسافة عن طبلية العشاء وتقول أن نفسها «مصدودة» عن زاد الدنيا، تتبادل النظرات وتقوم البنات لحمل الأطباق حتى تخلو طبلية العشاء، تزيحها وترفع قوائمها لتسندها مكانها جنب الجدار، نتكؤم فى الأركان ونكتم الأنفاس، ربما نسمع عواء كلب غريب ويستعيز هو بالله من الشيطان، ربما نراها وهى تطرد براحتيها الشر «بعيد عنا.. بعيد» ربما يتباعد صوت العواء بعد مدة تطول أو تقصر لكنها تخلف فى نفوسنا رهبة، يخبو ضوء المصباح أو يبدو لى أنه خبا وقد عادت هى من الخارج وجلست على طرف السرير محلولة الشعر ورأسها مسنود على راحتيها المفرودتين المرتكزتين على الركبتين:
- ابن عمى وشماتان فينا يا ام البنات.

يقولها أبى بصوته المنكسر وعيناه سارحتان فى الفراغ البعيد، لا ترفع هى الرأس أو تحركها، تثبت على حالها، ملمومة على نفسها حتى يقوم هو من جلسته ويصعد بثقله مسنودا على قوائم السرير، يئز الحديد بينما يتمدد هو بينها وبين الجدار، يحدث نفسه متشكيا:
- زى ما أكون مش قادر أصلب طولى.

تقوم هى وتغطيه، ترمى علينا حرام الصوف مفرودا على اتساعه فيجلب إلينا الهواء الرطب أولا ثم نستشعر الدفء ببطء، يشحب ضوء المصباح تماما أو يسيطر الظلام، ورغم صحونا جميعا لا يوجهان إلينا أى حديث، يتبادلان الكلام همسا مسموعا ربما بنفس البدايات والنهايات التى سمعناها قبلا:
- يعنى لو كان عاش كانت الدنيا ح تهد؟

- نصيب.

- نصيب أغبر.. ما لحقناش نفرح بيه.

- قادر يعوض عليك.

- يا ريت.. لجل خاطر الولايا دول.

كانت البنت عطيات تتحرك تحت الحرام، وأحيانا كانت تحاورني بصوت خافت فلا أسمع المزيد، يعلو صوتها وكأنها تعلن صحوها فتأمرها نعمات بالسكوت وأن تنام، وإن أطاعت يسود صمت أو نسمع أصوات العابرين في الدرب أو نقيق ضفدع في المصرف القديم، تليد البنت في حضني كأنها تهرب من جنّي يطاردها، أشعر بيئتي ويئسها رغم وجود الأب والأم، أسمع صوت نعمات وهي تتنفس بعمق، وربما تتحسس شعري المحلول أو أتحسس شعرها بينما تفرق جواهر في نوم حقيقي ويصدر عنها شخير خافت لا يكف، أشعر على نحو غامض أن جرحنا غويط وربما لا يطيب، وأن النار التي تكويها قد لا تنطفئ أبدا، ويبدو لي أنني أعاود السماع لكلام سمعناه مرارا:

- كان ابن موت، أبص له يضحكي، فيه في الدنيا عيل ابن يومين يعرف أبوه؟

- اللي تحت الأرض خبطوه، كان ياضنايا مطرح الكف في ظهره بالخمس صواب معلمين.

- وعنيه مقنجله وصاحيه.

- ربنا ح يعوض عليك.

- فكرك؟

- شد حيك ولا تزهقش روحك بس.

- أما نشوف آخرتها.

يقول ويرفز، يستغفر في حرارة ويغمغم في قوة، وربما أصحو على صوته ينهج في استسلام وتراخ، ويسألها في همس إن كانت غطتنا جيدا فتطالبه بالانشغل بأمرنا، أسمعها تواسيه ويواسيها ويحلمان معا بولد آخر يجيء، أسمع ضحكاتها الخافتة التي تتوارى وتتخفى ووصاياها لها بالحرص والسكون، ربما أصحو على صوته المسموع:

- العيال رقدت من غير عشا.

فأشعر بها تنزل عن السرير، تتحسس بقدميها أرضية القاعة حتى لا تدوس إحدانا، تعالج المصباح، فيبعث ضوءه من خلال فتحات الحرام القديم، تخرج هي

ونسلم نحناته ونداءاته المتكررة علينا بالاسم، نتناوم إلا عطيات التي تقوم،
تصعد إلى السرير فيضاحكها ويأمرها بأن توقظنا:
- دى ليلة مفترجة يا عيال.. قوموا سخّنوا الأكل.

تقوم نعمات، تلملم خصلات شعرها الناعم وتربطه بالمنديل وترغد جواهر
التي تقوم مفزوعة تدعك عينيها وترجوها أن تتركها لتنام، لكنها فى كل الحالات
تقوم، تخرج الواحدة فى إثر أختها، وقد تدخل أمى إلى القاعة وقد تلف نفسها
بالحرام طلبا للدفع الذى خلقناه، وفى صحن الدار كانت البنات يتبادلن الأحاديث
حول نفس الموضوع:

- طيب كان اسمه إيه الولد ده؟
- يابت دا مات قبل السبوع بيومين ما كاتوش سمّوه.
- طيب اندفن فين؟
- اندفن مطرح ما اندفن.
- اغرفى يا ختى وبطلّى قلة أدب.

تنقلت الضحكات منا غصبا وقد يسمعان، ربما يستقصر هو أو هى عن
الأسباب دون اعتراض وربما يتضاحكان ومن جديد تنحط الطبلية فى وسط القاعة
ومن فوقها الأطباق، تعدل له المسند ويجلس وسطنا، يلاعبنا ويسلينا ويحدثنا عن
فرحته بخلفتنا، يقسم علينا لحم الطيور ويناولها نصيبا، تأخذ منه ما يكفيها وتضع
الباقى فوق نصيبه فلا يعترض، يأكل بشهية فتفتح نفوسنا ونأكل وهو يحكى
وتسايره:

- المرسى جانى قبل المغرب بساعة، قعد على باب الدكان ما تعرفيش
كان طمعان ف ايه؟
- هو الراجل ده ما بيشبعش؟
- ما سألتش فيه. سرح بعيد ورجع، وقف قصادى قال اللى قلت لك عليه.
- ينقطع لسانه.
- كان عامل انه بيضحك وهو قاصد يقهرنى.
- ينقهر على أغلى ما عنده.
- قال مين ح يرضى ياخذ واحدة من بناتى قال.. ومين يطول؟ وايه يعنى

مالهمش أخ يترد عليه؟

- حس أبوهم فى الدنيا.
- أنا قلت له أخرج يا خنزير، سمعها وماردش.
- بناتك ألف مين يتمناها.
- داتى عندى الواحدة منهم بألف راجل.

يقولها ويضحك منتشيا، يتأملنا الواحدة تلو الأخرى بنظرات مباهية وراضية وربما حالمة بخلفة جديدة من الأولاد، ربما ينسى أو يتناسى أشواقه للولد، وربما تتزايد الأشواق، لكن الصحو يزداد فى العيون ويمتد الوقت بنا وتتشعب الحكايات بعيدا بعيدا عن تلك البدايات الحزينة، نشعر بالفرح يغزونا فى نعومة، وربما نسمع آذان الفجر من زاوية أولاد عوف، وربما لا نسمع ونفاجأ بشروق النهار.

- ماحدثش بيموت ناقص عمر يا سعاد.

قلتها للبنت رغبة فى تخفيف حزنها على سيد فأطلت ناحيتى بغضب، قامت من قعدتها، علها خافت أن تلومنى على قدرتى على الاحتمال، لو دخلت هى قلبى لعرفت إلى أى حد اکتويت بناره، هو قطعة منى، حملته فى بطنى وشفت فيه المَرار قبل مولده وبعده، عجزت عن إرضاعه أو رعايته، حرمونى منه قبل الأوان بألف أوان، سلّمت أمرى لله وظلّ طيفه طوال العمر يشاغلنى من بعيد، كنت أتذكره فى كل وجبة واسأل نفسى إن كان شبعانا أو أنه جائع، كنت أراه فى وجوه من رافقوه زمن الميلاد وأكتم لهفتى عليه وأحرم لسانى من مجرد ذكر اسمه، أقول لنفسى ما قيمة الحديث عنه وقد كنت فى كل مرة أرى نظرات الاستنكار واللامامة، فى أول الأمر كنت عندما أفكر فيه أو اشتاق إليه أبوح بالوجع فيتحدثون طويلا عن حكايتى مع حسن، أشعر بالغىظ لأنه من الصعب على أن أنساه أو أن أصدق ما يقال من أنه لا بد سوف يكون مثل أبيه، وبمرور الأيام عودت نفسى أن أكتم أشواقى لرؤيته، أن أكف عن مجرد السؤال عن أحواله، كان جرحى الغويط مدفونا فى أحشائى، أناجى نفسى وأتخيله، أبتسم إن سمعت عنه كلمة ولا أظهر لهفتى عليه أمامهم لكنه كان ولدى، لحمى ودمى وجرح عمرى.

- مش مصدقة نفسى.

قالتها سعاد وهى تقترب، فى عينيها سؤال تخجل أن تواجهنى به، استبعدت

أن تكون عاجزة عن فهم مشاعري وهى بنت المدارس التى تعلّمت والتى كنت فى الأيام الأخيرة أبثها أسرارى وأشركها فى همى، همى القديم الذى تجدد وتجسد فى ميت أكدوا أنه لا يخصصنا فى شىء، حتى أقرب الناس لم يكلفوا خاطرهم لتعزيتى فيه بأكثر من الكلام العابر، كان العزاء هناك فى الناحية الأخرى، فى دار عبد القادر القديمة، وكان حسن نفسه يطوف دروب الكفر كما يقولون ذاهلا عن نفسه يتمتم بحروف اسمه بعلو حسه، يناديه ويجردنى من حقى فى مشاركته الصارخ أو الإعلان عن فجيعتى فيه، كانت النظرات التى تنصب على وهم يذكرون كيفية فقدانه لعقله بعد موت سيد تميتى، تكوينى بنار أشد قسوة من مجرد طلقة غادرة أصابت دماغ شاب جاء يزور أمه بعد أن زال همه بعيدا عنها ومانساها أو نسيته، على الوجه المغدور بسمة، والملاحح السمرء حازمة تتطلع بأمل فى مستقبل يطمئن إلى إمكانية تحقيقه، هل كنت قد قرأت فى آخر زيارة له حزنه على شبابه الضائع قبل الألوان بلا ثمن، وهل حدثتك يا سيد عن خوفى عليك من ناس الكفر مرة؟ وهل ركبى كابوس رأيتك فيه تسقط بضربة غادرة؟ ليتنى أكون قد بحث لك بهواجس عذبتى، وليتنى أستطيع الآن أن أبوح لسعاد بضعفى وعجزى ووجعى الذى يتخفى ويتوارى، يدارينى خلف عبارات عن النصيب والأعمار والمقسوم لنا، مجرد كلام موزون أكذب به عليهم ولا أصدقه وأسمع منهم فى المقابل تلك الصفة الزائفة بمناسبة وبدون مناسبة:

- عاقلة.

ليتنى أملك الحق فى جنون مثل جنونه، فهاهو يأخذه منى ميتا كما أخذه فى السباق طفلا حيا يتلوى من قسوة الانتزاع، وأنت الآن حر فى أن تعلن لكل أنه ابنك وحدك. ساكن المدافن الحى باختياره يكسب وأنا أخسر، ولا قيمة إذا أعلنت حزنى أو دخلت معه السباق الخاسر، ومن يصدقنى إن فعلت ووصفت له قسوة النار التى تسكننى ولا أمل فى انطفائها بآلاف الصرخات، حتى لو تحول ما تبقى من العمر إلى زعقة وحيدة محدودة أندب فيها أول خلفتى وأول فرحتى، أول من حملته فى بطنى وأول من أحيانى بعد موات لحظة أن سمعت صرخة مولده فى القاعة، ولمن أحكى يا سعاد إن لم تسمعينى وتغفرى لى ذنبى إن كان طول احتمال فراقه ذنبا أستحق عليه الغفران، وإن لم تفهمينى أنت وأنت امتدادى فمن يفهمنى من الغرباء؟

وكان جدنا هارون ابن الحاج هارون شلبي يجمع أولاده وأولاد أولاده في صحن داره البراح التي بناها على السكة الزراعية خارج زمام المباني في مكان زريبة جعفر البياع تلك التي اشتراها منه مع القدانين، يجمعهم بليل في الأمسيات المقمرة الساكتة ويحدثهم عن جدنا الملك الشلبي:

- «كان جدكم الملك الشلبي فارس فرسان قبل زمان دياب وأبو زيد الهلالي سلامة بألفين سنة وأكثر، حكم الدنيا المسكونة في زمانه ميتين سنه وخمسه، واتجوز حريم كثير وخلف عيال كثير، وخلفته أكثرها كان صبيان، كانت الجارية من عبيده اللي تخلف ولد يعتقها، يديها بلد تحكمها باسم الولد لحين ما يكبر ويصير عليها ملك، واللى كانت تخلف بنت تفضل معاه في الحريم لحد ما يجيلها يوم وتولد ولد، حريم كثير كانت على ذمته وماخلفوش صبيان جوزهم للعبيد، عبيده كانت كثير يسدوا عين شمس، لكن العبيد مالهاش أمان، زيهم زى الجوارى اللي بلا خلفه، ويوم مامات الملك الشلبي هاج العبيد والجوارى حريم العبيد، حاربوا الملوك اليتامى والحريم الأرامل، خربوا بلاد عمرانه ونشروا الفساد في الأرض، حكموا بلاد وفاتوا للملوك بلاد، وطلعوا بالكذب ع الملك الشلبي كلام مالوش أساس وصدقوه الناس، قالوا على سيدهم وولى نعمتهم عبد مجلوب زيهم ومالوش وطن ولا أصل، وقالوا عنه راعى غنم والزمان عطاء، وقالوا قاطع طريق وحرامى، وقالوا وقالوا وتاهت الحكايات وطالت الحرب بين الملوك من سلسال الملك الشلبي والعبيد، كسبت العبيد بلاد وكسبت الملوك بلاد، خطف العبيد ممالك من نسل الملوك وباعوهم في سوق العبيد، خلق منهم هربت ف بلاد الدنيا الواسعة، لكنهم حافضين حكاية جدنا الملك الشلبي، وفين ما تروح في بلاد الدنيا الواسعة تلاقى فرع باقى من سلسال الملك الشلبي، حتى لو غيروا أساميهم خوف من ظلم العبيد ح تعرفهم، وشوشهم تشبه وشوشنا كده، وعيونهم تشبه عيين فطوم، مكان ما تروح ح تلاقىهم، تعرفهم ويعرفوك. بينك وبينهم شبه وكلام قديم محفوظ ودم يحن»

كان يرانى فيقوم من فوق كرسية المرتفع، يقترب منى ويحملنى بقبضتيه إلى صدره، يحضننى بحنو ويربت على ظهري، يبتسم لى فى ود ومحبة وربما

يجلسنى فوق ركبتيه فأتطلع إلى الخضرة فى غيئيه، وقبل أن يعيدنى إلى أبى
يـدس فى كفى قُطعة من قمع سكر أو قالب مستطيل باعم الملمس، كنت أحتفظ
بـتلك القوالب أو قطع السكر حتى تنتهى السهرة ويكف هو عن الحكى عما كان،
وكان أبى ينتبه لذلك دائما فى مشوار عودتنا فيطلب منى الإسراع بأكل قطعة
السكر، كنت أقطع حوافها بأطراف أسناني قطعة صغيرة فى إثر قطعة، استطعم
حلاوتها على مهل دون رغبة فى الخلاص منها على عكس إرادة أبى الذى يكون
راغبا فى إنهاؤها فى أسرع وقت كان يزغدى برفق ويتعجلنى:

- يابت ابلعها بقى، السكر ما هو مرمى فى البيت وفى الدكان، وعلى غير
إرادة منى كنت استجيب وأطحن قطعة السكر بين أسناني طحنا هينا،
أتسمع برطماته بعد «القرقشة». على عادته فى كل مرة وهو يتهم الجد
هارون بالشيطارة فى الكلام الفارغ الذى لا ينفع ولا يشفع، كنت لا
أرتاح إلى تلك الجسارة فى التباطول على الرجل الطيب ولا أعرف كيف
أدافع عنه، وكنت فى كل مرة أرغب فى سؤاله كيف استطاع أن يكره
ذلك الوجيه الضبوح الباسم ذا العينين الخضراوين بزرقة واللتين
تشبهان إلى حد كبير عيني عمى فطوم.

- اللي زيه ماوراهش حاجة يخاف عليها، إنما أنا متعلقين من عرقوبنا.

كان يحدثنى عن رأسماله الذى يتوزع فى ذمم خلق الله، وعن ديونه لناس
غيرهم وكيف أن التاجر الناصح لا يحق له أن يعادى أحدا، حتى خصومه لا يجوز
له أن يعاديهم علنا، يسايرهم ويكسب منهم ويبش فى وجوههم، كنت لا أشغل
نفسى كثيرا بكلامه ونحن نقطع الطريق فى ضوء القمر ناحية الدار، وكانت كلمات
الجد هارون تطن فى آذاني ويتردد صداها، أستعيد لها وأرغب فى ترديدها لنفسى،
لكن صوت أبى كان يعلو كلما ابتعدنا عن دار الجد أكثر ليوشك صوته أن يكون
صراخا فى فراغ الحقول:

- مش ح يهد غير لما يشعل فى الكفر نار.. الخوف يسقط مننا نفر ولا
نفرين، دا عايزنا ننطح دماغنا فى الحيط يا شوق.

كان يسرع خطوة المتمهل ويعلو صوته أكثر فأسرع فى أعقابه حتى يبللنى
العرق وأستعيد وجه الجد هارون الذى كنت أحبه أكثر من أى واحد من أولاد

شلبى حتى تلك الظهيرة التى جرسوا فيها جعفر البياع ورحلت أفرج وسط الأولاد والبنات.

كان جعفر يركب الحمار بالمقلوب، وجهه ملطخ بالدقيق «العلامة» وعلى الرأس قرص من روث البهائم الجاف وقد ربطوه إلى أسفل الذقن بخرقة بالية، كنت أردد معهم ما كان يُحدو به حسنين المندش والطبلة تحت إبطه تجلجل مع صوته، يحدو ونرد عليه:

جعفر باع غيطه	يا عيب الشوم
واتهدم حيطه	يا عيب الشوم
جعفر باع داره	يا عيب الشوم
ونقص مقداره	يا عيب الشوم
ولا عادش يساوى	يا عيب الشوم
دیل جحش حساوى	يا عيب الشوم

وجدته واقفاً، كأنه جنّى طالع فى عز الظهر، عيناه الخضراوان بزرقة لا تحملان ودا والوجه عابس، ولأول مرة فى حياتى خفت منه، ذابت من ذاكرتى حلاوة كل قطع السكر التى كان يمنحنى إياها، فكرت فى الفرار منه لكنه أمسكنى من معصمى بقسوة وجرجرنى بعيدا عن الأولاد بشدة دون أن ينطق، تباعدت زفة حسنين المندش وحزنت لحرمائى من الفرجة على جرسه جعفر البياع، جرجرنى بعنف لم أجربه قبلاً ولم أتوقعه منه أبداً حتى وصل بى إلى بنايات «الواطية» ثم دفعنى دفعا لأدخل من باب دارنا الموارب، كنت أبكى بحرقة من أثر مسكته لمعصمى، وكان أبى يجلس على جذع النخلة المكون فى صحن الدار، كان يطل إلينا ولا يعترض، بل إن الجد هارون راح يوبخ أبى ويسبه ولا يرد، يطل فقط، ولا بد أنه كان يسمع أيضاً ويوافق على ما كان يقوله الجد بأن تجريس جعفر البياع فضيحة لكل أولاد شلبى فالرجل لم يقتل أو يسرق أو يخرج من دين محمد، ولأن أولاد عوف يقصدونه شخصياً بهذه الجرسه فسوف يدعو أولاده وأولاد أولاده لتخليص جعفر من هؤلاء الظلمة من أهل العمدة ومن يتصدرون لحماية العمدة:

- لهم حق يتفرعنوا عليكم. مش لاقيين حد يردهم.
كان أبى على حاله، يسمع ولا يرد على الجد هارون:

- واحد وباع أرضه وداره، لهم فى كده إيه هما عايزين يسيروا الدنيا على هواهم؟

كانت يده المرتعشة قد انفكت عن معصمى فأسرعت أمى لتسحبني فى المكان وكأنها تهربني من عقاب لابد يحل بى إذا بقيت فى المكان، غسلت وجهى وجبهتى وأنفى ورطبت أطرافى بماء الزير البارد وأمرتني بالشرب لترطيب جوفى أيضا ففعلت، أخذتني إلى القاعة وراحت تسرح شعري، كنت أسمع صوت الجد هارون وهو يحذر أبى من أن أعاود مشاركة الأولاد فى جرسه جعفر البياع:

- أن شفتها بترمح ورا حسنين المندش يا عبد الستار ح يكون بح أجلها.

قالها ولم أسمع عليه رداً، وساد صمت ثم ارتطم باب الدار الكبير لابد بيد الجد هارون وهو خارج منها، كنت أسمع صوت حسنين المندش وقد وصل إلى درب المغربى يحدو:

أهى خيبة وحطت	يا عيب الشوم
ناس عالية ووطيت	يا عيب الشوم
ناس واطية وعليت	يا عيب الشوم
ناس خالية وملكت	يا عيب الشوم
ناس مالكة وخليت	يا عيب الشوم

وفى الليل حدثتني نعمات عن خروج جعفر البياع من الكفر بعد أن ربطه العمدة فى النخلة أمام دواره وضربه بالكرباج، وأن العمدة طلب عبد القادر فى دواره لتدبير عراك مع أولاد الجد هارون وأن أبى خائف على تجارته إذا تجدد العراك وأن البلد مقلوبة وأن الجد هارون كتب فى العمدة بلاغاً، شعرت بالخوف وخفت غضبتى من الجد هارون وتمنيت لو كنا أولادا وشاركناهم فى العراك، ضحكت منى نعمات وأخذتني فى حضنها ونمنا لنصحو على أصوات الرجال فى المندرة يطالبون أبى بالدفع أكثر مادام لن يشارك فى العراك وأبى يطلب من الجد هارون الرحمة والعدل والبعد عن الشر:

- ولا كان لسه لزمه ده كله يايا هارون، هو أنت عامل نفسك مغسل وضامن جنة لجعفر كمان؟

فيرد عليه الجد هارون بصوته الغليظ أمرا بحسم:

- إن ماكانش ح يبقى لنا عزوه فى الكفر ده وهيبه تبقى أنت أول
الخسرانيين، رسمالك وشرف بناتك، ح تدفع يا عبد الستار ولا مالناش
دعوة بيك من بعد النهاردة؟

كان يتحرك فى أركان المندرة مثل فأر دخل مصيدة فلا هو قادر على
الخروج منها ولا مطمئن للبقاء فيها، توجه ناحية دولااب الحائط، فتحه وهو
محاصر بنظراتهم، أخرج أوراقا حمراء، عد منها لا أدري كم وناولها للجد
هارون، لا أذكر ما قاله وهو خارج ومن خلفه رجال العائلة لكن الذى رأيته هو
جلوس أبى على طرف الكنبه مطرقا برأسه حزينا بحق، لم يلتفت إلينا ونحن إلى
جواره أنا وعطيات إلا بعد فترة طالت، لاحظتها اجتذبتنا إليه فى حنو وحدث نفسه:
- لو ماكنتوش بنات.

شعرت على نحو غامض أننا سبب انهزامه وخسارته وأن لولانا ما أطاع
أمرا أو انكسر.

قلت له يا سيد أولاد عوف كانوا زمان، أولاد عوف راحت أيامهم، أنت
تنفخ فى قربة مقطوعة، قلت له كن فى حالك يا سيد، مالك أنت بأولاد عوف،
بمآذا أفادوك لتزرع روحك فيهم وقد عشت وحيدا ومقطوعا وما سعى أحدهم
للاقتراب منك لتطئن أن لك فى الدنيا أهل وناس، أعرف ما كان بينه وبينهم، وأنا
لا أقلب بكلامى مواجعك القديمة، أنت لا تعرف ما جرى منهم فى الزمن القديم، كل
ما تعرفه هو تلك الحكايات التى لا بد أنه حكاها لك على امتداد العمر، لكنها ليست
كل الحقيقة، بينها وبين الحقيقة مسافات ومسافات بطول المسافة بين الكفر وتلك
البلاد التى عاش فيها وبتطول السنوات التى غاب فيها عن الكفر وناسه، يعرف
حقيقة الكفر من عاش فيه يا سيد، ويعرف أولاد عوف من تعامل معهم أكثر، لقد
عاركناهم وصالحناهم، بعنا لهم واشترينا منهم، دخلنا بيوتهم ودخلوا بيوتنا،
عرفنا طباعهم وحفظناهم فى عقولنا، وإذا كان هو أول من جرو «وناسب» أهلى
وفشل، فقد تكرر الأمر من بعده، صاهرناهم، وصاهرونا، وطلع نسل جديد تجرى
فى عروقه دماء الشلبى والعوف، وإذا شئت أحكى لك عنهم لتعرفهم أكثر، ولكن
الخلاصة هى أن فى البعد عنهم غنيمة، والبعد عن مشاكلهم التى لا تنتهى وإن

تزايدت، راحة البال، دبر وقتك وعقلك وشوف مصالحك، مالك أنت يا سيد بمندرتهم الكبيرة التي خربت؟ مالك بدوارهم المهجورة؟ وهل تصدق ما يقال من أن لهم في الناحية ميراثاً موقوفاً ينفك بأوراق مزعومة فشلوا في العثور عليها طوال تلك السنوات، وكأنما أخفاها عنهم جن في سابع أرض؟ وهل تخصك مدافنهم في شيء يا سيد؟ حتى لو أفلحت في تجميعهم حولك وقاموا بتجديد الدوار وترميم المدافن والمندرة قلن ينتهي المشوار لأنهم لن يستعيدوا ما أخذته منهم الأيام في غفلة من كبارهم قبل صغارهم، أنت لا تعرف يا سيد أنهم لو لجأوا إليك لتحل نزاعاً بين نفرين منهم فإني لن تستطيع أن تحل أو تربط ليس لأنك سوف تعجز وإنما لأنك بالنسبة لهم أفندي غريب برغم الاسم المشترك، وقد تعجب من كلامي لكنك سوف تتأكد، أنت في نهاية الأمر ابن حسن الذي خرج من الكفر ودار في البلاد البعيدة، وكم تندروا على غربته في مجالسهم، قالوا إنه باع الأرض والكفر والابن فباعته الأرض ولفظته الدار ونسأه الابن كذلك أهل الكفر، صدقتي يا سيد أنت محسوب على حسن على عكس صالح، صالح منهم لأنه عاش بينهم، شافوه طفلاً وصبياً ينمو واطمأنوا له برغم خلافاته التي لا تنتهي معهم، وفي الكفر يقولون «اللي تعرفه أحسن من اللي ماتعرفوش، يا سيد» وأنا بكلامي لا أمنعك عنهم فهم أهلك، لا أطلب منك أن تقاطعهم أو أن تبتعد عنهم تماماً لأنهم دمك واسمك وأصلك، كل ما أوصيك به أن تدخل بينهم ولا تحلم بأن تكون في مقدمتهم ولأنك ابني على القرب والبعد أتمنى لك أن تكون فوق الكل، سيدهم وأمرهم الذي يطاع، لكن الناس هنا لا تسلم قيادها لأي وافد حتى وأن بدا لهم أنه أبرع منهم وأكفأ، وأنت بحساباتهم وافد جديد، يقابلونه بالترحاب والأشواق ويكتمون الحذر والتوجس، والأمر في أوله يخوف، العين في الكفر تنحط على من يتصدر، وأنت لا تعرف معنى أن تنحط العين على بني آدم في الكفر عسكر، نشف ريقى، وشعرت بمرارة الحلق من كثرة الكلام وهو ساكت يتسمع كأننى كنت أؤذن في مألطة:

- عارف كل ده.

- وسايبنى أهاتى يا سيد؟ الغرض، مادام عارف يبقى ماتغوطش في بحورهم اللي مالهاش قرار، دول ناس لهم عدوين كتار في الكفر وفي كل الناحية.

- ولا يهتمك.

قالها باستهانة فقلت لنفسي إن العرق يمد لسابع جد، وإن دماغه لا يختلف كثيرا عن أدمغتهم رغم المدارس والشهادات التي لم يتعلم منها كيف يكون واعيا لنفسه وعى الفلاح الناصح الذي يحسب لكل خطوة يخطوها ألف حساب، لم يرث عنهم غير عرق الاستهانة الدساس، ليت كان مثل صالح الذي يحتاط لنفسه أيام المخاطر وهو يمشى في دروب الكفر. أو في سكة البندر، الخلق في المدن لهم عقول غير عقول الخلق في كفرنا، لو عاش هنا لرأى الفئوس وهي تغدر والعصى وهي تضرب في عز الظهر الأحمر لأتفه الأسباب، لو عاش هنا لعمل حسابا للمتربصين في الزراعات يطلقون الأعيرة تخويفا وإرهابا وأحيانا في المليون تصفية لحسابات قديمة من عمر الأجداد، ماذا أملك إلا أن أوعيه وأحذره؟ أصبر عليه وأفهمه ما لم يفهمه:

- صالح ما قالكش ع اللي طلعو له متلتمين في نقحة القيالة؟

- قال.

- ما سمعتش على جدار مصطفى عوف اللي نقبوه وخذوا منه البهايم ولا حدش طالهم؟

- سمعت.

- وابن السعيد عوف اللي انخطف وانقتل واندفن في أرض السعيد عوف نفسه؟

- وإيه تاني؟

- السعيد عوف ده ماكانش منهم، كافي خيره شره ولا عليه تار لحد ولا حد معاديه.

هز رأسه وبدا لي وكأنه لم ينفغل مجرد انشغال في التفكير في دلالة تلك الحكايات، فكرت أنني خلصت من ذنبه لكنني كنت مازلت أخاف عليه من مخاطر الكفر والناس وأولاد عوف، ومن جديد قلت أحاول معه:

- مش عاجبك الكلام يا سيد؟ أنا قلبى عليك.

- يعنى عايزانى أخاف؟ أنا بقى مابخافش.

- المثل بيقول من خاف سلم.

- كلام فارغ.

- كلام فارغ يا سيد، صحيح العرق دساس، دا أنت زيك زيه بقى، غشيم زيه وبتنطح رأسك فى الحيط.

قلتها فبان فى عينيه الشر فجأة، كشر عن وجهه وتغيرت الملامح، من داخل خفت، نسيت أن الواقف أمامى وقد احتقن وجهه وارتعشت شفتاه هو طفلى القديم الذى حسبت أننى استعدته شابا سمح الملامح، كان يشبه الآخر ساعة الغضب لكننى تماسكت وقلت بغير اهتمام:
- ما تضرب لك قلمين.

هاج أكثر وتحرك فى دائرة ضيقة حول نفسه بلا هدف، شبك أصابع يديه بعنف وفكها بعنف واستدار مبتعدا عنى فى غل مكتوم، تابعت قدميه القلقتين المرتبكتين المترددتين بين الرغبة فى الخروج من باب الدار الموارب والبقاء فيها ليصفى حسابه معى، قلت أغيظه أكثر:

- هربت يا ابن حسن؟

استدار فى عنف وواجهنى، كانت العينان الملهبتان تلمعان بشراسة وحش من وحش البرارى سقط فى فخ، سألت نفسى إن كان من الممكن أن ينسى، وهو فى لحظة اندفاعه أننى أمه التى حملته فى بطنها فيغلط معى بالقول أو بالفعل، خفت إن هو فعل أن يضحك عليه الخلق فى طول الكفر وعرضه لو سمعوا أنه وهو الأفتدى المتعلم لم يراع الأصول ولا شرع الرب فى أمه، ساعتها تكتمل خسارتي له ويخسر نفسه، كان يصب على نظرة الغضب وكان يغيظنى أنها دفاع عن حسن، كأنهما رجلان فى مواجهة امرأة.. لكن التردد غلبه وخفت حدة التحفز، لعله عاد إلى عقله فصعب على حاله، ابتسمت له ثم ضحكت بصوت مسموع فتلفت حول نفسه باحثا عن أسباب ضحكى، وعندما لم يكتشف شيئا غريبا تحول الأمر إلى مجرد دهشة، قلت وكأننى «ادادى» طفلا عنيدا بحنان الأم:
- أقعد يا سيد، واقف كد ليه؟

حيره أن أتحدث إليه بود وتسامح، لعله نسى استفزازى له واستعد للتصافى، فكررت بنفس الصوت:

- واقف لى زى خيال الماته كده ليه؟ هو حصل ايه لده كله؟

تراجع خطوتين وجلس على الدكة، زفر ثم تنهد، نظر ناحيتي وأوشك أن يسألني أو يعاتبني ثم تراجع، شعرت بالفرحة به والانتصار على فقلت بثقة:

- وإفرض لساني غلط، تعمل رأسك برأسى؟

- لا.. بس أنتى..

- محموق عشان أبوك؟ وماله، فيك الخير، هو اللي ربك، بس أنت عصبى قوى..

بدا لى أنه حبس فى العينين دمتين وتساقطت. برغم إرادتي من عيني دموع، لعلني كدت اعتذر لكنني تماسكت، قلت أغير الموضوع وأنا أجفف دموعي براحتي وأحدثه عن ذلك الزمن البعيد ونوادير فبدأ يجاريني ويضحك، لعله أراد أن يثبت لى أنه قادر على السيطرة على نفسه، ولعلني أردت أن أطمئن نفسي بأنني فهمته أكثر وتأكدت أنه يستطيع فى كل الحالات وبرغم كل شيء أن يرعى شرع الرب وخلقاه فى أمه رغم طول عمر الابتعاد.

طالت أيام العراق مع أولاد عوف، ولولا البارودة التي جلبها الجد هارون من أرض البرارى ما تمكنا من تخويفهم، كانوا كثارا وشماريخهم لا تميز، تطيش فى كل اتجاه وتدمى، تجمعوا حول «فضالى» وأولاده وما تركوهم إلا بين مكسور ومبطوح، كادوا أن يقتلوا البكرى لولا إنه رمح واختفى منهم فى زراعات الذرة، هاجموا دار الجد هارون بالشماريخ والنبابيت وما أخافهم إلا رصاصة انطلقت نحو صدر «الحسنين» سقط بفعلها وحملوه، فى صباح اليوم التالى عادوا مرة أخرى فانطلقت رصاصة أخرى وأصابت رأس السعيد بن الحسين، وكان أبى ينقل لنا الأخبار وهو ساخط على الجد هارون وأفعاله التي أوقفت حال تجارته، وكان ينبه علينا بعدم الخروج من الدار، طمأننا أنه ذهب إلى الكبار من أولاد عوف وأخذ منهم الأمان لنا، لأنه كما قال ضد العراق وليست له فيه مصلحة، نزلت إلى دروب الكفر عساكر الهجانة السود راكبين الجمال نصبوا خيمة أمام دوار العمدة الذي عزلوه وعينوا بدلا منه «صول» من المركز، الوحيد الذي لم يكف عن تكسير الأوامر بالرقاد بعد المغرب وعدم الطلوع كان عبد القادر، يقفز من فوق سطوح الدور ويصل إلى الدرب، يحرق أو ينزل ويتعارك بمعاونة أولاده

وأولاد أخوته، تربص له الصول وعساكر الهجانة وما طالوه، أقسم الصول وهو يفتل شاربته أن يمسكه ويرميه فى الحبس مع أشقياء الناحية حتى لو نزل سابع أرض، لكنه لم يستطع رغم زيادة القوة وكثرة الوعود، فقدنا رجلين وفقدوا واحدا فى أول يوم، لكن العدد زاد حتى فتح وجود الهجانة، وصل العدد عندنا إلى خمسة مقابل ثلاثة منهم بالإضافة إلى اثنين بين الموت والحياة، تعادلت الكفة أو كادت بحسب ما قاله أبى، ذلك الذى دخل علينا ذات مساء وهو فرحان وراح يحدثنا:

- أنا عملت اللى أقدر عليه، جريت على أكابر الناحية وطلبت منهم يشوفوا لهم حل، ماخيوش رجايا وح يعملوا صلح، داخرا ببيوت ودم رايح بلاش، هارون عاوز يولع فى الكفر نار، الصلح بكره فى دوار الباشا نفسه.

فى الصباح صحا مبكرا ولبس جلبابه الكشمير وتلفح بالعباءة، طلب منا أن ندعوه له بالتوفيق ففعلنا، شعرنا بالزهو لأنه برغم كل شىء يستطيع أن يسير الأمور بحسب إرادته، وفى ظهيرة نفس اليوم عاد متهلل الأسارير ومن خلفه رجال العائلة الكبار، مرسى وسالم بك والجد هارون وكان بينهم العم مرزوق وآخرون، جلسوا فى المندرة وعرفنا أن الصلح تم ورددنا عبارته بأن الصلح خير، فى عصر نفس اليوم زارنا بعض الغرباء، خرجوا ثم عادوا ومعهم رجال من أولاد عوف، وهذا الحال ورحل عساكر الهجانة والصول الذى لم يستطع أن ينفذ يمينه بأخذ عبد القادر، لكننا كنا فى فرحة، زادت فرحتنا عندما عرفنا أن العم مرزوق سوف يبقى فى الكفر بعد سنوات عاشها فى أرض البرارى مع البك سالم، جاءت العممة قطوم وحديثنا عن زواج العم مرزوق:

- وخلصى الفرحة فرحتين، إتغرب كثير ونسى روحه هناك، جوازته الأولانية ماجابتش عيال.. ح ناخذ له بنت المرسى، صغيرة وحلوة وبكره تملأ داره عيال..

عملنا له فرح بلا طبل ولا زمر وراعيانا المجروحين فى أولادهم، ويوم دخوله رقصنا بدل الغوازي وقلنا إن الفرحة فى القلب وفرحة العروسين ببعضهم أهم من كل شىء، ليلتها شفنا عبد القادر فى وسط دار العممة فتذكرنا كلام الصول، لكنه هنا العم مرزوق وتواعد معه على لقاء وترك المكان، وبعد أسبوع خرج العم

ليقضى حاجة من السوق راكبا حماره، وعندما عاد رأيناه داخلنا من ناحية البوابة
فى اتجاه الدرب، جرينا نحوه وناديناه، كان يضع سلة كبيرة أمامه على ظهر
الحمار، وكان عبد القادر جالسا على المصطبة فرمى عليه السلام لكنه لم يرد:
- أنزل يا مرزوق.

قالها عبد القادر وهو يمسك مقود الحمار فاستجاب مكرهاً ونزل عن حماره
وأخذنا منه السلة ووقفنا ننتظر، كان عبد القادر عارى الرأس على غير عادته،
سأله عن أخبار الزواج فتردد ولم يجاوب، سأله عن حلاوة بنت المرسى فطلب
منه أن يحتشم، كان مفلوت اللسان لا يربطه رابط، تحسس كم جلبابه وسأله.

- الجلابية دى حلوه عليك. قماشها منين؟

- م البندر يا عبد القادر، أنت فايق؟

- آه، مين اللى مفصلها لك يا مرزوق؟

- الغباشى.

- وهو كل من لبس جلابيه جديدة يعدى ع البوابة راكب يا مرزوق؟

- مش كنت ترد السلام الأول يا عبد القادر.. والكبار اتصالحوا خلاص..

- وإحنا كما كبرنا ع العركة، والشمروخ هناك أهه، مركون على جدار
الحاج مصطفى، وأنا عايز أباركك ع الجواز والعب وياك لعبة، لعبة
مافيهاش ضرب ولا خبط زى زمان.

- ما حدش فاضى يا عبد القادر، خلينى أروح.

- دانت كنت شاطر فى التحطيب زمان.

- زمان بقى..

كنا نراهما وقد أحاط بهما خلق كثار، طالت وقفتها معا وتضاحكا وأضحكا
الناس حتى زال كل القلق من احتمال عراك يقوم بينهما، همس رجل فى دربنا أن
عبد القادر فرحان بروحه وأنه يسلى نفسه بالجلوس على مصاطب البوابة، يفرح
بنزول الناس من فوق الركائب كلما شافوه وقالت امرأة «إنهم صنف أهبل»
ودمهم ثقیل، وجلجلت عند زحمة البوابة ضحكة ممدودة وصفق رجال.

- مرزوق يا رجاله مولود معايا يوم بيوم، الوحيد اللى كنت باعمل له
حساب فى لعبة التحطيب، لكن بعد رجوعه من البرارى ما اتقابلناش
غير ليلة دخلته، رحت أبارك له.

بذلك كان يتحدث عبد القادر وكأنه «حاوي» يدور حول نفسه وحول العم مرزوق الذى زال خوفه واندمج مشاركا فى السماع والتعليق ثم عقب موافقا لينتهى الأمر:

- ماشى يا عبد القادر، نجرب لعبتك دى..
- أن أتزحزح من مطرحه ما يعديش البوابة راكب أبدا، وأن ثبت مكانه يعدى راكب قصاى اتخن تخين فى الكفر..

هلسوا لعبد القادر ووقف العم مرزوق مكانه فى وضع استعداد، رفع عبد القادر كفه اليمنى إلى فوق ليراها كل الناس وقد خلت من أى شىء مجرد أصابع مفردة على استقامتها ومتقاربة دون فراغات بين أصبع وآخر، نزلت أنا إلى أسفل وتمكنت من النفاذ إلى قلب السامر لأعرف تلك اللعبة الجديدة، رأيت عينى العم مرزوق تتابعان حركة الكف المفرد وعلى وجهه ابتسامة صلح لكل الناس، يثبت قدميه فى الأرض واحدة إلى الأمام والأخرى إلى الخلف، وعندما طالت أطراف أصابع عبد القادر فمّ معدة العم مرزوق لم يهتز مجرد اهتزاز، صفقنا له بحرارة وتلفت عبد القادر حول نفسه وأنزل كفه، انزاح عن طريق العم مرزوق وحياه بحماس.

- عفارم عليك يا مرزوق لأ راجل ياوله، تبقى أنت كده كسبت الرهان، تعدى راكب حمارك فى أى وقت ما تنزلش من عليه، واشهدوا يا أهل الكفر ع الكلام ده.

وضحك الناس ربما حسبوه قد أصيب بطوفة فى عقله مفاجئة وهو يمد يده ليفك حمار مرزوق المربوط فى حديد شباك التهامى ويحمل سبّت مرزوق ويضعه عليه ويضحك هامسا:

- ما تركب.
- مش مستاهله.

رد العم مرزوق وحملت عطيات السبّت وسارت خلفه بينما سحب ولد حبل الحمار، وانقض السامر الذى عمله عبد القادر يتندرون على لعبته الصبيانىة ورهائنه الخسران لكن عبد القادر كان واقفا مازال يتابع العم مرزوق حتى تعثر لأول مرة فى خطواته فانطلقت ضحكته، أسرع رجال من أولاد شلبى يسندونه

ليصلب طولہ بینہم حتی أوصلوہ إلى دار العمة فطوم، كنت وسطہم ورأیتہا وہی
تخبط صدرہا بكفہا فی فزع، حاول العم مرزوق طمأننتہا بعسر:
- ماتخافیش نفسی غامة على شوية.

أجلسوہ وقدموا إليه اللبن الرائب، شرب منه الكثير وطرده ما كان فی جوفہ
من بقايا مأكولات لم يصرفہا، ثم عاود الشرب وأرجع اللبن ممزوجا بحمرة قانية
عكرت بياضہ، شرب وأرجع ثم عاود الشرب وأرجع وهو يتصبب عرقا والعمة
تسندہ على صدرہا وعیناہا تلمعان بسؤال غير منطوق:
- باينى كنت حاجة مسمومة فی البندر.

قالها من بين أسنانه بعسر ثم تدحرج على أرضية المكان، أسندوہ وأراحوہ
على كيس قطن مكبوس، طالبنا بأن نغطيه فحطت العمة على جسمه حرام
الصوف، كان الوقت يمضى والعرق يتصبب على وجهہ، نقلوہ على فراشه
وأحاطوہ والعرق يغطيه ويتساقط على الفراش، وجهہ «مزرود» ونفسہ
«مكروش»، ربما غفا فتركناه يرتاح، وفي الفجر سمعنا صوت العمة المستغيث
فذهبنَا، كان الجد هارون وكان مرزوق يمسك بيده وكأنه يتعلق بحبل النجاة،
همس بعسر وبصوت متقطع:

- لو نفدت بعمرى.. لو نفدت النوبة.. أبقي كسبت الملعون.. زى ما يكون
دخل صوابه فی لحم بطنى، غرزها زى المسلة، لو نفدت، أبقي كسبت،
ماتخافيش يافطوم، إن رحت فيها ماتفرطيش فی التار من عبد القادر..
التار..

كانت هى تتسمع وقد اتسعت حدقتها أكثر من أى وقت اتسعت فيه تلك
الحدقتان، وكان الجد هارون يهز رأسه بصلابة رجل مسئول عن عراك حرض
عليه، كسب وخسر لكنه لم يعرف اليأس وإن امتلأ قلبه بالمرار، كان يبدو أنه
عرف النهاية قبلنا جميعا، فجلس يتسمع هلوسات العم مرزوق التى لا يربطها
غير العجز وقسوة الوجع، وفى ساعة الضحى خبا وجه العم مرزوق وانعدمت
أنفاسه، انطفأ سراجہ وكف عن الأتین والهمس والحركة، وفاتت على الدرب فى
ظهيرة ذلك اليوم سحابة معتمة سودت النهار وما أفاد فيه لطم ولا ندب ولا بكاء.

كان يحدثهم بحماس عن السد العالى والحديد والصلب وتأمين القناة، عن

إزالة آثار العدوان وضرورة العبور، لا أدري لماذا تذكرت صوت مذيع نشرة الأخبار التي نادرا ما كنا نسمعها أو نهتم بها، كان كل ما بيننا وبين عبد الناصر هو تلك الحكاية القديمة عن البك سالم كبير العائلة في أرض البراري، ذلك الذي أخذوا منه أرضه ووزعوها على الأنفار «وتملية» الشيطان، وكيف أن البك سالم نفسه مات ناقص العمر بحسرة الأرض التي أصلحها وزرعها وكانت في السابق مهجورة ضمن البراري المشاع التي لا صاحب لها ولا مالك، حتى ابنه الضابط الكبير عجز عن حمايتها، نقلوه إلى بلد اسمها السلوم بعيد ثم أحالوه للمعاش وهو في سن الشغل، وكان عبد الناصر يبيع علام الذي كان يتوقع تأمين مكانه بين يوم وليلة، اشترى أرضا وعمل فيها منحلا وسور أرضا وحولها إلى جنيئة فواكه وتاجر في السلاح متخفيا بقلق من احتمال استيلاء الحكومة على ماله فلجأ إلى توزيعه، كتب الدكان باسم شاكِر والمنحل باسم سعاد، سرحت في الزمن القديم وأنا أسمع سيد بقلق وأرد عليه.

- إزاي بقى يا سيد. هي صوابك زى بعضهم؟

- كلنا ولاد تسعه.

رد على بحدة كرهتها فيه، كنت أحبه وأكره أفكاره التي تساوى بين كل الناس، الناصح والخائب، المالك والأجير، وكان قد نال إعجاب شاكِر فخفت عليه، شاكِر قليل الحيلة لا يسنده غير القرش وما يملكه يمينه أما هو فله مرتب معلوم ومضمون الصرف في أول كل شهر، حسن ظل طوال عمره لا يحسب للزمن حسابا، ضيع ميراثه بالكسل وتاه في البلاد، صحيح أنه رباه وعلمه وعاش حتى وظفه، لكنه فشل في أن يوعيه بالدنيا والناس، خيبه وأفسد عقله ولو لم أحرص على شاكِر فربما يخيب، شاكِر غلبان، وأبوه حويط، عاش عمره بطوله ناصحا لنفسه، لو ورث شاكِر بعض حرص أبيه لأطمأن قلبي من ناحيته، ولو خلص سيد من طباع حسن ما خفت منه على شاكِر:

- بقى ولاد الناس الطيبين المستورين ح يتساووا مع الخلق الزبالة اللي

لاوراهم ولا قدامهم ياسى سيد؟ دا حتى ربنا ماقالش كده.

قالها علام وانتظر من سيد الرد:

- ربنا مايرضاش ناس تمص دم ناس، تسرق عرق ناس، فكرك السرقة شطارة.

تدخلت:

- ماحدش قال كده، السرقة حرام لكن التجارة حلال.

وتحمس علام:

- دا قصر ديل يا أزعر، بقى أنا أبقي صاحب ملك وعايزنى أتساوى مع

واحد من خدامينى؟ دا كلام جرائين.. ماحنا برضه بنقرا ياسى سيد.

- والتجارة شطارة.

قال شاكر وهو ينظر إلى أبيه فى محاولة لطمأنته عليه، قلت لنفسى أغير

الموضوع:

- بقى ماتجيش غير وأنا راقدة يا سيد؟

تحير إن كان من اللائق أن يستمر فى جداله مع علام وبكرى وشاكر أو

يرد على كلامى، قلت بنغمة عتاب وأنا أحاول إضحاكه وإضحاكهم:

- يا خويا خليك ف حالك وبلاش وجع قلب.

- سيد أفندى بيتكلم فى السياسة يا أم شاكر.

قالها بكرى مباحيا فعلقت:

- قطيعة السياسة واللى بيجى منها، أوعاك تكون صحيح من تنوع

السياسة يا سيد.

بدت عليه الدهشة وهو يسأل:

- وهى السياسة عيب؟

تحفز علام واعتدل فى جلسته قبل أن يوضح:

- زى الست الوالدة ما بتقول كده، مايجيش منها غير وجع القلب، طيب

بلاش كده، سليمان ابن مطاوع بقالة قد ايه محبوس من جرة السياسة

ياسى بكرى؟ أكثر من ثلاث سنين النهاردة.

- أصله إخوان مسلمين، إنما سى سيد اتحاد اشتراكى.

قال بكرى فعلق سيد باستفسار فيه إنكار:

- اتحاد اشتراكى؟

تدخل علام:

- أهم كلهم شبه بعض، دا الولد سليمان ابن مطاوع ده انضرب ضرب

هناك مايكلوش حرامى فى مولد، الكلام ده مش من عندى، دا من حنك
أبوه نفسه، وأهو سايب عياله متبهدين، خد ايه بقى؟ دول ياعلام
صايعين وعاوزين يأخرونا.

قلت انهى الأمر بأى شكل، زفرت بضيق وقلت:
- إحنا مش ح نبطل كلام بقى؟ ناكل لنا لقمة.

تململ سيد فى قعدته وتابعه علام فى تدقيق ظاهر، ولا بد أنه كان يتوقع أن
يخاف سيد من كلامه عن سليمان ابن مطاوع، لكن سيد ظل على حاله.. متحفزا
لمزيد من الكلام وخجلاتا من بدء حوار جديد ربما لى يرضينى، لكننى لم أكن
راضية عليه فى تلك الظهيرة، فلو تركته على هواه لظل يتكلم لساعات فى أمور
لا تفيد، تأميم وإصلاح زراعى وحرب، ومن منا استفاد من هذه الأشياء، وكيف
استطيع أن ألين له دماغه الذى لا بد أنه أصلب من حجر الطاحونة، تماما مثل
أبيه.

فى الخميس الكبير حلت شعرها فانسدل على الصدر والظهر خصلات ذهبية
ناعمة تحللت من ربطة الصفائر، خرجت من دارها حافية القدمين وحولها وفى
أعقابها النسوة لأبسات السواد وثوبها ملون، سبقت الرجال خلافا لما اعتدناه من
طباع أهل الكفر، كانت تناديه بصوت عال قبل أن تندب وترد عليها أصوات
النسوة:

- يا قتيل بعد الزفة يا عريس

- ملحقتش تفرح بالخلفة يا عريس

بعدها تهبد صدرها براحتيها فيترجرج تحت قيمصها وقد تزايد احمرار
لحمها الظاهر للعيون حراما مباحا من أثر النار الساكنة صدرها وصدورها منذ قتل
العم مرزوق، كانت عيون الخلق تطل والشفاه تتصعب تأسيا من أجلها وأجله،
حتى أبى الذى ما حزن فى كل عمره كل هذا الحزن أبدا كان يناديه بوهن
ويوصيها بأن ترحم نفسها ولا تستجيب، كانت تهبد صدرها بعنف أكثر، سبقتنا
ونحن وراءها حتى وصلت إلى أول المدافن، انحنت وحطت على رأسها طينا من
المسرب، عاصت صدغيها وصدورها وأجزاء من ثوبها الملون، وعند قبره وقد
أحاطوها لفت خصلة من شعرها حول كفها اليمنى وقربتها من عينيها، ثم أقسمت:

- وحياء مقصوصى يا مرزوق ماحد ح ياخذ بتارك غيرى، لاح أهدا ولا يرتاح لى بال غير لما ترتاح فى قبرك.

أحطناها من كل ناحية فنظرت إلى الكل بغل وكراهية لم أفهم أسبابها، طلبت منهم أن ينزاحوا بعيدا عنها، كانت تقصد إبعاد الرجال فانسلتوا من أمام المدفن رجلا فى أثر رجل وما تبقى حوله غير الحريم والعيال، كانت جالسة على ركبتها كأنها أمام ما جور عجيب وهى تضرب براحتها جداره فتغرسان كفوفها مفرودة فى الطمى المخلوط بنخالة التبن جافا ومستجيبا للخطبات، كأنها من كثرة لهفتها توقظ حيا راحت عليه نومة وسوف يقوم بعد الخبطة التالية ويخرج من خلف الجدار:

- قوم يا سبع من رقدتك، يا خيبتى فى الرجالة من بعدك، قوم يا مرزوق، قمصان عروستك فى الصندوق ألوان ألوان. وتارك فى رقابى النسوان.

وتنطلق الأصوات، يتقارب الرجال ويتباعدون بحذر، وعندما بدا لهم أن قواها انهدت وبح صوتها ولم تكف عن النحيب، اقتربت منها زاهية بنت فضالى وحاولت إبعادها عن المدفن، لعلها استجابت دون وعى وقامت نصف قومة بمساعدة النسوة، همست زاهية بصوتها الحزين:

- كلنا مجروحين يا ختى، خليه يرتاح فى نومته.

وكانما أفاقت العمة من غفوة طارئة، نظرت أمامها وإلى وجه زاهية وكأنها ما توقعت أن تراها، فردت ذراعيها بطولهما فسقطت زاهية بعيدا عند حافة المسرب، زامت نسوة وساعدن زاهية على الوقوف ثم جرؤن جميعا على الاقتراب وأحطن العمة من كل جانب، وفى صمت استجابت بوعى أو بغير وعى وسارت بينهن إلى الطريق خارجات من مدخل المدافن والرجال يجررون مداساتهم على الأرض ويثيرون مزيدا من الرماد.

عند البوابة الكبيرة بدأت تولول وتلطم وتتأدى مرزوق، وقفت فى نفس المكان الذى كان يقف فيه عبد القادر وما عاد، كانت تبدو حائرة ولا أحد فى مواجهتها، سارت خطوات وبدا لها أنها رأتها واقفا وسط رجال من أهله وما رأيناه، سمعناها تسبه وتلعنه، وترمى على الجدار الذى تمثلته خصما نظرة وعيد

بانتقام وعيد بانتقام يجرى على السنة الناس فى مستقبل قريب، ربما أنحفر فى قلبها جب لكراهية ليس له قرار ولا تقدر أن تمحوها دورة الأيام والسنين.

حدثتني فى هدأة الليل عن وحدته فى طفولته وصباه، عن قسوة الأشواق التى ما تحققت طوال العمر ليكون له أخ أو أخت أو ابن عم شقيق، صعب على حاله وطيببت خاطرة، دعوت لشاكر وسعاد بدوام البقاء، تنهد فى حسرة وهز دماغه المستسلم:

- ما هو طالع زى حالاتي، وحداني ومالوش ضهر.

وأكمل بعدها وكأنما تذكر أمرا وقد زاغت نظراته:

- هو سيد ابنك مبعد عننا ليه؟ دا اللي مالوش أهل بيشتري له أهل، خايف يكون أبوه مقريه ومحفضه كلام غلط عنك.

- هو حر، إحنا مش محتاجين له فى حاجة ولا فى محتاج لنا. لعلى قصدت أن أوكد له عدم حاجته أكثر، ربما كنت أطمئنه وأطمئن نفسي فى ذات الوقت، سمعته يجاريني ويسايرني وقد زاد استعداده للكلام:

- ما أنا عارف كل حاجة، ح يحتاج لنا فى إيه بس، داحنا اللي محتاجين أخ لابنك، وحتى لو كان محتاج لنا هو غريب؟

كانت نبرة التساهل فى صوته لا ترضيني، وكان فى داخلي كلام محبوس أعجز عن الرد به، خفت إن اندفعت أن أغضب وأغضبه وإذا عمل مجلس للتحقيق أكون غلطانية، يطلع من الموضوع مثلما تطلع الشعرة من العجين وأنغرس أنا فيه كما هى العادة، فضلت السكوت، وفكرت، كانت زيارات سيد التى لم أتوقعها قد غيرت فى علام أشياء، بعد زمان عشناه بلا قلق أثر خلافه مع أبى الذى طال حول حسابات قديمة ثم خلافه مع أمى وحرمانى من زيارتها أو زيارتى جاء سيد، لعله بعد أن جالسه مرارا وحدثه واستكشف أغراضه حسبها بينه وبين نفسه، ربما قال لنفسه أن وجود أخ غير شقيق لشاكر أفضل من وحدته الكاملة، ولعله خاف أيضا، لعل مرارته الحقيقة كانت بسبب تأكده من استحالة مقدرته على خلفه جديدة من صلبه، ولعله سلم على كره منه بقبول بديل يخشاه ويتخوف من وجوده فى نفس الوقت، قبل أن يراه وعلى امتداد السنوات كان لا يطيق سيرته، لكنه بعد أن رآه تبدل وجعل يحوم بأسئلته عنه فى الأيام الأخيرة، ولعنى بحذرى

لم أقدم جواباً شافياً لسؤال واحد، ربما لأن الأسئلة نفسها كانت تحوم في دماغي ولا أجند لها جواباً أو تفسيراً، وهل كان سيد بالنسبة لي مجرد امتداد أو أثر حي لحياتي مع حسن، تلك الحياة القصيرة التي أنهاها هو بغشم وخلف لي مهانة العمر المدفونة كجمرة تحت رماد هزيل بنفخ فيه ولد من بطنى بجرأة فينزاح وتنفذ الجمرة من جديد؟ وهل هو وإن حمل نفس الملامح ابنه وحده أو أننى شريكته فيه شركة الأعداء، لعلى كنت قد ارتحت منه وتعودت على مجرد الاشتياق، لعلى جننت وحرصت على كتمان أمارات جنونى بالصمت وكل ما أخشاه هو البوح، الولد نفسه يختلف أكثر مما يتشابه مع كل صنفه، على الأقل هذا هو ما تبدى لي وربما لا يكون صحيحاً، وكيف أحكم عليه وأفهمه وهو فى كل لقاء محاصر معى بنظراتهم، يتدخلون فى كل عبارة تقال مجاملة أو حرصاً على إبعاده عني وإبعادى عنه، ربما لو اختليت به ساعتين أفهمه، وربما لو خلص هو من إحساسه بالغربة عن المكان والناس لفهمته وفهمنى، لكننى أمه، أمه وما يربطنى به حبل سرى جديد ومختلف، لعله لم ينقطع أبداً، قال علام متلطفاً قدر المستطاع ليقطع على سرحانى فى البعيد:

- بس.العلام حاجة ثانية، اللي محيرنى يا أم شاكر، أبوه كان بيصرف ليه منين؟ أنا سمعت أن حالته كانت مش ولا بد.

- ماعرفش.

قلتُها بشيء من الغضب، لعله أدرك أننى على غير استعداد للاستمرار فى السماع أو الرد، قام من مكانه، تلفت حواليه وكأنه يبحث عن شيء ضاع منه فى غفلة، خرج من باب «المقعد» ثم عاد، أطل بنظرة ليتأكد من وجودى فى نفس مكانى، سمعت صوت خطواته وهو ينزل السلم إلى وسط الدار، متباطئاً فى نزوله وربما متوقفاً منى أن أناديه وأسأله إلى أين يتجه وقد انتصف الليل وسيطرت خارج القاعة عتمة.

بعد دفنة عبد الونيس ابن الزناتى عوف بأيام طلبتنى فذهبت إلى دارها، حطت أمامى صحفاً فيه «سد الحنك» وطلبت منى أن أكله ففعلت حتى امتلأت، أحضرت لي قلماً وورقة وطلبت منى أن أكتب:

اليه المأمور:

نعرفك أن عبد الونيس عوف مات قتيل والقاتل ابن عمه عبد القادر جاره

فى الأرض والدار والسبب نزاع على فدان ملك، والكاتب يخاف على روحه وأولاده من ظلم العمدة المنسوب لأولاد عوف، والذى رجع بعد عزله وزاد ظلمه، والمولى عز وجل أمرنا والرسول أمرنا «ومن رأى منكم منكرا» وقال «ولا تكتموا الشهادة» وبلاغى لكم شهادة لوجه الله الكريم، والكاتب نفر مؤمن من كفر عسكر التى زاد فيها الظلم ويخاف ببوح باسمه ولوان الأعمار بيد الله.

أخذت منى الورقة وحطتها فى دولاى الحائط وناولتني ظرفا لأكتب عليه عنوان مدير مديرية الأمن، فعلت فقبلتني وطالبتني بعدم البوح أبدا لأى إنسان بما كان، وعدتها بالكتمان فأحاطتني بيديها وسرحت فى البعيد.

بعد أيام جاءت الحكومة، عسكر وهجانة بربر على جمال، انتشروا فى دروب الكفر ومداخله، قالوا إن الحكومة بحثت عن عبد القادر فما وجدته، وقالوا إن الصول الراجع أقسم بشرف أمه هذه المرة أن يسعى وراءه ولو راح فى «سفا العفاريات». دخل المعاون دوار العمدة والتقى بحكيم الصحة ووكيل النيابة قبل أن يتحرك الجميع إلى المدافن، رأينا عسكر الحكومة وبرابرة الهجانة يحوطونها من كل جانب، يدفعون النسوة من أولاد عوف بكعوب البنادق والشوم ويطاردون الرجال بالكراييج السودانى، كانوا يطاردونهم فى دروب الكفر حتى يدخلوا البيوت، وكانت الحكومة قد أمرت بفتح المدفن وإخراج جثة عبد الوئيس ليكشف عليها الحكيم ثم يأمر بإعادتها إلى نفس المكان، قالوا إن العمدة سعى لكل أولاد عوف وجمع منهم الأموال التى دفعها للحكيم كى يكتب أن الوفاة طبيعية وليست بفعل فاعل وأن يحافظ أيضا على حرمة الميت ولا يشرح الجثة، وعندما قرر حكيم الصحة أن البلاغ كاذب جمع المعاون عسكره وبرابرة الهجانة وتخلف الصول، رحلوا ونبهوا على العمدة بإبلاغهم بما يستجد فى مسألة غياب الول، وعاد الحذر مسيطرة على جماعتنا، غضب أبى وسب ولعن كاتب البلاغ:

- نصايب وبتتلقح علينا، كله من هارون، عايز يولع فى الكفر نار، كرهته فى تلك الليلة، ربما لأننى شاركت العمدة فى كتابة البلاغ، ربما لأننى حزنت مثلها على العم مرزوق الذى تسبب عبد القادر فى موته.
- عنيد القادر مالوش دعوة، مرزوق أخويا كان واكل سمك مسموم مع نفر فى كفر الشرفا مات فى ليلتها ولا حد دريان.

تشككنا فى الأمر وكرهنا فيه كل هذا الخنوع، لم يكن ما رأيناه بأعيننا لعبة كما يقول، ولم يكن ما يشاع عن عبد القادر كله أكاذيب، حتى لو كانت الحكومة قد كفت عن البحث عنه فهو مازال قادرا على رمى بلاه على خلق الله، رأيناه واقفا عند البوابة الكبيرة يلعب إبراهيم عوف لعبة التحطيب، مزهوا بنفسه إلى حد الغرور، وعندما كسب إبراهيم ضحك الأخير وحذره من الصول الساعى فى وسط الزراعات بحثا عنه فضحك بملء شذقيه ساخرا، ذكروا اسم العمة التى توعدته فى غيابه فجابوهم.

- نسوان مش لاقية اللي يكسرها ومالهش كبير.

اغتظت منه ورحت أحدث العمة فأخذتنى إلى دار الجد هارون وطلبت منى أن أكرر ما سمعته أمامه، هز رأسه وأوصانى بإبلاغ أبى بضرورة أن يأتى إلى داره فى المساء، وفى المساء أخذنى أبى معه ودخل الدار، كانت العمة هناك وكان جمع من الرجال، وهى إلى جوار الجد هارون تشبهه فى الكثير، قال المنصور شلبى:

- ناجر المرسى الدباغ عليه.

رد الجد هارون:

- نلم فلوس ونشترى بارودة ثانية ولا اتنين.

تململ أبى وهو جالس إلى جانبى، لعله أراد أن يعترض وخاف من مواجهة الجميع، انكمش فى عباءته وفضل السكوت:

- الكفة مالت ويانا والضرب النهاردة أحسن من التأجيل.

- مالكيش كلام فى وجود أبويا هارون يافطوم.

قالها الحاج مرسى فلم تكلف نفسها عناء الرد عليه. قام المنصور ودارت عيناه فى الوجوه، حدث الجد هارون:

- أخبط الكبير فيهم بالبلطة فى عز الظهر، بس اكتبوا لعيالى خمس فدادين.

- مفيش غير السلاح، المقاريط، ح نلم فلوس.

عقب الجد هارون بحسم:

- وأنا دفاعة فى اللى تقولوا عليه.

قالت العمّة باطمئنان من يملك تنفيذ الكلمة لكن الحاج مرسى اعترض.

- تانى يافطوم، خبر آيه يابا هارون؟ هى مجالسنا ح تتحكم برأى النسوان؟

سأل مستكرا وقد قام محتجا على سكوت المجلس، لكنها أضافت وبنفس

الثقة:

- مفيش فى عيلتنا رجاله وحريم، اللى ح يقدر على حاجة يعملها راجل

أو ست حتى عيلة صغيرة زى دهه..

أشارت إلى فالتفتوا وشعرت بأن لى قيمة وأننى شريكة فى هذه الجلسات،

معمول لها حساب، كان الجد هارون ينظر ناحيتى ويبتسم عندما وقف الحاج

مرسى ثائرا:

- أنا مليش قعاد فى مجلس تحضره فطوم من بعد الليلة.

قالها وهو واقف، تلفع بالعباءة على عجل وهو يسب الزمان الذى أخرس

الرجال وطول السنة النساء تناطح الرجال وتلاوعهم ولا تقيم لهيبتهم وزنا، خرج

من الدار وفى أثره ابنه الكبير، وساد صمت قطعه العمّة بكلام عن ديون مطلوبة

من الحاج مرسى الذى يشتري الأرض ويورط نفسه طمعانا أن يكون صاحب أكبر

حيازة فى الكفر، وأن كل ما فعله مجرد هروب من حكم المجلس على الحاضرين،

ربما كانوا قد اتفقوا على دفع مبالغ جديدة، وربما كان أبى قد وعد بالدفع غدا،

لكنه فى سكة الرجوع كان يبرطم بكلام لا أفهمه عن الجد هارون الذى قبل أن

تسيره العمّة بحسب ما ترجو وما تريد، كان يخبط كفا بكف مبديا سخطه على بنت

بهانة التى تملك وتحكم وتتحكم فى مصائر الرجال، وكنت أشعر أنه يهيننى لأننى

بنت وسوف أكون عندما أكبر مثل العمّة فطوم، وسوف أفعل فى مجالس الرجال

ما يحلو لى وسوف أقدر على الكثير.

فتح حقيبته وأخرج منها قطعة قماش ناولها لى، وعلبة صغيرة فيها سلسلة

وآية الكرسي من الفضة لسعاد وقلم حبر لشاكر، كانت أول مرة أتلقى منه هدية،

علقت سعاد سلسلتها الفضة فى رقبتها وبدأت سعيدة، جرب شاكر قلم الحبر فى

الكتابة بخطه المنكوش ونزل المطر، قمنا من وسط الدار ودخلنا المندرة، عاتبت

لأنه كلف نفسه فقال إنها أشياء بسيطة وجدها في طريقه وهو يتجول استعدادا لميعاد السفر، زادت رخات المطر ودخل علام مبلول الثوب يتشكى من شدة المطر، سلم وجلس فأریناه هدايا سيد، فتفحصها ولامها لأنه يشغل نفسه بهذه الأمور وكل شيء موجود في البندر، وزادت حدة المطر، وكان الجو قد تلبد بغيوم عتمت النهار وما توقف المطر.. ساعة أو ساعتين وما كفت السماء عن انزال المطر، نظر في ساعته بقلق فسألته عن أسباب ذلك القلق، كان قد اعتاد الذهاب إلى دار صالح في دربهم وكنت لا أعترض، أقول لنفسى يكون على راحته مدامت أراه كلما جاء لزيارة الكفر، لكن الأمر كان يختلف، طرق الكفر موحلة والعمة مسيطرة وعلام جالس لا ينطق بالمزيد.. قام سيد عاقدا العزم على الذهاب إلى دار صالح:

- استنى ياسى سيد لما النظره تخف شويه، مش قادر أقولك بات مع أخواتك تكسفننى.

قال علام فتشجعت وأيدته:

- ماحدث يقدر يمشى دلوقت، ح تروح فين..؟

تحمس شاكر لرقاده تلك الليلة معه، ومن جديد سكت علام، كنت في مازق وكان هو الآخر في مازق وكان من المستحيل أن أعرضه لمخاطر السقوط في وحل دربنا وكل دروب الكفر من أجل ليلة يبيت فيها في دار صالح، فقطعت الصمت وأجلسته وهلل الأولاد لأننى أفلحت في التأثير عليه ليبيت في الدار لأول مرة منذ أریناه بفضل المطر.

دخل الدرب رمحا والمنصور أمامه، اعترض الرجال المتربصون طريقه فراح يطوح بعصاه في كل اتجاه، كانوا يتحاشون ضرباته بالابتعاد ثم يتكاثرون عليه بعصيتهم فيدور حول نفسه والعصا مفرودة «دوخينى ياليمونة» يتباعدون ويلبدون في الأركان ومداخل البيوت وجنب الحيطان، سمعتهم يتعجلون عودة المنصور بالبلة ورأيناه يعدل نفسه ليرى باب دار المنصور الذى ما انفتح، قال البكرى من فوق السطح إن المنصور فر بجلده ولن يعود، كانوا يحومون حول على عوف بجرأة معتمدين على كثرتهم، يكسرون خوفهم القديم منه لأنه كما يقولون أحسن من يستخدم النبوت في دائرة المديرية، كان وسط الدرب يلعب أكثر

مما يتعارك، أو على الأقل هذا هو ما ظهر بسبب ضحكاته وسخرياته من أمور لا أعرفها، وهم يجعرون عندما توشك عصاه أن تطول أطرافهم، كأنه ثور هائج مطلق وجمع من الناس حوله وأمامه يبحثون عن مكان المسكة الصائبة بعيدا عن احتمالات الخطر ثم انفتح بابها فتباطأت العصي التي يحملونها ثم استكانت، لا أنكر أنها طالبتهم بذلك، ربما كان في طلوعها من الباب أمرا محسوسا وربما كانت لهيبتها أثر على الجميع، تناثروا في الأركان وتراخت العصا في يمين على عوف، ثم انحط طرفها على الأرض وارتكز عليها، كانت هي تقترب منه على مهل وعلى وجهها ترف ابتسامة حسب بسببها أن المعركة قد انتهت عند هذا الحد، نظر إليها بثبات وطرف جلبابه مرفوع بيده الخالية دون قصد، لعله هم بأن يقول كلاما أو جهز نفسه للسمع منها وقد صارت أمامه تماما، لكنه خلافا لكل توقعاته وتوقعات من كانوا ينظرون وينتظرون تجاسرت وأمسكته بيدها اليمنى من مكان القدرة فيه، بوغت وارتبك وحارت عيناه، حاول أن يتراجع خطوة إلى الخلف لكنه لم يفلح، عافر ليخلص نفسه دون جدوى، كان فمه المفتوح يفرز لعابا عجز عن السيطرة عليه، أصدر أصواتا مبهممة وازرقت سحنته، احمرت عيناه ثم نخ كجمل جريح، بركت هي فوقه، تباطأت حركته أكثر وهي تكز على أسنانها لتستجلب عزمها فوق عزمها، تشنج وارتعش رأسه الذي انفك طرف شاله الملفوف وتدحرجت طاقيته التي على شكل عمامة انقلبت قريبا منه، حسبناه قد مات لحظة أن كف بدنه عن الحركة تماما، تساندت هي على صدره بركبتيها وقامت، مسحت كفها المفروود في قميصها الملون فوق فخذها اليمنى عدة مرات وابتعدت عنه، بصقت على الأرض وقالت بصوت مبجوح للرجال:

- اضربوه.

تبادلوا بضع نظرات، ربما قالت نظراتهم إن الضرب في الميت حرام لكنها أمرتهم مرة أخرى بحزم فنزلت الضربات فوق بدنه ورأسه المكشوف وظهر لنا أنه لم يكن ميتا، كان ينتفض انتفاضات هزيلة إثر كل ضربة مؤثرة وكأنه قرموط سمك مرمى على الأرض قبل تمام السكوت، أشارت لهم بأن يكفوا فكفوا، اقتربت منه بعد أن شممت ساعديها، قلبته فانقلب راقدا على ظهره وتقاطيع الوجه المغلوب مكسوة ببقايا ألم، شالت عصاه من على الأرض واستندت عليها، حدثتهم أو حدثت نفسها:

- كده يبقى انقطع خلفه.

ظهر المنصور حاملا فى يمينه البلطة المسنونة تبرق فى ضوء الشمس
سألها وكأنه يعرف ردها قبل أن يسأل:

- اقطع لك رقبتة؟

لم تكلف نفسها عناء الرد واكتفت بأن تشير إليه ليبتعد، ثم قررت وهى
تتظر إلى بابها المفتوح:

- دخلوه وسط الدار.

حملوه وأدخلوه فنظرت إلى بكرى:

- طيران ع المركز، بلغ عن قتيل فى الدار واطلب المأمور.

خرج البكرى وخرجوا تباعا، بقيت معها ورأيها تمزق قميصها بيديها عن
صدرها فينتفض متفجرا والبطن عار، طلبت منى أن آتيها بملاءة غطت بها عريها
وجلست على طرف الدكة تفكر أو تنتظر، طال الوقت فسكت بابها بالضربة
والمفتاح، كان وجهها الحزين فى تلك القيلولة لا يشبه العمة فطوم أكثر مما يشبه
ذلك الرسم الذى كنت أراه فى صندوق الدنيا على فترات متباعدة ويسميه صاحب
الصندوق «فاطمة بنت برى» التى ضحكت على البدوى.

لسمعتى حلة الطبخ فكتمت وجعى، كسرت على مكان اللسعة بيضة ولفقتها
بقطعة قماش، فانت سعاد فداريت اليد الملسوعة حتى دخلت القاعة، تشاغلنت
بتجهيز العشاء، سمعت نداء علام يستعجلنى فاستمهلت ليشرب الأرز، جلست
أسترجع ما قاله علام فى عصر نفس اليوم عن سيد «موظف على قدر حاله
ويحتاج المساعدة» «أى مساعدة يا علام؟» حرصك على مالك خوفنى وجعلنى
أراجع نفسى فى كل شىء وقبل أى تصرف مخافة أن تظن أننى أرسلت إليهم من
حر مالك قرشا، كنت أحاسبك بالمليم فتسكتنى وتقول عبارتك المكررة. «المصلحة
واحدة» لكنها أبدا لم تكن واحدة، حساباتك مع أبى كانت مجرد كلام ناعم وورق
مكتوب تكسر به عينيه أمام الناس، مازلت أذكر صوته الأسيان الممرور:

- يا بنتى إنتى مالكيش دعوة بحسابى معاه.

لكنه كان يتعامل معى على أساس أننى كنت السبب، لم ينتظر كثيرا بعد

موت أبى وأغضبني، رماني في الدار الخراب ما يزيد عن سنة وهو عارف، طلبت الطلاق فما رضى، جعلني بحسب ما كان يقول للناس مثل بيت الوقف، والآن يلمح لى بسيد، ليته يكف عن المجيء إلى الكفر أو يدخل داره، ربما انخدعت بمعنول الكلام وسعيت بكل طاقتي لأجعل سيد يدخلها، وكيف يتحكم عقلي وأعصابي حتى لا تنزع في قلبه الشكوك الجديدة، وهل ألوم أبى الذى رحل أو ألوم العمة التى تخلت عني في أصعب الظروف، أو ألوم نفسي لأننى تدخلت بالفعل في أمر لا يخصني وتسببت في خلاقات لم تنته ومازالت قابلة للنمو من جديد؟
- خبر ايه.. الرز باينه شاط.

قالها علام وهو واقف قبالتى وسعاد تنزل الحلة عن النار.. تقلب محتوياتها في إناء آخر، كنت أشعر بدوخة ومكان اللسعة في كفى يكويني، كان ينظر إلى سعاد ويهز كتفيه إلى أعلى علامة الدهشة وعدم فهم الأسباب:
- هي مالها؟..

لم يتلق ردا من البنت، ربما لأن البنت نفسها لم تكن تعرف، كانت مشغولة بتجهيز العشاء وإصلاح ما أفسدته وأنا تائهة في أفكارى، دخل شاكر على عادته يستفسر عن عشاء ويكشف الأغطية ليطمئن، دخل القاعة وخرجت سعاد، وقفت أمامي في صمت، نظرت على كفى الملفوف وارتكزت على ركبتيها، نظرت إلى في حنو وهمست:

- إيدك مالها؟
- مقيش..
- ورينى كده.. ياه دى مفأفاه.. حرق؟
- لسعة..
- وسايها كده؟
- كسرت عليها بيضه.
- بيضة؟ ح أجيب لك مرهم الحروق.
- أسكتى دلوقت، بعد ما يتعشوا.

لم يعجبها اقتراحى وخرجت إلى المندرة البحرية، سمعت صوت علام الذى يعض:

- هو انتومش ح تتعشوا الليلة، أمك باينها غضبانه يا شاكِر.
- ليه..؟

جاءت سعاد، حطت على مكان اللسعة مرهم الحروق ومن فوقه قطنة وربطتها بشاش، شعرت بالتآكل فى كفى، ابتسمت البنت.. «البنت حبيبة أمها» تشعر بها وتحنو عليها فلماذا تعشق نسوة الكفر خلفه الأولاد ويشعرن بحسرة لخلفة البنات؟.. مدت يدها ليدى تساعدنى على القيام، سبقتنى ووسعت لى مكانا بينها وبين شاكِر، كان علام يمضغ وشاكِر يمضغ وسعاد تنتظر ناظرة إلى مؤجلة البداية إلى أن أبدأ على عادتها، قال علام من بين أسنانه:

- مالك؟
- مفيش.
- أيدها اتحرقت.

قالت سعاد نظر شاكِر باهتمام قليل أما علام فحاول أن يتضحك أو يضحكهم

- تستاهلى، من ظلمك.
- شمتان؟
- كلى كلى.. تحبى ألكك؟ زمان كنت بأكلها بايدى.. فاكِره يا أم شاكِر؟
- فاكِره.

ضحك علام، ربما أدرك أننى على غير استعداد للضحك أو حتى سماع الكلام، مددت يدى السليمة وبدأت فى تناول الطعام، لعلى كنت أدعوها هى لتناول وجبة العشاء.

- هو سيد أخوك بياخد ماهيه كام يا شاكِر؟
- ماعرفش..
- صرف كثير فى المولد؟
- مش كثير ولا حاجة..
- المثل بيقول أن كنتوا أخوات اتحاسبوا، ولا رأيك إيه يا أم شاكِر؟
- اللى تشوفه.
- الواحد ما بياخدش منك عقاد نافع، أنتى أهم هما الاتنين واجب تكونى بينهم حكم عدل..

كان من الواضح أنه يحاصرني لأتكم، كنت خالية الذهن عن احتمالات أن يفتح مثل هذا الموضوع أمام الولد والبنت بهذه الطريقة، كدت أكرر عليه ما قلته بالأمس «الولد دخل دارنا موظف وليته مادخلها» لكنني منعت نفسي من الكلام وعلام يكيدني بضحكاته وحكاياته عن خلق التقى بهم في الزمن القديم وكانت له معهم نوادر، وكان الولد يضحك والبنت تضحك وأنا أجاريهم وأضحك ربما لا بعده عن معاودة الأسئلة التي ليست لها أجوبة.

بعد العشاء قمت وتولت سعاد ترتيب المكان، كنت وحيدة وخائفة، خائفة أن يفسد علام علاقة الولدين، شاكر وحداني وقليل الحيلة، فرحته بوجود سيد أسعدتني وفرحة سيد بوجوده أراحتني، ربما يكون عند علام حق في استفساراته، شاكر كفه مخروم وما في يده ليس ملكا له، بارع في الإنفاق على من يستحق ومن لا يستحق، وربما مازلت عاجزة عن فهم سيد، وهل هو مثل حسن مستعد للتفريط في حقه كما جرى في الزمن القديم أم أنه ناصح لنفسه، وإذا كنت لم أفهمه وأنا أمه فكيف يطمئن إليه علام؟

بعد الصلح الكبير مع أولاد عوف راجت الأحوال، تنازلنا عن دم المنصور وتنازلوا عن دم على عوف، جهز البك سالم كل شيء، حضر المأمرو وابن الباشا الكبير مدير المديرية وحضر من ناحيتهم العمدة مصطفى عوف وعبد القادر وحضر الجد هارون في آخر أيامه، كانت فرحة أبي لا تعادلها فرحة وكان يحاول في كل كلمة يقولها أن يؤكد لنا أنه لولاه ما تم صلح وما هدأت الأحوال، عاملناهم وعاملونا ردمنا على ما فات، تاجر أبي في القماش وأدخل إلى الكفر «بوابير الجاز» وكان يتندر على أهالي الكفر ممن يرونها لأول مرة بنارها الشديدة وصوتها القوي «يوش» في الأذان مثل القطارات فيرمحون خوفا ويحسبون عفاريت طالعة من تحت الأرض، يخوفهم أبي من انفجارها فيرمحون ويضحك، ومن جرأة البهنسي أنه وقف إلى جانب الوابور قال أنه «مخاوي» من تحت الأرض وقلبه ميت فسماه أبي «البهنسي المخاوي» شغل الحاج مرسى وأبور الطحين فأدهش الناس، استغنى الناس عن الطواحين القديمة التي تدورها المواشي، ولم يبطل اندهاشهم، أدخل عثمان المرسى أول ساقية صاج بتروس حديد على رأس غيطه فكانت مفخرة قلدها من بعده خلق كثار، شالوا توابيتهم

القديمة بتروس الخشب وبدلوها بسواق من الصاج تنزح من الماء أضعاف ما ينزحه التابوت، واشترى أبى أول كلوب فى الناحية فنور الدكان فى عز الليل وكأنا فى نور النهار، أبدل من يستطيع فانوس داره بكلوب «براتينه» من حرير لا تحرقه النار فكانت أعجوبة الأعاجيب، وتوسع أبى فاشترى مندره صالحة بنت حسنين الساكت وضمها إلى دكانه، تاجر فى النقل والزبيب وجوز الهند وأبى الفرو وما ترك شيئا من البندر يحتاجه الخلق إلا وفره لهم فى الدكان لراحتهم كما كان يقول، زاد الخير فدخلت العمه فطوم شريكة له برأس المال، فتح عزت شلبي خمارة للقادرين تسهر حتى الفجر وجلب غازية ترقص للسكرارى وتأخذ منهم «النقوط» ومن كثرة فلوس الناس لعبوا القمار يخسرون ويكسبون.

كانت أمى تكره عزت كراهيتها للعمى «الحيسى» بسبب تلك الخمارة واجتلاب الغوازي والسماح لمن يدخلونها بلعب القمار، لكن تحذيراتها لأبى لم تغير من طباعه، كان إذا رجع مبكرا ليرضيها يخفى زجاجة فى كفه، يناولها لى عند الباب لأخفيها فى مكان وأقدمها له وقت الحاجة، وكثيرا ما كان يرجع فرحانا من عند عزت، يفرغ جيوبه المملوءة بالجنيهات وأنصافها وأربعائها وعشرات القروش الورقية والفضية، يرصها وينظمها فى صفوف ويربطها بأساتك ويضعها فى خزانة الجدار ويقفل عليها بالمفتاح والقفل، يعدنا بأحسن الجهاز ولا تصدمه أمى:

- وإيه اللى مانتك؟ ماتصيفهم وتشترى لكل واحدة سوارها من دلوقت، دانتو اتنين على وش جواز.

- أصل إنتى هبله، القرش فى أيد التاجر بيحب قرش زيه، عايزانى أحط فلوس فى شوية ذهب ونحاس من دلوقت؟

كان يرد عليها متهربا فتسكت عاجزة عن الاستمرار فى معارضته وكان هو ينتحى ركننا بعيدا علامة الغضب، ربما يطلب الزجاجة ويشرب منها جرعات ويسدها ثم يتمدد مكانه دون أن يشعر به أحد، وذات مساء عاد محزونا على غير عادته وسمعناها تتباكى وهى تلومه ربما فى المرة الوحيدة التى جرئت على توجيه اللوم له فى كل حياتها معه:

- ياما قلت لك يا عبد الستار، سكة القمار مكسبها خسارة، ماسمعتش

الكلام، كده فطوم حاتتحكم أكثر وأكثر.

وكلام كثير قالتة ولم يرد.. من بعدها تغيرت عاداته ونادرا ما كان يتوجه لأمى بكلام، كثرت زيارات العمدة فطوم لدارنا ونقصت البضاعة من الدكان.

بعدها فتح البكرى مندرة دارهم ورص فيها سراير الحديد بوصة إلا ربع وبوصة وبوصة ونصف يبيعها للأهالى مع طبالى العشاء والخبيز والحبال التيل ورعوس الفئوس وياكوات المعسل ثم أقماع السكر وبلايص العسل وقراطيس الشاي، يبيع وتجارة أبى تبور، لكنها كانت أزمة زالت بمساعدة جديدة من العمدة التى باعت أرضا زود بها الحاج مرسى جنيئة الموالح التى يملكها.

أيامها بنى الحاج مرسى أول دار بالطوب الأحمر فى الكفر، عمل «أمينة» كبيرة رص فيها الطوب صفوفًا صفوفًا بعلو دار وفيها فتحة فى الجنب يشعلون فيها النار وأخرى لا نراها يطلع منها الدخان، كنا نذهب للفرجة مع ناس الكفر ونراهم يضربون كفا بكف لأن الطوب الأخضر تلون وازداد صلابة، وعند البناء لأول مرة على السكة الزراعية من ناحية المدافن غوط البناعون أساس الدار وركبوا مكان الباب البرانى بوابة من حديد ملفوف دوائر ودهنوها باللون الأحمر فكانت داره مثل سراية الباشا الكبير فى البندر وكانت جلسته مع أهله وأصحابه مطلا من شرفته العالية عزوة وقيمة لكل أهل الدرب، وربما بسبب هذه الدار نفسها لم يجرؤ أى واحد من الأهالى على ترشيح نفسه للعمادة ضده بعد موت الحاج مصطفى عمدة الكفر القديم وتحولت الدار إلى دوار وراحت أيام الجد هارون فما عاد أحد يسهر عنده كما كان من قبل بناية الدوار الجديد.

وكان موت الجد هارون فى هذه الأيام من حسن طالعه فقد شاله الحاج مرسى «شيلة» عزيز مقتدر، عزانا فيه كل الأكابر، الباشا وأكبر أولاده والباك سالم ومأمور المركز ومندوب عن مدير المديرية وكل الأهالى من أولاد عوف وغيرهم جاءوا ليروا بأعينهم الفارق بين ليلة كبيرهم وكبيرنا، ذبح الحاج مرسى الذبائح ونور بالكلوبات وأجر مقرئين من الإذاعة وما بخل بشيء حتى صارت ليلته سيرة الخلق فى كل كفور الناحية ونجوعها الذين ما كفوا من يومها عن ذكرنا بكل خير.

جهزنا الزيارة ورحنا له أنا وشاكر وسعاد، دخلنا شقته فى الحلمية الجديدة فما صدق عينيه، نسى أننى عشت فى هذه المدينة زمنا قبل أن يولد، كان فى الشقة سرير واحد وعدد من الكراسى الخيزران وترابيزة مفروشة بروقة وصفوف متراصة من الكتب فى كل مكان.. على الأرض والأرفف المعلقة على الحيطان ولم يكن فى مطبخة مواعين ولا صحون ولا أكواب تكفى أكثر من نفرين، وكان يبدو فرحانا أكثر مما كنت أتوقع، تحيرنا فى أى شىء نفرغ السلال فتركناها وعلى حالها واكتفينا باخراج ما هو ساخن مازال أو قابل للفساد، قلب شاكر فى الأوراق ثم تركها دون اقتناع، وسألته عن الكتب المتراسة فضحك وحدثنى، عن أشياء ما سمعت بها قبلا ولا انشغلت بها وهو يحدثنى كانت تعجبنى طريقته فى الكلام، مجرد طريقته فى الحماس للأشياء أو ضدها، حدثنى عن الآثار التى يعمل مفتشا بها ووعدنا بزيارة للمتحف والأهرامات، كنت قد زرت الأهرامات فى الزمن القديم لكننى لم أعترض حماسه، حدثنى عن تاريخ قديم غير ذلك الذى حدثنا به الجد هارون، دهشت وأنا أسمع عن فراعين وقبط وعرب مسلمين، كنا فى المدارس نقرأ القليل عن هذه الأشياء ونحفظ بعض الأسماء لنكتبها فى الامتحان لكنه كان يعرف الكثير ويستشهد بالرسوم والكتابات القديمة للفراعين، تلك التى كان من الواضح أنه قادر على ترجمتها ببسر، وعندما ذهبنا إلى الأهرامات رأيتها معه بشكل مختلف، وفى المتحف رأينا تماثيل تشبه الرسوم فى كتبه وهو لا يكف عن ذكر الحكايات التى نادرا ما كنا نسمع عنها وأن سمعنا فمجرد سماع اسم بشكل عابر فى الراديو سرعان ما ننساه، حتى حديقة الحيوان معه كانت تختلف، بدا لى أننى كنت أزورها لأول مرة إلى حد أننى سألته إن كانوا قد أنشأوا واحدة جديدة مكان القديمة فأكرر وأكد أنها كانت منذ البداية فى نفس المكان، ودخلنا سينما فيها فيلم عربى لعبد الحليم وشادية وإفرنجى فيه ضرب نار، ومسرح فيه ناس تتصايح وطواف نحيل يلف بالخبز على البيوت أبكاني لأنه ظل حافيا يحلم بحذاء لم يملكه أبدا:

- نشتريله جزمة يا سيد يا بنى.. دا باين عليه غلبان.

ضحك وأشار إلى بأن ألزم الصمت ففعلت، ولا بد أننى بوجودى فى الكفر لم أعد أعرف ما يجرى فى مصر من أفعال ولا بد أن أخذ منه كتابا وأحاول قراءته وفهم ما فيه من أسرار.

فى الليل قبل سفرنا كنا نتسامر، حدثته عن حكايات من تلك التى كان يحكيها الجد هارون عن الملك الشلبى فكان يتسمع باهتمام ويستزيدنى فاسترجع ما كدت أن أنساه وأقول وهو فى سرحانه يتفكر ويبدو دهشته وكأنه ليس عارفا لأى شىء عن أهله من ناحية الأم، أغاظنى جهله بحكايات الملك الشلبى التى لابد أنها مكتوبة فى أوراق مثل هذه الأوراق المرصوفة كتباً لا حصر لها، سألته:

- معقولة يا سيد يا بنى ماتعرفش تاريخ جدك وأنت بتاع آثارات؟

ضحك قبل أن يطلب منى أن أحدثه عن الجد هارون، ذلك الذى سمع باسمه ولم يلتق به أبداً فحدثته، هز دماغه وسرح بعيداً ثم دمدم:

- شخصية غريبة جداً، جاب الكلام ده منين؟

- قصدك إيه؟ كان حافض زى ما أنت حافض كده.

- بس أنا حافض تاريخ مكتوب، إنما ده.

- قصدك إيه؟

قالها شاكر بعصبية وغيرة على الجد هارون فرد سيد:

- دا أكيد كان راجل عقله صاحى وقادر يخترع لنفسه تاريخ.. كلام يسلى بيه الناس.

- دا غل بقى..

قالها شاكر وقد زادت عصبية:

- غل؟ من إيه؟ هما مش قالو لك إن عيلتنا خدت منكم العمودية وملكت أرض الزمام؟ لأنهم ملوك وولاد ملوك.

- قالوا لى.. بس دا مش معناه..

لم يكمل عبارته ونظر إلى شاكر وكأنه يقيسه، كان شاكر فى السنة الإعدادية للعام الثانى لا يزال، أصغر منه بعشر سنوات أو يزيد، حدثنى متهرباً من الاستمرار فى نفس الموضوع الذى تسبب فى غضبة شاكر:

- نتكلم فى موضوع غير ده.

لا أذكر أننا تكلمنا فى الموضوع نفسه أو غيره، أذكر أن شاكر كان يشعر بالضيق وكنت بدورى تاتيه وعاجزة عن الاعتراض.

كنت انتظر مجيئها على نار فى أيام الإجازات، كنت أشعر بها وهى «تهرس» وسط الدار مرواحاً ومجيئاً، لا أعرف من فتح لها الباب والكل نيام،

أُتسمع أنفاسها وأميزها وأنا بين النوم واليقظة، أقاوم فرحتي بوصولها وأتمطى قبل أن أتأكد، ربما أحس حركة أمي هي تنزاح من تحت الغطاء «منسلة» في حذر فأعرف أنها بالفعل جاءت أتابع الضوء المتباعد للمصباح وهو يخرج من المندرة محمولاً بيد أمي، أسمع همسات العمة تحدثها بصوتها الخافت «المغلف» بخرخشات الصحو المبكر، أبعد الغطاء عني وأقوم لأراها بعودها القصير الممتلئ ووجهها المستدير حازم التقاطيع، أتبعهما في صمت وأراها وهي تدس يمينها ما فوق الكوع في حلق الزلع، تذوق بطرف لسانها طعم المش وتشير إلى أمي لكي تصب لها الماء من إبريق النحاس فتغسل ساعدها وتجفقه دائماً في ذيل جلباب أمي التي تقدمه إليها في حماس وهي تقترب منها أكثر، وتثبت في مكانها حتى تتركه العمة، بعدها تنظر في «براني» السمن، تتشممها ثم تحكم وضع أغطيتها الفخارية على حلوقها وتعيد ربطها بحذق، تلقى بنظرة خاطفة على مخزون الأرز وتميل بطرف عينها نحو كوم البطاطس في ركن الخزانة تقيسه، تهز رأسها وتخرج من باب الخزانة لتدخل ونحن في أثرها إلى قاعة الطيور، توارب الباب بحرص بما يسمح لبدنها بالدخول ولا يسمح لطائر بالخروج إلى وسط الدار في تلك الساعة البدرية التي تسبق طلوع الفجر، تهمس لنا وهي في الداخل تأمرنا بالتمهل عند الدخول، أحمل المصباح عن أمي حتى تدخل وتتناوله مني فأنزلق بسرعة لأسمع صوصوة الكتاكيت وهديل الحمام وفحيح ذكر البط الواقف بجانب البطة الراقدة على البيض خائفاً ويخوف، أتحاشى عضات ذكر الأوز العجوز وأنا أتابع مع أمي حركات العمة السريعة الواثقة وهي تتحسس بنائي الحمام لتطمئن على الزغليل، وهي تزيج في خفة الدجاجات والأوزات الراقدة على البيض، أقترب منها بالمصباح فتوسط بإصبعيها البيض واحدة في أثر أخرى بين عينها وضوء المصباح، «تفرة» وتعيده إلى مكانه في دربة، ترج بعض البيضات في حذر وتتسمع منها أصواتاً قبل أن تعيدها إلى مكانها أو تبعدها ثم تدفع الطائر لاحتضان البيض قبل أن يبرد، تشير إلى فأخرج وأعود بسرعة إلى القاعة وقد حملت حزمة برسيم من ذلك الحمل المحطوط على دكة النورج في وسط الدار، تبعثرها حول جحور الأرانب وتنتظر حتى تطل منها في حذر قبل أن تخرج بحرص أولاً ثم باطمئنان وكثرة، تنفرش أركان القاعة بالأرانب الكبيرة والمتوسطة والصغيرة

والأصغر، تمسك هي أرنباً كبيراً أو أرنبية وتحك بطرف إبهامها الشعر حول الأنف والبوز وتنظر إلى ما قد يعلق بطرف إصبعها من قشر أبيض دقيق من أثر الحك، تترك الأرناب وتتجه نحو الباب وتخرج في خفة فلا يقلح طائر في النفاذ إلى الخارج، نتبعها وربما يفلت أرنب أو كتكوت من بين قدمي أو جليباب أمي، تحكم هي أغلاق باب القاعة وتطلع السلم الخشبي إلى سطح «المقاعد» وتمد يدها في «الوع» القمح، تطمئن على حجم المخزون وتخرج براحتها وفيها حفنة منه نتفحصها بنظرة متأنية ثم تعيدها، تقيس ببصّة عابرة كوم كيزان الذرة المحطوط جنب جدار الغباشي، تقشر كوزين أو أكثر من أغلفتها وتلف كل واحد منها أمام عينيها وكأنها تقرأ في كتاب ثم تلقى بالكيزان إلى وسط الدار، تتقدمنا نازلة على السلم، أنظر إلى وجه أمي فأحس قلقها وأسمعها تتودد إليها وتحذرها من الدرجة الأخيرة أو ذلك المسمار البارز مخافة أن يقطع طرف طرحتها أو ثوبها، لا يبدو عليها أي اهتمام بتحذير أمي وتنزل في هدوء وثقة، تتشاغل عنا بللمة بعض الأشياء أو تأمل الجدران حتى تتأكد من نزولنا فتتحرك من مكانها وأمي تؤكد لها أن الدار زارها نبي وأن بركاتها سوف تحل، وربما تعتذر لأننا أصبحنا نكلفها الجهد والمشقة، تهز رأسها وتفتح باب الزريبة، تتحسس في تؤدة ظهور العجول اللباني وعجول التسمين، ربما تجس جاموسة أو بقرة لتطمئن على «البذرة» أسرع نحوها بالإبريق أصب ماءه لتغسل ساعدها الملوثة وأمي تعتذر لها في حماس أو تتولى عنى الإبريق وتصب لها قبل أن تناولها طرف ثوبها لتجفف يديها وتهمس في خجل:

- يادى الكسوف ياعمه، وبتعوصى ايدك اللى تتلف فى حرير؟

- دامعاش أخويا يا هبله، ح اتعب لمين أعز منه؟

يشجع أمي ردها غير العصبى فتسألها بلهفة:

- حلوه البهايم يا عمه؟

لا ترد عليها وتظل ماشية في طول وسط الدار وعرضها، تعدل طاجنا مقلوباً أو تحط طوبة مرمية جنب جدار، تلملم كناسة الحطب بمداسها في ركن وتأمرنى بحملها أمام الفرن، تلم كيزان الذرة التى ألقت بها قبلاً وهى فوق السطح وتقوم بتفريطها في آلية وترمى الحبوب في الأركان، وقبل أن تخرج من باب

«الخوخة» إلى صحن الدار البرائية تكون أمى قد أسرعت بفرش فروة الخروف الكبيرة فوق الحصير المفروش، تعدل المسند خلف ظهرها لترتاح فى قعدتها بينما تتكوم أمى فى استكانة تنتظر عند طرف الحصير، تأخذنى هى إلى جوارها وتربت على ظهرى فى حنو، يتزايد القلق على وجه أمى تعض هى على طرف شفتها السفلى على عاداتها كلما أرادت أن تتكلم فى أمر لا تقبل فيه معارضة:

- دكر الوز خاب، ادبحوه واطلقوا دكرين من البطن البدرية.
- يندبح يا عمه حاضر.
- الأرانب يصيبها الجرب، ارموا نقلتين رطش فى القاعة وهاتوا لهم قزاة دوا من عند القطار.
- نجيب يا عمه.. حاضر.
- البطاطس تتبدر يا مريم لاجل مايطولهاش السوس.
- نيدرها يا عمه.. حاضر.
- والعجول دول تتصحوا لهم، انتو ح تربوهم ع التبن؟
- بنرش لهم يا عمه فول ورده و...
- الكلامده مش نافع، أنا قلت انصحوا لهم وخلص.
- ننصح يا عمه.. حاضر.
- زلعة الجبنة الكبيرة ملحها ناقص ليه؟ ماتعرفيش تدوبى حفاتين ملح رشيدى فى طاجنين لبن رايب وتزوديه؟ اللى ح تنقصيه منها حطيه فى الزلعه أم ودن واحده، ناقصها مش يا مريم.
- حاضر يا عمه.. حاضر نعمل كده.
- وسط دراكم مش نضيف، ح يجيب لكم الواغش، البنات بتعمل ايه طول النهار؟
- باغلب معاهم يا عمه.
- معاشكم ح يخيب يا مريم.
- دى البركة ح تحط يا عمه على ايديكى، سامعه يا شوق؟
- تقولها أمى وهى تنتظر نحوى وكأنما تخفف عن نفسها ثقل المسئولية وترميها على أكتاف البنات فتحيط العمه أكتافى بذراعيها وكأنها تدافع عنى:
- شوقى أنتى! الثلاثة راقدين جوه. راقدين لدوقت ليه؟

تقول العمة وهي تعدل خصلة من شعر رأسى، أشعر بالفرح لكننى أحزن من أجل أمى التى تعجز عن المجادلة دائما وتحط رأسها فى الأرض وكأنها تلميذة غلطانة حطت وجهها فى الحائط كما أمرها الأستاذ أو ناظر المدرسة لابس طربوش التسر.

دخلت العمة من باب الدار على غير توقع وعلام خلفها، كان سيد يجلس على طرف الدكة وصالح إلى جواره، كانت العمة تتحرك بعسر فى اتجاههما وتتفحص الوجهين، اختارت سيد لتسأله أولا من يكون فجوابها ثم سألها بدوره من تكون بأدب لكنها لم ترد عليه، جلست بصعوبة على طرف الحصير المفروش واستندت إلى المسند وسيد ينتظر وربما يقدر كبر عمرها ويتعاطف معها، نظرت إلى صالح وسألته من يكون فحرك لسانه فى أركان فمه وفتحه ولم يجاوب، بدا وكأنه يستهين بها وبسؤالها فى نفس الوقت، كانت فى نظراته كراهية لم يخلص منها، تطوع علام ورد على العمة:

- ده سى صالح ابن سى حسن برضه يا عمه.

- آه.. وايش جمع الشامى ع المغربى دلوقت؟.. يا حامى..

استفض صالح واقفا باحتجاج غاضب وهو ينظر ناحية العمة ثم إلى سيد الذى بدا له حائرا لا يعرف كيف يتصرف.

- قوم بينا يا أستاذ.

قام سيد نصف قومة لكن علام أفلح فى إجلاسه مرة أخرى وإن فشل مع صالح، وبرغم كل ما سمعه ظل واقفا مكانه وفى عينيه غضب، كنت أراقب سيد الذى بدا لى غير قادر على فهم ما كان يدور حوله، حسم صالح أمر نفسه قائلا:

- أنا ح اسبقه ع الدار يا ست أم شاكر، إتهيا لى مش ح يتوه ف الكفر، اوعاك تتوه ياسى سيد فى بلد أبوك وجدك وجد جدك من قديم الأزل..

خرج وسمعناه يتندر على ما قالت العمة بصوت مسموع:

- قال شامى ومغربى قال.. مين بقى الشامى ومين المغربى؟..

كان علام يدور بنظراته فى كل الوجوه ويستجدى من يفاتحه فى أى موضوع.. وعندما سيطر الصمت قطعه:

- أهلا بسي سيد.. حمقى قوى صالح أخوك.
تدخلت العمه:

- ح يتحمق علينا ليه؟

ومرة أخرى ساد صمت، كنت أخاصم العمه ولا أرغب فى مفاتحتها فى الكلام رغم دخولها الدار مع علام، عندما جاءت سعاد من داخل الدار تحمل أكواب الشاي أدهشها وجود العمه ورحيل صالح الذى دخل دارنا لأول مرة مع سيد، ربما لكى يؤكد لى أنه يخصه أكثر مما يخصنى، أو أنه أراد أن تكون المسألة مجرد تعريف بالمكان ورفقة عابرة لا تطول، كنت أريد أن أسأل سيد إن كان قد التقى به صدفة أو أنه طالع من داره إلى مكان فقام بتوصيله فى سكرته، لكن دخول العمه كهرب الجو فى أعقاب دخولهما بدقائق لم يتم خلالها إعداد شاي التحية، كان الجميع كانوا على موعد لتعكير الجو وسيادة الكدر، شىء ضيع فرحتى وجعلنى لا أطمئن إلى إمكانية تكرار زيارته لى.

قطع علام الصمت الذى سيطر على الجميع بكلام غريب:

- الله يرحمه جدك عبد القادر كان حاجة تانية، كان قد الدنيا ولا يغلطش فى حد أبدا، إنما سى صالح ده زى ما يكون ما حدش مالى عينه، شوف اتحايلنا عليه قد إيه؟ ودى أول مرة يدخل دارنا.

- أنت صحيت لعبد القادر يا علام؟

- خبر إيه يا عمه.. هو أنا صغير؟

كان سيد يتابعهما بنظراته وكنت أشعر بالقلق لذلك الشكل من اللقاء الذى لا يتيح لى فرصة المشاركة، ويبدو أن سيد نفسه أدرك ذلك فالتفت إلى وابتسم قبل أن يسأل العمه متبسطا:

- ماقلتلىش لسه.. حضرتك تبقى مين؟

- فطوم.. سمعت عن فطوم؟

- كتير.

- قالوك عنى إيه؟

- أنا ح أستاذن.

قالها وهو يقوم من جلسته وعلى تغره ابتسامة هادئة، مد يده وسلم على

الجميع رغم اعتراضاتى واعتراضات علام، وعندما خرج كان كوب الشاي مكانه لم يمس وكان المشروب فيه قد فتر أو برد إلى حد يصعب على النفس أن تشرب منه جرعة.

فى تلك الأمسيات كانت تبقى عندنا، وكان هو يقفل دكانه مبكرا ويعود حاملا اللقافات الورقية، يناولها لأمى فى زهو ويطلب منها أن تجهز العشاء تجيب «بالحاضر» وتغطس مع البنات فى وسط الدار، يجلس أبى إلى جوار العمه ويرحب بها فى حماس قبل أن يسألها إن كانت راضية عن حال الدار متوجسا وتجاوبه:

- عاوزاك مستور قصاد العدو والحبيب يا عبد الستار.

- البركة فيكى يا فطوم.. لولاكى.

- أسكت.

تقول محذرة فينظر ناحيتى ويسكت، ثم يحدثها فى أخبار الناس وما قد يكون قد جرى فى الكفر من أحداث، يفتح لها سيرة الدكان وما يكون قد أضافه من أصناف جديدة وتلك التى كف عن المتاجرة فيها، تحذره من القعاد فى خماره عزت شلبى فيطرق فى حيرة حتى تنحط طبليّة العشاء وفوقها الصينية الكبيرة، يضع أمامها طبق «الزفر» الكبير ويهمس فى تبسط:

- فرقى ع العيال يا فطوم.

تمد هى يدها وتبدأ فى التقطيع، تبدأ به والبنات ثم تضع نصيب أمى وتقول عبارتها المألوفة للجميع:

- اللى منابه صغير يقول.

لا يقول أينا شيئا عن نصيبه، ربما لأن تلك الأمسيات التى كانت تشاركنا فيها وجبة العشاء يكون النصيب فيها مضاعفا ونادرا ما كانت الواحدة منا تقدر على إكماله، ينتهى العشاء وتقدم أمى محتويات الأكياس التى جاء بها أبى من دكانه، أكثر ما كنت أحبه أن نتحلق فى الشتاء حول راية النار ونشوى «أبا الفرو» أسمع طقطقاته وأرى قشرته وهى تنفتح وأصبح من السهل الخلاص منها، وتلك الحلوى المخلوطة بالحمص والسمسم على هيئة أقراص وأصابع، كنا نشبع فى تلك الأمسيات أكثر، وكانت هى تحكى تلك الحكايات التى لا تنتهى أبدا

عن جدها الملك الشلبي الذي حكم الدنيا المسكونة زمنا، والذي كان يرسل في كل ركن من أركانها أميرا من نسله يحكم بالعدل ويحاسب الظالمين، تقول إن نسله كان كثيرا إلى درجة أنه كان لا يعرف له عددا، وأنه كان نسلا من الرجال في أول الأمر حيث كانت كل خلفته صبيانا، وتؤكد العمة أنه برغم كل ما كان يملكه وكثرة خلفته يشعر بالحزن ويبكى، وعندما نسالها تقول إنه كان يشتاق إلى خلفه من البنات ويرى أن الدنيا ظلمته ولم يحقق فيها مرامه، يسألها أبى كيف؟ فتجواب على الفور بأن الملك الشلبي كان يقول لأخبر أبنائه إن البنات جذور في الأرض يصعب اقتلاعها وإن الأولاد فروع مهما قويت سهلة التكسير، وتضيف وهي تنظر إلينا بحب إن البنت أم وماعون والولد ريح طيار صعب الاحتفاظ به، كنا نفرح بتلك الحكايات ونتباهى بأننا بنات، نفرح أكثر لأن الملك الشلبي خلف من البنات أضعاف خلفته من الأولاد، تسألها أمى بعد تردد عن أملاك الملك الشلبي فتبلغ ريقها وترد بأنه كان يضع الذهب في صناديق كبيرة يملأ بها خزائن أصغرها في حجم مندرتنا الكبيرة، أذكر أنها قالت عنه أو عن ملك من نسله أن قصره الكبير كله كان مبنيا بطوبة من الذهب وطوبة من الفضة، وكانت نصف ثياب بناته وحربمه من الحرير الهندي والتي لا تشبه ثياب الخلق في زماننا، تسألها نعمات بجرأة إن كانت واحدة من بنات بناته احتفظت بواحد من تلك الثياب، فتحكي أن جدتها احتفظت بواحد منها في صندوقها وهي في أرض البرارى، وأنه حدث أن سطت على بيتها هناك عصابة من اللصوص وحملوا الصندوق بما يحويه فظهرت أمامهم وقايضتهم ببعض مصاغها من الذهب مقابل الصندوق، وأن اللصوص حسبوها امرأة بلهاء لأنها ضحت بالذهب مقابل بعض الثياب القديمة في صندوق لا يساوى، لكنهم أدركوا الخدعة عندما باعت جواهر الثوب المخبوءة في طياته كل جوهرة بمال لا يقدر، ذلك أن الجواهر كانت مخفية بطريقة لا يعرف سرها إلا صاحبة الثوب بنفسها، تقول العمة إن جدتها تركت أرض البرارى وجاءت لتشتري زمام الكفر من أولاد عوف الكبار ودفعت الثمن ذهبيا خالصا لكنهم بعد موتها أنكروا الأمر وعاركوا أولادها وأولاد أولادها.

كنا نغضب من أولاد عوف ونود لو كنا رجالا لنعاركهم ونأخذ منهم ما سبق

وأخذوه بالقوة واستعادوه ظلماً، لكننا كنا نفيق على حقيقة كوننا بناتاً والعمة نفسها امرأة لا تقوى على حرب الرجال، وأحياناً كانت العمة تنسى وتحدثنا عن اعتزاز جدها بذكورة نسله ويتباهى بهم قائلاً إن ذراع الولد سند وعون وسلاح وأنه بهم حكم الدنيا، وأن البنات هم وعار إن غفل عنهم أو سرح بعيداً عن أرضه، وعلى المرأة أن تعوض ضعفها بالحيلة والدهاء، كنا نحتار في أمر الملك الشلبي، هل كان يحب خلفه الصبيان أكثر أم خلفه البنات، ونسألها عن بلده تلك التي تحكى عنها فتشرد بنظراتها إلى البعيد وتحكى عن بلاد بعيدة يحيطها نهر وبحر بلا قرار وعلى أطرفها صحراء ممتدة وبرارى براح، تحكى عن مخاطر السكة إليها واستحالة الوصول إليها في الطرق المسكونة بالذئاب والثعالب والسباع، تحرص على أن تؤكد أن برارى أرض الملك الشلبي غير تلك البرارى التي جاءت منها جدتها التي اشترت زمام الكفر بالذهب وتلك التي يسكنها البك الشلبي، يبدو عليها التعب من كثرة الأسئلة وتتوه أحياناً بين الرغبة في الاستمرار أو السكوت بعد أن تقول عبارتها التي اعتدنا سماعها في مثل هذه الحالات:

- وجعتوا دماغى بقى.

- أحكى لكم عن عمتم فطوم أيام زمان.

يتدخل أبى بحماس فنعرف أن دوره فى الحكى قد جاء، كان يحكى عن صباها وشبابها الذى لم نشهده، وكيف إنها كانت بألف رجل، عن جمالها الساحر وفتنتها التي تسحر العابد، وكيف أنها مازالت قادرة على تعمير بيوت وتخريب دور الكارهين الظلمة أن فكروا فى معاداتها مهما بدا للخلق أنهم أقوياء، وكان ينظر إلى كل واحدة منا ويباهى بأنها أخذت من العمة شيئاً:

- نعمات وأخذه منك النضافة يا فطوم، شاطرة فى الطبخ والعجين والخبيز وكافة طلبات الدار.

- جواهر بنتى عزم وصحة، أهو من غيرها لا نطحن ولا نغسل حب ولا نعرف نترب لمواشى ولا نشيل سباح.

- عطيات سهتانة وواعية ولا يفوتهاش فايت، القرش ع القرش وفى الحساب لبلب، يقول نمسكها مصروف الدار من دلوقت هى ع - هى ع.

يضحك فتضحك، لا يقول عنى شيئاً لأنها تسبقه. تحوطنى ذراعيها كأنها

تحميني من خطر لا أراه وتقول:
- شوق دى حته منى.

أشعر بالزهو أكثر من كل البنات، التصق بها أكثر حتى يحين الوقت الذى
تفكر هى فيه أن ترحل، تقف وتحبك طرحتها حول وجهها وتتغطى بالملس وهم
يطمئنونها بأن السهرة لم تبدأ دون جدوى، تخرج ويخرج أبى فى أعقابها
ليوصلها حتى تدخل دارها، وعندما يعود لاهثا يحدث أمى بصوت خافت وكأنه
يذيع سرا أعلنه على مسمع منا عشرات المرات وإن كان يخشى أن تسمعه
الحيطان التى بها أذان مستورة لا تراها:

- دى رسمالنا دلوقت يا مريم، قرشها ف عينا ولا لناش حد غيرها..
- عارفه يا خويا.. عارفه.
- أوعى تزعليها يا مريم بكلمة كده ولا كده.
- يالهوى، دانا لجل خاطرك أحطها ف حبابى عنيه وأعمل لها خدى
مداس.
- إن جرالها حاجة بعيد الشر كله ح يبقى للبنات.. فطوم مهباش هبله
تضيع شقاها على حد غريب..
- عارفة يا خويا.
- سايسيه يا مريم ولا ترديش عليها غير بكلمة نعم وحاضر.
- حاضر.
- البنت شوق تروح تبات معاها الليلة الجاية، تسليها.
- حاضر.. تروح.. وماله.

رأيتة فى المنام يوبخنى، يخطف مصاغى ويرمح فوق سطوح الدور وقد
خلص من عجرة وقام، يدخل خمارة عزت شلبى ويلعب بالورق وأنا أرمح لأخلص
ذهنى من بين أصابعه، يقامرنى رغما عن أرادتى فألاعبه «الكومى» وأخسر،
أبكى وأتضرع له أن يعيد إلى مالى المخطوف ويعاندنى، يعايرنى بخلفتى الأولى
ويهددنى بخطف الولد الثانى إن ظلت أبكى، أسعى لأمى وأحيلها عليه ترجوه
حيذا وأرجوه حيناً، وهو يتضحك فرحانا لأنه أمتلك، استعداد ماله الضائع بمالى
وحوط عليه فى مقبرة، أمشى سكة المدافن وقد فشلت، أتباكى مع أمى، أقول لها

إنه لو كان أبى ما خرب حياتى مرتين فتواستينى وتمزق ثوبها فأدارى عريها
بشالى وأظلم أبكى وأبكى وأدعو عليه وقد نالنى التعب، أستند على جذع نخلة
فأراه على مقربة من يكيدنى ويزود همى وعلام واقف وقد احمرت عيناه يسألنى
عن ماله الذى أضاعه أبى، يجف ريقى من كثرة النداء ولا يرد وأقوم مفزوعة
أصرخ طلبا لجرعة ماء.

كانت تكره فى السابق خلفه البنات، قال أبى إنها أشارت عليه ليتزوج
أخرى تنجب الولد وإنه طاوعها وهجر أمى لسبع سنوات وأدعى أنها انقطعت
خلفتها، ولما طالت عشرة الأخرى التى لم نرها ولم تنجب لا بنت ولا ولد أشارت
عليه ليحرب مرة أخرى فلم يوافقها، هل قال أنه طلق الأخرى أو أنها ماتت
بحسرة؟ تاهت من ذاكرتى حكاياته القليلة عنها وما تبقى غير مرارته عند ما كان
يحكى عن خصام العمة له زمنا، كان يحرص على أن يقول لنا:
- فطوم كانت عايزه مصلحتى يا ولاد، وكل شىء نصيب.
يسكت فترة ثم يقول:

- صعبت عليا العشرة معاكى يا مريم، أهو لو ماكانش حصل اللى حصل
ماكانش شفنا عطيات ولا شوق.

كانت أمى تغضب على روحها وتبدي أنها سامحتها من زمن، تحسب أنها
ترضيه وكلنا يعرف أنها ما سامحت ولا غفرت لها أبدا، صحيح أنها كانت تطاوع
وتمتدح وتقبل كل ما تشير به العمة دون اعتراض تنفيذا لوصاياها، وكنت أنتظر
منها أن تعترض مرة أو ترفض أو حتى تثور فى وجهها لكنها لم تفعل أبدا، ظللت
أنتظر دون جدوى، وكنت أعتاظ منها عندما تقبل منها محاولات الإذلال وتسكت
فاوشك أن أطالبها بعدم السكوت ولا أجرو، ما كان يزود وجعى من ناحيتها أنها
كانت تضعنى وأنا ابنتها فى صف العمة، سمعتها بنفسى تحذر البنات بصوتها
المهموس المحاذر:

- شوق دى عيلة ماتعرفش، ما حدش منكم يغلط قصاها بكلمة لا تنقلها
لها، ياما نفسى أشوف فيكى يوم يا فطوم يا بنت بهانه، سبحاتك يا
خلاف الظنون، أهى لا طالت ولد ولا بنت، اتفرعنت بالكلام وپس،
عاشت وبكره تموت وهى بتتمنى ضوفر عيله عميا ولا هياش ح تطول.

عندما أحست أمي بوقع خطواتي بان في عينيها الفزع وكأنني هم الموت
نزل عليها على غير توقع، وسرعان ما غيرت نبرات صوتها وتعمدت أن
تسمعني:

- عمتكم فطوم يا بنات ما فيش أشطر منها في الدنيا دي بحالها، شملوله
وكلمتها صايبة، بس يا خسارة..

جلست إلى جوار نعمات وكأنني أحتمي بها من ظنون أمي التي أجبرت
نفسها على الكذب خوفا مني وأنا التي أعشقها وأكره ضعفها، وعندما تحسست
نعمات ظهري في حنو وكأنها تواسيني انفتحت في البكاء بحرقة، سألتني أمي
والبنات عن السبب قلت أن كلاب «الواطيه» طاردتني وأنا راجعة وخوفتني، كنت
بالفعل خائفة لكنني أيضا كنت غاضبة لأنني عجزت عن تخليص الصدق من
الكذب، ربما كنت أرغب في البوح بأسباب بكائي ولا أستطيع.

في الليل جلست مع البنات وهن يستعدن ما جرى للعممة التي مازالت أمي
تريد أن ترى فيها يوما أكثر مما رأت، كانت قد تعذبت في الدنيا دون ذنب، دارت
على الحكماء والمشايخ والأولياء سعيًا وراء الحلم في الإنجاب دون فائدة، لم
تسمع عن شيخ إلا وزارته، ودفعت ثمن الحجاب وفك السحر المكتوب لها بلا
جدوى، راحت لحكيم البندر وحكيم طنطا وكفر الشيخ فوصفوا لها حبوبًا ولبوسًا
وشرابًا مرا مثل العلقم كانت تشربه على كره منها عسى أن يكون فيه الشفاء ولم
ينفع، تمرغت أمام أمي والبنات في حوش زاوية أولاد عوف قبل الفجر بساعة،
حطت بدنها بين قضبان قطار مر فوقها وشيب خصلة من شعر رأسها، كنست
مقام سيدي الأربعين وأطعمت مساكين الدرب لحما وأرزا ووزعت عليهم مقاطع
القماش عشرات المرات، دقت مسمارا في لحد طفل مسلم وقت صلاة الجمعة
اليتيمة، رشت ماء الورد وماء الزهر على مدفن نصراني أسلم في الكفر ومات،
بالت على شاهد قبر امرأة عاقر لم تتجب، ظلت تحنو على أطفال الناس وتملا بهم
دراهما، تطعمهم وتسقيهم السكر المبلول، استخدمت صوفة وعرت جسمها لبدر
التمام، شاف فيها أهل الكفر أياما لكن أمي لم تشبع، كانت تعابرها من بعيد..
لبعيد بوحدتها وهي تتكلم عن خلفه الأخريات، وحدثتها مرة بنعمة إنكار عن أحد
أزواجها السابقين وكأنها تريد أن تؤكد تصديقها لما سمعته عنه:

- الخلق فى كفرنا ببولدوا البغلة، قال إيه يا عمة شافوا المخفى درویش
شلبى فى البرارى ومعاہ عیل بيقول عليه ابنه، مش كان كشف والحكيم
قال إن مالوش فى الخلقة زمان وإنتى وياه؟

شردت هى لحظات، علها تذكرت خلالها الرجل الذى عاشرته زمنا مثلما
عاشرت غيره بلا ثمرة، لم تستنكر الخبر ولم تسلم بصدق حدوثه:
- كل حى بياخذ نصيبه يا مريم، أهو كلام وربنا يسهل لعبيده.

ليلتها أخذتنى معها كما كانت تفعل فتحمينى وتمشط شعرى وتلبسنى ثوبا
جديدا تكون قد اشترته لى وحفظته فى صندوقها، تطعننى من سد الحنك وتحدثنى
عن أشياء لا أعرفها وتجاوبنى مهما كثرت أسئلتى، لا تشكو من وجع الرأس
أبدا، تجعلنى أتمدد بينها وبين الحاج فرج، أغفو وأصحو لأجدها وقد أخذتنى فى
حضنها، وعندما أتقلب تجذبنى مرة أخرى إلى صدرها الناعم وتقبلنى لأطمئن ثم
تهمس لى وقد أسبلت عينيها:
- قولى لى يا أمه.

أقول فتشـدنى إليها أكثر إلى درجة أشعر فيها بالألم، ينكتم نفسى عندما
يندفس فمى وأنفى فى لحم صدرها الطرى، أعجز عن تخليص روحى وأشعر بيد
الحاج فرج وهى ترخى يدها التى تحيط برأسى وهو يهمس معتذرا لها وخائفا
على:

- على مهلك يا فطوم.

تخفف من مسكتها وتربت على ظهرى فأنام وأصحو، أشعر بقطرات من
عرقها الدافئ تتساقط على شعرى ووجهى، أسمع همسها فحيحا لا هثا لا يشبه
صوتها المألوف:

- قولى لى يابت.. قولى لى يامه.

تكررها عشرات المرات فأناديها بامى وهى لا تكف عن الرجاء، كأنما لا
تسمع صوتى، يسكن بدنها بعد انتفاضة يسيرة أحسها ويبقى اللهاث المتتابع،
يمسح الحاج فرج قطرات العرق عن وجهها ورقبتها، ربما يحملنى إلى مؤخرة
السريـر العريض، وربما أشعر به يغطيها ويتغطى، ربما أسمع صوته يحادثها ولا

ترد، وربما أنام ولا أصحو إلا بعد الفجر بساعة فأراها تبتسم لى وقد استحمت وابتضت أكثر فى قميص جديد لم أشهده قبلا، لا تلومنى على الصحو المتأخر فى تلك الأيام، وربما تطالبنى بمعاودة النوم فى حضنها فأنام وأنعم برطوبة البدن المستحم.

دخلت عنايات بنت أم بكرى من باب المندرة مدفوعة على غير عاداتها، كالت تنهج وتلتقط أنفاسها بعسر وتدور بعينيها فى تردد، كأنما فاجأها أن ترى علام، انطفاً حماسها وكادت تخرج وهى تتلعثم فى كلماتها:
- كنت فاكراكى لوحدك..

ناديتها وناداهما علام فوقفت عند الباب حائرة ومتردة، شجعها علام لتتخلص من ارتباكها عندما رآته:
- مالك يابت، متبرجلة كد ليه؟ البلد نزلها مفتشين التموين ولا انحطت عليها داهيه؟

- لأ.. مفيش.. أصل..

قلت أطمئنها:

- أقعدى يا عنايات وخدى نفسك، حصل إيه؟

- أصل فيه ضيف عايزك أنتى.. ف دار أبوكى.

تبادلت نظرة مندهشة مع علام، أى ضيف؟ وفى دار أبى التى لا أدخلها بأمر علام، لو كان من الكفر لجاء إلى هنا فالكل يعرفون، لابد أنه غريب.. ولابد أننى كنت قد أوشكت على لومها لأنها تعرف فبادرت تدافع عن نفسها:

- ما أنا عارفه أنك ما بتروحيش هناك، بس هو محكم دماغه، أهو مستنيكى هناك.

- وده مين بقى النبى حارسه اللى محكم دماغه كمان؟

قلت بإنكار وأنا أرقبها وأتشكك فى وعيها فردت دفعة واحدة لتخلص نفسها من الموضوع:

- سيد.. سيد ابنك.. دابسم الله ما شاء الله بقى راجل، طول وعرض وعليه القيمة، قلتي إيه؟

لم تنتظر جوابى وتسالت من المكان كأنما تهرب من النظرات والموقف الذى لا تملك فيه حق إبداء رأى.. «وما على الرسول إلا البلاغ» كما يقولون، نظرت إلى علام فوجدته مطرقا وكان الأمر لا يعنيه أو يعنيه إلى درجة أنه ينتظر منى أن أسأله السماح لى بأن أذهب إلى دار أبى تلك التى امتنعت عن الذهاب إليها تنفيذا لا رادته، رفع رأسه فى تكاسل ونظر إلى ملياً، لعله أراد أن يتكلم ثم تراجع:

- ح نعمل إيه؟

سألته بحذر فرد:

- كيفك.

كانت قد مرت سنة أو يزيد منذ تعارك مع أمى بسبب رغبته فى أخذ جزء من الدار يوسع بها دكان ويعمل مخزناً للبضائع سداداً لبعض دين أبى القديم لكنها لم توافق، طالبها بميراثى فامتنعت، تمنى لها الموت وتطاول عليها فلم تسكت، انقطع بينهما حبل الوداد تماماً وكان الاختيار أمامى، إما أن أخرب على روحى من أجلها أو أميل مع الريح حتى تهدأ الزوبعة وترجع المياه إلى مجاريها، وقد أراحتنى هى عندما بعثت عنايات لتسر إلى على لسانها عبارة واحدة ما زلت أذكرها:

- دارك وعيالك أولى بيكى.

ربما كانت وصيتها قد جاءت على راحتى فهزرت رأسى علامة الموافقة، أصبح من المألوف أن ألقاها فى دور الغرباء، أم بكرى أو واصفه أو النبوية أو أى واحدة من دور الدرب، قطع على صمتى بعبارة:

- مستنيه إيه؟ قومى البسى.

ترددت فأصر فقممت، أخذت سعاد معى وسمعتة يقول مودعاً.

- ح احصلك.

كنت بين مصدق ومكذب والبنت تسبقنى فأستمهلها حتى وصلنا إلى باب الدار المفتوح، رأيت واقفا قبالتى وأمى تتنفس بارتياح وهى تنظر ناحيتى:

- أهى جت.

واجهنى الولد الذى أخذوه منى وغاب أو غيبوه، كان يتأملنى وأتأمله فى

صمت، وجهه الباسم يدارى حزنا مدفونا خلف تقاطيعه، والعود فارغ وصلب يسكنه جرح نرف على امتداد عمره، هل بكيت أولا أم أن عينيه دمعنا قلبي؟ لا أذكر، أذكر أنني أخذته في حضني بفرح وتحسست بدنه وأنا أتذكر قطعة اللحم الطرى الصارخ يوم أخذوه مني آخر مرة، ربما أكون عاتبتة على اختيار مكان اللقاء في هذه الدار الخراب واحتجت أُمي، وربما تكلم هو عن أصول يرعاها فلم أعلق على كلامه، رحت أتأمله ويتأملني قبل أن ألومه لأنني سمعت أنه ذهب مرة إلى دار صالح ولم يفكر في زيارتي، لعله شعر بالخجل فدافعت عنه أُمي:

- كان جاي مع أبوه يعزوا في ابن عم أبوه.

نظر إلى سعاد وسألها:

- في سنة كام؟

- سنة رابعة..

لم يعلق.. دخل علام سلم بحرارة اراحنتي وهو يتمتم:

- ما شاء الله..

تبسط علام ووجه الحديث لأُمي فردت عليه بنفس البساطة وقلت لنفسي هي بشرة خير أن يصلحها يوم زيارة سيد، سأله علام عن مدرسته فضحك وأوضح أنه أنهى دراسته في الجامعة منذ عامين وأنه موظف، سأله عن مكان عمله وعنوانه فكتب له كل شيء، كان من الواضح أنه لا يعرف علام ويناديه أو يرد عليه قائلا له:

- يا حاج.

- حاج إيه؟ أنت مش عارفني؟ اعتبرني خالك علام بلاش جوز أمك. طيب

بلاش دي، مش كان يصح برضه تروح لأمك دارها؟

- أصل..

- أصل إيه وفصل إيه يا بني.. داحنا قبل كل شيء أهل، قومي يا ست أم

شاكر واسبقينا ع الدار، عاوزين نتغدى غدوه حلوة من أيديكي، ح

نحصلك.

أذكر أنني قمت وانتظرت ساعة ولم يحضر سيد أو علام ولا بعثوا لي

مرسالا يعفيني من الانشغال بغداء لم يكن له منه نصيب.

اعتدنا من جواهر أن تجلس وحيدة على أول درجات السلم أو على «الحصير» أو فى صحن الدار، حافية القدمين غالبا، وثوبها متسخ بالأوحال والروث، ونادرا ما كانت تشاركنا جلساتنا الليلية فى المنذرة أو القاعة، يتذكرونها عندما يحتاجون إليها فينادون أو يبعثون إليها لتجىء تطلب منها أمى أن تملأ الزير من ماء الترعة أو تأمرها نعمات بغسيل الحبوب فيها، يطلب منها أبى ترتيب الزريبة فتهاز رأسها علامة الموافقة وتبدأ العمل، تغطس فى وسط الدار أو تنزرع فى داخل الزريبة لساعات وساعات تفرش الرماد تحت حوافر العجول والجاموسة «الحلابة» وتكوم «السبخ» فى ركن حتى يدخل ابن الزناتى بالحمير ويقوم بتحميله ونقله إلى الغيط، ربما يفوت موعد الغداء أو العشاء وهى فى الداخل دون أن يذكرها أحد وعندما يتذكرونها يتحدثون عن التعب الذى لا بد وأنها به شعرت والشقاء الذى احتملته دون اعتراض أو شكاية، كانت تأتى من الداخل تنفيذا لطلب أو ردا على نداء بثوبها الذى شمخته وجعلته مربوطا إلى وسطها والعرق ينز من عنقها ولو كنا فى عز الشتاء، يطالبونها بأن ترتاح وتكف عن الشغل فتكف، تجلس فى أحد الأركان فى هدوء وتبدو للصغير والكبير جاهزة لتلقى الأوامر وتنفيذها دون مناقشة، مفصولة عن أهل الدار وكأنها ليست من لحمنا ودمنا، كانت تبدو لى غريبة بالفعل عنا، غريبة ومختلفة بشكل ملحوظ، ونادرا ما كانت تستحم دون عراك مع أمى أو العممة أو حتى نعمات التى كانت تعابرها بعفونة ثيابها والكسل: لا أذكر أنها لبست أمامى ثوبا جديدا يخصها، ربما كان «الخليع» أما ما تستغنى عنه أمى أو تخلعه نعمات هو كل كسوتها، وربما كان أبى مسئولا عن ذلك لأنه قبل دخول الأعياد ومواسم الكساء كان يطيب له أن يرتب الأمر معنا، يتحدث عن نواياه وعدد الأمطار التى سوف يأتى بها لكل واحدة، كان يذكرنا جميعا وينساها حتى عندما تنبهه العممة أو أمى بجواهر يدارى خجله بعبرة حفظناها وتندرنا بها من كثرة تكرارها:

وهو معقول أنسى جواهر؟ دى جواهر.

لكنه كثيرا ما كان ينساها أو يتناساها، يتصادف أن تكون معنا بدعوة من الكبار لترى قطع القماش وألوانها ولمن اختارها أبى، ونادرا ما كان يظهر لنا أن لجواهر نصيبا مثلنا، حتى لو لامته العممة يضحك وهو ينظر إلى جواهر ويقول:

- أصل جواهر دى عاقلة، هى اللى فيهم، ماهيش بتاعة كلام فارغ من ده

تلبس من هدم أمها أو هدم نعمات، مش كده يا جواهر؟ قلبها على أبوها وعازية توفر له.

يقول ويضحك وربما نجاريه ونضحك فتضحك ولا تبدى أى اعتراض أو احتجاج حتى نوشك أن نصدق أنها بالفعل الوحيدة العاقلة بيننا، لكنها فى الحالات النادرة والتي يقدم لها أبى قطعة من القماش تخصصها، كانت تقلب طرف القماش بين أصابعها بفرح وتسال الجميع كان لونها يليق بها وتتلقى الأجوبة، تبدو سعيدة ومنشرحة لساعة أو ساعتين ثم تشير إلى نعمات أن تقترب منها لترجوها وهى تحوطها بين يديها وكأنها تستجديها:

- يا ريت تفصلها عليكى.

كانت نعمات لا تعترض لأنها تفعل نفس الشيء فى ثياب أمى التى تفصلها على مقاسها، الفارق الوحيد هو أن أمى كانت تأخذ ثيابها الجديدة بعد تفصيلها وتجريبها على نعمات، أما جواهر فكانت تنتظر إلى نعمات وهى تقيس ثوبها الجديد، ثم تقول لنفسها:

- حلو عليها خالص.

وبعدها توجه كلامها لنعمات:

- مبروك عليكى.. أنا وأنت واحد.

ومهما حاولت نعمات إفهامها أن لديها ثيابا جديدة لا تقبل أخذ الثوب منها أبداً، قد تترك المكان إلى وسط الدار فرارا من الإلحاح أو تطلب من نعمات البديل من الثياب القديمة:

- إبقى إدينى بداله القميص أبو وردة زرقة.

كانوا يتبادلون النظرات ويؤكدون أن هذه البنت فيها شىء لله وزاهدة فى الدنيا، كنت أشعر بالخوف منها فى بعض الأحيان، تطمئننى نعمات وهى تسخر منها بجرأة:

- دى عبيطة ومعفنه وتلاقى القمل بيشغى فى رأسها من كثر الوساخة.

كنت أصدق كلام نعمات وأتخيل أن رأس جواهر المربوط دائماً بالمنديل والذى نادراً ما تحل صفائره لابد وأن يكون فيه قمل؛ حتى يجبرونها على

الاستحمام أو غسل رأسها تحت الطلمبة فأرى شعرها المحلول طويلا وناعما
وغزيرا وهم متحمسون في تمشيطة بحثا عن حشرة واحدة ولا يجدون، لا تغضب
منهم مهما قالوا عنها، وتقوم بكل الأعمال الصعبة في الدار، تحمل قفف القمح
المغسول والذرة وتطلع بها إلى السطوح، تفرشها على الملاءات والأحزمة
والحصر حتى تنشف في الشمس قبل النقاوة والطحين تقوم بتنزيلها وتنتظر حتى
تسقى القمح من الحصو والكحريد لكي تحملها قفة وراء قفة إلى الطاحونة عدة
مرات، تطحنها وتعود بها دقيقا ناعما وقد تعفرت، كنت أذهب معها أحيانا فأراها
وهي تهيد فتحة الطاحونة الصاج براحتيها بعنف وقوة لينزل كل دقيقنا من الفتحة
ولا يتبقى منه شيء مركون في «القادوس»، كانت أمي ترضيها يوم الطحين
بعبارة لا تتغير:

- أخرتك ح تبقى بيضه زى الدقيق العلامة.

تفرح جواهر وتبدو كما لو أنها لم تتعب طوال النهار، وكثيرا ما كانت
تتطوع في الصباح التالي بتجميع روث البهائم في حفرة وتضيف له نخالة التبن
الناعمة وترسه بقدميها هرسا متواصلا، وربما في الليل ترصه أقراصا جديدة
فوق القديمة أو في فراغات السطح وتهمس للأم بأنها جهزت للخبيز وقوده
فتدعو لها بالستر وعدم الفضيحة.

وكانت هي الوحيدة التي تجرؤ على ربط العجول المحلولة في حلقاتها إذا
انفكت حبالها، حتى أبى لم يكن يعرف كيف يقود عجلا معلوفا أو يسايسه كما
كانت تفعل، بارعة في سقاية المواشى وتقديم العلف لها في الأوقات المناسبة،
وكم وعدها أبى بمكافأة نظير جهدها في الدار ونادرا ما كان ينفذ أو يوفى لها
وعده، كان يكفيها سماع كلمة طيبة منه أو ربتة على كتفها.

وعندما كنا نجتمع ساعة العشاء في المواسم كانت تأتي تنفيذا لاستدعائهم،
تجلس على مقربة من الطبلية عند طرف الحصير وتمد يدها برغيف جاف لتضع
لها أمي نصيبها من الغموس أو «الزفر»، وفي كل مرة كانت تتعلل بأن ثوبها
ليس نظيفا أو أن قدميها قذرتان أو أن يديها متسختان، كانت تأخذ نصيبها
المقسوم وتغطس في وسط الدار، ربما تبلعه بلعاً أو تداريه في مكان، لكنها تعود
بسرعة وتجلس في انتظار انتهائنا من العشاء لتتولى حمل الطبلية وصينية

العشاء، كان أبى يتابعها بنظراته عندما تترك المكان ذاهبة إلى وسط الدار وهى تحمل ما نابها ويحدثنا بحماس الواصل:

- أقطع دراعى إن ما كانتشى البنت دى مخاوية جنى من تحت الأرض.

وربما قبل أن يكمل عبارته تكون جواهر قد عادت ووقفت أمامنا فأشعر بشيء من الخوف منها والرغبة، وربما كنت فى الصباح التالى أتودد إليها وأحاول أن أرضيها بعبارة تدل على الحب، وفى كل مرة كانت ترد على من يسألها إن كانت قد أكلت نصيبها قائلة:

- مقطوع منه النصيب، كلته القطط والكلاب.

وكنيت أتشكك وأقول لنفسى إنها أكلته بمشاركة الجنى بعد رقادنا، وربما لأننى لم أشعر ولو مرة واحدة أنها أحست بالندم لفقدان نصيبها، بل العكس يحدث، كانت تبدو وكأنها أدت واجبا مفروضا نحو تلك القطط والكلاب التى تتحدث عنها وأمى تعلق وهى توشك على الانفجار غيظا:

- أنا طهقت م الكلام معاكى، خلصت من ذنبك، كنتى دافساه قد وسط الدار يعمل إيه؟ وماتتتشيش ف وسطنا ليه؟..

ولا يبدو على جواهر أنها تأثرت بالكلام مرة أو فكرت فى تغيير عاداتها، كانت تتركها وتدخل إلى وسط الدار، تجلس على أول درجات السلم وتضع خدها على راحتها وتتوه عن دنيانا، تدخل دنيا غير الدنيا، ومهما حاولنا الكلام معها أو التخفيف من وحدتها لا ترد، نتركها وننساها وربما تبقى فى وسط الدار يوما أو يومين لا نسمع لها صوتا قبل أن نفاجأ بها تسب ابن الزناتى شىال «السباخ» لأى سبب من الأسباب، وهكذا دائما كانت موجودة بيننا وغائبة عنا حتى حدث ما حدث عندما عدنا إلى الكفر فى عصر ذلك اليوم بصعوبة من مدرسة البندر، وكان المطر قد حول السكة الزراعية إلى وحل طرى أملس، سقطنا فيه أنا وعطيات أكثر من مرة واتسخت ملابسنا الجديدة، كنا نرتجف ورخات المطر تتساقط فوق رأسنا، دخلنا الدرب الساكت وقد خلا على غير عادته من الناس، لكننا وجدنا زحاما عند باب دارنا عندما انحرفنا فى الزقاق، كانت الدار نفسها مزحومة بالرجال والنساء والأولاد وأمى تلبس السواد وإلى جوارها أم بكرى وأبى هناك عند باب المندرة وسط رجال العائلة وبينهم تقف العمة محاطة بهم وعيناها

زائغتان وغائبتان إلى درجة أنها لم تلتفت إلينا أو تحدثنا، كان هناك همس وصخب ودمدمة وصراخ مكتوم فى حلق النسوة، جاءت نعمات وأخذتنا من وسط الزحام، لم نسمع ما قالته وأن كنا أطعناها وطلعنا معها إلى المقعد الشرقى، طلبت منا أن نخلع ثيابنا المبلولة ونبدلها بجلابيب البيت ففعلنا، سألتها عطيات عن سر الزحام واللمة فحاولت أن تدارى لكنها لم تستطع، قالت من بين نشيجها المكتوم:

- أختكم جواهر، الديب قتلها، نط فى وسط الدار ولكها، كانت بايته فى الخلا والديب طالها، كفنوها ودفنوها وانتوف المدرسة، سنة سودة السنة دى.

أوشكت أن أصرخ فحطت هى كفها اليمنى على فمى وطالبتنى وعطيات بعدم الصراخ أو مجرد البكاء بصوت محذرة:

- ماحدش منكم يفتح حنكه، إحنا لنا عدوين ف الكفر، ونهار الحكومة ما تشم خبر ح يطلعوها م التربة وياخدوا أبوكم يحبسوه ومش بعيد ينشلق.

أصابنى خرس مرعوب والحزن العاجز يغزونى لأول مرة فى حياتى، كانت هناك فجيرة فى أخت دفنوها فى غيبتنا وكانت فى الليل معنا، وقلق مجهول على أب مهدد بحبس أو شلق دون ذنب، وخوف مبهم من ذئب جصور يتخطى كل الجدران ويقتل، ربما من كثرة الرعب نمت وأفقت على تلك الحقيقة الجديدة وهى أم جواهر ليست فى وسط الدار.

كنا فى الأيام التالية نتخوف من وسط الدار وصحنها، حتى نعمات وأمى وأبى والعمة كانوا يتهربون من الدخول لسقاية المواشى أو تقديم العلف لها، وكان البكرى هو الذى تطوع بتأدية هذا الواجب الصعب أيامه.

وفى المدرسة تحدثنا للبنات عما جرى فوجهنا بحكايات خسيصة عن ابن الزناتى وتدابير العمة ومقتل البنت فى المتبن وسر اختفاء ابن الزناتى نفسه من الكفر فى نفس التوقيت «ولو كان لابن الزناتى أهل لأبلغوا الحكومة وأخذوا قاتله بدمه.. ولو كان للذئب البرىء من دم البنت الفسدانة صاحب لدافع عنه بأعلى

صوت فى دروب الكفر الذى يعرف كل ناسه ويكفون على الخبر ماجور».

قلنا لنعمات فأمرتنا بأن نف عن تردد هذا الكلام الفارغ مرة أخرى، شتمت البنات قليات الحياء ممن يجرون على نقل مثل هذا الكلام الفارغ والفاجر عن بنات الناس الطيبة بهدف خراب البيوت العمرانة، بعدها اعتدنا السماع دون رد أو فتح السيرة لنعمات أو غيرها من الكبار، وما عدنا نتجاسر على ذكر اسم جواهر فى حضورهم، تماما مثلما كانوا يفعلون.

شاكر وجع قلبى وحيرنى فى أمره خاب فى المدارس سنة بعد سنة، جربنا معه كل الطرق، نقلناه من مدرسة إلى مدرسة، اكرينا له الأساتذة بأجر فما استجاب، زودنا مصروفه ومنعناه، سلمناه الدكان فى إجازة الصيف فما باع بضاعته الرائجة بسبب لسانه المفلوت وما احتاط لقرش ولا صرف فى المفيد، عجيبة فسدانه استعصت على التشكيل، وفى كل مرة كان علام يلومنى ويعايرنى ناسيا أنه بذرتة وقطعة منه، بطريقته يمشى ويتكلم «أنت مفسدته وهو عمك، عمك الردىء» يقولها علام فيشعل فى قلبى نارا ويزود فيه المزار، فرحته بخلفته زادت عن حدها المعقول، كان يأخذه معه فى كل مكان وهو صبى ما زال، يسهر به وسط مساطيل الكفر والكفور المجاورة، ويصاحب أولاد الليل وخباصين الناحية، لا أدب عندهم ولا حياء، وكلما اعترضت عارضنى:

- ما لكيش دعوة بيه، خليه يعرف الدنيا على حقيقتها.

فى السابق كنت أقول لنفسى لا بأس، أن يزرع فيه طباع الرجل رجاء أتمناه، حتى عندما كان يتناول بلسانه فى الرد على كنت أسامح، أعفو عنه إذا ضرب البنات، وكنت أرى فيه الأخ الذى حرمتنا من وجوده وانكسرت نفوسنا لأننا لم نحصل عليه أبدا، أداديه كرجل ينمو ويغلظ صوته، وأطيب خواطر البنات الشاكيات من مشاكساته بالفعل أو باللسان، أتخيله رجلا وأستعجل دورة الأيام والسنين لكننى أفقت من خدر الأمنيات ليلة أن بلغنى أنه جالس رجال السيد الدباغ فى البندر فى قعدة حشيش يدخنون على حسابه، ماخوفنى غير استغلاله فى دفع الثمن هو احتمالات إفساده فى أمور لا أعرفها، أولاد الدباغين شهرتهم فى الفساد والإفساد لا تقف عند حدود، تجارة مخدرات وتقليع زرع وسم مواشى وتأجير

لقتل الخصوم وخطف بنات وتخريب دور، يفعلون كل المصائب ولا يهابون حبسا ولا حكومة والولد مجرد تلميذ فى الإعدادية فهل يطمئن عليه قلب الأم؟ ليلتها فاتحت علام وحذرتة من الخطر، لم يوقفنى ما كان يتهمنى به:

- كله منك، دلعتيه لحد ما خاب، والخلق دول مالهمش أمان، خايف يكونوا متأجرين عليه.

ولأول مرة تمتد يده على الولد، ربطه بحبل وظل يضرب بعيدان القطن التى تتكسر على جسم الولد فيبدلها بأخرى تترك أثارا دامية وكأنها كراييج سودانى وصراخ الولد لا يفيد، كان يضرب بخوف كامن فى أعماقه من احتمالات فقده والولد يستجير ويفشى أسرار ما كنا ننتظر سماعها تزود خوفنا عليه..

وفى الليل حدثنى علام عن سر ابن الزفتاوى الذى دفنوه فى أرض أبيه بواسطة أولاد الدباغين فاندعشت، ما كنت أعرفه وشاع هو أن ابن الزفتاوى طفش من أبيه بليل وما ظهرت عنه أخبار:

- أصل إنتى فى نومه، نسيتى التار اللى كان بين أبوه وبين ولاد الملاح، أهو ده راح قصاد التار.

- بس دول اتصالحوا، الملاحين والزفتاوية.

- كلام، صلح الديب ع الغنم، هو التار القديم ييموت؟

تذكرت ما كان يشيع عن ذلك الصلح الذى تم بين السعيد الزفتاوى ودار الملاح وكيف سرت حكايات عن الصلح بعد العداوة فصدقناها حتى طلع السعيد الزفتاوى من وسط زراعات الذره فى عز الظهر حاملا بلطته لزين الملاح ونزل بها على رأسه فقسمها نصفين كما أكد كل من حضر الواقعة وهو يهدر:

- دم الشريف الزفتاوى ما راحش هدر يا ملاحين.

ومن جديد عقدوا صلحا بعد أن دفنوا زين الملاح، وقالوا هو دم بدم والصلح الجديد تدعمه المصاهرات واختلاط النسب، لكنها كانت إن صح كلام علام مجرد أكاذيب وكلام فض مجالس، ولا بد أنه سيجىء اليوم الذى يكتشف فيه السعيد الزفتاوى أمر ضناه، يومها من يدري كيف يكون حال الكفر.

- وعرفت ده كله إزاي؟

سألته فبدأ عليه أنه تذكر أمرا كان قد نساه وقام في منتصف الليل إلى الولد المربوط يضربه من جديد ويحذره من مصاحبة أولاد الدباغين، قال الكثير وهو في غير وعيه وعرفت الكثير، ولكثرة ما عرفت زاد خوفي على شاكر، هل كانت بينه وبينهم اتفاقات قديمة على دم مسفوح، أم أنه هو نفسه الذي كان حريصا إلى أبعد الحدود قد شارك في قتل نساء الناس أيام تجارة الصنف، وماذا أفعل لو تعرض شاكر لمثل ما تعرض فهيم ابن الجازية التي رآته مرميا على طرف المصرف القديم ودمه الجاف من وقدة الشمس قد صار هدفا لأسراب الذباب الأزرق قرب المدافن ولوح الإردواز مكسور تحته ومطموسة منه نصف الآية التي كتبها في صباح نفس اليوم في الكتاب، من يومها تدور في دروب الكفر وتنادي على فهيم، تمسك كل صبي يلقاها وتسحبه من يده فيصاب برعب وهي تقوده غصبا في اتجاه دارها كما كانت تفعل مع القتيل، نارها لم تبرد وعقلها لم يحتمل صدمة ضياعه دون أمل في تعويضه أو أخذ ثأره، وربما بسبب عجزها غاب عنها العقل وما عاد، تذكرتها وخفت أكثر وأصبح شاكر همى ووجعى على مدى الأيام.

عطيات كانت بارعة في عمل عرائس القطن لنفسها والبنات، تقص قماشها وتخيطة وتحشوه بالقطن المحلوج فيصبح على شكل عروس، ترسم عينيها وحاجبيها وأنفها وشفتيها وتضع فوق رأسها خصلة من شعر البنات المدفوس في الشقوق فيتعجب كل من يراها ويقول إن عطيات استطاعت أن تجعل عروس القطن شبه البنى آدم، كانت العمة تتفحص كل عروس جديدة وتبدي استحسانها ورضاها:

- عجائب.. ناقصها تتكلم.. شاطره يابت.

تفرح عطيات وتجرى في طول الدار وعرضها لنراها قبل أن تضعها مع بقية العرائس التي عملتها، كانت عطيات رغم ضعف جسمها أكبر منى بسنة وإن كان من يراها يحسبها أصغر، صفراء الوجه ممقوتة وعودها ممصوص، عصبية ولا تشارك في شغل الدار ولو أنهت الدنيا، إذا أجبروها على عمل شيء تفسده عمدا أو بغير عمد، وإذا عاقبتها أمى أو وبخها أبى تشوح بيديها في الفراغ

وتبرطم بكلام غامض فنضحك عليها وأحياناً نفاجأ بها وقد ارتمت على الأرض،
يحملونها وتصرخ أمى:

- البنت قطعت النفس.

كنا نعرف علاجها، مجرد بصلة نكسرها ونقربها من منخارها فتشمها
وتفريق، ربما تتلفت حواليتها وتسال أول من تراه عما جرى فنعاود الضحك وقد
زال عنها الخطر، نسمع أمى تحمد الرب لأنه رد فيها الروح، وإذا كا أبى حاضرا
يداعب أمى ليطمئنها على البنت:

- قلبك خفيف قوى كده ليه؟ بكره المزغوده دى تكبر وتوريكى النجوم ف
عز الضهر.

- بس تعيش.

ترد أمى وقد اطمأنت مبدية استعدادها لاحتمال عطيات فى كل الحالات وهى
تربت على شعرها فى حنو زائد.

وعندما سقطت عطيات فى حوش المدرسة الابتدائى لأول مرة التف حولها
الناظر والأساتذة فى قلق، صبوا أكواب الماء البارد على رأسها ووجهها دون
فائدة، ضحت «الأبله» الجديدة بما تبقى من زجاجة العطر فى حقيبتها دون
جدوى، تحيروا فى أمرها وحملها عم شافعى الفراش إلى حجرة الناظر وأنا خلفهم
أصرخ:

- هاتوا لها بصلة.. هاتوا لها بصلة.

وبصعوبة فهموا قصدى، جرى عم شافعى وأتى ببصلة كبيرة كسرها
ونقربها من أنفها فارتعشت تقاطيعها وجبهتها قبل أن تفتح عينيها وتغمضهما عدة
مرات وقد نزلت منهما الدموع من أثر رائحة البصل، سألت هى الناظر لابس
الطربوش الذى كان فى مواجهتها وأول من تحققت من وجوده عما جرى ولماذا
جاءت فضحك وضحكت الأبله وضحك الأساتذة وعم شافعى قبل أن يقول لها
الناظر بفرحة من انزاح عن صدره هم ثقيل مفاجئ:

- قومى ادخلى فصلك يا أم بصلة.

قهقهوا وأنا أخرج وراءها من حجرة الناظر وأحدثها عما جرى، بعدها شاع
الاسم الذى أطلقه الناظر عليها، «أم بصلة» ولم يكن يغضبها سماعه من الناظر

أو الأبله الجديدة أو أى واحد من الأساتذة لابسى الطرابيش أو حتى عم شافعى، لكنها فى الدار كانت تركيبها العفاريت الزرق والجان إذا سمعته، ضربتني فى أول مرة أقولها لها فى وسط الدار، قطعت خصلات شعري ومزقت قميصي الجديد، قوتها التي لم أتوقعها أربكتني، بعدها طلبت من نعمات أن تخصمني.

- دى فتانة وح تتكوى بنار جهنم يوم القيامة.

كانت غضبانة لأننى نقلت الاسم الشائع فى المدرسة إلى الدار، كان اسمها الجديد قد شاع فى المدرسة وتردد على ألسنة البنات والأساتذة والناظر لابس الطربوش، لكنها لم تكن تغضب، كأنها عملت حاجزا بين المدرسة والدار وحددت المسموح وغير المسموح بحسب هواها، وإذا انفلت لسان فى الدار يناديها بالاسم كانت تبكى وتنتحب حتى يغلبها النعاس وتتكوم راقدة فى أى مكان.

وحرصا على عطيات أفهموني أننى مسئولة عنها فى طريق الذهاب إلى المدرسة والعودة منها، كانت تضع فى «مخلاتها» بصلة وسط الكتب والكراريس وكنت أسيرها بحسب رغبتى، أخوفها بأنها ما لم تطاوعنى فسوف أتركها تموت فى سكة البندر إذا أصابتها الدوخة وغابت عن الوعي ورغم أنه لم يحدث أن أصيبت بها فى الطريق مرة، كانت تخاف، تأخذنى فى حضنها وتسالنى بإنكار:

- ح أهون عليكى؟

- لأ ما تهونيش.. بس، اسمعى الكلام.

كانت تحبني وأحبها، وكانت تحب الناظر لابس الطربوش وتفهمنى أن طربوشه يختلف عن طربوش عصمت أفندى الصراف أو طربوش أبى الذى يلبسه فى المناسبات:

- طربوش نسر زى اللى بيلبسه الملك ابن الملك قريينا.

أضحك أحيانا وأعترض على حماسها وأحيانا أسايرها وأمتدح طربوش الناظر وطربوش الملك فتفرح وتوشك أن تطير ولا تكف عن الكلام، حتى نصل إلى باب المدرسة أو باب الدار.

كانت الاجازة الحزينة التى قضيناها من غير جواهر قد فانت وانشغلنا أنا وهى فى المدرسة، وكان خوفنا من دخول وسط الدار وصحنها أو طلوع سطوحها ومقاعدھا قد قل، كنا نتواجد فى تلك الأماكن وقد نسينا ما سمعناه، وذات ظهيرة

عدنا من المدرسة ودخلنا وسط الدار نرمح لنرى العمة التى كانت تجلس أمام الكانون مزرودة الوجه من أثر النار والدخان يحاصرها وهى تنفخ فيها بعصبية، عندما رأينا نادتنى لأنفخ النار المدخنة وطلبت من عطيات أن تركن مخابراتها وتناولها بصلتين من قاعة الخزين، رجعت عطيات فى اتجاه القاعة وظللت أنفخ والنار تبعث الدخان ولا تشتعل، كانت العمة تمسك فى يدها السكين استعدادا لتخريط البصل الذى بدا لها أن عطيات تلكت فى إحضاره، فنادت عليها عدة مرات تتعجلها:

- البصل يا مخفية.. هى ما يتردش ليه أم بصلة دى كما؟

وعندما أكملت العمة عبارتها رأيت عطيات من خلال الدخان الكثيف تعبر «الخوخة» وتقف مكانها، تلقى على طول ذراعها عدة بصلات فى اتجاه العمة أمام الكانون، سمعتها تبرطم وتشوح ليديها وتصرخ محتجة:

- اسمى نيله عطيات.. اسمى نيله عطيات.

تأججت نار الكانون فجأة وشعرت بالسخوخة فأنزحت إلى الخلف وقامت العمة بعسر فى اتجاه صحن الدار وهى تكيل الشتائم لعطيات وصنف عطيات والمدرسة التى علمتها قلة الأدب، سألت عن شبشبها وملسها وطرحتها علامة الغضب الشديد وتهديدا بالخروج من الدار، ولابد أن أمى أو نعمات قامت بإخفاء هذه الأشياء حتى لا تتمكن من تنفيذ رغبتها وتهدا وقد ينتهى الغضب على خير، جلست العمة تهدر وحاولت نعمات إقناع البنت بالذهاب إلى العمة لتطيب خاطرها بينما الأم تحاول الاعتذار بدلا من عطيات، لكن البنت عاندت وركبت دماغها ولم تذهب، حاولت معها الأم فلم تستجب، حتى عندما جاء أبى وحاول معها على طريقته لم يفلح، بل إن البنت تعصبت أكثر فتركها تاكل روحها كما قال وجالس العمة مبسطة الأمر ومؤكدا أن البنت صغيرة لا تدرك ولا تقصد حتى أكملت أمى ونعمات العشاء، رصوه على الصينية وشد أبى يد العمة التى هدأت لتنزل:

- اقعدى يا فطوم اقعدى.. إحنا ح ننكد على روحنا فى ليلة مفترجة زى دى عشان عيلة ماتدركش؟

- يخيبك يا بعيدة، أنا يا خويا مالحقتش، هو إيه اصله؟

- يكونش بصل الناظر بتاعكم حلو وبصلنا حراق يابت؟

قالت وهى تنظر ناحيتى فضحكوا بشدة، ربما كانوا يصالحون العمة بتلك

الضحكة وربما توقعوا أن تلين عطيات وتأتى، لكننا سمعنا شهقات البنت حارة ونهائاتها تفلت منها لتؤكد لنا أنها كانت تبكى بحرقة، كان وجه أمى قد ارتبك خوفاً أن يحدث للبنت مكروه وهى وحيدة فى القاعة، وكان وجه العمة قد صار مغلولاً وبياض خديها يوشك أن يتحول إلى زرقة خالصة ثم قامت تسب وتلعن البنات وخلفة البنات وقلة أدب البنات، ولا أدرى كيف أفلحت هذه المرة فى العثور على الأشياء المخفية، جهزت نفسها وخلصت أطرافها بعنف فاق كل محاولات إبقائها، كانت العمة قد انفلت عيارها وأصبحت واحدة أخرى، خرجت من باب الدار بليل وأبى فى إثرها يحاول إعادتها وتزداد صخباً وهى تمشى فى الدرب ناحية دارها حتى ابتعد صوتها فاخفى أو كاد، وعلا صوت الشهقات المتقطعة الآتية من القاعة، ذهبت نعمات والام إلى البنت ووقفت حائرة وقلقة من احتمالات توهانها كعادتها، عندما عاد أبى كان يبدو غاضباً وثائراً على الجميع، كان يسب ويلعن هاتجا بلا حدود ثم أصدر أمره بعلو صوته مؤكداً على كل حرف:

- البنت دى ماتروحش مدارس من بكره، تقعد ف البيت وكفاية الكلام
الى اتقال علينا لحد كده.

كان من الواضح أنه اتفق مع العمة على ذلك وأنه ليس على استعداد للتراجع، لم يعلق على قراره أحد، تكورنا فى أماكننا وسمعنا هزات السرير الذى طلع للرقاد عليه بجلبابه الكشمير دون أن يفكر فى تغييره، كان يلف الدخان لفافات يدخنها ويرمى أعقاب السجائر فى أرضية المندرة، وكلما غفوت وصحوت وجدته يدخن أو يلف سيجارة جديدة حتى طلع النهار وأيقظتنى نعمات لألبس ثياب المدرسة وحدى وأخرج وحدى وعطيات راقدة مكانها تتقلب وأمى تتجاهلها وكأنها اتفقت مع أبى خلسة أثناء الليل بأن يكون ذلك اليوم هو أول أيام انقطاعها الدائم عم المدرسة التى عشقتها مثل الناظر الذى كان يؤكد لكل الأساتذة أن عطيات سوف تشرف مدرسته بنجاح متفوق فى ابتدائية هذا العام، وربما لم يعرف أبداً أنه دون أن يدري كان سبباً فى منع تلميذته المتفوقة من الاستمرار فى الدراسة، مجرد الاستمرار.

بعد أيام من الرقاد المتواصل الذى امتنعت فيه عطيات عن تناول الطعام رغم الإلحاح عليها من الجميع جاءت العمة، اقتربت منها أمى ورجتها:
- أبوس إيدك يا عمة، أبوس رجلك تعفى عنها وتسامحها.

قالت وهى تمسك بالفعل بيدها اليمنى وتقبلها مرات متكررة على ظهرها، ثم تتحنى وتمسك بساقها التى خلصتها العمة من يديها بقوة فانكفات أمى بشدة على وجهها، ولابد أن الخبطة أوجعتها وإن احتملت وزحفت على الحصير وقد انحل المنديل عن رأسها وزحفت على الحصير ضفירתاها مستمرة فى الرجاء بمذلة أكثر للعمة الواقفة:

- البنت يا عمة ح تروح فطيس.
- تقطع بروحها يا مريم، أروح أحب على رأسها لجل تتسم وتاكل، أتحييل على بنت لا راحت ولا جت بعد شعرى ما شاب؟ ياريتها كانت ولد يا مريم وأنا اتحييل عليه.

كانت تنظر ناحية القاعة حيث ترقد البنت، لعلها ترددت قبل أن تتجه ناحية باب الخروج غير مستجيبة لكل النداءات التى تئن بها أمى، لعلنى فى تلك الساعة كرهت ضعف أمى وقسوة العمة، كانت نعمات فى القاعة وبدا لى أننى أسمع صوت عطيات لاهثا بعسر إنما بإصرار:

- هى السبب ف كل حاجة.. هى السبب.

ومازلت لا أعرف إن كانت تقصد العمة أو أمى، تلك التى كانت تنظر إلى مصدر الصوت بياس كامل، لعلها كانت قد أدركت قبلنا أن نهاية عطيات كانت تقترب وأن أيامها معدودة بيننا، كانت البنت قد كفت عن تناول أكواب الماء التى تحليها نعمات بقطع السكر، كانت تكتفى بالماء الخالى من أى إضافة، وكان وجهها قد ازداد صفرة وجسدها يتصبب عرقا ولا يجف، ولم يكن هناك غير عينيها الملونتين تنظران إلى الوجوه فى سماحة أو إلى خشب السقف، كانت تجرؤ على تأنيب أبى لأن العمة تسيره على هواها بمالها وكان لا يرد عليها، يبدو متألما وعاجزا عن فعل شىء فيخرج من القاعة أو يهرب من كل الدار تاركا أمى وحيدة وقد أحنّت رأسها فى انتظار الموت.

- يا كبدى يا بنتى.. هو إنتى حمل ده كله؟

كانت تسألنى عن المدرسة والناظر لابس طربوش النسر فأحكى وأحكى وفى داخلى إحساس بأن هذه الأيام لن تتكرر، وبأنها سوف تموت وتذهب إلى الجنة وترتاح من تعب الدنيا وقسوة الكبار.

الوحيدة التي لم تتراجع أو تطل عليها مجرد إطلالة كانت هي العمّة، تأتي متجهمة طوال الوقت كما تخرج، لعلها في كل مرة كانت ترغب في مصالحة عطيات كما أكدت لي بعد ذلك لكنها لم تستطع أبداً، شيء غامض كان يمنعها في اللحظة الأخيرة، وكانت عطيات رغم قلة وعيها في الأيام الأخيرة بما يدور حولها تتجهّم إذا سمعت صوت العمّة، فأوشك أن أطلب منها الرحيل ولا أجرو، كنت ألوم نفسي وأشعر أنني كنت مسئولة عما جرى لها دون قصد، ولولا أنها قالت لي مرة قبل أن ترحل وهي تمسك يدي بينما أحكى لها عن المدرسة والناظر بعسر:

- مالكيش إنتى دعوة يا شوق.. مالكيش دعوة يا ختى..

لولا أنها قالت وسمعت لمتّ مقهورة بعدها وبنفس الطريقة، ففي صباح شم النسيم وجدناها راقدة مكانها وقد انقطعت أنفاسها تماماً، عيناها مفتوحتان ترقبان خشب السقف ويدها على صدرها وكأنها على استعداد لتسميع درس حفظته عن ظهر قلب، بكيناها بحرقة، حتى العمّة بكتها، ولا أظن أنها بكت غيرها بنفس الكثرة، وما تبقى من عطيات غير عرائس القطن أجمعها وأتحدث إليها كما كنت أتحدث إلى عطيات وأبلغها أخبار ناظر المدرسة لابس الطربوش حتى أخفوها عني أو تخلصوا منها في مكان مجهول خوفاً على عقلي من الضياع كما كانوا يقولون.

دخول الحاج مرسى إلى دارنا أو ما تبقى منها أشعرتني بالخجل، رجل له مثل هيئته في الكفر يجلس على بقايا الحصر الكالح المهترئ ويستند على مسند ممزق الكيس يطل قطن حشوه في أكثر من مكان، وقفت أمامه مطرقة وحائرة فتبسط وهو يحدثني:

- أقعدى يا بنتى أقعدى.. واقفة كده ليه؟ دانا ابن عم المرحوم أبوكى،
يعنى عمك واسد بداله.

- كتر الف خيرك.

جلست مستطلعة سبب زيارته ومرحبة أدارى تمزيق ثوبى وتأكّل نسيجه في أكثر من مكان، كانت أمى قد عملت له كوب الشاي وقدمته فتناولته ووضعته إلى جواره «خفيف ولا بد أن سكره ناقص» عاودت الترحيب به و«زارنا نبى وخطوة عزيزة» هز رأسه شاكراً وباغتني بالسؤال:

- مش ناويه ترجعى بيتك بقى؟

- ما أنا ف بيتى يابا الحاج.

- قصدى بيت جوزك، عشان تربى عيالك ف خير أبوهم.

شعرت بغصة وهو يتحدث عن خير علام، كأنه يعايرنى بفقرى وعوزى فى دار أبى، سألتة إن كان علام قد طلب منه ذلك فأنكر وأدعى أنه جاء متطوعاً وأنه سوف يمر على علام فى دكانه بعد أن يصل معى إلى حل، أشار بطرف خفى إلى علاقة علام ببنت بحر فأبدت قرفى لأنه «لاف» على من تناسبه، قلت للحاج مرسى إننى احتملته كثيراً رغم نجاسة ذيله وأنه لم يعد يشغلنى بأفعاله فهدأنى:

- إحنا عاوزين نردم ع اللى فات.. إنتى عاجبك قعادك هنا؟

- دار أبويا تساعنى ولو كانت فى خرابة، ح أروح فىن يا حاج؟

هو أنت مش عارف اللى حصل؟

- لىنى دماغك شوية.

ولم أرد «لینت دماغى سنوات وما عاد فى قدرتى أن أحتمل المزيد، كنت أحنى رأسى حتى تهدأ العاصفة، وفى كل مرة أحاول إفهامه أننى ارتكب ذنباً فى حقه وأن أخطاء أهلى لم تعجبنى وأن حسابه مع أبى لم يكن فى حضورى، ولم يكن فى قدرتى أن اسدد ديونه لعلام وقد خربها وباع سقفها وأبوابها فى رقدته المشلولة التى طالت، وقبل موته كنس كل شىء، الأرض والدكان والسمعة التى كانت فى السابق طيلاً فخلفها وحلاً وجعل من سيرته لبانة يتشدد بها من يساوى من لا يساوى، كل يوم يظهر لنا دائن جديد بأوراق ويطالب أمى فتشرح الحال، ترق لها القلوب ويستعرض الغرباء حقوقهم على مرأى ومسمع من علام، لم نطالبه بسداد دين أو مساعدة للمرأة التى عاشت من بعد الزوج على الكفاف، وكان يعادىنى، يحاول إذلالى وتجريحى فى كل وقت، أتصابر من أجل الولد والبنت الوليدة، يفتعل الخلاف معى ويجمع المجالس من الأهل والغرباء ويتشكى، يكشف أسرارنا بلا خجل ويديه زهوا بما يملك، يستفتيهم فى كل مجلس كيف يكون نظام الدار، مصروفا شهرياً أو يومياً، معاشاً من محصول الأرض المزروعة ونتاج الدار لبنا وسمنا وجبنا وبيض دجاج، مخزوناً من دقيق وأرز أو طبخة بطبخة من

الدكان، حيرنى وكلما وصلنا إلى اتفاق بحسب رأى كل مجلس. ينفذه يوما أو يومين ثم يتراجع ولا يستمر:
- الاتفاق ده مش ح يمشى.

ومن جديد يستدعى مجلسا من الغرباء، أغرق فى ثيابى وأتمنى لو انفتحت الأرض لتبتلعنى وأرتاح، عشرات المجالس وعشرات الاتفاقات وعشرات الوجوه، كائنه ليس فى الدنيا دار غير داره ولا دكان غير دكانه، وأنا استجير بالحيطان لتدارينى فيكشفتنى، أحاول أن أصل معه إلى بر أمان فلا أستطيع، أعارك أمى وأبى الراقد الذى كان سببا فى كل هذا القلق، ألومه فيسمع ولا يرد، أقول لنفسى إنهم خيبوا أملى وأن لعلام الحق فى أن يتشكك فى كل شىء، فى ذمتى ورغبتى أن أعيش فى راحة بال، وصل معه إلى حد عدم الاطمئنان إلى أكل الدار، يأخذ الولد معه فى الصباح ويعود فى الليل، لا يكسر لقمة من خبزنا ولا يشرب جرعة ماء ويوصى الولد أن يفعل نفس الشىء، أى أم تلك التى تحتل شكوك صبرى ولدته فى طعام جهزته له أو شراب، كائننى عدوة تدس له السم لتقضى عليه.
- ما تخذش من أيدها حاجة يا وله، دى عايزة تسمك.

يقولها للولد فى حضورى فباى المخاوف كان يغذيه بعيدا عنى؟ وإذا رضيت بخوفه على حياته منى فكيف أرضى بخوف الولد؟
- ح اسم ابنى يا علام؟

أسأله بإنكار فيواجهنى وكأنه صاحب حق لا تنكسر عيناه وإن كانت تقوى:
- مش بعيد عليكى.. فاكره عمك عملت إيه ف الحاج فرج؟ فاكره؟..
عاشرته كام سنة قبل ما تعمل عملتها؟ وعاوزانى أكل من إيدك؟

لا أذكر أننى عارضته ليلتها، ربما خفت أن يجمع مجلسا من الناس ويقول نفس الشىء فتكون مصيبة وفضيحة تروج فى كل الأنحاء، وطوعت نفسى على السكوت:

- وصلتى لحد فىن؟
قالها الحاج مرسى ليعيدنى إلى المكان والزمان فجوابته:
- معاك.

- خلاصة الكلام، قعادك هنا مش عاجبني، المدارس ح تفتح والولد محتاجك، علام ح أجيبه غصب عنه وح ترجعي دارك، قلتى إيه؟
- اللي تشوفه يابا الحاج.

قلتها مستسلمة وعاجزة عن الاعتراض فقام الرجل، سلم وخرج وترك كوب الشاي باردا حيث كان، لعله أراد أن يوضح لى إلى أى حد صار إليه حالنا وقد عجزنا عن تقديم أى واجب يليق حتى ولو كان مجرد كوب شاي تقبل النفس أن تشربه، لعله ذاقه ولم يعجبه أو أن شكله يغنى عنه.

وأنا أرفع المسند لمحت شيئا يلمع، رفعتة فوجدت ريالاً فضياً محطوطاً تحت قاعدته، هل صعب عليه حالنا إلى هذا الحد أو أنه أراد لنا الستر ساعة أن يأتى مصحوباً بالغرباء بهدف الصلح فى المساء، دين جديد لا أملك رده أو سداذه من ابن عم العم يا أبى يضاف إلى ما ورثناه من ديون خلفتها فى أعناقنا، ما يحيرنى هو كيف ومتى رفع المسند وحط تحته ريال الملك فؤاد لابس الطربوش.

فى الليل سمعنا جلبة عند باب الدار، هل كان الحاج مرسى مازال يلين رأسه ليقبل الدخول؟ لكنهم دخلوا، كان الولد معه، محكوماً وأنا أراه من خلال الفتحة الخالية مكان باب المندرة ويرانى ولا يفكر فى المجيء، جلسوا على نفس الحصير واستندوا على نفس المساند القديمة، علام وبكرى والولد والحاج مرسى الذى نادانى فذهبت، جلست انتظر وبدأ لى أن علام كان يمسح كفه الذى لا بد وأنه «إنعاص» من أرضية المندرة الموحلة، كان يمت بوزة فى قرف أو تظاهر بالقرف من كل ما كان يحيط به وبنا من أشياء، قال الحاج مرسى:

- ح نقرا الفاتحة ربنا يهدى النفوس.

تمتموا بها وتمتمت ثم توجه الحاج مرسى بكلامه إلى علام:

- إحنا ح ننسى اللي فات ونردم عليه، نقول إن إحنا ولاد النهارده ياسى علام.

- بشروطى يا حاج.

قالها بنبرة من لا يرغب فى شراء بضاعة بارت لآخر السوق مطمئناً إلى استعداد البائع للتفريط فيها بأبخس الأثمان.

- سى علام له حق ياخذ على خاطره منك ياست أم شاكر.

قالها بكري فلم أكلف نفسي عناء الاعتراض أو التأييد، تنحنح الحاج مرسى ليزيل أثر انحياز بكري «أس الفساد» إلى علام، ذلك الذي يجلس الولد على ركبته وهو ينظر ناحيتي وكأنني زوج لأبيه ولست أمه، رأسه الصغير مشحون بأكاذيب دسها عني في زمن الغياب:

- إحنا مش ح نرمي لحمنا ياسى علام.

- دار أبوها ماتدخلهاشى.

اشترط علام فسايره الحاج.

- ما تدخلهاشى.

- تخدم الصغير قبل الكبير، ما تمسكش المصروف ولا تطلبش منى اللى ما قدرش عليه.

كانت نعمة التحكم فيه بادية «وعنظرتة» الزائدة تكيد، تصابرت لأننى كنت مكشوفة أمامهم فى عراء، لا أخ ولا أخت ولا أب ولا أم معمول لها حساب ولا دار فيها خير يكفى لإطعام الدود، عراء فى عراء:

- ماتفتحشى حنكها ولا تقول تلت الثلاثة كام، أهى جربت دار أبوها سنة، يمكن تكون عرفت قيمة الراجل ف بيته، تعمل زى أمها ما كانت بتعمل مع المرحوم.

- وماله يا علام.. وماله.

رد عليه الحاج مرسى وقد امتعض، ربما شعر بالندم لأنه تدخل هذه المرة، وواجهنى علام:

- ويكون ف علمك من دلوقت، أنا ح أرجعك عشان خاطر الولد ده بس.

كانت أول عبارة يتوجه فيها مباشرة لى، وكنت مغلولة ومكتومة فاتفجرت

فيه:

- أنت تببيع وتشترى ف واحد م الجوارى اللى فاتهم لك أبوك، أبوك اللى

مات عريان.. شايف يابا الحاج.. ولد أيه يابو ولد..

كتم أنفاسى كف الحاج مرسى الذى قام وحذرني من الاستمرار لقول المزيد لكنه قام وخرج فى أعقابيه البكرى والولد، بقى الحاج مرسى لتهديتى، بصرنى إلى ما صار إليه حالى وحال البنت، قال إن الكلام ليس عليه جمرك وهو مجرد كلام

طائر فى الهواء، شكوت له من نصيبى الذى رمانى معه وواساتى، وعدنى بالوقوف معى ما لم يستجب علام للأصول ولو وصل الأمر للمحاكم وصرف من جنيته لألف، لا أذكر أننى شعرت بمهانة فى كل عمرى أكثر مما كنت فى ذلك المساء، كنت أبكى والرجل الكبير يلفف الجو ويريحنى فى كل ما كنت أرجوه ساعتها، الخلاص وأخذ الولد ونفقة تكفيننا لنعيش، أتعبت الرجل معى ساعة أو يزيد أقسم خلالها ألف يمين أن يطمئن على معيشتى أن رجعت أو بقيت فى دارنا، صدقته ودعوت له بدوام الصحة، وأوصانى قبل الخروج إن جاءنى علام فى الصباح أن أكتفى بمجرد الذهاب معه دون إعادة فتح الموضوع:

- أنا من ناحيتى ح أجيبها له على بلاطه، يا تعيشى معاه رافعه راسك يا يسيبك ويبقى لى تصريف معاه.

طمأننى وأن لم يشف غليلى، عز على النوم حتى طلع النهار وبدنى مهدود وحلقى جاف وقلبى جريح، لكنه قبل الضحى دخل الولد من باب الدار، اقترب منى وسألنى إن كنت مازلت أخاصمه فأنكرت خصامه، بكى فأخذته فى حضنى ومسحت دموعه ودموعى وسمعت صوت علام:

- هات أمك وأختك وحصلونى ع الدار يا شاكر.

كدت أعبر له عن اعتراضى فجلس إلى جوارى، وحاول أن يتنصل من كل ما قاله:

- طيب أنتى وأبنك وكنتم متخاصمين واتصالحتم، يبقى ذنبى أنا إيه؟
لم أعلق.

- شوفى أنتى غلطتى ليلة إمبراح قد إيه؟ وبرضه مسامح ف حقى، هو أنا يجينى أعز منك؟

لم أكن أصدقها، لعلى عودت نفسى بعدها على السماع دون تصديق، دعانى للقيام إلى دارى فتنهدت وقمت أجمع ملابسى فمنعنى:

- خليهام لأمك تستفاد بيهم، قيمتك عندى حاجة تانية، إنتى ح تلبسى أحسن لبس، إنتى مستقلة بروحك؟

كأتنى خارجة من سجن وذهابة إلى سجن آخر قريب ولن يتغير غير السجنان، ربما أخلص من رغيف «السن» وقطعة اللفت وأبدلهما برغيف القمح

والإدام، لكننى لن أهنأ بعد المرار فى غضبتى الطويلة أو استشعر الأمان، ولعلنى تأكدت فى داره أن كل ما فيها لا يخصنى بأى حال، وأنه فى لمح البصر يمكن أن يجردنى هو من كل حق أدعيه ولا أملكه، ولعلنى جهزت نفسى للحياة فى داره مستعدة لتركها فى أى وقت يشاء مغصوبة وراضية لأننى انغلبت على أمرى كى أرعاهم وأحرس جدرانهم وخير الدار.

- حتى ذكر النحل يا مريم بيعمل عملته ويتوكل على الله.

سمعت أبى يقولها وأنا أدخل المندرة، كان فى المندرة دفء «وراكية» نار قوالح تتوهج، اقتربت من النار وفردت راحتى وقربتُهما من الوهج ثم مسحت بهما على وجهى وصدرى عدة مرات، استمرأت الدفء فجلست مكانى قرب النار، كأننا يتبادلان النظرات ولا يتكلمان، فكرت أنهما ربما يودان لو أخرج وأتركهما يكملان الكلام، نظرت نحوها فوجدتها تنظر إلى قبل أن تقول لتشركنى:

- قول لها، لا هى صغيرة ولا غريبة عنك، بنتك زى ما هى بنتى.

- كله فوق دماغى؟ ما حدش بيرحم ولا يقول بايدك أبدا؟

- عايزين اللقمة جاهزة فى الحنك من غير تعب خالص؟

كان فى صوته احتجاج يوشك أن يكون تباكيا، لملم ساقيه المفرودتين ونفض «حجر» جلبابه فلم يتناثر منه شىء، انتفض واقفا وخرج من باب المندرة الموارب، شده إلى الخارج بشدة قرن صوته ثم ذاب وساد صمت كانت هى تنظر إلى وكأنها تستغيث بى لأنقذها لا أدري من أى شىء، ظلت تتأملنى وملاحها تتبدل وتتغير والشفتان تنفرجان وتتضمان دون أن يصدر عنهما حرف، كانت النار تنعكس فى عينيها بريقا أحمر عدوانيا وهى تنظر ناحية الباب وكنت أنعم بالدفء، أطل وجه أبى من باب المندرة، اندس فى نفس مكانه يتدفأ قبل أن يبرر عودته:

- النظره مغرقه الدنيا بره والشوارع روبه لحد الركب، أمال أنتم ساكتين كده ليه؟

لم تجبه واكتفت بالنظر إليه فى حيرة، سألتنى هو:

- أمال إتنى رجعتى من عند عمك إزاي؟

- من جنب الحيطان، رجلين الخلق عاملة مدقات.

نظر إلى ساعدي واطمان على زوج «الغوايش» الذي كانت عمتي قد
اشترته لي مكافأة على نجاحي في الابتدائية كما وعدت، تحسسه بفرح وزهو:
- مبروكين عليكى، حلوين، باين عليهم تقال.

وقبل أن أعلق معبرة عن فرحتي بالهدية اعتدلت هي في جلستها وبان في
عينها استنكار فواصل أبى:

- عمتك راقدة على خير كثير، شرك مواشى وأرض ملك غير الجنيهاات
الذهب المجيدى والبندقى.

- بكره كل ده يروح ف عب الحاج فرج ولا نطول أبيض ولا أسود.

قالت أمى مستمرة في التعبير عن عدم ارتياحها على عكس ما كنت أنتظر
منها وأتوقع، رد عليها متضررا:

- وإحنا ف إيدنا إيه بس أكثر من كده؟ أهو اللي بنطوله فايدة.

- ف إيدنا شوق حبيبته وسرها العمر كله، واخداها ف حضنها العمر
كله، ولا ده ببلاش؟

على هذا النحو كان يحاورها وتحاوره لأفهم أنه في أزمة وأنه يخاف من
موتها المباغت وكل ما يحوطه ويتاجر فيه ملكها بأوراق مكتوبة يستطيع الحاج
فرج أن يظهرها ويأخذ كل ما نملك ومن العدل أن تحتاط لحسابي أن كانت قد
غابت عنها الفكرة:

- الحكيم يا بنتى قالها لي بينى وبينه، والأعمار بيد الله، بس هي اللي
قالت لك، مش عيب تسألها كتبت لك إيه؟ الحاج فرج محوط عليها
وماحدث ف الزمن ده له أمان.

فى يوم السوق رحت لها فأدهشنى أنها فاتحتنى فى علاقتها بالحاج فرج
قبل أن أفاتها، كأنها كانت معنا أنا وأمى وأبى يوم تحدثا عن قلقهما من
احتمالات موتها فجأة، حدثتني عنه من غير احتراس، وأزاحت عن قلبها همًا
شالته وحدها عمرا دون بوح أو شكاية، كان الحزن يطل من عينيها الخضراوين
بزرقة وهي تستعيد ما كان، كيف رآته شابا عفا في سوق الخميس، اشترت منه
عجل جاموس تصعب قيادته، وكيف تطوع بسحبه حتى باب دارها، كيف اعتاد بعد

ذلك أن يشتري لها كل ما كانت تحتاجه من سوق الخميس ثم يقوم بتوصيله حتى باب الدار يرفض أن يعبر العتبة ليبل ريقه ولو بجرعة ماء.

- «كان زى البنت البنوت وحقانى» اشتريتك يا ست هانم بخمس قروش وعسرقى وتعب مشوارى ما يجوش حاجة ف إنسانيتك وكرم أخلاقك» لكن ولاد شلبى ما يعجبهمش العجب ولا الصيام فى رجب، طلّعوا فيه القلط الفاطسه، زئوا وزاد كلامهم، قالوا عليه طمعان ف مالى.. وقالوا، كتبت عليه ودخلته دارى، رقدته ف فرشتى ولبسته صوف وكشمير وشاهى لكن ما حصلش منه نصيب ولا خلفه، عشر سنين لحد النهارده ما قاليش تلت التلاته كام.

كان فى صوتها حسرة على مشوارها معه، على شبابه الذى انطفأ الآن أو أوشك على الانطفاء، برقت فى عينيها دمعان مـ سـتان، أشفقت عليه وعليها وشفقت جرح عمرها الغويط، شفت الزمان غير المطاوع وشماتة الأعداء يعيرونها بحظها فى آخر الأزواج وسن اليأس وانعدام الرجاء، كورت هى راحتها ثم فردتهما بشدة عدة مرات وكأنها تطرد خاطرا أو فكرة تسلت إلى عقلها خلسة، ربما فكرت مثلى أن الحاج فرج قام بدوره على خير وجه، وربما كانت قد قررت على عكس ما فكرت أن تبعده عن حياتها وحياة أولاد شلبى زمت شفقتها وسألتنى:

- إنتى.. رأيك إيه؟

كنت قد أطرقت حزنا لأننى تأثرت بكلامهم عنه وخوفهم من أطماعه إن هى ماتت فجأة مثلما قال الحكيم، زفرت هى وربت على كتفى فى حنو بالغ، ولأول مرة أرى دموعها تتساقط دون صوت والتقاطيع على حالها، بكيت فطالبتنى بأن أكف عن البكاء وما كفت عيناها عن إفراز الدموع، احتضنتنى واحتضنتها بقوة كراهِيتى للموت الذى حام حولها طوال العام الأخير، سألتنى ماذا أتصور إن ماتت هى فجأة فبكيت بصوت مسموع، طمأنتنى بثقة أنها لن تموت قبل أن تطمئن على حالى، أمسكتنى من الكتفين ونظرت إلى وجهى ومسحت بكفها اليمنى دموعى وبكم جلبابها وجهها وعينيها ثم ابتسمت فى ثقة وسألتنى:

- يروح لحاله؟ مش كده؟

أومات لها علامة الموافقة، ربما لو كان الوقت غير الوقت لفكرت واستفسرت منها إلى أين سوف يروح، رفعت هي وجهي بإصبعها المحطوط أسفل ذفني وتقابلت عيناي بالسريق الملون في عينيها وكأنني تواطأت معها على ضرورة الخلاص منه.

كان المطر يتساقط وحصوات الثلج ترن على خشب السقف والنوافذ، وكانت «راكية» النار تتوهج أمامنا وتبعث في المندرة دفئا كافيا وقد تركت الباب مفتوحا بعد أن تسرب كل الدخان من النافذتين، كنت أرى وسط الدار أمامي، وكرات الثلج الصغيرة تتقاذف وهي تسقط فوق «طشت» النحاس المقلوب فيصدر عنها صوت مختلف عن تلك التي تسقط على حَجَر الطاحونة القديم وتلك التي تسقط على الأرضية العارية وسط الدار، كأننا كنا نترقب عودته دون كلام منطوق، مجرد نظرات صامتة لم نعتدها وإن اتفقنا على فهمها، كأنه حظ علينا خرس مباغت بمحض اختيارنا ورضانا، سكتنا لزمان طال أو قصر كف فيه الثلج عن السقوط ثم عاود السقوط، كأنني كنت أعيش حلما يختلف عن كل ما ألفته معها من مجرد الكلام في الفارغة والمليئة، وكأنما كانت روح الحاج فرج تحوم حولنا وتأسرنا وتجعلنا ندور في مدارها إلى حد أنه عندما تتحنج مقتربا من الدار قمت على غير عادتي لأفتح له قبل أن يصل إلى الباب، ابتسمت له وكان يبتسم، كان جلبابه مبلولا وملطخا من ذيله بمساحات من الطين الطرى الذي يتساقط بعضه مع قطرات الماء، خلع مداسه قبل أن يدخل القاعة ثم يتوجه إلى المندرة، فكرت أن أخذ مداسه وأخلصه من كتل الطين لكنها نادتني:

- سيبى المداس دلوقت وتعالى شوفى جوز عمك جايب إيه معاه.

تركت المداس ومسحت راحتي في جلباب قديم، كان يخلص قبضته من فتحة جلبابه وتحتة منديل محلوى مربوط حول علية من الصفيح، قال بزهو وهو يلتفت إليها:

- شوية عسل م المنحل بتاعك ياست فطوم، سليم النحال بتاع طوخ بيقول إنهم أكل ملكات، ما يغلاش عليكى، بيقول حته على طرف المعلقة كل يوم الصبح وتقومى زى الحصان.

كان يدفعني يديه على نار «الراكية» ويحكهما في حركة سريعة منتشية،

وكان جلبابه المبلول مكموا فوق الصندوق وقد لبس غيره دون أن الحظه، أومات هي:

- هاتى لجوز عمتك فطيره من عمايل اختك نعمات يتغدى.

بدت على الحيرة لأن نعمات لم تعمل فطيرا، ربما ادركت هي ربكتى فأسعفتنى:

- محطوط ف دولاب الحيطه والجنبه صحن الجنبه القديمة هاتى صحن فاضى نخط له معلقة عسل، يدوقه قبل ما احطه على لسانى.

فتحت باب دولاب الحائط فوجدت فطيرة مفرودة تفتح النفس المسدودة، سألت نفسى كيف استطاعت أن تعجن وتلت وتفرد وتسوى فطيرة وقد دخلت عليها فوجدتها راقدة تئن، وان لم تكن هي التي فعلت فمن غيرها؟ وهل أصدق ما قالت أمى بأن العمه تواخى الجن الساكن سابع أرض وتشغله لحسابها وقتما تشاء، حضرت كل شيء ووضعته على صينية العشاء أمامه فمد يده وكور لقمة بين أصابعه وهمس بآلية لى:

- بسم الله.

كان يبدو جائعا ولا ينتظر ردا، يلتهم اللقيمات المغموسة فى صحن الجبن القديم التهاما، يزدرد بنهم وشهية رجل مطمئن، ويتبلع بماء القلة، لكنه كف فجأة، نظر إليها ثم على وقال بصوت مبجوح:

- ناولينى معلقة.

ناولته المعلقة والصحن الفارغ ففتح بطرفها غطاء العلية، ملأها من غذاء الملكات وابتلعها ثم أعاد ملأها وابتلاعها أكثر من مرة وبسرعة وكأنه يطفى بغذاء الملكات نارا فى جوفه استشعرها فجأة، قالت هي وكأنها تكشف غطاء لعبة:

- حامى عليك؟

فهق من حلقه عدة مرات وزاغت عيناه، احتقن وجهه وأحنى رأسه ثم تكور عن نفسه واضعا راحتيه على بطنه وضاعطا عليها بكل ما تبقى من عزمه.

- نا..ر.. نا..ر.. نا..ر..

مد يده ناحيتها مستجيرا، خفت وقبضته ملمومة بقسوة وهي عاجزة عن الاقتراب منها أكثر أو الابتعاد، كان هناك هدف خفى يسعى للوصول إليه عندها

ولا يقدر، وكانت هي تنظر إليه مجرد نظرات، هل امتزج خوفى منه بکراهيتى لها
فى تلك اللحظة؟

- غ.. ی.. ی.. ت.. ی.. ی.. ن.. ی

قالها ولعابه يتساقط من شذقيه.

- خلاص يا فرج، دلوقت ترتاح.

- آه.. آه..

- سلامتک م الآه يا عشره ع الغالى.

كانت تندبه لنفسها وله وهو وحى، يسمع ويرى وينطق بعسر، ربما كان
يسمع ويرى بعسر لكنه كان معنا فى تلك المنذرة المدفوسة فى آخر الدار من
ناحية فراغ الواطية بعيد عن ناس الدرب، ينظر مرعوباً وربما يدرك ما جرى له
أولاً يدرك على وجه اليقين، كنت أرقب فى هلع، منكشئة على نفسى فى ركن
أسمع خبطات قلبى كلما توقفت هى عن الندب وهى ترفع راحتىها معاً،
مضمومتين فيما عدا السبابتين المفرودتين تحركهما إلى اليمين ثم إلى اليسار فى
ليونة ونعومة وصنعة.

«نعش الغريب ف البحر ما يمشى

كان خاطره ف الحى ما قسمشى»

«نعش الغريب يوطى ويعلا لفوق

داير على أحبابه يبل الشوق»

وكان يرفرف بعسر كفرخ داسته خف جمل، ينشال وينحط مكانه بلا أمل،
يتلوى ويئن ثم يكف، يصدر أصواتاً لم تكن تخصه قبلاً، مكتومة وعاجزة، هل
أدرك النهاية قبل أن تتسع عيناه وتثبتان على نظرة لائمة نحوها فيها من
الاستكانة والاستسلام أكثر مما فيها من الاحتجاج، هل ارتضى شكل نهايته
بتدبيرها على هذا النحو فأراح نفسه من كل عناء؟ سمعتها تأمرنى:

- اغسلى أيديكى بالميه والصابون.

خرجت فى اتجاه الطلمبة مترددة، فرغم الخوف كنت أود أن أعرف كيف
تطلع الروح من البدن الحى، رأيت الحفرة العميقة التى تتسع لدفن رجل بطوله
واقفاً، هل حفرها الجن من أجل العمة؟ كانت العمة قد سيطرت وضوء المصباح

لا يكفى لبث الطمأنينة والريح تعابثنى وعواء الكلاب يتزايد فى أرض الواطية،
ربما كانت تطارد الشيطان أو الجن الطالع من سابع أرض ليساعد العمّة تلك التى
رجعت إليها بعد أن غسلت يدي لأسمعها تحادثه.

- ح اعمل لك أحسن خارجة، وح أجيب لك صبيته من مصر، وح أخلى
الخلق تتكلم عن موتتك اللى زى ميتة الأنبياء، ويمكن أبنى لك مقام.

كان هو يتمدد أو أنها مددته وغطت بدنه دون وجهه بملاءة سندسية اللون
لم أشهدا قبلًا، وبدا لى أنه كف عن التنفس واكتفى بالإطلال نحوها. ولد هشتى
لم أر أثرا للقطيرة أو الصحون أو القلة، اختفى كل شيء، كأنما انشفت الأرض
وابتلعتها، هل كان كابوسا رأيته خلال تلك الساعات أم أنها كانت مجرد تهيؤات
تخيلتها؟

فى الدرب قالوا بعد دفنه شرب فشرق فمات، وقالوا سكر مخالفًا شرع الرب
وأكل فانكتم نفسه بينما كان نائمًا ولم يصح بعدها، وقالوا إنه كان مبروكًا من أهل
الخطوة طار نعشه متعجلاً الدفن، وقالت أمى إن الله أخذ من عمر الغريب
وأعطاه، ذلك أنه فى أعقاب ذلك قامت العمّة وتحركت من مرقدها، حسبناها فى
أول الأمر مجرد واجبات تؤديها غصبا بسبب الغزاء فى المرحوم، لكنها استمرت
وتزايدت حركتها على نحو كذب تأكيدات الحكيم، وكادت أن تصبح كما كانت عفية
وصلبة وقادرة.

قال علام إن البك الشلبى «كذاب زفة» وأنه لا يستحق كل هذا الاحترام، أكد
لمن جاءوا يهنئونه بالخروج أنه كاد أن يخرج من القضية براءة لولا خيبة
المحامى الذى اكتراه البك الشلبى، ذلك الذى حسب أن له كلمة فى الحكومة أو أنه
معروف عندها، صحيح أن ابنه ضابط فى الحدود وله زملاء ضباط فى السجون
أراحوه فى الحبس وسمحوا له بالمتنوع، لكن البك الشلبى نفسه خيب كل رجاء:
- دا حتى ما خدش البهوية رسمى.

تململت العمّة احتجاجًا، خافت أن يتناقل أهل الكفر كلامه فتضيع هيبة
الرجل، تراجع علام:

- ولا يمكن خدّها بس ما خدمنيش.

- قول كده بقى، قول أنك منكاد منه.
- معلوم.. منكاد ع الآخر، ح أخبى عليكى؟
- كفاره يا علام، دول كلهم سنه وتسع أشهر فاتوا ما حدش حس بيهم.

دارت عيناه فى وجوه الغرباء، لعله كان يمنع نفسه من الاستمرار فى السخط على البك شلبى على مسمع من الغرباء، ولعله كان يتذكر كيف أنه يسلم نفسه إلا بعد تأكيدات الرجل وابنه الضابط بأن القضية سوف تنتهى ببراعة، وربما كانت غضبته لأن الرجل لم يكلف نفسه عناء الذهاب لزيارته فى الحبس، كان يربت على ظهر شاكر الذى كان طفلاً ما زال ولا يدرك شيئاً مما يقال، ربما لو كان أكبر بسنة أو سنتين لعايره الأولاد بحبس أبيه، ربما أنكر خاطره بينهم، لكنه كان معى، أحوطه وأحميه من مكائد الكارهين، استأذن الغرباء وسلموا وما تبقى فى المندرة غير أولاد شلبى، نظرت هى إليه ملياً قبل أن تلومه:

- اللي مالوش كبير بيدور له على كبير يا علام، وكلامك عن البية بتاعنا قصاد الأغراب ينزلنا من نظرهم، ما يعملوش لنا حساب، داحنا نكبره مش نقل قيمته.
- ما فيش حاجة مستخبية يا عمة.

كانت أول مرة يناديه بالعمة، عله أرضاها بالنداء أولاً ثم كرر ما قاله بحماس أكثر وزود عليه، ذكرها أنه يعرف أن ذلك الكبير مجرد رجل بارع فى التعرف على الأكابر، بكوات وباشوات حقيقيين «سلكوا» له مصالحه وأنه إن كان قد زود ملكيته فى أرض البرارى وعمل لنفسه فيها تفتيش فلاتها أرض مشاع قابلة للامتلاك بوضع اليد، وهى أرض فقيرة المحصول قليلة الخصوبة، فدان الكفر يساوى خمسين فدان فيها، حاولت إسكاته فلم يستجب وردد حكاية دخول ابنه الحربية وكيف حصل على كارت توصية من باشا كبير تعرف إليه مرة بتقيل الأيادى، عاودت محاولات إسكاته فاستمر، طول لسانه عليها فتدخل أبى يوصيه بأن يحاسب عل كلامه فانفجر فيه وقال له ما لا يليق:

- فضلت شايلك ومطاولك بمالى وإسمى، عشت على حسى فى الكفر، والبندر سنين، سددت ديونك اللي خسرتها ف القمار وأخرتها إيه؟ اتفقت معاها وخدت الورق المكتوب عليك، زرتنى؟ كلفت خاطرك

وجيتتى أنت ولا هى؟.. ما تخلى الطابق مستور..

أطرق أبى مجروحا وعاجزا عن الدفاع وقامت هى محتجة تسب وتلعن وتقسم ألا تدخل داره.. وعندما خرج الجميع وبقيت وحدى فى مواجهته كاد أن يضيف المزيد لكنه تراجع قبل أن ينفلت اللسان، سحب الولد فى يده وخرج وما عاد إلا بعد أن انتصف الليل بزمان.

بعدها صارت حياتى معه على كف عفريت، لا أمان ولا اطمئنان ولا ثقة، كان يمنع نفسه من الكلام فى الدار أو حتى مجرد شرب الشاي، يخرج وقتما يشاء ويرجع وقتما يشاء، بوزة ملوى والوجه دائم العبوس، ويوم مولد سعاد تحول الأمر إلى محزنة، أول ما عرف أنها وسمعت خطواته خارجا ولم يرجع إلا بعد أيام، هل كنت قد أفقدته آخر الآمال بولادة البنت على غير إرادة منى؟ أو أنه كان يبحث عن أى شىء يتعلل به ليكمل حولى دائرة الخصام؟ لا يكلمنى ولا ينظر ناحيتى أو يطمئن على حال البنت، ضناه التى تتوجع وتصرخ وتحتاج إلى رعايته فيصم عنها أذنيه ويقسو عليها قلبه بلا ذنب، كان يحوط الولد بذراعيه ويربت على ظهره فى حنو وكأنه يعاندنى باحتواء الولد وإهمال البنت، لا سألتها ولا حاولت أن أطلب منه التفسير، كان يرجع فى الليل حاملا لفافة طعام من البندر، يوقظ الولد من أحلى نوم ويدهوه للأكل، حتى لو كان الولد شبعانا يحايله أو يجبره على تناول الطعام، ويدا فى إثر اجتذب الولد إليه، يأخذه ويسهر به حتى ساعة متأخرة، لا أدرى أين ولا يتيح لى فرصة الاعتراض فاطمئن نفسى بنفسى لأرتاح من قلق يساورنى ويشقبنى، ومرت الأيام انغزالا بلا رجاء، كبر الولد وملأت البنت أركان الدار رمحا وثرثرة وهو يرقبها من بعيد، كأنها لا تخصه، إن نادته يتشاغل وإن رد فبجفاء أو اختصار، هل كانت فى الثالثة أو الرابعة يوم ضحك لها أول ضحكة؟ ربما أجبرته خفتها على أن يجاريها فاستبشرت خيرا وفى الليل حدثنى عن ضرورة وضع نظام جديد للدار فلم أمانع:

- الولد ح يدخل المدرسة، وأنا مش ح أسرح بيه ليل ونهار.
- محدش قال كده.
- يكفيكى ربع جنيه ف اليوم؟
- يكفي.

- تمسكى أيدك شوية ف مصروف البيت.

- أكثر من كده؟

- الكسوة ف القطن.

- ومن غير كسوة خالص.

كنت غاضبة، كأنه يجود علينا بثمن اللقمة ويمن على بمطالب العيال، لكننى كنت راغبة فى استمرار الحياة، قلت أدبر حالى فى حدود المصروف، أربى البط والحمام والأرناب والكتاكيت واعتمد على شغل الدار وشقاء من يحكم عليها الزمان بقلة القرش فى متناول اليدين، واستمرت الحياة مستورة لا تتكشف أسرار الدار، حتى عندما كان يتعمد أن ينقص القروش بحسب هواه لا أتشكى ولا أبوح، أتصامل من أجل الأولاد، ومن تعبى كنت أوفر القرش على القرش، ثمن البيضة والفرخة والبطه والأرناب، اشتريت ماكينة الخياطة وعلمت نفسى بنفسى تفصيل الملابس للأولاد ونسوة الدرب، وكلما وجدنى قادرة على تدبير مطالب الدار كف عن دفع المصروف، افاتحه فيلاوعنى:

- مصروف إيه اللى أنتى عاوزاه؟ دانتى داخل جيبك النهارده نص جنيه، فإكرانى نايم على ودانى؟

لا أجادلـه، أقول لنفسى مادمت مستورة فلا داعى للقرش الذى يقطعه من جلده بطلوع الروح، أقص جلابيب النسوة والأولاد وأدقها على الماكينة وأقبض، أشتري السكر والشاي والأرز والزيت من الدكان مثل الغرباء، وعندما مزق الولد جلابيه حاولت أن أزود وعيه، كيف أنتى أشقى وأبوه لا يشغل نفسه بمطالب الدار لكن الولد رد على بسفالة:

- وإيه يعنى؟ اشتري غيرها.

- منين يا شاكر؟

- من فلوس أبويا، مش تحمدى ربنا اللى معيشك عشان خاطرى..

كلام كبير على الولد، كلام محفوظ، كأنه رمى على رأسى لتر «جاز» وأشعل فيه النار، قمت أبحث عن عود حطب واضرب الولد طويل اللسان، وكلما ضربته بعود الحطب طول لسانه أكثر بكلام لا بد أنه كان يسمعه ويردده دون أن يدرك معناه، كنت فى غير وعى حتى انزع علام أمامى، ضربنى بكل غل فأدمى

فمى، شعرت بأسناني تنزف وبواحدة منها تسقط فى فمى، واستمر يضرب ويضرب، ويسب ويلعن ويعاير ويتهم ويقول مالا يقال، وعندما أتعبه الضرب جلس وعيناه تنضحان كراهية لم أشهدها فى عينيّ عدو أو حبيب.

- طول ما أنا عايش ماتمديش إيدك عليه.

كانت الدار مزحومة بالنسوة والرجال وكنت تائهة وهم يحاولون معالجة جرح الفم النازف والسن المكسور، ترك هو الدار ساعة أو ساعتين، كانت أم بكرى بجوارى، تجمالنى وتحاول أن تدارى شماتها فلا تفلح، وعندما دخل المندرة حاولت هى أن تفتح معه الكلام فأخرج ما كان مدفونا فى أعماقه:

- أنا ما حيلتيش غيره، تضربه إزاي..؟

- مش أبنيها ياسى علام؟ طيب دانا ياما ضربت بكرى اللى أنت بتشوفه ده.

- مش كل الناس، دى حيا لله ماعون.

- يوه.. جراك إيه ياسى علام.. دى أمه مهما كان..

- وإيه يعنى.. طيب ما هى عندها شحط ما تعرفش فين أراضيه، اسألها إن كانت تعرف شكله إيه؟ هى الحنيه كلام وبس؟

- دانت شايل بقى ومن زمان..

قالت هى وقد زادت نغمة الشماته، ولم يكن عندى غير ترك المكان، جمعت ثيابى فى صرة وهى تحاول أن تمنعنى بالكلام وتدفعنى فى حقيقة الأمر إلى ترك الدار.

- طيب خليكى للصبح.. النهار له عينين.

- سيبها يا أم بكرى..

- دى دار أبوها خراب، ح تروح هناك تسخم إيه؟

- سيبها يا أم بكرى.

وخرجت بالليل، كنت أتعثر فى خطواتى واوشك على السقوط، لعننى بالفعل سقطت فارتكزت على ركبتى وواصلت المسير حتى وصلت، دخلت الخراب، مجروحة ومهانة وعاجزة عن البوح لمن كانوا سببا فى العناء، والبنت معى، لا أعرف كيف جاءت ولا أذكر أننى كنت قد فكرت فى أخذها أو تركها، كأنها كانت

مربوطة معى بخيط خفى لا ينفك، رقدنا بالهم حتى طلع صباح مضرب، أمى بطرف طرحتها التى تشد بها دماغها كأنما تخشى عليه من الضياع، وأبى بشلل شاقه وذراعه ونصف وجهه واللسان، هل اعتذرت عينه القادرة على الإطلال عن الخطأ القديم الذى لا يداويه طب ولا دواء هل كان يستدر عطفى لأعفر له ما وصل إليه حاله أو يشركنى فى همى، كان هو وهى سببا فى ميلة البخت منذ البداية لو لم تمتد يده ليأخذ مصاغى ويخسر ويأخذ مزيدا ويبيع ويخسر ويأخذ ويكتب دون أن يفكر فى السداد ما وصل حالنا إلى ما وصل إليه، لو أبقى على الدار ما نزلت عند علام من فوق الرأس إلى أسفل القدمين.

وكانما كان علام يصفى حسابه القديم منى، لا سأل ولا أرسل من يسأل، كأننى سقطت فى جب مكسورة القلب وواحدة من الأسنان، طالت غضبتي، دارت السنة أو أوشكت على الدوران، أرسلت عشرات المرات أطلب ماكينة الخياطة فما جاءنى رد، طلبتها منه مرارا فاجلتنى بالرفض أمام الغرباء.. وكابدت شقاء الأيام السود وقد عز كل شىء، اللقمة والهدمة وجرعة اللبن للبننت، فكرت فى العمة، تلك التى خاصمت أبى وقاطعته بعد أن أخذ من صندوقها تلك الأوراق الملعونة التى احتفظت بها باعتبارها كبيرة عائلة مأمونة فخاب فيها الرجاء، عندما ذهبت إليها قابلتنى بجفاء وحدثتنى بغلظة، أعلنت أنها تبرأت من أبى ومن كل نسله فانكسر خاطرى ورجعت من دارها وقد انسدت الدنيا فى وجهى من كل الأركان، حتى تربية الكتاكيت لم تنفع لأن الفئران والعرس كانت تسكن الدار وتقضى على الطيور، رغيف السن وقطعة اللفت غذائى، وكل ما أوفره لا يكفى ثمنا لقطعة السكر وجرعة اللبن للبننت كأننا انقطعنا من جذورنا فما عاد يطل علينا أهل ولا غرباء، حتى نعمات التى بعثت لها رسالة لم تسأل، ولا أدرى إن كانت الرسالة وصلتها أو أنها تاهت فى البريد، وعلام عارف دون ريب ما صار إليه حالنا، سارح بالولد فى الدرب ومسيطر عليه بحيث لا يلتفت إن رآنى، ولا بد أنه عباه بأكاذيب محبوكة عنى لا يملك أن يخلص منها، ولا أملك غير الانتظار ليوم يجىء أطلع فيه من عمق الكابوس الممتد، كابوس الفقر والعوز محاطا برغبة التماسك ويقايا إصرار على عدم الانكسار التام، ولا أنكر فى أى ليلة من ليالى «برمها» سمعت صرخة أمى المفجوعة فيه بوهن، أذهب لأراه ممددا على فراشه فأحبط صدرى مصدومة بالموت الذى أراحه وحطنا فى مواجهة مطالب التكفين والدفن

وظلوع المواسم من خراب الدار، لكنهم شالوه وتحدثوا عن كرامته ونزاهته في الزمن القديم، قبل أن يفرط في كل شيء، أبواب وشبابيك وعروق سقف داره، دكانه وتجارته وماله الذي رماه في مجالس الشرب والقمار، ولم يكن هناك غير مندرة واحدة مسقوفة بلا باب وقاعة مدفونة تطل على فراغ الواطية استخدمناها في الزمن القديم للخرين، وبقايا جدران من الطوب الأخضر تتقاذف عليها الكلاب الغريبة في وضوح النهار، وما تبقى لي غير القدرة على الاحتمال، مجرد الاحتمال.

خلت عليها الدار فكانت تستدعيني لألزمها أكثر الأوقات، تكسيني وتزود مصاغى، تشجعني على إعداد الطعام بإشرافها وهي راقدة على فراشها، مرضانة أكثر الوقت ينتابها صحو لا يدوم، إن جاءها الزوار تماسكت وجلست فبدت لي ملكة من بنات الملك الشلبي في حواديث الجد هارون، ملكة لها شعر أصفر غزير مضافور في صفيرتين طويلتين، تجلسني بعد رحيل الكل إلى جوارها وتؤكد لي أنني كنت شاطره، تحوطني بذراعيها المكتنزتين وربما تعابثنى فأضحك وتضحك. أتمدد إلى جوارها وقد أشعر بنشوة وأنا بين الصحو والغفلة، أتشمم رائحة أنفاسها وهي تحادثني:

- شاركت لك على عجل بقر باسمك ف دار زينهم الساكت.
- كتر خيرك يا عمة.
- وح أكتب لك أرض باسمك لجل تبقى مسنوده، خايقة أموت في ما أشوفك ف بيت العدل.
- يديكى طولة العمر.
- كبرتى يا شوق وبقيتى عروسة، ورينى كده.
- لسه بدرى..
- ابن عبد القادر كان فايت م النواحيدي ليه؟
- وأنا إيش عرفنى؟
- صحيح سايب بنت عمه وقاعد في مصر..

.....

ربما أغفو إلى جوارها، وربما أسرح بخيالي في البعيد، أفكر في الأرض التي وعدت بكتابتها والمواشي التي شاركت عليها باسمي، أمني نفسي بزمان من الهناء والمتعة مع صاحب النصيب كما كانت تقول، ورغم طول مدة مرضها كنت

أرى فى عينيها الخضراوين بزرقة إصرارا على البقاء يرفض أن يبدو عليهما الوهن.

يوم «سبت النور» قامت من مرقدتها قبلى، كحلت عينيها وجلست فى صحن الدار، نادتنى فقامت، طلبت فطورا من قشدة وجبن قديم وبيض مقلّى بسمن وعسل نحل، كانت تأكل بشهية وتدعونى لمشاركتها، قالت إنها تشعر بتحسن وإنها خلصت من زمن الرقاد، فرحت بصحوتها وجلست أسمع لكلامها عن قسوة الوجد الذى كانت تداريه:

- دانا كنت شفت الموت بعينى ومداريه عشان ما أزعلكيش.

- حمد الله على سلامتک.

- عاوزاكى تحشى لنا جوزين حمام بالفريك.

قالتها بصوت بدا لى غريبا فتحيرت، ربما كنت أفر من المكان وأنا أبحث عن الزغاليل فى «بنانى» الحمام، وعلى غير توقع رأيتها قبالتى وفى يدها سكين الذبح يلمع نصله فى شمس الضحى والدار ساكنة إلا من صوت الذباب الأخضر الذى لا بد وأنه جاء من ناحية المدافن، كنت أمسك لها رعوس الزغاليل فتقطعها قطعا وتأمرنى بأن أرميها خلافا لما اعتادته عندما كانت تحرص على إبقاء الرأس معلقا بجسم الطائر، جمعت الزغاليل فى غربال ووضعتها على ظهر الفرن، أشعلت نار الكانون ووضعت الماء، خفت عليها من وقدة الشمس التى حميت فطلبت منها أن ترتاح فى الظل فبدا لى وكأنها لم تسمع أو سمعت ولم تهتم، جلست «أسمط» الزغاليل واحدة فى إثر واحدة فى الماء المغلى:

- اللى تنضقيها هاتيهما أطلع لك حوصلتها.

كان صوتها يزداد غلظة إلى حد أخافنى فلم أعارض، كنت أناولها الحمامات فى صمت فأسمعها تتكلم مع الطيور التى تتصايح وتتقافز فى وسط الدار، أطرده من ذاكرتى كل الحكايات التى سمعتها عن الجن وعفاريت الظهر الأحمر، أتمنى لو تسكت أو أجرو على طلب سكوتها، لكنها كانت مستمرة، فكرت فى البحث عن حجة أخرج بها من الدار فلم أصل إلى سبب معقول يمكن أن يقتعها، ربما لم أكن خائفة من حديثها الذى لا يليق للطيور وكأنها بشر يعقلون، وإنما هو ذلك الفحيح الغريب والنبرات الجافة التى تخرج من حلقها على هذا النحو لأول مرة، لعلى

حبست صرختى المستجيرة خوفا من فضيحة تتالنى وتناولها إذا جاء الغرباء، كنت محبوسة فى اختيارى لسكة الاحتمال، أن أحتمل حتى لا تصفنى هى أو غيرها بالجنون، ربما تفرع هى أن فعلت وتندم لأنها اختارتنى لها ابنة وعوضا عن كل عمرها الضائع بلا خلفه، وكيف لا أحتملها والكل يعرف بمرضها وليس على مريضة مثلها من حرج، كان الحمام المحشى يطيب والعرق يشملنى وربما ارتجفت أصابعى وأنا اختبره:

- إن كان استوى هاتى فردة.

قالتا بنفس الصوت فانتشلت واحدة ووضعتهما فى صحن غويط قدمته لها وصاج الصحن يلسعنى، أخذتها فى قبضة يدها اليمنى دون أن يبدو عليها أنها تأثرت بالسخونة وراحت تقضم منها والدخان يخرج من فمها مع كلماتها وهى تمضغ، وقبل أن تكملها قالت بنفس الصوت:

- هاتى فردة تانيه.

كان صمت وسخونة وصهد شمس قيلولة وصوت غليظ وعينان تطلبان وفم يبتلع النار ولا يخشاها، وفى القلب رعب من أن تكون تلك الجالسة أمامى واحدة من تحت الأرض على شكل العمة، ربما لو دخلت المندرة أرى عمتى واحتسى بها من تلك الغولة المتربصة لى تحاصرنى بطلب المزيد وأناولها وتبلع حتى أتت على ست حمامات محشية بفريك وسألتنى.

- فاضل ف الحلة يا بت؟

- لا..

قامت ومشيت أمامى ثم دخلت المندرة وتمددت على فراشها، لعلها أسبلت عينيها وأغفت فرأيت العمة وطردت فى ذاكرتى تلك التى لا بد أنها ما زالت فى وسط الدار تقلب فى الحلة التى تغلى على الكانون، تبحث عن بقايا الفريك الساكن فى قاعها لتبلعه.

جلست على الأرض أقاوم الرجفة التى سكنتنى حتى تقلبت هى وقالت بصوتها المألوف بينما تجلس:

- هاتى القلة.

ناولتها القلة فشربت وشربت حتى أفرغتها فى جوفها، هل بردت بالماء

سخونة الأحشاء فعادت كما كانت تبتسم وتبعث في قلبي الطمأنينة؟ تجشأت فشممت رائحة «تقلية» ثوم محروق قبل أن تعاود الرقاد في سكينته.

في الليل قامت من رقدتها، جلست وسط من جاءوا وينثونها بسلامة القيام من رقدة المرض، أمرتني فسقيتهم من شايبها وسكرها، أطعمتهم من كعكها وتمرها المخزون وسمعتهم يتهايمسون في الأركان بأنها مثل القطط بسبعة أرواح.

كبس المخبرون على الدكان وحوطوه وبعث الضابط شيخ الخفراء يطلب مني المفتاح، كان يرتجف وهو يحادثني:
- بانيته بلاغ تموين ياست أم شاكر، هاتي المفتاح..

أخذت المفتاح بنفسى وذهبت، سألتني الضابط عن علام فقلت له غير موجود، قالوا له إنه ترك المفتاح معى فطلبه وطمأننى، فتح ودخل مع المخبرين.. قلبوا في الأركان وخرجوا معهم شيء ملفوف في كيس قماش، عاود الضابط سؤالي عن علام فجأوبته بعدم المعرفة همس في آذان المخبرين والعسكر فوقفوا في الأركان، سألته عن غرضه فلم يكشف لى سر التفتيش أو الانتظار، لمحت زعتر المواوى وأنا راجعة ارتجف من الخوف فطلبت منه أن يبحث عن علام في السوق ويخبره بما جرى، وجلست انتظر، فى العصر طلبونى وسلموا لى مفتاح الدكان وأوصانى الضابط بإبلاغ علام ضرورة أن يسلم نفسه، ركبوا البوكس وطلعوا من الكفر، قال الناس إنهم ضبطوا فى الدكان مخدرات وقالوا أوراق عطة مزورة وقالوا ممنوعات وقالوا سلاح بدون ترخيص وكثر كلام الناس وظللت سهرانة وحائرة وعاجزة عن تصديق ما كانوا يرددونه من أن الأمر لا خطر فيه، حتى دخل زعتر المواوى وهمس فى أذنى:

- لقيته فى بيت الدباغين وقلت له، بيقولك ماتقلقيش لو بات ليلة ولا اتنين أصله ح يروح لبيه ف البرارى..

وفاتت أيام رجع بعدها علام متخفيا فى الليل، دخل صامتا ثم جلس، لامنى لأننى سلمت لهم مفتاح الدكان فلم أدافع عن نفسى، استمر قلقا، يطل من جنب النافذة ويتأكد من خلو الطريق من الأغراب:

- دى تهمة باطلة ومتلحة علينا.. مخدرات إيه وبتاع إيه؛ حد عامل فينا بلاغ.

- مين؟
- وأنا إيش عرفنى وأنا كنت أجيب أجله..
- والعمل؟
- المحامى ح يكلم البيه بعد ما يطلع ع الأوراق.

وعشنا أيام القلق، أن دخل الدار غريب يختبئ فى الزريبة أو يطلع الكرار، يلبد فيه ولا ينزل إلا بعد الاطمئنان من خلو الدار.. كان يتشكك فى كل خطوة تقطع الدرب ويتهم الجميع أقارب وأغرابا حتى جاء البك الشلبى ونصحه بتسليم نفسه، طمأنه بأن المحامى سيخرجه من القضية مثلما تطلع الشعرة من العجينة أوصاه بأن يقول إنه كان مسافرا ولا يعرف شيئا عن الموضوع وأنه لن يتكلم فى غير وجود المحامى..

لم يطمئن قلبى رغم كل التأكيدات بأنهم لن يحبسوه، وعندما ذهب بنفسه ليسلم روحه بكيت ظلم الخلق وعداوة الكارهين، وقف حالنا أياما وأنا حائرة كيف أتصرف حتى همست لى العمه بأن أقف بنفسى فى الدكان أبيع وأشتري، وافقتها وفتحت الدكان، وكان خوفى من القضية كبيرا، كنت أزور علام وأنفذ كل طلباته من خير الدار والدكان، أفس فى يده الجنيهاات ليشتري راحته حتى يخرج من الحبس بسلام، كان بنفسه يطمئننى فى كل مرة على المصير وكيف أن المحامى شاطر ومعارف البك سوف يسهلون له كل الصعاب، أبدى استحسناته لأثنى فتحت الدكان، كان يسألنى عن الولد بلهفة فأطمئننه، يحذرنى من اصطحابه معى حتى لا يراه محبوسا يتحكم فيه العساكر والمخبرون.

قابلنى السبرى وأنا راجعة، رأتى وهو جالس على المقهى فى أول سكة الكفر فقام.. حمل بضاعة الدكان فى صمت وسألنى عن حال علام، طمأنته بأنه بخير وأن المحامى وعده بالبراءة كما وعده البك:

- براءة إيه بس.. دى القضية لابساه.

شعرت بوجع فى بطنى وصداع فى رأسى، كانت فى ملامحه شماتة زودت كراهيتى له، لكننى تماسكت، قلت لنفسى أجاريه واشترى منه لأعرف ما يعرفه وربما يداريه إن أبديت غضبى، قطع على سرحانى.

- لا كان لكى ولا كنتى له.
- نصيب يا بكرى.
- أهو أنتى فيها.. دا كل يوم مغضبك ومش عامل قيمة لحماه.. فاضحه ف كل الناحية.. وايه يعنى لما يكون اداه قرشين سلف..؟ يكسر رقبتة؟
- ايوه غلطان يا بكرى.. خدهم يعمل بيهم إيه..؟ ضيعهم فى الخسارة.
- ما حدش قال حاجة.. بس يكتب عليه ورق ويبيعه حتة الأرض، مالكيش عنده خاطر خالص؟ مخلقة له ولد زى خلف الملوك، واخداه على عيبه، دا واخد قبلك تلاته ما خلفش منهم ومبقالوش سعر غير بعد ما خدك.
- نصيب بقى. منهم لله اللى كانوا السبب.
- عارف، هو ح ياخد حكم ح ياخد حكم، ساعتها تطلبى الطلاق..
- طلاق؟
- ايوه.. وتشوفى حالك، عارفه الورق اللى مكتوب على أبوكى فى؟ فى دولاب الحيطه.. عند عمك فطوم.
- عمى..؟
- امال انتى نايمة على ودانك، دى وصولات أمانة تودى فى داهية.. وشيكات على بنوك، هو انتى أبوكى له فلوس فى البنوك؟
- كان يبدو كما لو أنه اندفع وباح بأسرار خطيرة بلا مقابل، وكان يرغب فى أخذ الثمن ولا يعرف كيف يطلب:
- أنا لولا باعزك طول عمرى ماكنتش أقولك على حاجات زى دى.. إنما أنتى أختى مهما أن كان.
- جاريته فاستمر يحدثنى عن تجارة علام المكشوفة فى الصنف، عن علاقته بأولاد الدباغين وخطورة الاستمرار معه وهو يمشى فى سكة الخطر. كل ما فعلته هو أننى سايرته، وربما تعلمت فى ذلك المشوار درسا لن أنساه، فأى رجل فى كفرنا جاهز دائما للبوح بأخطر الأسرار إذا صادف المرأة التى تعرف كيف ومتى تدفعه لأن يبوح، وعرفت أنه ليس بخسارة السمعة أو الخلاعة فى القول أو السلوك فقط تستطيع الواحدة منا أن تستخرج المخبوء، ففى وسط ناس مثل ناس

كفرنا يلزم أن تحتاط الواحدة لنفسها من مطامع الخلق في الأزمنة الصعب أكثر من المألوف، وأن الحرص لا يكون فقط من الغرباء وإنما من أقرب الأقارب أكثر، لقد كان يتخيل نفسه أبو زيد الهلالي وعنتر ابن شداد عندما ابتسم له مجرد ابتسامة فيفاجئني بمزيد من أسرار الكفر لينال دهشتي، مجرد الدهشة.

عندما بانّت بيوت الكفر خلف الزراعات رغبت في أن أبعده عني دون صد، ربما أحتاج إليه رغم كراهيتي له، قلت أحذره:

- ما بلاش ندخل الكفر مع بعض يا بكرى، أنت مايرضيكش الناس تتكلم على بنت خالتك، يا تسبقنى يا تتأخر عنى.

- وماله يا ختى، ماله، عين العقل برضه، أنا ح أركن هنا واتفضلى أنتى.. الحاجة ح توصل لحد عندك.

تباطأت خطواته التى كانت توازىنى، فكرت أنه احتفظ بالبضاعة لكى يأتى بعد ساعة ويصدع دماغى بالمزيد من الحكايات، كان قد زرع الشكوك فى دماغى بالقدر الكافى، وكنت متأكدة أن كلامه لم يأت من فراغ، ربما هو نفسه كاتب البلاغ، وربما يتأخر فى الصنف، تغيرت أحواله، لبس الصوف وحط فى أصبعه خاتم ذهب وداوم على نزول السوق، يشتري المواشى ويبيع بعد زمان كانت أمه تصرف عليه وتتشكى من قعوده على بوابة الدرب لا شغلة ولا صنعة، ينتظر موسم الحصاد وسرحان أمه فى الأجران تنسف القمح قبل تعبئته فى الأكياس، ابن النسافة يضع العبادة فوق الكشمير مثل الأكابر ويحرصنى على الزوج أب الولد لأطلب منه إن حبسوه الطلاق، قلت لنفسى اسيره بحسب إرادتى وهواى، وقلت لن ينال منى أكثر من أن أمنحه مجرد استعدادى لسماعه دون نفور وابتسامة دهشة تدعوه للبوح بأخطر الأسرار وقول المزيد.

كنت فى المقعد البحرى أطل على الدرب، رأيتة بالمعطف فوق الجلباب يطل هو الآخر بطرف عينه ناحية الشباك، كان طربوش النشر على رأسه والعصا «المحلب» فى يمينه، يحركها مباهايا وكأنه يشهدنى على قدرته فى تحريكها، تباطأت خطواته وحط يمينه فى جيب صدره وأخرج الساعة المربوطة بسلسلة تلمع، داس عليها فانفتح غطاؤها وبانت عقارب الساعة، رفع عينيه ناحية الشباك ليطمئن إن كنت أراه وابتسم، انسحبت للخلف وأنا ألهث فى ارتباك وحيرة،

وعندما عاودت الاطلال رأيت ظهره وهو يخطو ناحية الدكان بطوله الفارع وعصاه الضارب فوق أرضية الدرب بخفة، وعندما انحرف ناحية «الشرم» جلست وأنفاسي تتلاحق، لا أدري خوفا أو قلقا أو فرحة، تنحنح البكرى فقطع خيطا منسوجا بمشاعر أجهلها وأود لو امتدت أطرافه:

- ابن عبد القادر ابن الجن الأزرق مايفوتش من هنا.

سمعت صوت بكرى فنظرت لأراه واقفا مع ابن الجازية الكبير، أطلا ناحيتي فشعرت بنفور، جلست ولم أعاد الإطلال إلا عندما سمعت صوت العصي ترتطم، كان هو بينهما بعصاه وعلى وجهه ابتسامة واثقة، وبيوز الحذاء «الأجلسيه» شنكل ابن الجازية وأصبح همه أن يطول دماغ البكرى حتى جاء أبى، وكفت العصي عن الارتطام..

- يا بنى دانت اللى ما يعرفك يجهلك، دا إن ماشليتناكش الأرض نشيك على دماغنا من فوق، داحنا أهل وحبايب.

كان أبى يحادثه وكان البكرى واقفا بصفرة وجهه المغلول ينهج وخلق كثار من أهل الدرب يحوطونهم ويطييون خاطره، دعاه أبى لشرب الشاي فاعتذر ورأيت وجه العمة يهل ويدخل دائرة الزحمة، نظرت إلى الشباك فقالت عيناها كلاما أخلجنى، هل كانت تلومنى لأننى كنت أبارك ما قاله أبى وهو يودع الغريب عن دربنا برقة، ذلك الذى تحدثوا عنه بليل وهم ينظرون ناحيتى دون أن يتوجهوا إلى بلوم أو اعتراض.

قالت أمى:

- علام رجع لشرب المعوق.

كانها أسقطت فوق دماغى جدارا من طوب أحمر أو سقف مندرمة مسنودا على كتلة حديد، أوصتنى أمى أن احذره وقد صار له ولد، ذكرتها باعتراضى فتجاهلت كل ما كنت أقول:

- الحكومة اليومين دول بتقفش الناس عمال على بطل.. اللى بيتاجر فيه واللى بيتعاصاه.. أنا قلت لك وإننى حره.

قالت ثم قامت، رمتنى فى البحر مكتوفة وطالبتنى بالعبور إلى الشط البعيد، جاعنى بعد أذان الفجر بعوده النحيل عاجزا أن يصلب طوله، أبدى دهشته لسهرى

ولهفته على الولد الوليد، اقترب منه يطمئن عليه ولم يكن مالكا لوعيه:

- جراه حاجة الولد؟

- لا..

- اوعى تقولى سهرانة استناك.. دى تبقى القيامة قامت.

- كنت فين لدلوقت..؟

- إنتى ح تحاسبينى؟ كنت مطرح ما كنت.

قالها بوعى وعناد أعاظنى، كنا قد اتفقنا أن يمشى فى الطريق المعدول، أن يترك المفاسد القديمة، هل كان يريحنى ويريحهم ليصل إلى غرضه ويفعل بعد أن يتمكن منى ما بداله؟ وهل أخطأت عندما طاوعتهم وكذبت مشاعرى بالخوف من أنه لن يفى بالوعد وإن حلف على البخارى؟ طالبنى وقد طلع النهار أن أجهز له العشاء، أى عشاء؟ فطورك عشاء وعشاؤك غداء الملامة دائما.. دائما يلتف حولى مثل ثعبان بارع، يخطئ ويسب ويلعن وأحيانا يضرب ثم يخرج من جعبته كلاما باطلا يلبسه ثوب الحق فأصبح غطانة، أغضب ويصالحنى بوعود ولا يمل الاعتذار.

فى دارنا قلت إننى لن أطيق مزيدا من الاحتمال، استشهدت بما قالت أمى أمام أبى والعمة فأنكرت أمى أنها قالت، عجبت لأمرها، تخافهم أو تكذب، نظرت إليها العمة تلومها لأنها باحت لى بسر معروف للكل ما عداى، كان أبى يطل فقط ولا يتكلم.. تتكلم العمة تحاول تهدئنى مثل كل مرة لكننى صرخت:

- مش ح أرجع له.

- والولد..

- الولد معايا..

- أهو كلام.. ما تقول لبنتك يا عبد الستار.. أبوكى غرق فى الدين،

مانفعوش غير علام.. كاتب عليه وصولات.. لو عاندتى ح بيعه الأرض

والدار والدكان.. ومش بعيدة يحبسه كمان..

نظرت إليه وهو ساكت بعجز، مطرق برأسه لا يواجهنى، كأننى نذرت نفسى للاجتماع من أجله رغم إرادتى، وكان العمة نفسها تواطأت ضدى وضد أبى لحساب علام فجهزت نفسى للعودة إلى داره مغصوبة وعاجزة وقد سقط آخر

جدار كان يداريه ويداريهم، وتبدى لى أن حياتى توشك على الانتهاء، وأن إرادتى ليس لها عندهم حساب.

نعمات طلبها ضابط الحدود ابن ساكن البرارى، جاءوا بعشرات الجمال يركبها عسكر الحدود «البرابرة» ازدحم الكفر بهم والأهالى معهم وحولهم يضاحكونهم ويقلدونهم دون خوف من كراييج أو أوامر بالرقاد فى الدور بعد العشاء، جاءت الغوازي من أرض البرارى بثيابهن الشقافة المشغولة بخرج النجف والترتر والخرز الملون، يرقصون عند بوابة الدرب وعلى أبواب الدور، وناس الكفر يتوافدون يهنتون ويلعبون بعصيتهم أمام البك وابنه عزيز ببذلتة الحربية والتاج على كتفيه ذهباً خالصاً، وعمتى فطوم ترقص عند بابنا وتميل فتفتن القلوب وتكيد الأعداى والناس تتمنى لى فرحاً مثل فرح نعمات:

- لو كان له أخ كان خد أختها.

ولف فى دروب الكفر «نقرزان» على جمل وخرجت البنادق والمقاريط غير المرخصة وانطلقت الأعيرة، وجاء خلق كثار وعند الدوار وقفت أول عربية ملاكى تدخل الكفر وتمشى بالبنزيرين ولا يجرها خيل ولا حمير فكانت عجيبة مثل تلك التى يملكها الباشا كبير البندر ساكن مصر، كانت ليلة لا شاف مثلها أهل الكفر ولا سمعوا، وفيها رأيته خلف أبيه عبد القادر بطربوش النسر والجلباب «السمنى» والعصا الأبنوس، دخل دارنا وتهامس وهو فى المندرة مع أبى بكلام.. وهو خارج بحثت عيناه عنى حتى رآنى.. ابتسم وأشار بيده الخالية ولعله قال كلمة لم أسمعها قبل أن يخرج فى أعقاب أبيه..

- عقبالك يا شوق.

قالتها أم بكرى فشكرتها، استمرت وهى تضحك.

- ح ناخذك لبكرى.

تركت المكان ولم أرد.. فى الزحمة همست أمى..

- كانت بتقولك إيه؟

لم أرد، أطرقت فى ضيق:

- دا لما يشوف حلمة ودنه.

قالت لها وتركتني، ربما فاتحتها أم بكرى ولم توافق وربما كان في دماغها كلام لم تبج به وسط الزحام، لكنني شعرت براحة وتأملت وجه نعمات الحلو الذي زوقوه بالأحمر والأبيض وهي تجلس إلى جوار ضابط الحدود.

ففي اليوم التالي شالت الجمال شوارها من نحاس وثياب وفرش وداروا به في دروب الكفر قبل الرحيل، وفي العصر سافرت نعمات مع العريس، بكيت من أثر الفراق فداعبتني العمّة في حضور أبي وأمي:

- بكره تحصيلها، هو مش طلبها يا عبد الستار؟
- طلبها.. بس أنا اتزنقت ف شوار نعمات، اندينت يا فطوم لجل أطول رقبتم ف أرض البرارى..
- إن كان على شوق.. جهازها وشوارها من كله من عب عمّتها.. بس هي توافق ع العريس..

قمت خجلانة وفرحانة ومطئنة وحالمة بوجه صاحب النصيب.

فرحته بالولد طيرت عقله، كان يتمدد إلى جوار الولد ساعات وساعات، يتأمله ويتحسس بدنه الطرى ويكاد أن يعد أنفاسه، طلع لى من تحت جلده علام جديد، كأنه طفل انقلب ميزانه وعجز عن إخفاء فرحة عمره، لآزمنى فى الدار وأهمل تجارته، يرجونى أن أضع الولد إن بكى، وإذا أغفى راح يتأمله ويدعونى لكى أراه، كان يتمنى أهدئه وأكلمه وهو الكبير وكأنه صغير فاتّه أن يعرف أن الصغير مصيره أن يكبر وأن الأيام تمضى وأن طول الصبر يبلغ الأمل، كان يبدو لى مثل طائر يسكن العش ويحوط فرخه الوحيد بجناحيه، يخشى عليه من نسمة الهواء، يترقبني وأنا أغير ثيابه يتحسس لما الفاتر الذى أجهزة لتنظيفه مخافة أن يكون أكثر برودة أو سخونة، كان يمنع أى واحدة من حملة أن حاولت ويهمس فى أذنى:

- الخلق مالهاش أمان.. واللى بيكره أكثر م اللى بيحب.

كان على استعداد لفعل أى شىء من أجل الولد، طيب وحنون إلى أبعد الحدود، لعلى أيامها لمت نفسى لأننى رفضته زوجا فى أول الأمر، لعل كل ما كان يتبدى للخلق من طباعه كان مجرد ضيق أو حزن لأنه فشل فى السابق أن

تكون له خلفه فلما تحققت زالت أسباب الضيق والحزن القديم وجاءت أيام الفرح.. يوم حدث العمه طالبا الزواج جاءت وأبلغت أبى، وربما كانت هى المرة الوحيدة التى جرؤت فيها أمى على الاعتراض:

- لأ.. ماياخذهاش أبدا.. دا زى التعلب الدحلاب، ما يخذهاش..
- مريم..

قالتها العمه بدهشة فاستمرت أمى..

- لأيا عمه.

- لأف عينك - أنتى انهيلتى؟

- ايوه انهيلت.

قالتها وقامت واستمرت فى الاعتراض بعيدا، أذكر أنها قالت أنه مثل الحية الساعمة التى تزحف على بطنها لتصل إلى غرضها دون أن يحس بها أحد وأنه كبير فى السن وبارع فى الملاوعة و لا أمان له، يومها خفت، لكنه شاكر أزاح كل الخوف وجلعنى وهو الطفل الوليد أصدق ما كانت تقول به العمه من أنه وحيد وراغب فى خلفه من صلبه تبدل حاله وتفتح له السكة لكى يريح ويستريح.

يومها كان الولد على صدرى، سلاحى وسندى حملته وطرت، لا أعرف كيف خرجت من الكفر قبل طلوع الفجر، كنت طائرا مذبوحا بسلاح ماض لا أتحكم فى أطرافى، أحس آلام الجرح ولا أكف عن الحركة، أطيرو وأحطى والولد على صدرى، أحميه وأحتمى به من لفحة الشرد والندى يتساقط علينا نقاطا متتابعة من بين فروع الشجر المزروع على شط ترعة الرياح القديم، ركبت مع العربجى الذى بكر بالذهاب إلى سوق البندر لينقل بضائع تجار الكفور والبلدان، خفت أن يعرفنى فداريت وجهى بغطاء الرأس، ركبت قطارا من محطة البندر ونزلت «مصر» بعد الضحى العالى، ركبت تراما مثلما كنت أفعل معه ومشيت مشوارا طال وأنا أمنى نفسى أن أصل إلى العش المأمون أو ما كنت أحسبه المأمون، طلعت سلم الحوش ولم أشغل نفسى بساكناته من النسوة الجالسات والناظرات فى استطلاع يتغامزن عنى، طرقت الباب الذى كان معفرا وخيوط العنكبوت منسوجة أعلاه وفى الأركان، طالت وقفتى وخفت أن يكون قد ترك السكن، ليتنى سألت الجالسات حتى أحمى نفسى من لومهن لطلوعى دون سؤال أو اهتمام، لكن الباب

انفتح، كان فى عينيه نوم وكسل، تأملنى بعد أن دعك عينيه واندھش، اتسعت حدقتاه تكذيبا ممزوجا بالفرح، أزحته فانزاح موسعا لأدخل، سك الباب المفتوح وقالها:

- أهلا..

وجلس، كان ينظر إلى خشب الأرضية الذى اتسخ ساكتا وكأنه أصيب بالخرس، كنت فى حال يصعب على العدو قبل الحبيب، مهدودة والعرق يملأ جبينى وأحسه يسرى فوق سلسلة ظهري وتمتصه الثياب، لكن نسمة الهواء تلسع الوجه وسلسلة ظهري، كنت أتوقع أن يلقانى بمزيد من الترحاب ويترك لنفسه حرية الفرح. لكنه لم يفعل، هل كانت دموعى تتساقط رغما عنى لأننى جئت ولم يتلف على رؤية الولد؟ غيره كان يقوم ويكشف الغطاء عن وجهه، يجفف دموعى ويهنئنى بسلامة الوصول، يسألنى كيف جئت رغم اعتراضاتهم هربانة أنتظر كلمة ود لكنه سكت، كائن غريبة عنه مع الولد، ضناه، يراه لأول مرة ولا ينشغل، لو كان بينى وبينه مطارق الحداد فما ذنب الولد؟ الناس فى الكفر تغضب وتتصالح، والمطلقة يردھا الرجل إلى عصمته إن خلفت ولدا.. شعرت بالندم لأننى لجأت إليه، تشككت فى إمكانية أن تعود المياه إلى مجاريها بيسر، قلت أغضب على روى وأحاول تحريك السكون الذى بدا لى غريبا:

- مش عاوز تشوف الولد؟

- عاوز.

قالها ثم قام، رفع الغطاء الرقيق الأزرق عن وجهه «المزروود» بص فيه ثم أعاد الغطاء، نظر إلى بعيد قبل أن يسأل:

- عاوزانى أعمل إيه؟

كنت أغلى وأحاول تهدئة نفسى:

- ابنك تربيته.

- إزاي؟

قال هو وقد قام من جلسته القلقة ودار حول نفسه بغير هدف كان وجهه شاحبا ومخطوفا وغير حليق، أصابعه تتشابك بعنف وتنفك بعنف وفى عينيه حيرة، كأنه سقط فى بئر، يطل من خلال النافذة نصف المفتوحة التى تسمح لخيط

نحيل من شعاع الشمس بالدخول، يتحاشاني ويطلّ خلسة وكأنه لص يخشى أن يضبطه المسروق متلبسا، لعننى شعرت نحوه بعطف وأردت أن أساعده:
- نرجع لبعض عشان الولد يا حسن.

قلتها ولم أتمالك نفسى، جعلت أبكى وأبكى بحرقة ومرارة لأننى كشفت ضعفى أكثر مما كنت أعتقد، لم يحاول تهدئتى ولو بكلمة، هل كان كل الكلام فى السابق كذبا؟ هل لاف على غيرى واستغنى؟ كدت أن أهدأ فسمعت صوته:
- ياريت العياط بيحل، علام كتب كتابه عليكى يا شوق؟

فزعت لأنه عرف ما جرى فى الكفر، أبلغه أولاد الحلال إذن لتكتمل القطيعة وينقطع كل رجاء فى الرجوع، قلت من بين دموعى.

- ما لكش دعوه بعلام، علام فى أيدنا وخلوصى منه سهل..
- تبقى أنتى على نياتك وما تعرفيش علام، ما تروحيش بعيد واسالى أمك عليه..

- يعنى إيه؟
- يعنى العوض على الله.. خمس أيام من يوم ما وصلنى الخبر الأخير وأنا لا أكل ولا شرب ولا شغل.. العوض على الله.
- اقف جنبى وخلصنى.

- ما لكيش خلوص منه غير بضرب النار، أضيع نفسى عشان واحدة زيك؟

طير البرج الباقي من عقلى كأنه يعايرنى ويكيدنى لأننى استجبت لهم فى لحظة ضعف، كان من الممكن أن أقول له كل ما بلغنى عنه وأنا هناك، لكننى شعرت بالعجز عن الاستمرار معه فى حوار بلا لزوم، كنت أحسبه ابن ناس يشترينى ولا يتشفى، يتخلى عنى وهو العارف أنهم كانوا سبب الخراب، والذى لا يعرفه أننى ما جئت إلا من أجل الولد، وضعت الولد على طرف السرير وامسكته من طريق جلبابه بغل المشوار وما سوف ألقاه فى الكفر من سخریات، لم تبرد نارى وقد بدا لى أننى بعته أكثر مما باعنى، كنت أرجو رجاء فيبدوا لى أنه يوشك أن يسقط من طوله، جاءتنى قوة لا أعرف مصدرها أدهشته وأربكته وجعلته يعاقر بعسر ليخلص طوق جلبابه من قبضتى المستميتتين وفى عينيه مخاوف رجل من

امرأة عاشرها وحسب قوتها فخابت حساباته، كان يجاهد أن يدارى خوفه لكنه فشل، ليس الأمر مجرد أكتاف عريضة أو شوارب مفتولة، سقط من عيني تأكدت من خوفه، تركته يتحسس عنقه وصدره ويلهث، فتحت بابه وخرجت منتصرة رغم الجرح في القلب، لم يسع في أعقابي ولم أفكر في الرجوع لأخذ الولد «يا روح ما بعدك روح» شعرت بالبرد وأنا أسعى لا أدرى في أى اتجاه وصهد بؤونة يترك على الرأس سخونة والأطراف ترتعش، كنت شاردة ومهمومة «عقل غشيم عاجز عن التمييز وقلب أعمى، الرجل يخسر الدنيا ولا يخسر ضناه»، كرهت نفسي وكرهت أولاد عوف وأولاد شلبي، لو كان لى أخ، كان في القلب غم وفي الصدر وجع وخطواتي تسعى بعسر مكرهة في طريقها إلى كفر عسكر.

دخلت الكفر بليل سترنى الظلام وغطاني الملس، فتحت هي الباب فربت وجهها من وجهي وكأنها تتحقق من ضيف غريب، سألتني بهلع:
- الولد راح فين؟
- عند أبوه.

قلت وأنا أخطو ناحية السلم لأصعد إلى «المقعد» البحرى، توقعت منها هبة براحتيها المقرودتين فوق ظهري كما كان يحدث عندما تغناظ من واحدة منا فتكفيها على وجهها لكنها لم تفعل، لعلى كنت أتمنى أن تفعل لأفيق من كف الزمان المعاند، لو فعلت لأراحتني من وجع يفوق طاقتي على احتمال المهانة والانكسار، سمعت صوتها من تحت السلم تندب:
- قلت لك ما تسمعيش كلامها، قلت لك ماتسمعيش كلامها، رايحه له تسخمي إيه؟ وفايته الولد عنده يعمل إيه؟

داست بكلامها على قلب الجرح أو جرح القلب، وما كنت أملك غير إلا نخرائط في بكاء حبسته طول السكة من حوش المغربلين حتى دارنا في الكفر، انهدت قواي ولم أشعر بنفسى إلا وشعاع الشمس يلسعنى وهى تقف بالمقلوب طيفا نحىلا عاجزا والصندوق بجوارها مقلوبا أو كأن رأسى هو المقلوب، أنسك الشباك بيدها فغربت شمس النهار وساد صمت لا بد أنها هى التى سقتنى كوز الماء فما كنت أقدر على حمله وهو إلى جوار الفراش مقلوبا أو مائلا، لعلها

حاولت أن تطعمنى فلم تستطع، لعلنى تذكرت عطيات، تلك التى حرموها من دخول المدرسة أو رؤية الناظر لابس طربوش النسر، وربما كنت قد قررت أن أفعل مثلما فعلت، تذكرت نعمات وتمنيت لو أنها كانت إلى جوارى وتذكرت الولد، لو كان معى يؤنسنى لاحتملت، أرضعه وأنظفه وأناغيه، أبثه همومى، واستفتيه، تداخلت كل الوجوه التى راحت فى وجه الولد، شعرت بوخزة الجوع فى البطن فقلت لنفسى جاع الولد، كان لبنة المحبوس ينز من الحلمتين ويبلل صدر الجلباب، جفت منه قطرات فتحولت إلى رقائق خشنة مستديرة تصلب النسيج وتزود الوجع، لعلنى قمت وارتكزت أو حلمت أنتى قمت وارتكزت وأخرجتهما وعصرتهما على الأرض وما نقص الوجع ولا سكن الصدر، كنت أشتل من الداخل والخارج.. الجوف والصدر والدماغ والحلق والعينين ورغبتي فى الموت تدعونى للاحتمال.

بكرى أو علام وكان على أن أختار، قلت لها يا عمة انتظرى حتى ينزل ما فى بطنى وأكمل العدة، كنت بين نارين، أن أوافق أو أن أبقى وسيرتى لبانة فى كل الأفواه، يسهرون الليل وينهشون لحمى الحى، وكل ليلة كلام ومجلس من رجال بشوارب يتحمسون ويهددون ونسوة بارعات فى مصمصة الشفاه شماتة وتأسيا مصنوعاً على النصيب الذى مال والأب الذى خاب واستدان من الكبار والصغار، سلم ذقته كما قالت أمى - فى لحظة جراءة نادرا ما تنتابها - للعممة، أخته غير الشقيقة لأب، كأنه كان فى الخفاء بينهما سباق انتهى لصالحها، ولأنه كان دائما يضيع كل ما تطوله كفاه فى مجالس الشرب والقمار، استسلم لسلطان قرشها، لعله ذات مساء تأكد أنه خسر رهان العمر معها فاستكان وارتضى لنفسه أن يعيش ظلاً لرجل كان، ولعلنى لم أخطئ كثيراً عندما تعلقت بها إلى أبعد الحدود، ربما لأنها فى كل الحالات، تسير حياته بحسب إرادتها وأفكارها، ولعلها أيضاً كانت بديلاً عن الأم الساكتة دوماً، تتلقى الأوامر وتنفذها برضاها أو غصبا عنها ونادرا ما كانت تشغل بتعليم واحدة منا عملاً من أعمال الدار، كانت هناك دائماً وربما قبل أن نوجد إرادة العمة، احسبني لم أراجع حساباتي فى رأى قالتة إلا عندما أشارت على بأن أختار علام، كنت أميل إلى رأى أمى الذى تمسكت به وعاندت على غير عاداتها.

لعلنى لم أكن أفكر فى دخول تجربة جديدة مع رجل جديد ومازالت فى أحشائى نطفة كيان لم يولد من صلب رجل عاشرته، واختلفت معه، غضبت كما تغضب الكثيرات وتنتظر صلحا يعيد المياه إلى مجاريها، وفى الكفر يقولون «الولد يرد أمه» ولعله يكون ولدا قادرا على رد الأمور إلى مجاريها، هكذا كنت أفكر، لكن العمة جاءت وعارضتني:

- الواحدة إن مال بختها فى المدن تعيش، تنتقل فى سكن غير السكن، تخرج من حارة وتدخل حارة، والناس هناك كتار وكل حى فيهم مشغول بحاله، إنما هنا فى الكفر لأ.. الكفر ضيق وعقول ناسه أضيق.

- نستنى شويه يا غمه.

- لأ.. مانستنش، ما دام ماجاش يصالح منستنش.

- يا عمة.

- وعلام ما يتعيبش بابنت، بكره يكتب لك اللى وراه واللى قدامه.. سيبك من بكرى..

- أنا عارفة بقى..

كأتنى وافقت، وكأنهم حسبوا الأيام، بعد ميلاد الولد جاءوا.. رجال بشوارب ونسوة بفساتين ملونة وصبية وبنات صغيرات ترقص على دقات طبل فى يد الناعسة، وكفوف تصفق، وماذون بدفتر وزغاريد وعقدوا القران وأنا غفلة وأمى تلطم فى قاعة الخزين بلا حيلة، وبثوب البيت أراد أن يأخذنى علام «وخير السير عاجله» فأقع فى عرض العمة فى قاعة الخزين كى تتوسط لتأجيل الدخول، مجرد تأجيل الدخول.

أغرائى وجهه البسام وجراة فى العينين تقتحمان الوجوه والأشياء باطمئنان إلى قدرته على تصريف الأمور، وكنت قد سمعت عنه الكثير، عراكه مع الأب الذى لم تنكسر شوكته أبدا، وخروجه إلى تلك المدن البعيدة مع أخ شقيق مات وبقي هو، يرفض الرجوع ويظل مبتورا عن الأهل ومستغنيا عن الميراث، وماذا تطلب الواحدة منا أكثر من رجل قادر أن يحوطها ويحميها ويفرجها على الدنيا الواسعة؟ يحنو عليها ويبعث فى قلبها البهجة، ينسيها شقاء الأيام ويسمح لأحلامها بأن تتفجر، تسلم نفسها إليه وتطمئن إلى وعد صادق الثبرات قاله بعد

عقد القران، ورغم أنهم حاولوا جميعا أن تموت الفرحة في قلبه كان يبدو فرحانا ومنتصرا، قلة من أولاد عوف وأولاد شلبي جاءوا على عكس كل ما كنت أنتظر، وسألت نفسي إن كانوا قد استعادوا في تلك الليلة عداواتهم القديمة أو أنه كان عدوا لأهله وخارجا عن طاعتهم لمجرد أنه فكر في أخذى وترك بنت عمه أم الولد؟ وكان أبى الباحث عن صلح أبدى معهم على عكس إرادة الكبار من أهله هو الآخر خصما يستحق المقاطعة كما قالت العمّة، تلك التى كانت لا تعترض أيام كانت تراه يمر من الدرب ويطل فتسألنى دون اعتراض عن سر عبوره فى كل اجازة ينزل فيها الكفر وما كان يتعرض له من سخافات بكرى وغيره من شباب الدرب الذين عاشوا زمن العداوات القديمة وفسروا عبوره من دربنا على أنه «دهوسة» عليهم، كانت العمّة تبدو راضية عن مشاغلته لى من بعيد، ربما لأنها وجدتنى لا أعترض، وربما لأنها لم تتصور أن الأمر سوف يصل إلى حد أن يطلبنى للزواج، لكنه عندما فعل اعترضت وهددت بأن تتخلى عن وعدها القديم بتجهيزى من حر مالها، لكن أبى لم يتراجع، استدان وجهزنى بحسب قدراته، ورضى هو رغم تحريضات أهله ليطلب المزيد، تبسط وقال إنه اشترانى فاطمان إليه قلبى، رتبت أمرى لكى أرضيه، أن أبعث فى قلبه الأمان وانسيه مرارة الترحال فى المدن البعيدة سعيا وراء اللقمة كما كان يقول لى بعد عقد القران وقبل الرحيل إلى تلك المدينة البعيدة التى سمعت عنها وما رأيتها، كان يمنيى وأمنيى بخلفة من صلبه قادرة على تذويب الكراهية المدفونة فى قلوب الخلق دربنا ودر بهم، كان يحدثنى عن مدينة برا ح يتوه الناس فيها، وترام وأسواق لا تنفض ونساء بملاءات وبراقع وأفندية بطرابيش وعساكر سلطة تنفض مظاهرات تهتف للوفد وتطلب الجلاء، وملك يتخفى فى قصر محروس من غضب الشعب، وحكومات لا يرضى عنها الخلق، كنت أشعر بالفرح يملؤنى وأتعجل بينى وبين نفسى رحلة الطلوع.

أذكر أنه جاء محاطا برجال من در بهم وأفندية غرباء بطرابيش، أذكر أننى ركبت العربية المخصوص وأننى تركت الكفر ورأى ودخلت وأنا إلى جواره شوارع المدينة، مشتاقة للسؤال وخجلانة حتى نزلنا عند الباب المفتوح، حوش واسع وسلم على جنب طلعنا عليه ونسوة تختلف عن نساء الكفر تزغرد وترش

الملح حتى دخلنا مسكنه، حجرتان موصولتان بباب وطرفه وباب ينسك علينا وتصفيق وغناء وهو واقف أمامي بجلبابه المكوى وطربوشه يبتسم، وكرباج سوداني معلق جنب عامود السرير، هل خوفني وهو يطلب مني أن أغير ثيابي في حضوره؟ أو أنني كنت جاهزة للخوف وعيناي على طرف الكرباج، هل كان يضاحكني وهو يتناوله ويطوح به في الفراغ مهددا إن لم أطوع فسوف يشويني أو أنه كان يعنى ما يقول؟ كنت خائفة وخجلانة ومستعدة للعناد، هل طالني طرف كرباجه فعلا أو أنني ادعيت ذلك وبكيت فحاول أن يطمئني فلم اطمئن؟ وكم ليلة تصابر فيها على نفسه قبل أن يضرب بجد؟ وهل نفذ وعيده ونالني غصبا أو أنني أسلمت إليه روى برغبتي؟ تنوّه مني الحقيقة ويبقى ذلك الخوف الذي ترسب في قلبي من ناحيته، خوف خجلان متخفّر لئلا لابد أن أخذه وقد فعلت ذات مساء وهو ينظر إلى طرف الكرباج الذي كان في متناول يدي فأخذته ونزلت به على جسده وقد خلع الجلباب، كان يضحك ويتأوه من أثر الضربات أو المفاجأة حتى خلصه من يدي ورماه بعيدا واتهمني بالجنون، ليلتها حذرته من معاداة تلك المحاولة التي كانت فأكد لي أنه لن يحاول، لكنني لم اطمئن إلا بعد أن ألقيت بالكرباج من النافذة إلى الشارع وسيطر الصمت.

كان يفرجني على الميادين البراح والنيل العريض ودكاكين التجار والعمائر العالية الفسيحة والأهرامات، وكنت مازلت أخافه وإن ملت إلى رغبة الاطمئنان له، وكان يحدثني عن شريك له في الدكان لا رأيته ولا جاء يناديه من تحت كما يفعل الآخرون، يناولني مكسب الدكان ويطلب مني أن أوفر النصف بما يرضى الله لذلك الشريك الغائب وأفعل، وعندما أفاتحه في حكاية إسماعيل يتحدث عنه بحزن لا أعرف سره، يسألني عن نصيبه وأن كانت تمتد إليه يدي، فاطمئننه، أحيانا يطلب ما وفرته ويحصى ويطلب مني أن احتفظ به مكانه لحين تسليمه إلى صاحبه فأعجب، وعندما جاء أبي في زيارته الثانية وسألني عن الأحوال طمأنته، سألني عن المال فأنقلت لساني وتباهيت بما وفرناه فكذبني، اندفعت وأخرجت المال المحفوظ من كرن الدولاب، وسمعت على الباب طرقاته المميزة، ودخل، سلم واستفسر بالعينين عن تلك الجنيهاات المحطوطة أمام أبي، لامتنى عيناه وأنا أحدثه عن رغبتي في طمأنة الأب على حالي، هل أفلح أبي في توريطة للموافقة

على أخذ سلفة يحتاجها إلى قريب أو أنه لم يمانع رغم نظرة منى كادت أن تحذره من ذلك الوعد بالسداد الذي لا أضمنه؟ وهل كان في مقدورى أن اشكك فى ذمة أبى فى حضوره أو حتى غيابه؟ وكيف تحولت زيارة الأب بعد رحيله إلى عاصفة كنت ما كان بيننا من ود ورغبة فى التآلف؟ كان يلومنى وأتحمّل، يعذبنى لأننى بحست بسرّه ولا يحاسب نفسه لأنه استسلم فى لحظة خجل وسلم ذقته بإرادته، والخجل فى الرجال يورث الفقر كما قال هو نفسه مرات، كنا نرقد على نفس الفراش ولا نتكلم، أضع بينى وبينه وسادة بطول السرير حتى لا أنسى فى لحظة الغفلة خصامى أو ينساه، وزادت النار بعد زيارة أبيه ولم تنطفئ، همس له ببضع كلمات فزفر فى يأس ولم يعد ينظر بإحيتى أو يوجه إلى كلمة مجرد كلمة، وعندما جاءت أمه وشاقت أحوالنا كلمته وأوصته بأن يغفر لى فمازلت صغيرة لا أدرك لكنه لم يفعل، ظل على حاله عندما يدخل أو يخرج فاسودت الدنيا أمامى زمنا، قلت أطلب منه أن يوصلنى إلى الكفر لطلب من أبى رد ما أخذه فلم يعترض، أوصلنى إلى باب الدار ولم يدخل وكان آخر ما قاله لى متوقفا فشلى فى تحقيق غرضى:

- ابقى قابليسى.

لكننى لم أقابلّه، عقدوا فى المندرة مجالس وقالوا كلاما، وسعى الخلق ينقلون إلينا أخباره وأقواله ونواياه، أمرونى بالبقاء حتى يأتى ويأخذنى من دار أبى مثل كل الخلق فى كفرنا الذى يرعى الأصول ويصونها، لكنه خيب كل رجاء فيه وغاب، وطال الغياب لاحس ولا خبر، وبدا لى أن كل ما كنت أسمعه عن غدر الزمان ينطبق على حالى، فلا الرجل الذى جعلته سدى وملجأى جاء ليعرف أخبارى أو يعيدنى إليه، ولا الأب الذى أفسد علاقتنا بثمن بخس فكر أو انشغل بحالى، ولا العمّة ساعدتنى برأى صائب، وكانت أمه تأتينى، تطمئننى وتمنيننى وتتبعث فى قلبى الرجاء بأنه لا بد سوف يجىء وإن طال غيبته والغائب حفته معه، أفتح لها قلبى «وأفضفض» وأحلم معها وأنا أتحسس بطنى، بنت أم ولد، ولد، ولد قادر على كنس فساد الدنيا من حولى، ولد أرعاه وأحميه، ولد يخلصنى من عواصف الأيام المعاندة، أمتحه الدفاع ويمنحنى القدرة.

تفوت الأيام وتنفضى الأمسيات وأنا أرقب حركته فى البطن، إذا تحرك

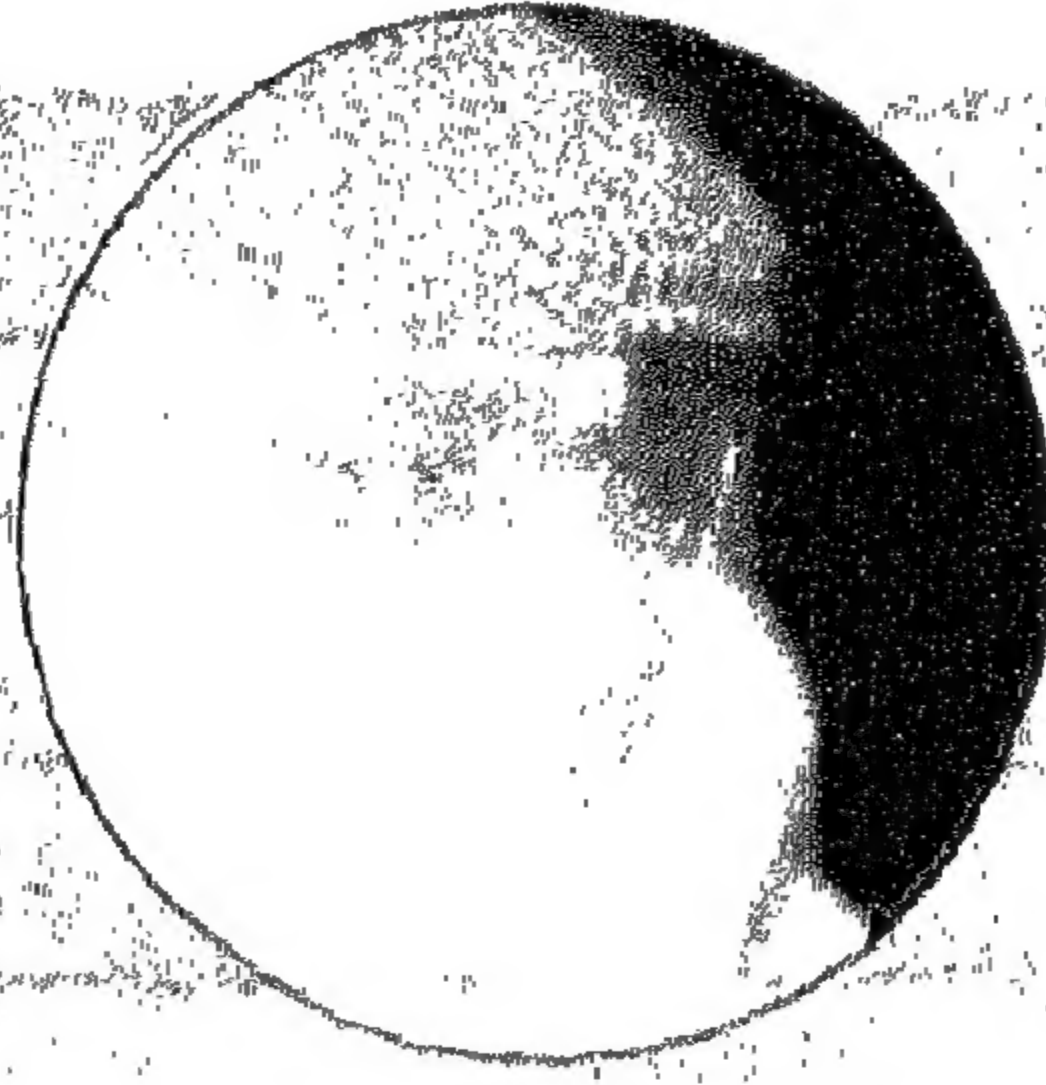
حلمت بالولد، ولد/ ابن/ أخ/ أب/ زوج/ عم/ خال/ ولد، وإذا سكن ساعة أخاف أن يضيع الحلم أو يختنق، أسأل نفسي- إن كان ميعاد مولده قد فات، أو أن يكون قد رفض الزمان والمكان والناس من حولى واعترض، أدعوه دون صوت بكل خلايا نفسي أن يأتى ليقيلى من كل العثرات التى تصادفنى، استشعره يصحو من نعاسه بوهن ثم يتمطى بكسل قبل أن يتحرك حركة هينة ويزغدى بكل قوته مؤكدا صحوه فى داخلى وباعثا فى القلب المهموم تباشير أمل.



صدر من هذه السلسلة:

- ١ انفجار جمجمة «رواية»..... إدريس على
- ٢ البشموري «رواية روايات»..... سلوى بكر
- ٣ ظل عائشة «رواية»..... محمود حنفي
- ٤ ليلة السهرودي الأخيرة «مسرحية / غلو صوغرافيا»..... فريد أبو سعدة
- ٥ أوراق العمر تحترق «المسر - يناير الأول»..... رافت الدويري
- ٦ ملك الأمراء / مهزلة مملوكية / المتنبي..
- ٧ في الطريق إلى بغداد ٣ مسرحيات..... فكري النقاش
- ٨ سيرة الشيخ نور الدين «رواية»..... أحمد شمس الدين الحجاجي
- ٩ معتوق الخير «رواية - المجلد الأول»..... حجاج أدول
- ١٠ معتوق الخير «رواية - المجلد الثاني»..... حجاج أدول
- ١١ رباعية كفر عسكر
- الناس في كفر عسكر • حكاية شوق الجزء الأول والثاني، أحمد الشيخ

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية



أحمد الشيخ

• ليسانس آداب قسم تاريخ ١٩٦٧

• آداب هين شعبي

• جائزة الدولة التشجيعية عن

مجموعة النيش في الدماغ ١٩٨٥

• عضو مؤسس وعضو مجلس إدارة

اتحاد الكتاب، وعضو نادي القصة.

• عضو أتيليه القاهرة للفنانين

والأدباء.

• سافر ضمن وفود الكتاب والأدباء

لتمثيل مصر إلى كل من الصين/

السعودية/ العراق/ ليبيا.

• صدر للكاتب:

- دائرة الانحناء مجموعة قصص

١٩٧٠.

- الناس في كفر عسكر، رواية

١٩٧٩.

- النيش في الدماغ، مجموعة

قصص ١٩٨١.

- مدينة الباب، مجموعة قصص

١٩٨٣.

- كشف المستور، مجموعة قصص

١٩٨٤.

- الحنان الصيفي، مجموعة قصص

١٩٨٧.

- حكاية شوق، رواية ١٩٩١.

- البحر الرمادي مجموعة قصص

١٩٩٣.

- حكايات المندش، رواية ١٩٩٦.

- نصف الساعة السعيد، مجموعة

١٩٩٦.

- المنام المراوغ، مجموعة ٢٠٠٠.

- ملاعيب الأكابر، مجموعة قصص

٢٠٠١.

- الأعمال الكاملة (ج ١) ٢٠٠٠.

- الأعمال الكاملة (ج ٢) ٢٠٠١.

- وله مجموعة متنوعة من قصص

الأطفال.

الزمان الهابط والزمان الصاعد، أو قل الزمان المتتابع والزمان
المتراجع عندما يلتقيان في بؤرة.. ربما حول موقف أو ذكرى أو
شخص.. دوامات يصعب الإمساك الأكيد بمسارها المرعوش برغبة
الامتزاج.. البدايات والنهايات في لحظة الانهزام، رنين الأناث وصدى
الصوت الحى، متشابكاً مع الشحوب الخافت لأنفاس ذوبها الفراغ لكنها
ما زالت في الأذهان تحيا، وكأنها تتبادل مع الزمن الدوار غير الثابت
رغبة البقاء المستحيل. كان العباء فوق الطاقة، مغامرة تتطلب
الجسارة، والرغبة - إن كان للرغبة وزن - فى الاستمرار. هبوطاً
وصعوداً يتقابلان فى الزمان الفائت.
والأرض، الحرب، الموت، بؤر امتزاج.

أحمد الشيخ

Bibliotheca Alexandrina



04533603